

الطرق الصوفية

إعداد الشيخ

الدكتور عبد العزيز الخطيب

الحسني الدمشقي الشافعي

نائب مشيخة الطرق الصوفية في البلاد الشامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطرق الصوفية

في الإسلام

حقوق الطبع محفوظة لكل مسلم
الطبعة الأولى ٢٠١٨ م

تطلب النسخة من المؤلف مباشرة
هـ ١٤٣٣ ٩٥٦ ٨٤٩٣٣٠

قال أئمة التصوف طريق بلا سلوك سترها مهتوك .

محمد الهاشمي

طريق الوصول طريق الرسول

ياسأئلا عن منهج المتصوف

اسمع كلاما شافيا من منصف

إن التصوف بالكتاب مشيد

وبسنة المختار طه الأشرف

مقدمة

الصوفية أو التصوف -وَفَقِ الرُّوْيَةُ الْإِسْلَامِيَّة- لِيَسْتِ مَذْهَبًا، وَإِنَّمَا هِيَ أَحَدُ أَرْكَانِ الدِّينِ الثَّلَاثَةِ (الْإِسْلَام، الْإِيمَان، الْإِحْسَان)، فَمِثْلَمَا اِهْتَمَّ الْفَقْهُ بِتَعَالِيمِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَام، وَعَلِمَ الْعَقِيدَةَ بِالْإِيمَانِ؛ اِهْتَمَّ التَّصَوُّفُ بِتَحْقِيقِ مَقَامِ الْإِحْسَانِ (وَهُوَ أَنَّ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)، وَهُوَ مِنْهَجٌ أَوْ طَرِيقٌ يَسْلُكُهُ الْعَبْدُ لِلْوُصُولِ إِلَى اللَّهِ؛ أَي: الْوُصُولُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ وَالْعِلْمُ بِهِ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ الْاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُنْهَيَّاتِ، وَتَرْبِيَةِ النَّفْسِ، وَتَطْهِيرِ الْقَلْبِ مِنَ الْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ، وَتَحْلِيَّتِهِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ.

وَهَذَا الْمَنْهَجُ يَسْتَمِدُّ أَصُولَهُ وَفُرُوعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ وَاجْتِهَادِ الْعُلَمَاءِ فِيهَا لَمْ يَرِدْ فِيهِ نَصٌّ، فَهُوَ عِلْمٌ -كَعِلْمِ الْفَقْهِ- لَهُ مَذَاهِبُهُ وَمَدَارِسُهُ وَمُجْتَهِدُوهُ وَأُئِمَّتُهُ الَّذِينَ شِيدُوا أَرْكَانَهُ وَقَوَاعِدَهُ - كَغَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ - جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، حَتَّى جَعَلَهُ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ عِلْماً سَمَّوْهُ بِعِلْمِ التَّصَوُّفِ، أَوْ عِلْمِ التَّرَكِّيَّةِ، أَوْ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ، فَأَلْفَوْا فِيهِ الْكُتُبَ الْكَثِيرَةَ، بَيْنُوا فِيهَا أَصُولَهُ وَفُرُوعَهُ وَقَوَاعِدَهُ، وَمِنْ أَشْهُرِ هَذِهِ الْكُتُبِ: «الْحِكْمُ الْعَطَائِيَّة» لِلْإِمَامِ ابْنِ عَطَاءِ اللَّهِ السَّكَنْدَرِيِّ، وَ«قَوَاعِدُ التَّصَوُّفِ» لِلشَّيْخِ أَحْمَدَ زُرُوقٍ،

و«إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، و«الرسالة القشيرية» للإمام القشيري، و«من جوامع الكلم» للإمام السيد محمد ماضي أبي العزائم، وغيرها.

النشأة والتطور:

انتشرت حركة التصوف في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري على شكل نزعاتٍ فرديةٍ تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، ثم تطورت تلك النزعات حتى صارت طرقاً مميزة متنوعة معروفة باسم الطرق الصوفية، والتاريخ الإسلامي زاخر بعلماء مسلمين انتسبوا للتصوف؛ مثل: الإمام شمس الدين التبريزي وجلال الدين الرومي والنووي والغزالي والعز بن عبد السلام، وعمالق الحديث الشريف، كما القادة مثل: صلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح والأمير عبد القادر الجزائري والمجاهد عمر المختار والمجاهد عز الدين القسام.

حقيقة

نتج عن كثرة دخول غير المتعلمين والجهلة في طرق التصوف وما نتج عن ذلك من محل شكٍّ ممارساتٍ خاطئةٍ عرّضها في بداية القرن الماضي لهجوم المتعلمين في الغرب بوصفها مثلة للثقافة الدينية التي تنشر الخرافات، ثم بدأ مع منتصف القرن الماضي الهجوم من قبل المدرسة السلفية بوصفها بدعة دخيلة على الإسلام.

تعريف التصوف

للتصوف أكثر من ألفي تعريف، وكلها تدخل في معنى واحد؛ وهو الحضور مع الله في كل الأحوال.

أولاً: التصوف لغة:

قال بعض العلماء: إنه من الصوفة؛ لأن الصوفي مع الله كالصوفة المطروحة؛ لاستسلامه لله تعالى.

وقال البعض الآخرون: إنه من الصِّفة؛ إذ إن التصوف هو اتصاف بمحاسن الأخلاق والصفات، وترك المذموم منها.

وقال بعضهم: إنه من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله، وتسابقهم في سائر الطاعات..

وقال بعضهم: إنه من الصوف، لأنهم كانوا يؤثرون لبس الصوف الخشن للتقشف والاختيشان..

وقال بعضهم: إنه من الصفاء، فلفظة "صوفي" على وزن "عوفي"؛ أي: عافاه الله فعوفي، وقال أبو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقاً من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صفا فصوفي حتى سُمي الصوفي
وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي:

إنَّ الصوفيَّة من أصل صافي وصوفيٍّ إليه؛ أي: بادلِه الإخاء والمودَّة، وتكونُ
بتقرُّب العبد لربِّه بالحُب والطَّاعة، ويُصافيه الله بقربه وكرامته، فنقول:
الصوفي هو الذي صوفي من الله، جلَّ جلاله.

ثانياً: التصوف اصطلاحاً:

قال الإمام زكريا الأنصاري: التصوف علم تعرف به أحوال تركية النفوس،
وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن؛ لنيل السعادة الأبدية..^(١).

قال الشيخ أحمد زروق في كتابه «قواعد التصوف»^(٢) التصوف علم قصد لإصلاح
القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه. والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور

(١) «الرسالة القشيرية» (ص ٧).

(٢) القاعدة الثالثة عشرة (ص ٦).

الحكمة بالأحكام. والأصول "علم التوحيد" لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان، وقال أيضًا وقد حُدَّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، كلها لصدق التوجه إلى الله، وإنما هي وجوه فيه..

قال الإمام الجنيد: التصوف استعمال كل خلق سَنِيٍّ، وترك كل خلق دَنِيٍّ..^(١).

وقال الإمام أبو الحسن الشاذلي: التصوف تدريب النفس على العبودية، ورُدُّها لأحكام الربوبية..^(٢).

وقال الإمام ابن عجيبة في كتابه «معراج التشوف الى حقائق التصوف»^(٣) التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة.

النشأة والتاريخ

(١) كتاب «النصرة النبوية» تأليف مصطفى المدني (ص ٢٢).

(٢) «نور التحقيق» تأليف حامد صقر (ص ٩٣).

(٣) (ص ٢).

يرجع أصل التصوف - من سلوك وتعبد وزهد في الدنيا، وإقبال على العبادات، واجتناب المنهيات، ومجاهدة للنفس وكثرة الذكر لله تعالى - إلى عهد النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعهد الصحابة، وهو يستمد أصوله وفروعه من تعاليم الدين الإسلامي المستمدة من القرآن والسنة النبوية.

بداية ظهور اسم الصوفية:

قال الإمام القشيري: «اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ إذ لا أفضلية فوقها، فقليل لهم: "الصحابة"، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقليل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: "الزهاد" و"العباد"، ثم ظهرت البدعة، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادّعى أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة -المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة - باسم "التصوف"، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المتئين من الهجرة»^(١).

(١) «كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون» تأليف حاجي خليفة (ج ١/ ص ٤١٤).

ظهور التصوف علمًا:

بعد عهد الصحابة والتابعين، دخل في دين الإسلام أمم شتى وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم، وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص؛ فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يُجيده أكثر من غيره، فنشأ -بعد تدوين النحو في الصدر الأول- علم الفقه، وعلم التوحيد، وعلوم الحديث، وأصول الدين، والتفسير، والمنطق، ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض "الميراث" وغيرها. وبعد هذه الفترة أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئًا فشيئًا، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، وبالقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هم من ناحيتهم أيضًا على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، من باب سد النقص، واستكمال حاجات الدين في جميع نواحي النشاط.. وكان من أوائل من كتب في التصوف من العلماء:

١ - الإمام الحارث المحاسبي، المتوفى سنة ٢٤٣ هـ، ومن كتبه: بدء من أناب إلى الله، آداب النفوس، رسالة التوهم.

٢ - أبو سعيد الخراز، المتوفى سنة ٢٧٧ هـ، ومن كتبه: الطريق إلى الله.

٣ - أبو عبد الرحمن السلمي، المتوفى سنة ٣٢٥ هـ، ومن كتبه: آداب الصوفية.

٤ - أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، المتوفى سنة ٣٧٨ هـ، وله كتاب:
اللمع في التصوف.

٥ - أبو بكر الكلاباذي، المتوفى سنة ٣٨٠ هـ، وله كتاب: التعرف على مذهب
أهل التصوف.

٦ - أبو طالب المكي، المتوفى سنة ٣٨٦ هـ، وله كتاب: قوت القلوب في معاملة
المحسوب.. قرأناه كله على الإمام الشيخ عبد الرحمن الشاغوري رحمه الله.

٧ - الإمام أبو القاسم القشيري، المتوفى سنة ٤٦٥ هـ، وله الرسالة القشيرية،
وهي من أهم الكتب في التصوف.

٨ - مولانا الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني، المتوفى سنة (٥٦١ هـ) وله
مؤلفات عديدة في التصوف منها الفتح الرباني وفتوح الغيب وجلاء الخاطر.

٩ - محمد بن علوي الحداد رحمه الله، المتوفى سنة (١١٣٢ هـ) ومن كتبه الرسالة
المعاونة والمظاهرة والمؤازرة وغيرها.

١٠ - الإمام أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، ومن كتبه: إحياء علوم
الدين، الأربعين في أصول الدين، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، بداية الهداية،

وغيرها الكثير. ويعد كتاب «إحياء علوم الدين» من أشهر -إن لم يكن الأشهر- كتب التصوف ومن أجمعها.

وشهدت الصوفية بعد جيل الإمام الجنيد قفزة جديدة مع الإمام الغزالي -خاصة في كتابه «إحياء علوم الدين»- محاولة لتأسيس العلوم الشرعية بصياغة تربوية، تلاه اعتماد الكثير من الفقهاء -أبرزهم سيدنا الإمام عبد القادر الجيلاني- للصوفية طريقةً للتربية الإيمانية، ويبدو أن الإمام الجيلاني وتلاميذه الذين انتشروا في بقاع المشرق العربي كافة حافظوا على الجذور الإسلامية للتصوف بالتركيز على تعليم القرآن والحديث مقتدين بأئمة مثل الحارث المحاسبي، والدليل على ذلك أن الذهبي وأستاذه ابن تيمية رغم الهجوم الضاري الذي شنَّه على الصوفية في عصره، لا يرى بأساً في بعض أفكار التصوف ويمتدح أعلاماً فيه مثل الإمام الجيلاني والإمام أحمد الرفاعي. وينسب المؤرخون لهذه المدارس الصوفية المنتشرة دوراً كبيراً في تأسيس الجيش المؤمن الذي ساند صلاح الدين في حربه ضد الصليبيين..

ظهور التصوف طرقاً ومدارس..

يرجع أصل الطرق الصوفية إلى عهد النبي سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما كان يخصّ كلاً من الصحابة بورد يتفق مع درجته وأحواله:

أما الصحابي سيدنا أبو بكر فقد أخذ عنه الذكر بالاسم المفرد (الله)..

وأما الصحابي سيدنا علي بن أبي طالب؛ فقد أخذ من النبي صَلَّى الله عليه وسلّم الذكر بالنفي والإثبات وهو (لا إله إلا الله)، حيث تذكر المصادر التاريخية أن سيدنا عليًّا جاء إلى النبي صَلَّى الله عليه وسلّم يومًا فقال له النبي: «يا علي؛ عليك بمداومة ذكر الله في الخلوات» فقال سيدنا علي: هذه فضيلة الذكر، وكل الناس يذكرون. فقال الرسول صَلَّى الله عليه وآله وسلّم: «يا علي لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول: الله». فقال سيدنا علي: كيف أذكر يا رسول الله؟ قال: «أغمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات، ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع». فقال سيدنا النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلّم: «لا إله إلا الله»، ثلاث مرات مغمضًا عينيه رافعًا صوته وسيدنا علي يسمع، ثم قال سيدنا علي لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضًا عينيه رافعًا صوته والنبي صَلَّى الله عليه وآله وسلّم يسمع»^(١).

ثم أخذ عنهما بعض التابعين هذه الأذكار وسميت الطريقتان: بالبكرية والعلوية. ثم نُقلت الطريقتان حتى التقتا عند الإمام أبي القاسم الجنيد. ثم تفرعتا إلى الخلوتية،

(١) «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار» عبد الرحمن الجبرتي (ج ١) (ص ٣٤٦).

والنقشبندية. واستمر الحال كذلك حتى جاء الأقطاب الأربعة السيد الإمام أحمد الرفاعي والسيد الإمام عبد القادر الجيلاني والسيد الإمام أحمد البدوي والسيد الإمام إبراهيم الدسوقي وشيّدوا طرقهم الرئيسية الأربعة وأضافوا إليها أورادهم وأدعيتهم. واليوم هناك طرق عديدة جدًّا في أنحاء العالم ولكنها كلها مستمدة من هذه الطرق الأربعة.

إضافة إلى أوراد سيدنا الإمام أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية الذي تُعدُّ أوراده جزءًا من أوراد أي طريقة اليوم..

الطرق الصوفية

الطريقة لغة: هي "السيرة"، وطريقة الرجل: مذهبه، يقال: هو على طريقة حسنة وطريقة سيئة..

واصطلاحًا: اسم لمنهج أحد العارفين في التزكية والتربية والأذكار والأوراد أخذ بها نفسه حتى وصل إلى معرفة الله، فينسب هذا المنهج إليه ويعرف باسمه، فيقال الطريقة الشاذلية والقادرية والرفاعية نسبة لرجالها. وقد أخذ اسم الطريقة من القرآن: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

تختلف الطرق التي يتبعها مشايخ الطرق في تربية طلابهم ومريديهم باختلاف مشاربهم وأذواقهم الروحية، وباختلاف البيئة الاجتماعية التي ينشؤون فيها. فقد يسلك بعض المشايخ طريق الشدة في تربية المريدين فيأخذونهم بالمجاهدات العنيفة ومنها كثرة الصيام والسهر وكثرة الخلوة والاعتزال عن الناس وكثرة الذكر والفكر كالطريقة البدوية. وقد يسلك بعض المشايخ طريقة اللين في تربية المريدين فيأمرهم بممارسة شيء من الصيام وقيام مقدار من الليل وكثرة الذكر، ولكن لا يلزمونهم بالخلوة والابتعاد عن الناس إلا قليلًا كالطريقة القادرية. ومن المشايخ من يتخذ طريقة وسطى بين الشدة واللين في تربية المريدين كالشاذلية.

وكل هذه الأساليب لا تخرج عن كتاب الله وسنة رسوله، بل هي من باب الاجتهاد. ولذلك قال بعض العارفين: لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق.

وللطرق الصوفية شارات وبيارق وألوان يتميزون بها:

فيتميز الرفاعية باللون الأسود.

ويتميز القادرية باللون الأخضر.

ويتميز الأحمدية باللون الأحمر.

أما البرهانية فإنها لا تتميز بلون واحد كسائر الطرق بل بثلاثة ألوان:

الأبيض الذي تميز به إبراهيم الدسوقي.

والأصفر الذي تميز به سيدنا أبو الحسن الشاذلي ومنحه لابن أخته سيدنا إبراهيم الدسوقي.

والأخضر وهو كناية عن شرف الانتساب لأهل بيت رسول الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن أهم الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي:

القادرية: وهي طريقة الإمام سيدنا عبد القادر الجيلاني..

الرفاعية: وهي للإمام أحمد الرفاعي ..

الشاذلية: وهي للإمام أبي الحسن الشاذلي ..

البدوية: وهي للإمام أحمد البدوي. رضي الله عنهم جميعاً.

من أقوال أكابر الصوفية في أصول الطريقة:

قال الإمام الجنيد: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام». وقال أيضاً: «من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث؛ لا يُقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة».

قال الإمام سهل التستري: «أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسوله، وأكل الحلال، وكفُّ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق»^(١) قال سيدنا الإمام أبو الحسن الشاذلي: «إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام»^(٢).

(١) «طبقات الصوفية».

(٢) «إيقاظ الهمم».

قال الإمام أبو الحسين الوراق: «لا يصل العبد إلى الله إلا بالله، وبموافقة حبيبه في شرائعه، ومن جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء يضل من حيث يظن أنه مهتد»^(١)

قال الإمام عبد الوهاب الشعراني في كتابه «لطائف المنن والأخلاق»: «إن طريق القوم - أي الصوفية - محررة على الكتاب والسنة كتحرير الذهب والجوهر، فيحتاج سالكها إلى ميزان شرعي في كل حركة وسكون»..

قال الإمام أبو يزيد البسطامي حين سئل عن الصوفي فقال: «هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه وسنة رسوله بشماله، وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة، وبالأخرى إلى النار، ويأتمر بالدنيا، ويرتدي بالآخرة، ويلبي من بينهما للمولى: لبيك اللهم لبيك».

قال سيدي الإمام عبد القادر الجيلاني:

الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله عز وجل وسنة رسوله، فكلما ازداد صفاؤه خرج من بحر وجوده، وترك إرادته واختياره ومشيتته من صفاء قلبه^(٢).

إذن هذه أساسيات الطرق الصوفية ومن يدعي التصوف ويخالف الكتاب والسنة فهو مردود عليه ادعاؤه ولا يصح نسبته إلى أهل التصوف..

(١) «طبقات الصوفية».

(٢) «الفتح الرباني».

ألقاب السادة الأكابر أقطاب التصوف

- ١ - *أستاذ الطائفة*: سيدي أبو القاسم الجنيد.
- ٢ - *الشيخ الأكبر*: سيدي محيي الدين بن عربي.
- ٣ - *قمر الصوفية*: سيدي أبو سعيد الخراز.
- ٤ - *فقيه الصوفية*: سيدي ابن عطاء الله السكندري.
- ٥ - *بحر العلوم*: سيدي جلال الدين السيوطي.
- ٦ - *حجة الإسلام والتصوف*: سيدي أبو حامد الغزالي.
- ٧ - *شهيد العشق الإلهي*: سيدي الحسين بن منصور الحلاج.
- ٨ - *شهيدة العشق الإلهي*: سيدتنا رابعة العدوية.
- ٩ - *شهيد المهجر والوصال*: سيدي نجم الدين كبرى.
- ١٠ - *شهيد الذاكرين*: سيدي عقيل.
- ١١ - *حضرة مولانا*: سيدي جلال الدين الرومي.
- ١٢ - *شيخ الزهاد والعباد*: سيدي معروف الكرخي.
- ١٣ - *شيخ الشيوخ*: سيدي أبو حمزة الصوفي البغدادي.
- ١٤ - *إمام البغداديين*: سيدي السري السقطي.
- ١٥ - *قاضي الشريعة*: الإمام الشافعي.

- ١٦ - *أستاذ المشارق والمغارب*: سيدي عبد السلام بن مشيش.
- ١٧ - *كهف أمن الطلاب*: سيدي أبو الحسن الشاذلي.
- ١٨ - *الباز الأشهب*: سيدي عبد القادر الجيلاني.
- ١٩ - *أبو العلمين*: سيدي أحمد الرفاعي.
- ٢٠ - *أبو العينين*: سيدي إبراهيم الدسوقي.
- ٢١ - *شيخ العرب*: سيدي أحمد البدوي.
- ٢٢ - *سكردان الأولياء*: سيدي أبو العباس المرسى.
- ٢٣ - *سلطان الزاهدين*: سيدي إبراهيم بن أدهم.
- ٢٤ - *سلطان العاشقين*: سيدي عمر بن الفارض.
- ٢٥ - *سلطان المشارق والغارب*: سيدي عبد الله بن أبي حمزة.
- ٢٦ - *سلطان أهل التحقيق*: سيدي عبد الكريم الجيلي.
- ٢٧ - *سلطان العارفين*: سيدي أبو يزيد البسطامي.
- ٢٨ - *القطب المكتوم*: سيدي أحمد التجاني.
- ٢٩ - *القطب النفيس*: سيدي أحمد بن إدريس.
- ٣٠ - *القطب الرباني*: سيدي عبد الوهاب الشعراني.
- ٣١ - *مفخرة الأولياء*: سيدي علي الخواص.

- ٣٢- *فخر الدين*: سيدي محمد عثمان عبده البرهاني.
- ٣٣- *أبو البركات*: سيدي أحمد الدردير.
- ٣٤- *محتسب الصوفية*: سيدي أحمد زروق.
- ٣٥- *صاحب التلقين*: سيدي أحمد العلاوي.
- ٣٦- *صاحب البردة*: سيدي شهاب الدين البوصيري.
- ٣٧- *صاحب دلائل الخيرات*: سيدي الجزولي.
- ٣٨- *صاحب الإبريز*: سيدي عبد العزيز الدباغ.
- ٣٩- *إمام دائرة المقرين*: سيدي أبو مدين الغوث.
- ٤٠- *ختم أهل العرفان*: سيدي محمد عثمان الميرغني.
- ٤١- *طبيب المبالي*: سيدي النجار أبو علي.
- ٤٢- *صاحب درس الجمعة*: سيدي صالح الجعفري.
- ٤٣- *الإمام الرائد*: سيدي محمد زكي إبراهيم.
- ٤٤- *شيخ الإسلام*: سيدي عبد الحلیم محمود.
- ٤٥- *فيض الرحاني*: سيدي حسن حسان العرياني.
- ٤٦- *دلال الخيراتي*: سيدي نعتان الفرواتي.

العقيدة التي يتبناها الصوفية

يعلن معظم المتصوفة حاليًا اعتقادهم بحسب مبادئ عقيدة أهل السنة الأشاعرة التي انتشرت وسادت على أنَّها مذهب عَقَدِي رسمي لأهل السنة والجماعة، بل تبناها جمهور علماء أهل السنة والجماعة؛ كالإمام النووي، والإمام ابن حجر العسقلاني، والإمام السيوطي، وغيرهم كثير، فبالتالي لا تخرج كتب المتصوفة الحديثة لا تخرج عن عقيدة أهل السنة، سواء أكانت أشعرية أم ماتريدية، رغم أنهم يتبنون كتب ابن عربي والسهروردي التي تتهمها الحركات السلفية وبعض الباحثين المعاصرين بأنها تتضمن ما يفيد بعقائد الحلول والاتحاد، وهذا باطل مبين؛ لأن سيدنا ابن الفارض^(١) يقول في شعره:

جل عن حلول وعن اتحاد وعن العقول في فهم المراد

ووحدة الوجود التي يقولون بها هي نفسها وحدة الشهود المعروفة عند العلماء.

لكن المتصوفة يقولون: إن هذه الكتب ليست في متناول العوام -والعوام في نظر المتصوفة هم كل من لم يتمرس بالصوفية وممارساتها- وإنه بالإمكان حمل كلام ابن

(١) عمر اليافي.

عربي والسهروردي على محامل نابغة من الإسلام، فالعوام غير قادرين على تذوق المعاني التي لا تتجلى إلا لمن حَصَلَ على الكشف الإلهي، لذلك كان المتصوفة هم وحدهم من يمتلك حق التأويل لهذه الكتب والمقولات للشيخ الكبار، ويرى الشيخ المسافر أن ابن عربي والسهروردي وابن سبعين -فضلاً عن جلال مسيرتهم في التصوف- ينتمون إلى ميدان الحكمة الفلسفية، وأن كثيراً من كتبهم فلسفية بامتياز وإن لم تُسمَّ بذلك، ويشهد له إنتاج ذلك العدد الكبير من فلاسفة الغرب الذين أسسوا أطروحاتهم الفلسفية أو ضمنوها أجزاء من إنتاج المشايخ الأولياء الثلاثة، أو كما يطلق عليهم بعضهم: "الفلاسفة العظام الثلاثة".

الشرعة والطريقة والحقيقة

يقسّم الصوفية الدين إلى ثلاثة أركان رئيسية هي؛ الشرعة، والطريقة، والحقيقة، ويعدّ الوهابيون هذا التقسيم تقسيم بدعة في دين الإسلام، ولم يرد في صحته أي أدلة، ويستدل الصوفية على صحته بما ورد من حديث نبي الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي اشتهر باسم حديث جبريل، وهو مروي عن الصحابي سيدنا عمر بن الخطاب، يقول:

(بينما نحن جلوس عند رسول الله إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع يديه على فخذه، وقال: يا محمد؛ أخبرني عن الإسلام، قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدّقه، قال: فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: أن

تلد الأمة ربّتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاء يتطاولون في البنيان. ثم انطلق، فلبث ملياً ثم قال: يا عمر؛ أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

فالحديث يذكر أقسام الدين كما يقولون، وهي:

ركن الإسلام: وهو الجانب العملي؛ من عبادات ومعاملات وأُمُور تعبدية، ومحلّه الأعضاء الظاهرة الجسمانية، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالشرعية، واختص بدراسته الفقهاء.

ركن الإيمان: وهو الجانب الاعتقادي القلبي؛ من إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وقد اختص بدراسته علماء التوحيد.

ركن الإحسان: وهو الجانب الروحي القلبي؛ وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وما ينتج عن ذلك من أحوال إيمانية وأذواق وجدانية، ومقامات عرفانية، وعلوم وهبية، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالحقيقة، واختص ببحثه الصوفية.

وللوصول إلى هذا المقام، والإيمان الكامل؛ لا بد من سلوك الطريقة؛ وهي

مجاهدة النفس، وتصعيد صفاتها الناقصة إلى صفات كاملة، والترقي في مقامات الكمال بصحبة المرشدين، فهي الجسر الموصل من الشريعة إلى الحقيقة.

قال السيد الجرجاني في «تعريفاته»: "الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله؛ من قطع المنازل والترقي في المقامات".

ولتوضيح الصلة بين الشريعة والحقيقة يضربون لذلك مثلاً الصلاة، فالإتيان بحركاتها وأعمالها الظاهرة، والتزام أركانها وشروطها، وغير ذلك مما ذكره علماء الفقه؛ يمثل جانب الشريعة، وهو جسد الصلاة. وحضور القلب مع الله في الصلاة يمثل جانب الحقيقة، وهو روح الصلاة. فأعمال الصلاة البدنية هي جسدها، والخشوع روحها، وما فائدة الجسد بلا روح؟! وكما أن الروح تحتاج إلى جسد تقوم فيه؛ فكذلك الجسد يحتاج إلى روح يقوم بها، ويستدلون على ذلك بالآية القرآنية: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] ولا تكون الإقامة إلا بجسد وروح؛ ولذا لم يقل: أوجدوا الصلاة.

فالشريعة عندهم هي الأساس، والطريقة هي الوسيلة، والحقيقة هي الثمرة، وهذه الأشياء الثلاثة متكاملة منسجمة، فَمَنْ تَمَسَّكَ بِالْأُولَى مِنْهَا سَلَكَ الثَّانِيَةَ فَوَصَلَ

إلى الثالثة، وليس بينها تعارض ولا تناقض؛ ولذلك يقول الصوفية في قواعدهم المشهورة: (كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة).

ويقول الشيخ أحمد زرُّوق: (لا تصوف إلا بفقه؛ إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه. ولا فقه إلا بتصوف؛ إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه لله تعالى. ولا هما - التصوف والفقه - إلا بإيمان؛ إذ لا يصح واحد منهما دونه. فلزم الجميع لتلازمها في الحكم؛ كتلازم الأجسام للأرواح، ولا وجود لها إلا فيها؛ كما لا حياة لها إلا بها، فافهم).

ويقول سيدنا الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه:

(مَنْ تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد نفَسَّق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق).

ويقولون: إنه كما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة؛ كذلك حفظ علماء التصوف آدابها وروحها، وكما أباح لعلماء الظاهر الاجتهاد في استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع، والحكم بالتحليل والتحريم على ما لم يَرِدْ فيه نص؛ فكذلك لعلماء الصوفية أن يستنبطوا آدابًا ومناهج لتربية المريدين وتهذيب السالكين.

موقف أهل السنة والجماعة من التصوف

وأقوال أكابر علمائهم

عدت إليكم في الحديث عن عظمة علم التصوف ومدى أهميته للعالم الإسلامي اليوم في الحملة الشرسة التي يعانيتها المسلمون من أدعياء الإسلام والإسلام منهم بريء^(١).

وأنا أذكركم بأقوال أئمة الدين المعتدّ بهم في فضل هذا العلم لسدّ أفواه المعترضين على التصوف.

فقد تواترت أقوال العلماء في قبول هذه الطائفة وحالهم الحسّن مع الله تعالى.. ومن هؤلاء اتفاقاً دون ترتيب:

(١) الصّحوة الصّوفيّة اليوم آخذة بالتّمدد والانتشار، وهدف مريديها العودة بالإسلام إلى صورته الأولى، ففي ظلّ هذا التّشدد يبحث الكثير من النّاس عن ملجأ يقيهم طوفان العنف هذا، ويعيدهم إلى أسس دينهم الّذي قام على الألفة والتّسامح والمحبة، وخصوصاً في شتال إفريقيا التي تمتد من مصر إلى السنغال وموريتانية والنيجر ومالي، وحتى في السّعودية وبلاد الشام، فالصّوفيّة أصبحت هي الحل اليوم..

■ الإمام النووي (توفي سنة ٦٧٦ هـ): صاحب «رياض الصالحين» و«شرح صحيح مسلم» وكتب الفقه العظيمة، قال رحمه الله تعالى في رسالته: "مقاصد الإمام النووي في التوحيد والعبادة وأصول التصوف"^(١):

(أصول طريق التصوف خمسة:

١- تقوى الله في السر والعلانية^(٢).

٢- اتباع السُّنة في الأقوال والأفعال^(٣).

(١) نقلها عنه سيّدنا أبو العباس أحمد بن أحمد زُرُوق الفاسي الشاذلي لما أراد أن يتكلّم على التّصوف، بينه وبين الإمام الشّاذلي سبعة رجال فقط، وهو من علماء القرن التّاسع (ت ٨٩٩هـ)، وله كتب كثيرة منها: «قواعد التصوف» كتبه مرتان، وثمانية عشر شرحاً للحكم العطائية،.

(٢) التّقوى أمر مهم جدًّا ، وكذا الاتحاد بين الظاهر والباطن، سيّدنا عمر ابن الوردى له قصيدة مطلعها: (اعتزل ذكر الأغاني والغزل) يقول فيها:

وأتقِ الله فتقوى الله ما جاورت قلب امرئ إلاّ وصل
ليس من يقطع طُرُقًا بطلًا إنّما من يتقي الله البطل

(٣) الاقتداء والتّأسي بالنّبيّ في الاعتقادات والأقوال والأفعال والتّروك، بأنّ تعمل مثل عمله على الوجه الذي عمله من إيجاب أو ندب أو إباحة، فتعتقد اعتقاد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وتمثّل

٣-الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار^(١).

٤-الرضا عن الله في القليل والكثير، فلا يكره ما يجري به قضاؤه^(٢).

أمره كما قال: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»، و«خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»، وتفعل مثل فعله؛ لأنَّه لا تأسي مع اختلاف صورة الفعل، وتترك ما تركه: «وَإِذَا هَيَّيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ».

(١) لأنَّ تعريف التَّصَوُّف: تجريد القلب لله تعالى، واحتقار ما سواه (كما ذكره الشُّيُوطِي)، وأهل الشَّام يقولون: لا تتدخل فيما لا يعينك، من تدخل فيما لا يعنيه؛ لقي ما لا يرضيه.

(٢) أحياناً تكون أعمال القلوب أعظم من أعمال الجوارح؛ مثل: (محبَّة الله، والتَّوَكُّل عليه، والإنابة إليه، والرجاء منه، وإخلاص الدِّين، والخشية والإخبات له سبحانه) وأعمال العبودية لله تنقسم قسمين: على القلب والجوارح، فعلى كِلِّ منهما عبوديَّة تخصُّه؛ منها ما هو واجب أو حرام، ومنها ما هو مستحب أو مكروه.

أمَّا أعمال القلوب؛ فكلُّها واجبة على العبد، والرِّضا أحد تلك الأعمال القلبيَّة، فالرِّضا: هو طيب النَّفْس بما يصيب العبد، وعند أهل التَّصَوُّف: الرِّضا: سرور القلب بمُرِّ القضاء، والرِّضا: أن تفعل ما أُمِرت به، وتترك ما نهاك عنه: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، وهذا الرِّضا واجب، وأيضاً الرِّضا بالمصائب كال فقر والمرض والدُّلَّ، والواجب فيه الصَّبْر، وفي الحديث: «إن استطعت أن تعمل بالرِّضا مع اليقين؛ فافعل، فإن لم تستطع؛ فإنَّ في الصَّبْر على ما تكره خيراً كثيراً» أخرجه الإمام أحمد، وحديث: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً» رواه مسلم.

٥- الرجوع إلى الله في السرّاء والضّرّاء^(١).

اشكر الله، واشكُ الله، وافرح بالله، واحزن لله؛ تكن مؤمناً، وتعيش بسلام، وإلّا فهذه المصائب التي تحدث في بلادنا تذهب العقول، وتمرض القلوب، يظنون أنّ الله قد تخلّى عنهم، نعم؛ النصر قد يتأخر لحكمة من الله، ولكنه لا يتخلف عن المؤمنين أبداً، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

* * *

■ ومنهم سيدنا الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى (توفي سنة ٥٠٥ هـ):

يتحدث في كتابه "المنقذ من الضلال" عن الصوفية وعن سلوكهم وطريقتهم الموصلة إلى الله تعالى، فيقول:

(ولقد علمتُ يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسنُ السيرة، وطريقتهم أصوبُ الطرق، وأخلاقهم أذكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء؛ ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه؛ لم يجدوا إليه سبيلاً؛ فإن

(١) إزالة الوحشة بالأنس بالله، وإزالة الحزن بالسرور بمعرفة الله تعالى.

جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم؛ مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به).

ثم يقول ردًّا على من أنكر على الصوفية وتهجم عليهم: (وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها - الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة - استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟؟).

ويقول أيضًا بعد أن اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته: (الدخول مع الصوفية فرض عين، لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)^(١).

(١) الإمام الغزالي قضى شطر عمره الأكبر في العلم، ثم في آخر عمره لم يجد قلبه، فخلّى بينه وبين نفسه، وراه القاضي أبو بكر ابن العربي في البرية، ويده عكازة، وعليه مرقعة، وعلى عاتقه ركوة، وكان قد رآه ببغداد يحضر درسه نحو ٤٠٠ عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم، يأخذون عنه العلم، فدنا منه وسلم عليه، وقال: يا إمام! أليس تدريس العلم ببغداد خير من هذا؟!، قال: فنظر إلي شزراً، ثم قال:

لما طلع بدر السعادة في فلك الإرادة وجنحت شمس الوصول في مغار بالأصول

■ ومنهم سيدنا الإمام فخر الدين الرازي (توفي سنة ٦٠٦ هـ):

العلامة الكبير والمفسر الشهير في كتابه «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين»: "الباب الثامن في أحوال الصوفية" يقول:

اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية، وذلك خطأ؛ لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية، وهذا طريق حسن.

وقال أيضاً: (والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون ألا يخلو سرُّهم وبألهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم

تركْتُ هوى ليلي وسُعدى بمعزل وعدتُ إلى تصحيح أوّل منزل
ونادت بيّ الأشواق مهلاً، فهذه منازل من تهوى رويدك، فانزل
غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلم أجد لغزلي نساجاً فكسّرت مغزلي

الغزالي وجد أنّه فقد قلبه خلال المعارك الكلاميّة والجدال مع أهل عصره، فلجأ إلى الصّمت وإلى تكسير آلات العِلْم والرُّجوع إلى أصل الإسلام؛ وهو عمارة القلب بالله تعالى، وصوّر الانسحاب القسري من القضايا بصورة تكسير المغزل لما تغيرت البلاد ومن عليها.

وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع الله عزَّ وجلَّ، وهؤلاء هم خير

فرق الآدميين^(١).

* * *

■ ومنهم عالم معاصر من أهل المغرب من أسرة متأصلة بالتَّصَوُّف هو: سيدنا أبو الفضل عبد الله الصَّدِّيق الغُمَّاري (ت ١٩٩٣) فقيه، محدث، حسني النَّسَب، له (٥٢) مؤلفاً؛ إذ يقول:

إن التصوف كبيرٌ قدرُهُ، جليلٌ خَطَرُهُ، عظيمٌ وَقَعُهُ، عميقٌ نفعُهُ، أنوارُهُ لامعة، وأثمارُهُ يانعة، واديه مَرِيعٌ خَصِيب، وناديه يندو لقاصديه من كل خير بنصيب، يزكي النفس من الدنس، ويطهِّر الأنفاس من الأرجاس، ويرقيُّ الأرواح إلى مراقي

(١) هذه شهادة ثلاثة من عمالقة الإسلام، يشهدون لكم أنَّكم على خير، فلا تصدَّقوا الوهَّابِيَّة، فهم ممَّن أعمى الله قلوبهم.

الفلاح، ويوصل الإنسان إلى مرضاة الرحمن، وهو إلى جانب هذا ركنٌ من أركان الدين، وجزء متمم لمقامات اليقين^(١).

خلاصته: تسليم الأمور كُلِّها لله، والالتجاء في كُلِّ الشؤون إليه، مع الرضا بالمقدور، من غير إهمالٍ في واجبٍ ولا مقاربة المحذور، كثرت أقوال العلماء في تعريفه^(٢)، واختلفت أنظارهم في تحديده وتوصيفه، وذلك دليل على شرف اسمه ومسمّاه، ينبئ عن سمو غايته وممرماه.. وإنما عبّر كل قائل بحسب مدركه ومشربه^(٣)، وعلى نحو اختلافهم في التصوف اختلفوا في معنى الصوفي واشتقاقه.

ثم إنَّ التصوف مبني على الكتاب والسنة، لا يخرج عنهما قيد أنملة.

والحاصل: أنهم أهل الله وخاصته، الذين تُرتجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم.

(١) وهو مقام الإحسان؛ الركن الثالث للدين.

(٢) وكل تعريف يرجع إلى جانب رئيسي في التصوف، حتّى جمعت التعاريف فبلغت ٢٠٠٠ تعريفاً كلها ترجع لصدق التّوجه إلى الله.

(٣) ومن أجمل التعاريف تعريف لسيدنا أبي الحسن الشاذلي: التّصوف تدريب النّفس على العبوديّة، وردّها لأحكام الرّبوبيّة؛ يعني: كيفية السّلوكة إلى حضرة ملك الملوك.

ومن أوصاف هذه الطائفة: الرأفة^(١)، والرحمة^(٢)،

والعفو^(٣)، والصفح، وعدم المؤاخذه^(٤).

(١) أشدُّ من الرَّحمة، تعطف شديد يقتضي الإحسان والمغفرة، فهي مبالغة في الرَّحمة، وهي دفع المكروه، وإزالة الضرر؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢].

(٢) الرَّحمة: الإفضال والإنعام، وسمَّى الله تعالى المطر رحمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ويكفي من فضلها أنَّ الله وصف بها نفسه بقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] والرَّحمة مشاركة النَّاس آلامهم وعواطفهم كما قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ»، وقال للأقرع بن حابس التميمي: «أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ؟!»، وقال: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ»، ومرة أضجع رجل شاة وهو يحذُّ شفرته، فقال له النَّبي صلى الله عليه وسلم: «أتريد أن تذبحها ذبحتين؟! هَلَّا حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضَجِّعَهَا»، وفي أخرى: وجدت امرأة طفلاً يبكي في السَّبي، فأخذته، وراحت ترضعه، فقال سيِّدنا النَّبي صلى الله عليه وسلم: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟!، قُلْنَا: لَا، فَقَالَ: «لَهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدَهَا» كما في «الصحيحين».

(٣) العفو: التَّجاوز عن الذَّنْب وترك العقاب عليه، والعفوُّ أبلغ من الغفور؛ لأنَّ الغفران ينبئ عن السَّتر، والعفو ينبئ عن المحو، والمحو أبلغ من السَّتر، اللهم إِنَّكَ عَفُوٌّ تَحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنَّا، فال المطلوب منك أن تعفو عن زلَّات الآخرين وهفواتهم؛ لأنَّها من الصِّفَات الإلهية، وعكسها -أي: الانتقام- من الصِّفَات الحيوانية؛ لذا كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ يَتَّصِفُونَ بِالْعَفْوِ... ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ

ويظهر تاريخ التصوف في فتوى للإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري رحمه الله^(١) (١٢٩٥هـ) من بلدة غمارة في المغرب، فقد سئل عن أول من أسس التصوف؟ وهل هو بوحي سماوي؟

النَّاسِ ﴿آل عمران: ١٣٤﴾، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَلَكِنَّ صَبَرْتُمْ هُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، لكنَّ هذا في غير ما وصل إلى الحاكم، فليس له العفو، بل يقيم الحدود؛ لأنَّ العفو عن المجرمين سبب لتجرئهم على الشريعة؛ لذا عدم التساهل مع المجرم هو الإسلام.

(١) الصَّفح من أخلاق العظماء، وهو ترك المؤاخذه: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، الذي لا عتاب معه، والصفح أبلغ من العفو: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ولقد وصفت السيدة عائشة النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولكن يعفو ويصفح... وتذكروا قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقريش يوم فتح مكة: «ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فلا تظنوا أن العفو والتجاوز ذلة وضعف، بل هو قمة الشجاعة، وفيه غلبة الهوى لا سيما إذا كان العفو عند المقدرة، سيدنا الحسن بن علي يقول: لو أن رجلاً شتمني في أذني هذه واعتذر في أذني الأخرى؛ لقبلت عذره.

(٢) منشئ الطريقة الصَّدِيقِيَّة الشَّاذِلِيَّة، ولده المحدث عبد الله الغماري محدث الديار المغربية، سمَّاه والده محمدًا المنصور، فكان لهذه التسمية أثر في حياته، فقد عاش منصورًا على مناوئيه، من شيوخه السيد

فأجاب: أما أول من أسس الطريقة فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي؛ إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة، التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم بعدما بيَّنها واحداً واحداً ديناً بقوله: «فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم»، وهو الإسلام والإيمان والإحسان.

فالإسلام طاعة وعبادة، انقياد بالجوارح.

والإيمان نور وعقيدة، قلبي.

والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة، أن تراقب الله في تصرُّفاتك، وأن تشاهده عند كلِّ نعمة أنعمها عليك:

وما شربت لذيد الماء من ظمأً إلاَّ وجدت خيالاً منك في الكأس

أي: علمت أنَّ هذه النعمة منك، وهذا معنى قولك بعد الطَّعام والشَّراب: الحمد لله الذي أطعمني وأشبعني وسقاني فأرواني بلا حولٍ مِنِّي ولا قوَّة... وعند ارتدائك

محمَّد بن جعفر الكتَّاني في فاس، نشر الطَّريقة في طنجة، ودَّرَس عددًا من العلوم، كانت دروسه روضة من رياض العِلْم، حتَّى قيل: كان أعلم أهل وقته، يفتي على المذاهب الأربعة، وجهر بالبسملة، ووضع يديه على صدره في الصَّلَاة، وهو من أواخر الشُّيوخ المريِّين.

لِلثَّوْب: الحمد لله الذي كساني هذا الثَّوب ورزقنيه بلا حول مِنِّي ولا قوَّة... وعند
نظرك في المرآة: الحمد لله الذي حَسَّن خَلْقِي وَخَلَقِي، وزان مني ما شان من غيري...
وعند ركوبك: سبحان الذي سَخَّر لنا هذا...

ينبغي عليك أن تحمد الله عند كلِّ نعمة، وتُعترف له سبحانه بها... تشاهد مبتلى
فتقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه به... ومن هنا مشروعية سجدة الشُّكر، وإذا
نعمة هجمت عليك لم تكن تتوقعها؛ فتسجد لله شكرًا تعترف أنَّها من الله (مشاهدة).
وأول من تسمى بالصوفي في أهل السنة أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة
١٥٠ هجرية وكان من النساك، ويحيد الكلام، وينطق الشعر، كما وصفه الحفاظ.

* * *

■ ومنهم الإمام العز بن عبد السلام (توفي سنة ٦٦٠ هـ)^(١)، الملقب بسلطان
العلماء، أخذ التصوف عن سيدنا شهاب الدين عمر السهروردي، وسلك على يد
الإمام العَلَم سيدنا الشيخ أبي الحسن الشاذلي:

(١) واسمه عبد العزيز بن عبد السلام السُّلمي، ولد سنة ٥٧٧ هـ في القاهرة، مفتي الشَّام، قاضي القضاة
في مصر، فقيه، ومفسِّر، ومحدِّث، لقبه سلطان العلماء، وبائع الملوك، وشيخ الإسلام، شخصية بلغت

قال الإمام عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى: (قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى^(١))، وقعد غيرهم على الرسوم^(٢))، مما يدل على ذلك ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات، فإنه فرع عن قربان الحق لهم، ورضاه عنهم، ولو كان العلم من غير عمل يُرضي الحق تعالى كلّ الرضا؛ لأجرى الكرامات على أيدي أصحابهم ولو لم يعملوا بعلمهم، هيهات هيهات!!^(٣).

المصدر: "نور التحقيق" للشيخ حامد صقر.

* * *

رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي، حرّض النَّاسَ على قتال التَّارِ والصِّلِيِّينَ، وشارك في الجهاد بنفسه.

(١) أي: عملوا بالشريعة ونفذوها، الصوفي: رجل عمل بعلمه، فأورثه الله عِلْمَ ما لم يعلم.

(٢) الألفاظ دون الغوص في معانيها.

(٣) المصدر: "نور التحقيق" للشيخ حامد صقر.

■ ومنهم العلامة الشيخ محمد أمين الكردي (١٩٠٧-١٩٨٦م)^(١) أصله من إربل في العراق^(٢)، ووالده اسمه أيضًا الشيخ أمين الكردي، يقول:

ينبغي لكل شارع في كل فن أن يتصوره قبل الشروع فيه^(٣)؛ ليكون على بصيرة فيه،.....

ولا يحصل التصور إلا بمعرفة المبادئ العشرة^(٤) المذكورة^(٥).

(١) الولي، الشافعي، الحسني، النقشبندي من علماء القرن الخامس عشر الهجري بمصر، إمام فقيه صوفي كبير من تلاميذ الأزهر، وكان من حبه لشيخه العزامي إذا اشترى نسخة من كتاب؛ يشتري نسختين له ولشيخه، اشتهر بالفقه والعقائد والتَّصوُّف، وكان شديد التمسك بالسُّنة.

(٢) كتابه «تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب»، مثل الإمام الغزالي له «مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب»، وربما هو ليس له؛ لأنَّ فيه ترجمة لرجل ولد بعد وفاة الغزالي.

(٣) الحكم على الشيء فرع عن تصوره...

(٤) كُلُّ عِلْمٍ لَهُ عَشْرَةٌ مَبَادِيٍّ تَعْرِفُ بِهِ، أَخَذًا مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ:

إِنَّ مَبَادِيَّ كُلِّ عِلْمٍ عَشْرَةٌ	الْحُدُّ	وَالْمَوْضُوعُ	ثُمَّ	النَّمْرَةُ
وَالِاسْمُ	الاسْتِمْدَادُ	حُكْمُ الشَّارِعِ	وَفَضْلُهُ	وَنَسَبُهُ
				وَالْوَاضِعُ

(٥) تعالوا نأخذ عنه درسًا بالتَّصوُّف.

١ - فحدّ التصوف: هو علم يُعرف به أحوال النفس محمودها ومذمومها، وكيفية تطهيرها من المذموم منها، وتحليتها بالاتصاف بمحمودها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى، والفرار إليه..

٢ - وموضوعه: أفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية^(١).

٣ - وثمرته: تهذيب القلوب، ومعرفة علام الغيوب، ذوقاً ووجداناً، والنجاة في الآخرة، والفوز برضا الله تعالى، ونيل السعادة الأبدية، وتنوير القلب وصفاءه بحيث ينكشف له أمور جليلة، ويشهد أحوالاً عجيبة، ويُعاین ما عميت عنه بصيرة غيره.

٤ - وفضله: أنه أشرف العلوم؛ لتعلقه بمعرفة الله تعالى وحبّه، وهي أفضل على الإطلاق، ولأنّ الله وصف نبيّه بأعظم شيء؛ وهو الأخلاق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

(١) سيّدنا أبو سعيد الخدري يقول: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يفرغنا ويملأنا... يفرغنا من رذائل الجاهلية ويملأنا بأخلاق الإسلام.

٥ - ونسبته إلى غيره من العلوم: أنه أصل لها^(١)، وشرط فيها؛ إذ لا علم ولا عمل

إلا بقصد التوجه إلى الله، فنسبته لها كالروح للجسد.

٦ - وواضعه: الله تبارك تعالى، أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم والأنبياء

قبله^(٢)؛ فإنه روح الشرائع والأديان المنزلة كلها.

٧ - واسمه: علم التصوف، مأخوذ من الصفاء، والصوفي: مَنْ صفا قلبه من

الكدر، وامتلأ من العبر، واستوى عنده الذهب والمدر^(٣).

(١) يتفرّع عن المراقبة والمشاهدة الإخلاص في العمل، والإخلاص سر من أسرار التّصوّف.

(٢) ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ [الإسراء: ٣٤]، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، ﴿وَأَتِ ذَا

الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ

الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، ﴿اتَّقُوا

اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿وَعِبَادُ

الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

٨- واستمداده: من الكتاب والسنة والآثار الثابتة عن خواص الأمة.

٩- وحكم الشارع فيه: الوجوب العيني؛ إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض قلبي إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

١٠- ومسائله: قضاياها الباحثة عن صفات القلوب، ويتبع ذلك شرح الكلمات التي تُداول بين القوم (كالزهد والورع والمحبة والفناء والبقاء).

(١) الذي حَيَّرَ الوَهَّابِيَّةُ أنَّ لفظة التَّصَوُّف لم تكن في عهد النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... طيب أريد أن أسأل: مصطلح عِلْم العقيدة هل كان زمنه؟ مصطلح عِلْم الأصول هل كان زمنه؟ مصطلح عِلْم التجويد هل كان زمنه؟ علم الجرح والتعديل، عِلْم المصطلح؟، لا يكفي أن تقول: إِنَّ التَّصَوُّف لم يكن زمنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تنقذ المسمَّى من أين جاء؟ من أهل الصُّفَّة، أم من المصافاة، أم من لبس الصُّوف؟ لا غبار على الاسم، ولا غبار على المسمَّى.

مسمى التَّصَوُّف ثابت من عهد النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإِنَّمَا الاسم هو الحادث، ألم يكن الصَّحابة على أخلاق عالية، وتركية، وتربية على الخير؟ نعم؛ حدث الاسم بعد مئة عام كما حدثت مصطلحات العلوم: عِلْم القراءات، عِلْم الفرائض...

التَّصَوُّف له عدَّة مرادفات؛ مرادفه الأخلاق، أو التَّربية، أو السير إلى الله، أو السُّلوك...، والنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»، إذن مسمى التَّصَوُّف كان في عهد النُّبُوَّة.



■ ومنهم العلامة الشريف الجرجاني علي بن محمد بن علي الشريف الحسني

(٧٤٠-٨١٦هـ)، (١٣٣٩-١٤١٣م) في (التعريفات)^(١):

التصوف مذهب كله جد، فلا يخلطونه بشيء من الهزل، وهو تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واستعمال ما هو أولى على السرمدية^(٢).....

(١) معجم يتضمّن تحديد معاني المصطلحات المستخدمة في العلوم، والفلسفة، والمنطق، واللغة، والفنون، والفقه في عصره، وهو من أوائل المعاجم التي لها ترتيب هجائي، أشاد به المستشرقون كافة، والجرجاني فلكي، عالم حياة، فقيه، فيلسوف، لغوي.

(٢) دوام الزّمان من ليل أو نهار يعني: الدّائم: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ [القصص:

٧٢] دائماً في حياتك قدّم الأولى على غيره...

والنصح لجميع الأمة^(١)، والوفاء لله تعالى على الحقيقة^(٢)، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشريعة.

(١) عليك أن تقول كلمة الحق سمعت أو لم تسمع: هذا حلال وهذا حرام... أو ألا تسكت عن الخطأ وخصوصاً إذا لم يكن أحد غيرك أمام المخطئ؛ فيصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً عينياً عليك.

(٢) الوفاء والولاء لله تعالى أن تحب ما يحبه الله، وتكره ما يكرهه، ومن خصائص المجتمع المسلم أنه مجتمع يقوم على العقيدة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] فلا تخضع لكافر، ولا يكن ولاؤك إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، يجب أن توالي المسلم وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك.

اللص المسلم الذي يسرق تقطع يده لكنه يبقى أخانا، والمسلم شارب الخمر الذي يشرب الخمر يجلد لكنه يبقى أخانا، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة... تحبه من وجه، وتبغضه من وجه، هو مسلم خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

هناك صحابي يدعى عبد الله بن حمار كان يشرب الخمر، فأُتي به إلى رسول الله، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال سيّدنا النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»، مع أنه «لعن الله شارب الخمر وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه»، هذا وفاء لله... من كان مؤمناً؛ وجبت موالاته من أي صنف كان، ومن كان كافراً؛ وجبت معاداته من أي صنف كان: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا

■ ومنهم الإمام الشاطبي:

إبراهيم بن موسى الغرناطي، من علماء الأندلس، أصولي مفسر فقيه محدث لغوي ت سنة ٧٩٠ هجرية:

وصف الإمام الشاطبي الصوفية في كتابه «الاعتصام»^(١) بأوصاف حميدة، فقال:
"الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة مجمعون على تعظيم الشريعة، مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها؛ ولذلك لا نجد منهم من ينسب إلى فرقة من الفرق الضالة، ولا من يميل إلى خلاف السنة.

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿الحجرات: ٩، ١٠﴾، فجعلهم إخوة مع الاقتتال والبغي...
الولاء القلبي لأهل الإيمان هو من الوفاء لله تعالى.

(١) «الاعتصام في أهل البدع والضلالات» يعدُّ هذا الكتاب أحسن ما أُلِّفَ في التحذير من البدع وبيان أحكامها، فلا نكاد نجد كتابًا تناول البدعة وأحكامها كما تناول هذا الكتاب، تميز بدقّة تعريف البدعة، وسعة جمعه للأدلة في الحثّ على السُّنّة، والنهي عن البدعة، وحسن ترتيب المؤلف لموضوعات الكتاب، وتقسيمه على أبواب وفصول، وسعة البحث وطول النفس في تحرير المسائل، وقوة المؤلف العلميّة وعلومه...

وأكثر من ذكر منهم علماء وفقهاء ومحدثون، ومن يؤخذ عنه الدين أصولاً وفروعاً^(١)، ومن لم يكن كذلك؛ فلا بد من أن يكون فقيهاً في دينه بمقدار كفايته".

* * *

■ ومنهم الدكتور أبو الوفا التفتازاني (١٩٣٠-١٩٩٤م)^(٢):

في كتابه (مدخل إلى التصوف الإسلامي) إذ يقول:

(١) من الذي يعترض على مثل سيّدنا سعيد بن المسيّب، والحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، وسيّدنا مالك، والأوزاعي، وإبراهيم بن أدهم، وسفيان الثوري، والفضيل بن عياض، ومعروف الكرخي، والإمام الشافعي، وابن حنبل، وبشر الحافي، وابن المبارك، ومن لا يحصى كثرة!!؟ ومن المتأخرين مثل الإمام الجنيد، وسهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي، وأبي مدين الغوث، وسيّدنا عدي بن مسافر، والشيخ رسلان، والشيخ عبد الله اليونيني، ومن كان أمثالهم في الحجاز، والشّام، والعراق، ومصر، والمغرب، وغيرهم.

(٢) فيلسوف مصري، وشيخ مشايخ الطُّرق الصُّوفية في مصر في الفترة من (١٩٨٣-١٩٩٤)، جمع بين التّصوّف علماً وطريقاً، له عدّة مؤلفات بلغت ١١ مؤلفاً، كان عميد كلية التّربية في جامعة القاهرة (١٩٧٨)، ونائب رئيس جامعة القاهرة، نال أوسمةً عدّة.

ليس التصوف هروباً من واقع الحياة كما يقول خصومه، وإنما هو محاولة الإنسان
للتسلح بقيم روحية.....

جديدة^(١)، تعينه على مواجهة الحياة المادية، وتحقق له التوازن النفسي حتى يواجه
مصاعبها ومشكلاتها.

وفي التصوف الإسلامي من المبادئ الإيجابية ما يحقق تطور المجتمع إلى الأمام،
فمن ذلك أنه يؤكد على محاسبة الإنسان لنفسه باستمرار؛ ليصحح أخطاءها ويملاؤها
بالفضائل، ويجعل نظرتة إلى الحياة معتدلة، فلا يتهالك على شهواتها وينغمس في
أسبابها إلى الحد الذي ينسى فيه نفسه وربّه فيشقى شقاء لا حد له...، والتصوف
يجعل من هذه الحياة وسيلة لا غاية، وبذلك يتحرر تماماً من شهواته وأهوائه بإرادة
حرة^(٢).

(١) الصوفي يسعى إلى الإغلاء من شأن القيم الروحية والإنسانية جاعلاً المادة وسيلة يجب تجاوزها دون
الوقوف عندها، يأخذ منها كفايته، ولا يخضع لعبودية حبّ المال والجاه، وبهذا يتحرّر تماماً من
شهواته وأهوائه.

(٢) يعني: الصوفي ولو كان غنياً لا تدخل الدنيا قلبه، سيّدنا الإمام الشاذلي هو صفوة الصفوة الصوفيّة،
كانت له مزارع، وحصاد، ودراس، وثيران، وكان يتاجر، ويلبس الفاخر من الثياب، كان من

■ ومنهم المؤرخ ابن خلدون^(١) (توفي سنة ٨٠٨ هـ في مصر):

قال رحمه الله تعالى في كلامه عن علم التصوف: (هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة^(٢))، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عامًّا في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا؛ اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية^(٣)).

دعائه: اللهم اجعل الدنيا في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا، وسيّدنا الإمام الجيلاني كان يقول: ليس الشأن في خشونة ثيابك ومأكولك، الشأن في زهد قلبك.

(١) ولد في تونس (٧٣٢هـ) لأسرة عربية، وهو مؤسس علم الاجتماع، وأنشأ فلسفة التاريخ ووضع أسسها، سافر إلى شمال إفريقية، واستقر في القاهرة، كان أستاذ الفقه المالكي في عصره، ثم قاضيًا، ثم انتقل إلى دمشق، ثم عاد إلى القاهرة قاضيًا، ثم سفيرًا للمصالحات الدُوليّة، وله عدد قليل من المؤلفات، وترجم لنفسه ورحلاته.

(٢) شأن كلّ العلوم: علم الفرائض، وعلم الأصول، وعلم التجويد....

(٣) فمسمّى الصوفيّة كان موجودًا، ولكن لم يكن يُدعى التّصوف، كما تقدم.

■ ومنهم الشيخ محمد أبو زهرة: (١٨٩٨-١٩٧٤م) محمد بن أحمد بن مصطفى^(١) إذ يقول: نحن في عصرنا هذا أشدُّ الناس حاجةً إلى متصوف بنظام التصوف الحقيقي؛ وذلك لأن شبابنا قد استهوته الأهواء، وسيطرت على قلبه الشهوات.. وإذا سيطرت الأهواء والشهوات على جيل من الأجيال أصبحت خُطْبُ الخطباء لا تجدي، وكتابة الكتّاب لا تجدي، ومواعظ الوعّاظ لا تجدي، وحكم العلماء لا تجدي، وأصبحت كل وسائل الهداية لا تجدي شيئاً.

إذن لا بد لنا من طريق آخر للإصلاح؛ هذا الطريق أن نتجه إلى الاستيلاء على نفوس الشباب، وهذا الاستيلاء يكون بطريق الشيخ ومريديه، بحيث يكون في كل

(١) «مقدمة ابن خلدون».

(٢) عالم مصري مشارك في عدد من العلوم (فقه-تفسير-سيرة- تراجم) له «زهرة التفاسير» إلى سورة النمل، و«تاريخ المذاهب الإسلامية»، «المعجزة الكبرى في القرآن»، تأثر بالإمام زاهد الكوثري، وترجم لأئمة الإسلام، له ٣٣ مؤلفاً، وختم حياته بكتابه «خاتم النبيين»، ومن أهم مواقفه وأقواله: أنه لا يجوز أن يعتمد على العقل في إثبات حكم شرعي، وأنَّ المعوّل عليه في إثبات الأحكام الشرعية هو النصوص النقلية والعقل معين لها.

قرية وفي كل حي من أحياء المدن وفي كل بيئة علمية أو اجتماعية رجالٌ يقفون موقف
الشيخ الصوفي من مريديه^(١).

■ ومنهم سيدنا الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه (ت ١٥٠ هـ)^(٢):

نقل الفقيه الحنفي صاحب «الدر المختار»^(٣): أن أبا علي الدقاق^(٤) رحمه الله تعالى
قال:

(أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أباذي^(٥)، وقال أبو القاسم: أنا
أخذتها من الشبلي^(٦)، وهو من السري السقطي^(٧)، وهو من معروف الكرخي^(٨)، وهو

(١) شهادة خبير بعد عمر طويل في الدَّعوة إلى الله، لولا المرَبِّي ما عرفت ربِّي.

(٢) جمهور الأئمة وأكابر الملة مطبقون على أن التَّصوُّف هو زبدة الدِّين، والغاية القصوى في سنن
الموحدين.

(٣) «الدر المختار شرح متن تنوير الأبصار وجامع البحار» للحصكفي محمَّد بن علي المعروف بعلاء
الدِّين (ت ١٠٨٨ هـ)، المتن في الفقه الحنفي فيه مسائل غير معتمدة، ولكنَّ الشَّرح قوَّاه، ثم جاء ابن
عابدين ووضع عليه حاشيته.

(٤) النِّسابوري (ت ٤٠٦ هـ)، كان لسان عصره في التَّصوف وعلوم الشَّريعة، شيخ الإمام القشيري.

(٥) إبراهيم بن حمويه.

من داود الطائي^(١)، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة رضي الله عنه، وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضلله^(٢).

ثم قال صاحب «الدر» معلقاً: (فيا عجباً لك يا أخي! ألم يكن لك أسوة حسنة في هؤلاء السادات الكبار؟ أكانوا متهمين في هذا الإقرار والافتخار، وهم أئمة هذه الطريقة وأرباب الشريعة والطريقة؟ ومن بعدهم في هذا الأمر فلهم تبع، وكل من خالف ما اعتمده مردود مبتدع).

(١) الشيخ، الزاهد، أبو بكر الشُّبلي (٢٤٧-٣٣٤هـ)، تاج الصُّوفية.

(٢) (ت ٢٥٣هـ)، أحد كبار مشايخ التَّصوف، ترجمته في هذا الكتاب.

(٣) (ت ٢٠٠هـ)، الدُّعاء عند قبره مستجاب، ورده اليومي (وا غوثاه يا الله) عشرة آلاف مرة.

(٤) ولد بعد المئة هجرية، من كبار أئمة الفقه والرأي، (ت ١٦٥هـ).

(٥) «سلسلة التَّصوف» ترجع إلى الإمام أبو حنيفة، وقد سئل عما يفعله الصوفية في الحضرة وما

يتظاهرون به أهم صادقون في ذلك؟ فأجاب: إن الله رجلاً يدخلون الجنة بدفوفهم، وما قال هذا إلا سداً لذريعة الاعتراض على التَّصوف.

ولعلك تعجب عندما تسمع أن الإمام الكبير أبا حنيفة النعمان رحمه الله تعالى يعطي الطريقة لأمثال هؤلاء الأكابر من الأولياء والصالحين من الصوفية.

يقول سيدنا ابن عابدين رحمه الله تعالى في «حاشيته»^(١) متحدثاً عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، تعليقا على كلام صاحب «الدر» الآنف الذكر: (هو فارس هذا الميدان، فإن مبنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس، وقد وصفه بذلك عامة السلف، فقال أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى في حقه: إنه كان من العلم والورع

(١) «ردُّ المحتار على الدر المختار» لمحمد أمين عابدين، إمام الحنفية في الشام (١٧٤٨-١٨٣٦م)، وخاتمة المحققين في الفقه الحنفي، يصل نسبه للإمام الحسين بن علي، ولد بحي القنوات، حفظ القرآن والقراءات، وكان شافعيًا، ثم ألزمه شيخه شاعر العقاد بالتَّحول إلى المذهب الحنفي ليقراء عليه المعقولات، وأخذ الطَّريقة القادرية والتَّصوُّف عن شيخه ابن نُجيم، ونال الإجازات من شيوخه، وقرأ الفقه الحنفي على شيخه العقَّاد مع الشَّيخ سعيد الحلبي، وتوفي شيخه العقَّاد فأتته قراءة السُّور على شيخه سعيد الحلبي أكبر طلاب الحلقة، وكان في حياة الحلبي قد شرح «الدر المختار»، ثم اتصل ابن عابدين بالشَّيخ خالد النَّقشبندي، فلَقَّنه الطَّريقة وأجازَه، وتولَّى أمانة الفتوى، له سبعة مؤلفات، ومجموعة رسائل ومخطوطات.

والزهد وإيثار الآخرة بمحل لا يدركه أحد، ولقد ضُربَ بالسياط ليلي القضاء، فلم يفعل.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: ليس أحد أحق من أن يقتدى به من أبي حنيفة؛ لأنه كان إماماً تقيّاً نقيّاً ورعاً عالماً فقيهاً، كشف العلم كشفاً لم يكشفه أحد، ببصر وفهم وفطنة وتقى.

وقال الثوري لمن قال له: جئت من عند أبي حنيفة: لقد جئت من عند أعبد أهل الأرض) قال فيه الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.

* * *

■ ومنهم سيدنا الإمام مالك رضي الله عنه (ت ١٧٩ هـ):

يقول رحمه الله تعالى: (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق^(١))^(٢).

(١) هذه الصّراحة من الإمام كافية في أن إعظامه لمذهب التّصوّف من دون الفقه باطل، فهو كان جامعاً بين التّصوف والفقه، ستقولون: لماذا لم يظهر منه التّصوف كغيره في عصره (كالخارث المحاسبي)؟،



■ ومنهم مولانا الإمام الشافعي رضي الله عنه (ت ٢٠٤ هـ):

قال رحمه الله تعالى: (صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين - وفي رواية: سوى ثلاث كلمات - قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك. وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل. وقولهم: العدم عصمة)^(١).
وقال الإمام الشافعي أيضاً: (حُبَّ إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف)^(٢).

أقول: عذره: هو تفرغه وقيامه بما دعت إليه الضرورة من لزوم حفظ القواعد الفقهية وضبط النُّقول الشرعية.

(١) حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي، وشرح عين العلم وزين الحلم للإمام ملا علي قاري، والتتائي في شرحه على مقدمة ابن رشد، الزُّروق في قواعد التصوف القاعدة الرابعة.

(٢) «تأييد الحقيقة العلية» للإمام جلال الدين السيوطي.

(٣) «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» للإمام العجلوني.



■ ومنهم سيدنا الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه (ت ٢٤١ هـ)^(١):

كان الإمام رحمه الله تعالى قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبد الله رحمه الله

تعالى:

(يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سمّوا أنفسهم صوفية^(٢)،
فإنهم ربما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه).

(١) كان الإمام الشافعي والإمام أحمد يترددان على مجالس ذكر الصوفية - كما جاء في كتاب «جامع مجالس الصوفية» - فقليل لهما: ما لكما تترددان إلى مثل هؤلاء؟، فقالا لهم: إن هؤلاء عندهم رأس الأمر كله؛ وهو تقوى الله ومحبته.

الإمام الشعراي يقول: كفى مدحاً إذعانُ الإمام الشافعي لشييان الرّاعي، وكذا الإمام أحمد، لكنها قصة مختلفة غير ثابتة تاريخياً، ففي «الوافي بالوفيات» (١١٨/١٦) يقول: شييان الرّاعي توفي ١٧٠ هـ وابن حنبل ولد عام ١٦٤، فهل يعقل أنها حدثت وعمر ابن حنبل ست سنوات؟! أحببت ذكر ذلك حتّى لا تغتروا بمن يروها.

(٢) دخل على أيدي الصوفية كثير من النّاس في الإسلام، وتاب على أيديهم أعداد لا تحصى من العصاة، وخلفوا وراءهم ثروة من المعارف والتّجارب الروحية التي لا ينكرها إلاّ مكابر أو متعصب عليهم،

فلما صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي، وعرف أحوال القوم؛ أصبح يقول لولده:
يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة

والخشية والزهد وعلو الهمة^(١).

التَّصَوُّف لا يذم في حدِّ ذاته، بل هو مطلوب لكلِّ مسلم إذا أريد به الاهتمام بالروح اهتمامًا لا يطغى ولا يضر بالجسد، وأقول لكم: علينا أن نزن أعمال التَّصَوُّف بميزان الكتاب والسُّنة، فما وافقها قبلناه، وما خالفها تركناه. التصوف: القيامُ بغايةٍ من الإخلاص، وصفاء النِّيَّة، وطهارة القلب، وهو في الحقيقة: حبُّ الله ورسوله الصَّادق، والألَّا ينحرف المسلم قيد شعرة عن اتِّباع أحكام الله ورسوله صَلَّى الله عليه وسلَّم، قال الجيلانيُّ: كُلُّ حَقِيقَةٍ لا تشهد لها الشَّرِيعَةُ فهي زندقَةُ «الفتح الرَّبَّانيُّ» (ص ١٧٩).

(١) وبالجملَةِ إنَّ إذعان أئمة الاجتهاد لرجال التَّصَوُّف كان مشتهرًا في ذلك العصر، وعلى الأخصَّ منهم الإمام الشَّافعي رحمه الله.

الشَّيْخ المختار الكنتي في كتابه «جذوة الأنوار» يذكر أنَّ الإمام الشَّافعي كان كثير الالتجاء للأولياء متفانيًا في حبِّهم، وكان يقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحنُّ قلبي، فرماه بعض المعتزلة بالرَّفْض فقال:

قالوا: ترفَّضتَ غير شكٍّ ما لرفض ديني ولا اعتقادي



■ ومنهم العلامة محمد السفاريني الحنبلي رحمه الله تعالى، من نابلس (١١١٤هـ - ١١٨٨هـ) عاش ٧٤ سنة = ٢٦ سنة وعشرين مؤلفاً، حكى عن إبراهيم بن عبد الله القلانسي رحمه الله تعالى: أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى قال عن الصوفية: (لا أعلم قومًا أفضل منهم. قيل: إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعة...) الاستماع المباح هو ما ليس معه آلة موسيقية، أو اختلاط، أو تخنث في الحركة؛ أي: ضمن الضوابط الشرعية^(١).



لكن	توليت	غير	شك	خير	إمام	وخير	هادي
إن	كان	حبُّ	الوليِّ	رفضًا	فإنَّني	أَرَفُضُ	العبادي

ومن المعلوم أنَّ أئمة الصُّوفِيَّة معظمهم من آل البيت؛ كالإمام الرَّفَاعِي، والجِيلَانِي، والدُّسُوقِي، والشَّاذِلِي، وآل باعلوي في اليمن، وقديماً الإمام جعفر الصَّادِق، والإمام الجنيد.

(١) «تنوير القلوب» للعلامة الشيخ أمين الكردي.

(٢) «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب».

■ ومنهم الإمام الشيخ تاج الدين عبد الوهَّاب بن علي السبكي (٧٢٧-٧٧١ هـ)

٤٤= سنة رحمه الله تعالى: أصله من مصر، نسبته إلى سبك الصيد في مصر، انتقل إلى دمشق مع والده صغيراً، ودرس على والده تقي الدين، أفتى وعمره ١٨ سنة، وهو من فقهاء الشافعية، وكان قاضي القضاة في دمشق، وتوفي بدمشق شهيداً بالطاعون، مؤلفاته: من أهمها «طبقات الشافعية الكبرى والوسطى والصغرى»، و«جمع الجوامع في الأصول» من شيوخه الإمام الذهبي.

قال في كتابه "معيد النعم ومبيد النقم" تحت عنوان (الصوفية):

(حيَّاهم الله وبيَّاهم^(١))، وجمعنا في الجنة نحن وإياهم. وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها، بحيث قال الشيخ أبو محمد الجويني^(٢): لا يصح الوقف عليهم؛ لأنه لا حد لهم^(٣). والصحيح صحته، وأنهم

(١) أي: أضحكهم الله وبوأهم منزلاً في الجنة.

(٢) إمام الحرمين، (٤١٩-٤٧٨)، أبو المعالي، عبد الملك بن عبد الله، إمام الأئمة، وأعجوبة الزمان، وجوين من قرى نيسابور في خراسان، جاور بمكة والمدينة أربع سنين يدرِّس ويعلم ويفتي، فلُقِّب بإمام الحرمين، والده محدث فقيه وعمه شيخ الحجاز، له تأليف منها: شرح كتاب «الرَّسالة» للشافعي، وهو صوفي له كتاب «السُّلوة في علوم الصُّوفية»، وحين وفاته كسروا منبره ومحابرهم

المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة... ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال: والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين تترجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم^(١).

* * *

■ ومنهم القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري المصري (٨٢٣-٩٢٦هـ)، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا، ملك العلماء الأعلام، وسلطان الفقهاء والأصوليين، مجدد القرن التاسع الهجري، تلميذ ابن حجر العسقلاني، والعز بن عبد السلام، ويعدُّ شيخ شيوخ القرن العاشر، له أكثر من ١٥٠ شيخًا، كان مضرب المثل بحسن الخلق، شارك في كلِّ العلوم، لم ترَ عينك مثله، له كتاب «شرح البهجة» في

وأفلامهم، وأغلقت الأسواق وأقاموا سنة كاملة على ذلك، وكان يحضر درسه ٤٠٠ عمامة، والسبب في وصوله إلى هذا الحدِّ بالعلم أنَّ والده كان لا يطعمه إلاَّ حلال.

(١) غير معروفين.

(٢) ومن منَّا لا يطلب الرَّحمة بسيدنا الجيلاني، والرِّفاعي، والبدوي، والشاذلي، والدُّسوقي، والمنبجي، وسيدنا الهاشمي وشيوخه، وسيدنا الشَّاغوري، والتركماني، واللَّحفي؟! حشرنا الله تحت رايتهم ورضي عنا وعنهم.

الفقه الشافعي وله رسالة في التعريف بمصطلحات الصوفية، وشرح البخاري ومسلم، بلغ مئة سنة وعمي آخر عمره، ودفن بالقرب من الإمام الشافعي. قال عن التصوف: (هو علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية).

* * *

■ ومنهم الإمام أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (توفي سنة ٢٤٣هـ): أحد الأوتاد، وأحد عظماء التاريخ في التصوف، الجامع بين علوم الظاهر والباطن، سمي بالمحاسبي؛ لأنه كان يحاسب نفسه، وهو شيخ الإمام الجنيد.

قال عنه الذهبي: الزاهد، العارف، شيخ الصوفية^(١)، له كتب كثيرة في الزهد.

وقال الشاطبي: المحاسبي من كبار الصوفية المقتدى بهم^(٢).

وقال القشيري: (الحارث عديم النظر في زمانه؛ علماً وورعاً ومعاملة وحالاً، بصري، مات ببغداد (٢٤٣هـ)، كان له حصي يعدها ويحسبها حالة الذكر، ردّ على

(١) «السير» (١٢/ ١١٠).

(٢) «الاعتصام» (٢٨٤).

الفرق الضّالة، كان له كرامة: إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عِرْق، فكان يمتنع منه، من كتبه: «الرّعاية لحقوق الله» و«رسالة المترشدين في التّصوّف والتّفكر والاعتبار».

واقبنا من كتابه "كتاب الوصايا" -وهو من أمهات الكتب- قوله رحمه الله تعالى متحدّثاً عن جهاده المير للوصول إلى الحق حتى اهتدى إلى التصوف ورجاله:

(... فقيض لي الرؤوف بعباده قومًا وجدت فيهم دلائل التقوى وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا^(١)، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى...، فأصبحت راغبًا في مذهبهم، مقتبسًا من فوائدهم، قابلاً لآدابهم، محبًا لطاعتهم، لا أعدل بهم شيئًا، ولا أؤثر عليهم أحدًا^(٢))، ففتح الله لي علمًا اتضح لي برهانه، وأنار لي فضله، ورجوت النجاة لمن أقرّ به أو انتحلّه، وأيقنت بالغوث لمن

(١) يا إخوة! نحن نقرأ هذه الصّفات لنحاول الاتصاف بها، وليس للمعرفة، وتضييع الوقت، العِلْم يتبعه العمل، الصّوفي: مسلم عمل بما علِم، فأورثه الله علِم ما لم يعلم.

(٢) هذا ما يجب علينا الانتباه له، أنتم مع قوم إذا جالستموهم لا تتركوهم لأخطائهم، كلُّ منّا يخطئ ويصيب، خذوا عنّا الصّحيح، ودعوا لنا غير ذلك، وادعوا لنا بالصلاح، ماذا كافأ الله المحاسبي على التزام الصّوفية؟.

عمل به، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه، ورأيت التراكمًا على قلب من جهله وجحده، ورأيت الحجة العظمى لمن فهمه، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجبًا عليّ، فاعتقدته في سريري، وانطويت عليه بضميري، وجعلته أساس ديني، وبنيت عليه أعمالي، وتقلّبت فيه بأحوالي، وسألت الله عز وجل أن يوزعني شكرًا ما أنعم به عليّ، وأن يقويني على القيام بحدود ما عرّفني به، مع معرفتي بتقصيري في ذلك، وأني لا أدرك شكره أبدًا).



■ ومنهم الإمام عبد القاهر الجرجاني البغدادي (توفي ٤٧١هـ) في إيران، نحوي متكلم، بل حجة المتكلمين^(١)، صاحب «إعجاز القرآن»، من أئمة الشافعية.

قال رحمه الله تعالى في كتابه "الفرق بين الفرق"^(٢): (الفصل الأول من فصول هذا الباب في بيان أصناف أهل السنة والجماعة: اعلموا أسعدكم الله أن أهل السنة

(١) أحد مؤسسي علم البلاغة، له «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، وهو أحد علماء الكلام في مذهب الأشاعرة، له أكثر من خمسين مؤلفًا، من أهمها: «الفرق بين الفرق» و«أصول الدين».

(٢) يشرح حديث: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة» رواه أبو داود، ورواية ابن ماجه: «والذي نفس محمد

والجماعة ثمانية أصناف من الناس^(١): والصنف السادس منهم: الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا [أقصروا عن الكلام في الضلالة]، واختبروا فاعتبروا [رأوا ضلال غيرهم فابتعدوا عنه]، ورضوا بالمقدور [لم يعترضوا على القدر]، وقنعوا بالميسور، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك مسؤول عن الخير والشر، ومحاسب على مثاقيل الذر، فأعدوا خير الإعداد ليوم المعاد، وجرى كلامهم في طريقي العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث، دون من يشتري لهو الحديث، لا يعملون الخير رياء، ولا يتركونه حياء، دينهم التوحيد ونفي التشبيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ومذهبهم التفويض [في آيات الصفات] إلى الله تعالى،

بِيَدِهِ؛ لَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَنْ هُمْ؟ قَالَ «الْجُمَاعَةُ». (٣٩٨٢)، وقسم الفرق إلى خمسة أقسام: ١- شيعة، ٢- خوارج، ٣- مرجئة، ٤- قدرية، ٥- معتزلة وما تفرق عنها.

(١) ١-: الأشاعرة والماتردية، ٢- الفقهاء وأهل الحديث، ٣- أهل اللغة، ٤- أهل الثُّغُور المجاهدون، ٥- العوام الذين يقلّدون الأشاعرة والماتردية، ٦- الزُّهاد الصُّوفية، ٧- علماء القراءات والتفسير، ٨- أهل السَّير والسُّنن ومصطلح الحديث، واشترط ألا يكونوا متَّبِعِينَ لأهل الأهواء والملل الفاسدة.

والتوكل عليه والتسليم لأمره، والقناعة بما رزقوا، والإعراض عن الاعتراض عليه،
﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] (١).

* * *

■ ومنهم الإمام أبو القاسم القشيري، عبد الكريم بن هوازن، (٣٧٦ - ٤٦٥ هـ)
عاش عامًا ٨٩، وهو من نيسابور، تلميذ عبد القاهر البغدادي إمام الصوفية، فقيه،
مفسر، محدث، أصولي، أديب، شاعر.

حضر عند أبي علي الدقاق (ت ٤٠٦ هـ) واشترط عليه ليقبله أن يدرس الشريعة،
ويتقن من علومها، فدرس الأصول والشريعة عند ابن فورك (ت ٤٠٦ هـ)، ثم إمام
وقته أبي إسحاق الإسفراييني (ت ٤١٨ هـ)، وكان صاحب الإمام الجويني والبيهقي،
خلف أبا علي الدقاق على التصوف بعد أن تزوج ابنته.

من كتبه «لطائف الإشارات في التفسير الإشاري»، وكتب في التصوف: «القلوب
الكبير»، «ترتيب السلوك» وأهم كتبه «الرسالة القشيرية».

(١) هذا الكلام قديم من القرن الخامس، أنتم على خير وصلاح، إياكم أن تبدلوا وتغيروا.

قال رحمه الله تعالى في مقدمة رسالته المشهورة "الرسالة القشيرية" متحدثاً عن حقيقة الصوفية^(١): (جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسرارهم، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق^(٢)، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق^(٣)، صفّاهم من كدورات البشرية [الأخلاق التي تحملها عظيمة]، ورقّاهم إلى محل المشاهدات بما تجلّى لهم من حقائق الأحدية، ووفّقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من

(١) وأنّ عقيدتهم هي عقيدة توحيد الله وتنزيهه عن مشابهة الخلق، وبعد أن صنّف التفسير الكبير المسمى «التيسير في علم التفسير» ألف كتابه «لطائف الإشارات في التفسير الإشاري».

(٢) حديث: «الأبدال يسقى بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب»، رواه أحمد، رجاله رجال الصحيح.

(٣) ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، اعرف قدرك من أنت بانتسابك إلى الصوفية، هذا كلام إمامهم وشيخهم.

واجبات التكليف^(١)، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليل والتصرف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال، أو صفا لهم من الأحوال^(٢)، علماً بأنه جل وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد، لا يحكم عليه خلق، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق، ثوابه ابتداءً فضل، وعذابه حكمٌ بعدل، وأمره قضاءً فصل). هذه شهادة إمام عصره فيكم، إياكم أن تنحرفوا، فتزول عنكم هذه الشهادة القيّمة.

ويقول أيضاً في "الرسالة القشيرية": (اعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علمٍ سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا أفضلية فوقها، فقد قيل: "الصحابة" ولما أدرك العصر الثاني سمي من صحب الصحابة "التابعين" ورأوا ذلك أشرف تسمية، ثم قيل لمن بعدهم: "أتباع التابعين" ثم اختلفت وتباينت المراتب فقليل لخواص الناس

(١) الصوفي لا تسقط عنه الصلاة ولو صار أكبر الأولياء، قال الجيلاني: ترك العبادات المفروضة زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال. «الفتح الرباني» للجيلاني (ص ١٢٩).

(٢) الصوفيّة يخفون كراماتهم كما تُخفي الحرّة وجهها.

من لهم شدة عناية بأمر الدين: "الزهاد والعباد" ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادَّعوا بأن منهم زهادًا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم "التصوف" [الصُّوفيَّة] واشتهر هذا الاسم هؤلاء الأكابر بعد المئتين للهجرة).

■ ومنهم الإمام سيدنا الإمام جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) مجتهد القرن العاشر الهجري، قال: (إنَّ التصوف في نفسه علم شريف، وإن مداره على اتباع السنة وترك البدع، والتبرُّؤ من النفس وعوائدها وحظوظها وأغراضها ومراداتها واختياراتها، والتسليم لله، والرضا به وبقضائه، وطلب محبته، واحتقار ما سواه.. وعلمت أيضًا أنه قد كثر فيه الدخيل من قوم تشبهوا بأهله وليسوا منهم، فأدخلوا فيه ما ليس منه، فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع، فتوجَّه أهل العلم للتمييز بين الصنفين ليُعلم أهل الحق من أهل الباطل، وقد تأملتُ الأمور التي أنكرها أئمة الشرع على الصوفية، فلم أرَ صوفيًّا محققًا يقول بشيء منها، وإنما يقول بها أهل البدع والغلاة الذين ادَّعوا أنهم صوفية وليسوا منهم).

* * *

■ ومنهم الإمام سيدنا ابن عابدين (ت ١٢٥٢) المحرر للمذهب الحنفي، محمد أمين بن عمر، شيخه الشيخ خالد النقشبندي، كان أمين الفتوى في عصره، وقد تحدّث عن البدع الدخيلة على الدين مما يجري في المآتم والختمات من قبل أشخاص تزوّوا بزي العلم، وانتحلوا اسم الصوفية، ثم استدرّك الكلام على الصوفية الصادقين حتى لا يُظن أنه يتكلم عليهم عامة فقال: (ولا كلام لنا مع الصّدّق من ساداتنا الصوفية، المبرّئين عن كل خصلة رديّة، فقد سُئل إمام الطائفتين الجنيد: إن أقوامًا يتواجدون ويتمايلون؟ فقال: دعوهم مع الله يفرحون، فإنهم قوم قطع الطريق أكبادهم، ومزّق النصب فؤادهم، وضاقوا ذرعًا، فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواة لحلمهم، ولو ذُقت مذاقهم عذرتهم في صياحهم).



وحتى لا يعترض الوهابية أنقل لهم قول إمامهم الأول ابن تيمية غفر الله له، قال عن تمسك الصوفية بالكتاب والسنة: (فأما المستقيمون من السالكين -كجمهور مشايخ السلف؛ مثل: الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ حماد [شيخ سيدنا عبد القادر الجيلاني

مدفون خلف قبر سيدنا بلال بدمشق] والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين - فهم لا يسوغون للسالك - ولو طار في الهواء أو مشى على الماء - أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحذور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم).

هذا وقد كان العلماء بل أكابرهم إذا استحسنوا صنع عالم أو راوٍ أو حافظٍ للقراءات أو مؤلفٍ... أو زاهدٍ يقولون: إنه صوفي..

وانظر إلى «شرح صحيح مسلم» تجد أن الإمام النووي إذا أراد أن يمدح أحد شيوخ السنة يلقبه بالصوفي.

وكذا ابن الجوزي في «صفوة الصفوة» في القرون الأولى يقول: الصوفي.

وكذا الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» عندما يعظم اسم أحد المترجمين يجعل كلمة (صوفي) مدحة له.

وقد ترجم الإمام ابن حجر شارح «البخاري» ترجمة للإمام الجيلاني عليه رضوان الله، ناهيك عن أن جميع شراح «البخاري» من أصحاب الصلة بالتصوف.

وأما ابن تيمية الذي يعتنق المعارضون للتصوف آراءه المخالفة للمذاهب الأربعة؛ فقد ألف كتاباً سماه (الصوفية والفقراء) وأفرد مجلدين من «الفتاوى»

للحديث عن الصوفية، وذكر أن له سندًا في الرواية عن القطب سيدي عبد القادر الجيلاني، وإذا ذكره يقول: (قدّس الله سرّه).

وأما تلميذه وناقل أقواله والمنتصر له وأمينه على فكره ابن قيم الجوزية؛ فقد ألف كتاب «مدارج السالكين في شرح منازل السائرين».

وأما أئمة القراءات فإن مرجعهم مع صوفيتهم هو أئمة التصوف، وكلهم يتحدون عند مولانا الإمام شيخ الإسلام سيدنا الشيخ زكريا الأنصاري شارح «الرسالة القشيرية» التي تُعدُّ بحق دستور أئمة التصوف.

فلتسكت الألسن التي تطعن على رجال التصوف؛ لتنال من رجال الإسلام، ولتستغفر من ذنبها، فلقد بدعت الناس وكفرتهم بغير حق، «ومن كفر مسلماً فقد كفر» صدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مع كل ما تقدّم نجد الحاقدين على التصوف إذا سمعوا بشيء من أخلاق القوم؛ قالوا: هذا صوفي لا شرعي، فيتوهم السامع أن التصوف أمر خارج عن أصل الشريعة، والحال أنه لبّ الشريعة كما سمعتم، وإن من يطالع كتب القوم السليمة من الدس - مثل: كتاب «الحلية» لأبي نُعيم، و«الرسالة القشيرية»، وكتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف» للكلابادي، و«اللمع» للطوسي، و«الإحياء» للغزالي،

و«طبقات الصُّوفيَّة» للسُّلمي، و«الرَّعاية لحقوق الله» للمحاسبي، و«الوصايا»
للشيخ محيي الدِّين بن عربي وغيرها من كتب الصُّوفيَّة - لا يجد خُلُقًا ممَّا يخالف
الشَّريعة أبدًا؛ لكثرة محاسبة الصُّوفية لأنفسهم وأخذهم بالعزائم، فإنَّ حقيقة طريق
القوم عِلْم وعمل، سُداها ولُحمتها، شريعة وحقيقة، خذوها عني: لا نصيب لأيِّ
صوفي دون التَّمسك بالشَّريعة، من لا يؤتَمِن على آداب الشَّريعة لا يؤخذ منه شيء...
الشَّريعة أوَّلًا، ثمَّ يتبعها الحقيقة... لا تُخدَعوا باللَّحى والمسابع والجبب والعمائم،
انظروه عند الأمر والنهي، انتبهوا من الأدعياء؛ لأنَّهم منحرفون^(١) وطريقنا استقامة.

(١) (فيصل بقلة - إمام جامع كيوان).

تاريخية التصوف

ما العلم الذي يهدف إلى تهذيب النفس وترقيق القلب وتنمية المراقبة الذاتية لله تعالى؟

ما الفن الذي يجعل صاحبه منصرفاً إلى مرضاة الله تعالى وإخلاص النية والبعد عن الرياء والمعاصي وارتكاب المناهي؟

ما الشخصية التي توجب على صاحبها أن يجمع بين الفقه وعلوم الشريعة، وبين السلوك والتربية والصلة بالله تعالى؟

أستطيع أن أقول بكل فخر واعتزاز: إنه التصوف أو الزهد أو الورع أو الطريقة، سَمِّهِ ما شئتَ فهو من الإسلام، فلا مشاحة في الاصطلاح.

نعم؛ هذا المصطلح أو هذا العلم لم يعرف في القرن الأول، ولكن الصحابة والتابعين ضربوا فيه بنصيب وافر، فلم يَتَسَمَّ عصر الصحابة بتسمية علمٍ سوى أنهم أصحاب سيدنا رسول الله؛ إذ لا أفضلية فوقها، فأطلق عليهم: الصحابة.

ولما أدرك أهل العصر الثاني سُمِّيَ مَنْ صحب الصحابة بالتابعين.

ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقليل لخواص الناس ومن لهم شدة وعناية بأمر الدين: الزُّهَّاد والعبَّاد.

ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادَّعوا أن فيهم زهَّادًا، فانفرد خواصُّ أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم: الصوفية (من التصوف) واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المتئين من الهجرة، وأول من سمي بالصوفي أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة (١٥٠هـ) وقد جمع سيدنا أبو عبد الرحمن السُّلَمي في كتابه «الزهد» من الصحابة والتابعين وتابعيهم ما شاء الله تعالى.

وكان الزهد - أيها السادة - هو البذرة الأولى للتصوف، ويعدُّ الإمام الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) من أهم رواد التصوف، وأقدم كتاب للزهد بين أيدينا لأهل السنة والجماعة كتاب لسيدنا عبد الله بن المبارك (١٨١ هـ) ثم للإمام أحمد ابن حنبل (ت ٢٤١ هـ) ثم للكلاباذي (محمد بن إسحاق الحنفي ت ٣٨٠ هـ) وهو كتاب «التعرف لمذهب التصوف»، ثم «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (محمد بن علي ت ٣٨٦ هـ).

ثم تجمعت هذه الأقوال في كتاب واحد يعد موسوعة للتصوف هو كتاب «حلية الأولياء» للمحدث أبي نُعَيْم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ).

فالتصوف - أيها الإخوة - عرف به جهابذة الرجال، ومن أعلامهم في القرن الثاني محمد بن سيرين (ت ١١٠هـ) وابن المبارك، والفضيل بن عياض ومعروف الكرخي (٢٠٠هـ) وبشر الحافي (٢٢٧هـ).

ولما سئل الإمام تقي الدين السبكي عن الصوفي الحق؛ قال: الصوفي من لزم الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخُلُق، وطريق الصوفي إذا صحت هي طريقة الرشاد التي كان السلف عليها، ثم أنشد بديهة:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قَدَمًا وظنوه مشتَقًّا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسمَ غيرَ فتى صافي فصوفي حتى لُقِّبَ الصوفي

ثم تكاملت صورة التصوف الإسلامي في القرنين الخامس والسادس من الهجرة النبوية، وبدأ يأخذ طريقه على أَنَّهُ منهج إصلاحِي منظم عن طريق الدعوة الروحية والمجاهدات النفسية والخلقية في مواجهة تيار الترف.

التصوف في القرن السابع الهجري

ثم هبت عاصفة عقلية جامحة في القرن السابع الهجري بعثها علم الكلام (العقيدة) الذي كان الشغل الشاغل للمسلمين في القرون الأخيرة، وكانت هذه العاصفة ضدَّ المعتزلة والفلاسفة، فانطفأت بها مجامر القلوب حتى أصبحت رمادًا وركامًا بشريًا، وانتصر في هذه المعركة الكلامية الأشاعرةُ أهل السنة والجماعة، وفقد الاعتزال والفلسفة شيئًا كثيرًا من سيطرتها ونفوذهما، وجاء العلامة فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) فجدد دولة علم الكلام ووسَّعها بشخصيته القوية ومؤلفاته العظيمة وبحوثه الدقيقة، ولم يتم ذلك إلا بعد حروب كلامية كثيرة في العقيدة، وجدل مستفيض حوّل العالم الإسلامي إلى مدرسة فيها القيل والقال، والنقاش والجدال، بعيدًا عن العاطفة، وصار عند الناس جفاف عاطفي رهيب..

وفي هذا الجو العقلي كان العالم بحاجة إلى شخصية قوية عبقرية تملأ القلوب عاطفةً تعادل كفة الطغيان العقلي، وفي وسط هذه العاصفة هتف هاتف بالحب والعاطفة، فهب العالم الإسلامي من نومه العميق، ودبت فيه الحياة، إنه إمامنا اليوم، إمامنا اليوم - يا سادة - أعاد للعالم توازنه، وكان ديوانه الشعري المشوي ثورةً على المعتزلة والفلاسفة الذين بالغوا في تقدير الحواس وتقديس العقل.

خاطب العالم أجمع بلغة الحب والعاطفة؛ الحب الذي يحوّل المرّ حلّوًا، والتراب
تبرًا، والكدر صفاء، والألم شفاء، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة،
خاطبهم بلغة الأحباب التي تلين الحديد وتذيب الحجر، وتبعث الميت وتنفخ فيه
الحياة والحب الذي إذا سرى في الجبال الراسيات ترنحت ورقصت طربًا؛ كما أنه
﴿فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكًا وخرّ موسى صعقًا﴾ (الأعراف ١٤٣)، إنّه الحب
يطير بالعبد بجناحه من المادة إلى عالم الروح.

إنه سيدنا ومولانا الإمام جلال الدين الرومي

بهذه اللغة خاطب أهل القرن السابع، ناداهم: إن الحب شعلة تحرق كلّ ما سوى
المحبوب، وقال لهم: لقد رأينا كثيرًا ممن يحسنون السباحة قد غرقوا في هذا البحر
اللجّي، ولكن ما رأينا سفينة الإيمان والحب تغرق "إن مكانة الحب لا تنتهي؛ لأن
الحب وصفٌ من لا يفنى ولا يموت".

إننا اليوم نزور معًا سيّدًا بقي حياته في شعره الرنّان، يتغنى بالعاطفة والحب
والإيمان، حتى دبّ في مجتمعه ديب الحياة، وترنّح بهذا الرجز والحذاء القوي الأدب
الإسلامي كلّهُ، ردّده الشعراء وضربوا على وتره، وانطلقت في عالم التصوف موجةٌ
جديدة تستحق أن تسمّى الاعتزاز بالإنسانية، أو تكريم الإنسان.

كان يقول لمريديه: هل وُجّه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء ٧٠) إلى السموات والأرض؟ لمن وُجّه هذا التكريم؟ إنه لم يوجه إلا لهذا الإنسان الذي يستهين بقيمته ويجهل مكانته.

إن الإنسان مظهر لصفات الله تعالى وأثر من قدرته، وهو المرآة الصادقة التي تجلّت فيها آياته، نادى إمامنا هذا الإنسان فقال له: (يا من من عبده العقل والحكمة والمقدرة؛ كيف تباع نفسك رخيصة؟ إنَّ الله اشتراك وخلّصك من المساومات والمقاولات إلى آخر الأبد، فالشيء لا يباع مرتين).

(فهل أنت من الرجال أم من أشباه الرجال ولا رجال؟! هل أنت فريسة شهوتك، لا تعرف من إنسانيتك سوى الشبع والري والشهوة؟!).

ثم قال لهم: (إن هؤلاء ليسوا رجالاً، إنما هم صُور الرجال، هؤلاء الذين يحكّم عليهم الخبز، وقتلت الشهوات فيهم الإنسانية).

أيها المحبُّون للحقيقة؛ لا تغتروا بأدعياء التصوف الذين يهرفون بما لا يعرفون.. اعرفوا الرجال بالحق ولا تعرفوا الحق بالرجال...

الصوفية يدافعون عن منارات الإسلام

منهم الإمام تقي الدين السبكي

في خِصَمِّ حياة الإمام العلمية يفاجأ العالم الإسلامي بعدة فتاوى وصلت إلى الإمام السبكي نشرها ابن تيمية حيث كان في الشام، فأفتى بحرمة شدِّ الرحال لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، مدعيًا أنه يؤدي إلى الشرك، وأن من خالف هذه العقيدة فقد كفر.

فانبرى له الإمام تقي الدين السبكي يردّ عليه بشدة، مبينًا أنه

١ - خرج بفتواه تلك عن إجماع المسلمين

٢ - وخالف أهل السنة والجماعة

٣ - وكفّر سادات الأمة المحمدية.

وكتب كتابًا بذلك سمّاه:

(شفاء السقام في زيارة خير الأنام)، وضح فيه أن ما تخيله ابن تيمية من منع الزيارة والسفر إلى النبي محافظةً على التوحيد تحيّل باطل؛ لأن المؤدي إلى الشرك هو

اتخاذ القبور مساجد والعكوف عليها والسجود إليها، بخلاف الزيارة والسلام والدعاء.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..." فمعناه: لا تشد الرحال إلى مسجد في الدنيا لأجل تعظيمه والصلاة فيه إلا إلى هذه الثلاثة، وهذا التقدير لا بد منه، ولو لم يكن هذا التقدير هكذا لاقتضى منع شد الرحال إلى الحج والجهاد والهجرة من دار الكفر ولطلب العلم والتجارة، ولا يقول بذلك أحد. وهكذا نجد أن السادة الصوفية علماء يترصدون لمن يريد تحريف الشريعة ويدافعون عنها.

الصوفية يدافعون عن منارات الإسلام

الإمام ابن عطاء الله السكندري

هو رجل من هؤلاء الأعلام وواحد من شيوخ خمسة كانوا في عصر واحد اجتمعت الأمة على الاقتداء بهم؛ لأنهم جمعوا بين علم الظاهر والباطن، وتصدّروا رئاسة علماء الشريعة ورئاسة علماء الحقيقة.

نحن اليوم مع تاج الدين وترجمان العارفين، المالكي المذهب، الإسكندري دارًا، القاهري مزارًا، يعد أبرز ممثلي التصوف الشرعي المصري في القرن السابع الهجري، بل أعجوبة زمانه في التصوف، عجن ذاته بقواعد التصوف والزهد، وتبحر في الفقه، وجعل منذ نشأته الإخلاص رائده، والصدق والاستقامة منهجه، فبوّاه الله مكانة علمية مرموقة، وجعله نبراسًا يقتدى به، فغدا أحد أفراد سلسلة الذهب في التصوف، وإمامًا في التفسير والحديث والأصول، كم من تائب على يديه تاب، وتغيرت أحواله السيئة وأصلح وأتاب، وكم من غافل تيقظ، وجاهل به تبصّر!!

إننا مع الشيخ القدوة شيخ الطريقتين وإمام الفريقين العارف بالله تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندري، صاحب الحكم المشهورة.

فحين أَلَفَ ابن تيمية رسالته في العقيدة «الحموية» و«الواسطية» ثار عليه العلماء، وعلى رأسهم ابن عطاء الله السكندري؛ لأنه تحدث فيهما عن تجسيم الله تعالى، وقال فيهما: إن اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله تعالى، وإنه مستوٍ على العرش بذاته... وتكلم على الصحابة الكرام فقال عن سيدنا علي: إنه حاول الخلافة مرارًا فلم ينلها، وإنه قاتل للرئاسة لا للديانة، وإنه أسلم صبيًا والصبي لا يصح إسلامه على قول، كما تكلم على بعض الصحابة الآخرين، وأنكر التوسل بالنبي صَلَّى الله عليه وسلَّم وذكر طامات أخرى... "مما حدا بالعلماء أن يثوروا عليه، ومن ثار عليه ابن عطاء الله والتقي السبكي، واستعدوا عليه السلطان، فخيرته بين الإقامة بدمشق أو القاهرة بشروط أو الحبس، فاختر ابن تيمية الحبس، فحبس نحو أربع سنين حتى خمد ذكره بين معارضيه.

يظن بعض من الناس أننا نتحامل على ابن تيمية، وهذا غلط.. الصوفية لا يتحاملون على أحد، بل يذكرون الحق دون أن يسبوا أحدًا، وابن تيمية غلط في عدد من القضايا الفقهية^(١) بل في الاعتقادية^(٢) وتابعه عليها الوهابية لشق صف أهل السنة

(١) خرق الإجماع في لفظ: (عليَّ الطَّلَاق) أنَّه لا يقع عليه، بل عليه كفارة يمين.

- طلاق الحائض لا يقع، وكذا الطَّلَاق في طُهرٍ جامع فيه.

والجماعة، فكان لا بد من وقفة لتبيين حالهم.. وهذا ما فعله الصوفية العلماء بالله
دفاعاً عن الإسلام؛ مثل: التَّاج السُّبكي، والعز بن عبد السَّلام، وأهل عصرهم من
أصحاب المذاهب الثلاثة غير الحنابلة.

فهنيئاً لهم هذا الحال أن بعثهم الله للدفاع عن الدين، فلتعرف الأمة لهم ذلك..

أَنَّ الصَّلَاةَ إِذَا تَرَكْتَ عَمْدًا لَا يَجِبُ قَضَاؤُهَا.

أَنَّ الْحَائِضَ يَبَاحُ لَهَا الطَّوَّافُ بِالْبَيْتِ وَلَا كَفَّارَةٌ عَلَيْهَا.

أَنَّ الطَّلَاقَ الثَّلَاثَ يَرُدُّ إِلَى وَاحِدَةٍ، أَوْ كَانَ هُوَ قَبْلَ ذَلِكَ نَقَلَ الْإِجْمَاعُ عَلَى خِلَافِهِ.

أَنَّ الْجُنُبَ يُصَلِّي تَطَوُّعَهُ بِاللَّيْلِ، وَلَا يُؤَخَّرُهُ إِلَى أَنْ يَغْتَسِلَ قَبْلَ الْفَجْرِ.

أَنَّ مَخَالَفَ الْإِجْمَاعِ لَا يَكْفُرُ وَلَا يَفْسُقُ.

(١) أَنَّ اللَّهَ مَرْكَبٌ تَفْتَقِرُ ذَاتُهُ افْتِقَارَ الْكُلِّ لِلْجُزْءِ.

القرآن محدث في ذات الله تعالى.

العالم قديم بالنوع، ولم يزل مع الله مخلوقاً.

قوله بالجسمية والجهة والانتقال، وأنه بقدر العرش لا أصغر ولا أكبر.

أَنَّ النَّارَ تَفْنَى، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ غَيْرَ مَعْصُومِينَ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَا جَاهَ لَهُ وَلَا يَتَوَسَّلُ بِهِ.

وَأَنَّ إِنْشَاءَ السَّفَرِ إِلَى النَّبِيِّ بِسَبَبِ الزِّيَارَةِ مَعْصِيَةٌ لَا تُقْصَرُ الصَّلَاةُ فِيهِ...

الصوفية يدافعون عن الإسلام

الصوفية والجهاد

لم يقتصر دور الصوفية على الزهد في الدنيا وزخارفها طمعاً في الآخرة ونعيمها، بل انخرطوا في لجج الحياة العامة، خصوصاً إن كان الأمر دفاعاً عن الإسلام، أو سعيًا في نشر لوائه في ثغور الشام، أو تخوم أندلس أو فارس والهند والصين.... ورأوا أن نصر الأمة لا يكون أبدًا إلا بتقوى أبنائهم لربهم متأسين بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بدأ معركة بدر باللجوء إلى الله تعالى والدعاء قبل أن يعمل السيفُ عمله في رقاب أعداء الإسلام.

وكذا الشأن في أخذ والغزوات الأخرى.. لم يفهموا أن التصوف يعود مع القاعدين ولا بقاء مع الخالفين، بل كانوا يجتمعون أحيانًا في مراتب الجهاد في الثغور لما واجهوا البيزنطيين؛ مثل التجمع الذي كان رأسه الإمام أبو القاسم القحطبي الصوفي وأبو القاسم الأبار وأبو القاسم الملطي الصوفي صاحب الإمام الجنيد رضي الله عنهم^(١).

(١) (كما في كتاب الشيخ رسلان للمؤرخ عزة حصريّة رحمه الله تعالى).

وحين جاء الصليبيون تصدى لهم أئمة الجيوش الذين رُبُّوا في مدارس تصوف الإمام الجيلاني قدس سره؛ كآل زنكي وعلى رأسهم السلطان نور الدين الشهيد، وهم بدورهم ربُّوا جندهم في مدارسهم الصوفية على كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي^(١) على امتداد بلاد الشام ومصر، فخرج جيل صلاح الدين الأيوبي الذي هبَّ عقائد القادة والجند للثبات في مستقبل الموت لتحرير القدس ومصر والشام^(٢).

أما إمامنا الشاذلي قدس سره فكان في طليعة جيش الدفاع عن منصور مصر^(٣) وقد تجاوز الستين من عمره وكف بصره، وكان الإمام العز بن عبد السلام في جيشه. والإمام العزّ كان أيضًا في جيش سيف الدين قطز الذي انتصر على التتار في معركة عين جالوت سنة (٦٥٦هـ).

(١) فقرَّره على جيشه كلّهُ، وكان جليس رجال التصوف.

(٢) ذكره السُّبكي في «طبقاته» ووصفه بالصُّوفي، الزَّاهد، الورع، التَّقِي، النَّقِي، أقام زوايا في مصر للصُّوفية، وبنى مدارس الصُّوفية في جبل قاسيون، وهو الذي بنى قبة على قبر الإمام الشَّافعي، وفتح بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ)، وكان في جيشه كثير من الصُّوفية.

(٣) التي حبست لويس التَّاسع.

وفي بلاد الشام وقف سيدنا الشيخ رسلان مع مريديه ضد الهجمة على أطراف دمشق وله فيها خوارق.

ولا يخفى على أحد ما فعله الإمام السيد أحمد البدوي ومريدوه صد جيش الفرنسيين حتى أسروا ملكهم، وقد كان طوال الوقت قبلها قد عين لهم يومًا ليدرهم على حمل السلاح لمواجهة أعداء الأمة الفرنجة، فاندفعوا بقيادته يستأصلون شأفة الفرنسيين ويزلزلون الأرض من تحت أقدامهم، وذكرت لهم خوارق كالتى نسمعها عن كرامات الأولياء.. إذ أطلقوا عليهم مياه النيل وهم في طريقهم إلى المنصورة، فمات أكثر من ثلاثين ألف جندي فرنسي، وأسر الملك لويس التاسع ولم يطلق سراحه إلا بفدية كبيرة من فرنسة بعد أربع سنوات.

وفي الأندلس منع المرابطون سقوط الأندلس مئتي سنة، وهم الذين رُبُّوا في مدارس الإمام الجيلاني بباب الأزج في بغداد^(١).

وبقي الصوفية طليعة المهاجمين للبيزنطيين في آسية وأوروبا وفي دولة بني عثمان التي توسعت بفضل الصوفية على مدى قرون.

وأما السُّلطان مُحَمَّد الفاتح؛ فكان شيخه صوفيًّا، وأرسل إلى شيخ الطَّريقة في زمانه العارف بالله آق شمس الدِّين أَنَّهُ يريد الجهاد وفتح القسطنطينية، فحضر وبشره بالنَّصر، وخرج في جيشه واستعصت عليهم، فجاء وزير السُّلطان إليه، فوجده ساجدًا يبكي، ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله فتحت القلعة، فنظر الوزير خارج الخيمة فإذا بالجنود قد دخلوا القلعة، وقال السلطان كلمته: ما فرحت بهذا الفتح، وإنَّما فرحي بوجود مثل هذا الرَّجل في زمانِي، وجاء إلى خيمته، وقبَّل يده، وطلب أن يدخل الخلوة عنده، فقرأ عليه الشَّيخ آق شمس الدِّين الأوراد، والسُّلطان جالس على ركبتيه، فلمَّا أتمَّها؛ قال له: التمس أن يعيَّن قبر الصَّحابي أبي أيوب الأنصاري، فقال آق: التقت روحي مع روحه، وهنأني بالفتح، ثمَّ سار إلى منطقة

(١) انظر (كتاب هكذا ظهر جيل صلاح الدين.. ماجد عرسان الكيلاني).

ودلّهم عليه، وقال: أشاهد نورًا من هذا الموضع، فحفروا، فظهرت رخامة عليها خط، فقرؤوها؛ فإذا هو قبر سيدنا أبي أيوب، فأخذ السلطان محمّد الفاتح الحال.

وامتد أثرهم من العهد الصليبي إلى العصر الحديث في عهد الاحتلال الفرنسي، وما زلت أذكر شيوخ الشام ومعهم سيدي الوالد وأسرته الكريمة يتدربون عسكريًا، وكم سُجِنُوا وتعرضوا للمواقف، ومنهم شيخ الشام الشيخ محمد هاشم الخطيب.. وكان يهاجمهم على منبره رحمه الله تعالى.

وبان دخول الفرنسيين دمشق تجمع الناس في الجامع الأموي وخرجوا لملاقة الفرنسيين خارج دمشق.. ولا ننسى الرحلة التي قام بها سادة أهل التصوف بقيادة سيدنا الشيخ بدر الدين الحسني ومعه وزيراه الشيخ هاشم الخطيب والشيخ علي الدقر إلى المحافظات وتهيج الناس ضد الاحتلال الفرنسي، فكانت الثورة السورية عام ١٩٢٥ م.

وفي الشَّيشان الذين يجاهدون هم أهل الطَّريقة النَّقشبندية، فالشيخ أشرمة أوّل قائد عسكري صوفي ضدَّ الرُّوس.

وفي المغرب الإمام عبد الكريم الخطابي قائد حركة المرابطين في المغرب وثورته ضدَّ الاستعمار الفرنسي والإنكليزي.

وفي السُّودان الإمام المهدي الصُّوفي.

وفي الجزائر الأمير عبد القادر الجزائري وثورته ضدَّ فرنسة.

وفي ليبيا شيخ الطريقة السنوسية الإمام عمر المختار.

وغيرهم كعز الدين القسام الذي أتعب اليهود والصُّهيونية وسيدي محمد بن

الهاشمي..

وكان من أوائل من أطلق صيحة الجهاد في فلسطين على الاستعمار الإنجليزي

الشيخ فرحان السعدي، ولد سنة (١٨٥٨م) من العائلة الجبّاية السعدية، وسرعان

ما ألقى عليه القبض مع مريديه، فأعدمه الإنجليز وهو صائم، ورثاه الشاعر عبد

الكريم الكرمي:

قوموا اسمعوا من كل ناحية يصيح دم الشَّهيد

قوموا انظروا فرحان فوق جبينه أثر السُّجود

يمشي إلى جبل الشَّهادة صائمًا مشي الأسود

لقد أثبت الصوفية أنهم رجال كل مرحلة في التاريخ، وما يزال النداء يهتف في
أنحاء الشام عند كل كرب:

شيخ رسلان يا شيخ رسلان يا حامي البر والشام

مراتب الولاية في الفكر الصوفي

الأولياء.. الأبدال.. النقباء.. النجباء.. الرجال.. الأوتاد.. الأقطاب.. القطب

الغوث..

هذه مراتب في الولاية لله تعالى^(١).

وهي مصطلحات صوفية لا تصف مكانة عباد الله في موالاة الله فقط، ولكنها

أيضاً تصف مدى حبهم وتعلقهم بالله ومدى علمهم ومعرفتهم به سبحانه.

الوليُّ عند الصُوفيَّة من تولاه الحقُّ سبحانه بظهور أسمائه وصفاته عليه علماً وعيناً

وحالاً؛ يعني: الوليُّ من تولاه الله بكثيرٍ ممَّا تولَّى به النَّبي صَلَّى الله عليه وسلَّم؛ من

(١) وهؤلاء جميعاً دون الأنبياء، ومهما وصل الولي في المراتب لا يلحق أبداً رتبة النبوة، فلو أنَّ ولياً تقدَّم

إلى العين التي يأخذ منها الأنبياء والرُّسل لاحترق من حينه. «اليواقيت والجواهر» للشعراني

(مبحث ٤٢).

وأريدكم أن تعرفوا أنَّ هذه المراتب هي بعد الأنبياء والرُّسل والصَّحابة، فأفضل الأولياء المحمَّديّين بعد

الأنبياء هم الصَّحابة، وأفضل الجميع الصِّديق الأكبر، ثمَّ الفاروق، ثمَّ سيِّدنا عثمان، ثمَّ سيِّدنا علي؛

كما دلَّت عليه الأحاديث والآيات، وعملنا مع عملهم كطيران النحلة من سرعة طيران الحمام، فقد

حازوا السَّبق بصحبة سيِّد الوجود صَلَّى الله عليه وسلَّم.

حفظ وتوفيق وتمكين واستخلاف وتصريف، وقد وَّكَّله الله بوظائف لأهل الأرض
كما أعطى الله رؤساء الملائكة وظائف يتصرّفون فيها بأمره، فكما أنّ كل ملك موكل
على شيء؛ فكذا الأولياء في الأرض، وإذا اختص الله عبداً واصطفاه جعله ولياً^(١)..

أحب أن أؤكد أن هذا العلم يتعلق بالصوفية المختصين بحب الله وقربه ومعرفته
وكذا ولايته.. فكان من الطبيعي أن تكون لهم مصطلحاتهم مثل غيرهم من العلوم
والتخصصات؛ كالأطباء والمهندسين والفلاسفة وغيرهم...، ومن هنا أنكر الجاهلون
هذه المصطلحات.. حين أثبتها العلماء الربانيون، فمن كان جاهلاً بلغة القوم فلا
يقرّ أن هذا العلم^(٢).

(١) وهو عبد لا يضر ولا ينفع بذاته كباقي البشر، وهو دون الأنبياء في المرتبة والمنزلة؛ إذ لا أحد يصل
إلى مرتبة الأنبياء مهما ارتقى في مراتب الولاية...؛ لذلك الولي ليس بمعصوم عن الخطأ إلا من
عصمه الله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢)
الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، فالمتّقون هم أولياء الله، والدليل في السُّنَّة: «من
عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» أخرجه البخاري.

(٢) لأنّ هناك أقواماً أنكروا حديث الأبدال وضعفوه، ثم قالوا: بنيتم على حديث ضعيف في الأبدال
دولة من مراتب الأولياء!! من أين لكم هذا؟ هكذا كان السؤال لما كتبت هذه المقالة على الواتس
أب، وستأتي حلقة خاصة للأدلة على هذا البحث.

وقد تحدث العلماء عن هذه المصطلحات الصوفية، ومنهم الإمام القشيري في «رسالته».. والإمام ابن عربي في «فتوحاته المكية».. والقاشاني في «مصطلحاته الصوفية».. والإمام السيوطي في «رسالته: الخبر الدالّ، على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال».. و«التعريفات» للجرجاني^(١)..

مراتب الأولياء:

جعل الصُوفِيَّةُ الأولياء على مراتب، وذلك بحسب اجتهادهم في دقائق التَّقْوَى، وبحسب توفيق الله لهم، فليس كُلُّ الْمُتَّقِينَ على درجة واحدة، ويجب أن نعلم أَوَّلًا: أَنَّ كُلَّ أَهْلِ الْإِيمَانِ بالله ورسوله أولياء، ولكنَّ قُرْبَهُمْ مِنَ الْحَقِّ جَلَّ جلاله على قَدَرِ معرفتهم به، وإنما يرتقي الولي في طبقات الولاية الخاصّة بعد الولاية العامّة.

(١) هذه مصادر هذا البحث لمن أراد الرُّجُوع إليها، هناك دولة من الأولياء تسيّر الكون بأمر الله ربّ العالمين، أخي أحبّ أن يدرس هندسة في ألمانيا، وكلّما تقدم بطلب رفض، حتّى ذكر أمام والدي هذه المسألة، فقال له مولانا الوالد: هل استأذنت أهل الله في خروجك؟! تقرأ الفاتحة لهم وتستأذن ثم تصلي ركعتي الاستخارة وتطلب من الله أن يختار لك الخير، فقام أخي بذلك، فسَهَّلَ الله تعالى له ذلك خلال شهر على نحو عجيب.

وفي كل بلد أولياء أبرار، ففي الشام أبدال وهم أربعون.. وفي مصر نقباء وهم سبعون.. وفي الغرب النجباء وهم ثلاث مئة.. وفي العراق رجال وهم عشرة.. والأقطاب سبعة أركزهم الله بالقارات السبع^(١)، والأوتاد في جهات الكعبة الأربعة، وقد يطلق عليهم: الأقطاب الأربعة. والقطب الغوث^(٢) واحد^(٣) أقامه الله بمكة المشرفة، وهو الواضع لقدمه فوق عنق الكل؛ من مريدٍ إلى الرجال ثم إلى الأقطاب، مرورًا بجميع الأولياء في زمانه وجميع الرتب^(٤)..

-
- (١) مشغولون بحمل أثقال الخلق، فلا ينظرون إلَّا في الحق، وهم أعمال ظاهرة: الفتوة، والتواضع، والأدب، وكثرة العبادة، وأعمال باطنة: الصبر، والرضا، والشكر، والحياء...
- (٢) أو قطب الأقطاب أو الفرد الجامع.
- (٣) لا يكون في كلِّ عصر إلَّا واحد، وهو الخليفة عن رسول الله لحفظ العالم بالنيابة عنه صلى الله عليه وسلم، «اليواقيت والجواهر» للشُّعراني (مبحث ٤٥).
- (٤) ذكر سيِّدنا أبو الحسن الشَّاذلي خمس عشرة علامة له؛ منها: أن يُمدَّ بمدد الحفظ، والرَّحمة، والخلافة، والنيابة، ومدد حملة العرش، ويكرم بكرامة الحِلْم، والفضل، وعِلْم الإحاطة بكلِّ معلوم. وفي «الفتوحات المكيَّة» (باب ٢٧٠): وهو عبد الله الجامع المنعوت بالتخلُّق والتحقُّق بمعاني الأسماء الإلهية بحكم الخلافة، وهو مرآة الحقِّ تعالى، ومجلى النُّعوت المقدَّسة، ومحلُّ المظاهر الإلهية، وصاحب

وهؤلاء الأبرار لولا ركوعهم وسجودهم لارتفعت الأمطار، وتعطلت الزروع والثمار، فهم في دائرة إرادة الله، ليس لهم عن مراقبة حضرته غفلة ولا قرار؛ كما في الحديث الآتي: «فِيهِمْ يَسْقُونَ وَبِهِمْ يَنْصَرُونَ؟»، وسئل النَّبِيُّ: أَنَهْلِكَ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قال: «نعم، إِذَا كَثُرَ الْخُبْثُ»، معناه: إِذَا كَثُرَ الصَّالِحُونَ كَانُوا سَبَبًا فِي عَدَمِ الْهَلَاكِ وَانْتِظَامِ النِّعَمَةِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

يقول سيدنا علي الخواص^(١): أَكْمَلُ الْبِلَادِ الْبَلَدَ الْحَرَامَ، وَأَكْمَلُ الْبُيُوتِ الْبَيْتَ الْحَرَامَ، وَأَكْمَلُ الْخَلْقِ فِي كُلِّ عَصْرِ الْقُطْبِ.

الوقت؛ أي: المتصرّف في الخلق، وعين الزّمان، والغالب عليه الخفاء، «اليواقيت والجواهر» (٧٩/٢).

(١) هو شيخ الإمام الشعراني، من علماء القرن العاشر في التّصوّف، كان عالماً وفياً، جمع له الإمام الشعراني كلامه في كتاب سمّاه «درر الغواص في فتاوى سيدي الخواص» (ت ٩٤٩هـ) له مقام في مصر، كان يقول: أنا شيعي رسول الله، فكان الإمام الشعراني يقول: بيني وبين رسول الله شيخٌ واحد في التّربية.

والأقطاب هم الأمة الجامعون لوراثة سيدنا رسول الله، النائبون عنه استخلافاً لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فهم ملوك الديوان، وأمراء الإيوان، تسري في عروقهم هذه الوراثة كسريان الدم في العروق، كل لحظة هم فيها بالله لا يخرجون عن مقام العبودية. وقد عدهم الشيخ الأكبر اثنا عشر قطباً على عدد الأبراج، ولهم علاماتٌ ذكرها الإمام مولانا وسيدنا عبد القادر الجيلاني، والإمام أبو الحسن الشاذلي، وغيرهما رضي الله عنهم.

فالقطب الغوث أو قطب الأقطاب وريث النبوة الكاملة في علمي الشريعة والحقيقة، وهو الذي يجمع الأقطاب للحضرة في كل سنة، ويسمى غوثاً لالتجاء الملهوف إليه، وهو محل نظر الله في كل زمان، أعطاه الله التصرف الأعظم من لدنه في الأشياء، والغالب عليه الخفاء^(١).

(١) لكن اشتهر منهم سيّدنا الإمام الجيلاني، وسيّدنا الإمام الرفاعي، وسيّدنا الإمام أحمد البدوي، وسيّدنا الإمام إبراهيم الدسوقي، ثم يلي الغوث الإمامان، وهما كالوزيرين له، ثمّ الأربعة الأوتاد الحافظون لجهات الأرض، ثم السبعة النُجباء الحافظون للأقاليم السبعة، والنُّقباء وهم اثنا عشر نقيباً في كلّ زمان، لا يزدون ولا ينقصون، جعل الله بأيديهم علوم الشرائع المنزلة، ولهم عشرة

والأقطاب جمعُ (قطب) وهو الذي عليه مدار الوجود، وهو الحقيقة المحمدية، قطب العالم، لا يموتون بل ينتقلون إلى البرزخ، ويتم استبدالهم في البرزخ إلى أقطاب ترقية كلٍّ بحسب مكانته.

هناك أحاديث وآثار وأقوال للعلماء الربانيين في الاستدلال على مراتب الأولياء؛ منها:

*حديث الطبراني والإمام أحمد في «مسنده» عن سيدنا أنس قال: قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل

أعمال: أربعة ظاهرة: وهي كثرة العبادة، والزُّهد، والتَّجَرُّد عن الإرادة، وقوَّة المجاهدة، وستة باطنة: التَّوْبَةُ، والإِنَابَةُ، والمحاسبة، والتَّفَكُّر، والاعتصام، والرياضة.

ثمَّ الأبدال الأربعون السَّاعون في قضاء حوائج المسلمين وهم في الشَّام، وهناك مراتب أخرى؛ منها التَّسْعَةُ والتَّسْعُونَ الذين هم مظاهر أسماء الله الحسنى، وأهل هذه المراتب لا بدَّ من وجودهم في كلِّ زمان إلى نزول سيِّدنا عيسى عليه السَّلام، وطريقهم مقيَّدة بالكتاب والسُّنَّة، ومبنيَّة على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء؛ يعني: التَّصوُّف زبدة عمل العبد بأحكام الشَّريعة إذا خلا من العِلَل وحظوظ النَّفْس.

الرحمن، فبهم يستقون وبهم ينصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر»
«مجمع الزوائد» للهيثمى بإسناد حسن.

*رواية الإمام أحمد عن سيدنا علي: (الأبدال بالشام وهم أربعون رجلاً، كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلاً يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم البلاء).

*ومثله عن ابن عساكر بسند منقطع.

*وروى ابن أبي الدنيا عن سيدنا علي: سألت رسول الله عن الأبدال فقال:
«ليسوا بالمتنطعين^(١) ولا بالمبتدعين^(٢) ولا بالمتعمقين^(٣)، لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكن بسخاء الأنفس وسلامة القلوب والنصيحة لأئمتهم».

(١) التَّكْلَف والتَّشَدُّد فيما لا ينبغي؛ مثل الغلو في العبادة والمعاملة حتى يؤدِّي إلى المشقَّة الرَّائِدَة، وأخرج مسلم عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» ثلاثاً (٢٦٧٠).

(٢) بتحريم ما لم يحُرِّمه الله ورسوله، واستحداث صور في العبادات لم تكن على عهد النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مثل شهر رمضان، يقول لك: لو مدَّ لي الشَّهر لواصلتُ الصَّيَّام! مع الجوع المفرط الذي يضرُّ بالعقل والجسم.

(٣) الغالون المتجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

*وللطبراني وابن عساكر عن سيدنا علي: (لا تسبُّوا أهل الشام فإنَّ فيهم الأبدال، وسُبُّوا ظلِّمتهم) وأخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي في «مختصره».

*ولابن عساكر عن سيدنا علي حين قام رجل من الخوارج فلعن أهل الشام فقال: (ويحك لا تعمِّم فإنَّ منهم الأبدال ومنكم العُصَب) جمع (عَصَبَة): قرابة الرَّجل، وفي الفرائض: العَصَبات.

*وعنه: (الأبدال بالشام والنجباء بالكوفة) .

*ولابن عساكر من طريق أخرى: (إذا قام قائم آل محمد جمع الله له أهل المشرق وأهل المغرب، فيجتمعون كما يجتمع قزح الخريف، فأما الرفقاء فمن أهل الكوفة، وأما الأبدال فمن أهل الشام).

*ولابن عساكر عن سيدنا علي: (قبة الإسلام بالكوفة، والهجرة بالمدينة، والنجباء بمصر، والأبدال بالشام، وهم قليل).

*وعنه: (الأبدال من الشام، والنجباء من أهل مصر، والأخيار من أهل العراق).

وفي رواية ابن عدي عن الأبدال: (فإذا جاء الأمر قُبِضُوا كلهم، فعند ذلك تقوم الساعة)^(١)

* ولأبي نعيم في «الحلية» عن ابن عمر رفعه: «خيار أمتي في كل قرن خمس مئة، والأبدال أربعون، فلا الخمس مئة ينقصون ولا الأربعون...»^(٢).

* وعن سيدنا معروف الكرخي: (من قال في كل يوم: اللهم ارحم أمة سيدنا محمد؛ كتبه الله من الأبدال).

* وفي «الحلية» بلفظ: (من قال في كل يوم عشر مرات: اللهم أصلح أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد؛ كتب من الأبدال).

يقول الإمام الشعراي: قال الشيخ محيي الدين: وقد اجتمعت بالخضر عليه السلام وسألته عن مقام الشافعي، فقال: كان من الأوتاد الأربعة.

(١) «جمع الجوامع» للسيوطي (١٢٠٨٢) - «كشف الخفا» للعجلوني (٢٦/١) - «كنز العمال» (٦٤٦٠٩) - «إتحاف السادة المتقين» (٨ / ٣٨٥).

(٢) «حلية الأولياء» (٨ / ١) - «كنز العمال» (٣٤٥٩١) - «إتحاف السادة المتقين» (٦ / ٢٩٤).

فالأوتاد إذن أربعة في كل زمان، وهم العمدة في حكم الجبال في الأرض؛ ولذا
سُمُّوا أوتادًا.

ويقول ابن عربي: إن الأوتاد يكونون على قلوب الرسل: إدريس وإلياس وعيسى
والخضر، هؤلاء جميعًا يرجعون في الأخذ من القطب الأكبر (الغوث) ويرجعون في
أحكامهم للقطب الغوث.

وقال في «الفتوحات المكية»: (والمراد به أن العالم لا يخلو زمانًا واحدًا من قطب
يكون فيه).

وسمي قطبًا لجمعه جميع المقامات والأحوال. والنجباء فوق النقباء ودون
الأبدال.

لكن الشيخ ضياء الدين أحمد النقشبندي في كتاب «جامع الأصول في الأولياء
 وأنواعهم وأوصافهم» يفصل هذه المراتب والدرجات، ويجعل الأقطاب كثيرة، فإن
كل مقدم قوم قطبهم.. وأما القطب الغوث الفرد الجامع فهو واحد.

ويتحدث عن النقباء بأنهم ثلاث مئة.. وعن النجباء بأنهم أربعون وقيل:
سبعون.. ثم يذكر أعمال كل منهم.

وفي «تاريخ بغداد» للخطيب عن الكتاني -وهو عبد العزيز بن أحمد، ومحدث ومؤرخ (٣٨٩-٤٦٦هـ)^(١)- قال: النقباء ثلاث مئة، والنجباء سبعون، والبدياء أربعون، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد... فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكة. فإذا عرضت الحاجة في أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد، فإن أجيبوا وإلا ابتهل الغوث، فلا يُتَمَّ مسألته حتى تجاب دعوته^(٢).

ومن أجمل ما قاله الإمام ابن عجيبة: (القطب هو القائم بحق الكون والمكوّن)، ويمكن أن يتعدد، لكن إن أريد به المقام الذي لا يتصف به أحدٌ عبَّرَ عنه بالغوث، وهو الذين يصل منه المدد الروحاني إلى دوائر الأولياء؛ من نجيب ونقيب وأوتاد وأبدال، وله الإمامة والإرث والخلافة الباطنة، ويشار إليه بمنزلة إنسان العين من العين.. لا يعرف ذلك إلا من له قسطٌ ونصيب من سر البقاء لله، وأما تسميته

(١) «الأعلام» (١٣/٤) - و«شذرات الذهب» (٤/٣٢٥).

(٢) انظر القسطلاني على شرح المواهب.

بالغوث فمن حيث إغاثته العوالم بإداته ورتبته الخاصة. فالقطب الغوث عالمٌ بعلمي الشريعة والحقيقة.

وقال سيدي الإمام ابن حجر الهيتمي في جوابه عن الدليل على وجود أهل الغيب كما في «فتاويه الحديثية»: وقع لي في هذا المبحث غريبة مع بعض مشايخي؛ هي: أنني رُبيت في حجور بعض أهل هذه الطائفة -أعني: القوم السالمين من المحذور واللوم- فوقر عندي كلامهم؛ لأنه صادف قلبًا خاليًا فتمكّن، فلمّا قرأت العلوم الظاهرة وسنيّ نحو أربع عشرة سنة؛ فقرأت «مختصر أبي شجاع» على شيخنا أبي عبد الله الإمام المجمع على بركته ومنسكه وعلمه الشيخ محمد الجويني بالجامع الأزهر بمصر المحروسة، فلازمته مدّة، وكان عنده حدّة، فانجرّ الكلام في مجلسه يومًا إلى ذكر القطب والنُجباء والتُّقّباء والأبدال وغيرهم ممّن مرّ، فبادر الشيخ إلى إنكار ذلك بغلظة، وقال: هذا كلّهُ لا حقيقة له، وليس فيه شيء عن النبي صلّى الله عليه وسلّم.

فقلت له -وكنت أصغر الحاضرين-: معاذ الله، بل هذا صدق وحقٌّ لا مريّة فيه؛ لأنّ أولياء الله أخبروا به، وحاشاهم من الكذب، وممّن نقل ذلك الإمام اليافعي، وهو رجل جمع بين العلوم الظاهرة والباطنة، فزاد إنكار الشيخ وإغلاظه عليّ، فلم يسعني إلّا الشكوت، فسكْتُ وأضمرْتُ أنّه لا ينصرني إلّا شيخنا شيخ الإسلام

والمسلمين وإمام الفقهاء والعارفين أبو يحيى زكريا الأنصاري، وكان من عادي آتي أقودُ الشيخ محمد الجويني؛ لأنَّه كان ضريراً، وأذهب أنا وهو إلى شيخنا المذكور؛ أعني: شيخ الإسلام زكريا يسلم عليه.

فذهبت أنا والشيخ محمد الجويني، فلما قربنا من محلِّه؛ قلت للشيخ الجويني: لا بأس أن أذكر لشيخ الإسلام مسألة القطب ومن دونه وننظر ما عنده فيها؟.

فلما وصلنا إليه؛ أقبل على الشيخ الجويني، وبالع في إكرامه، وسؤال الدُّعاء منه، ثمَّ دعا إليَّ بدعوات منها: اللهم فقَّهه في الدِّين، وكان كثيراً ما يدعوني بذلك، فلما تمَّ كلام الشيخ، وأراد الجويني الانصراف؛ قلت لشيخ الإسلام: يا سيدي! القطب والأوتاد والنجباء والأبدال موجودون حقيقة؟، فقال: نعم والله يا ولدي، فقلت له: يا سيدي! إنَّ الشيخ -وأشرت إلى الشيخ الجويني- ينكر ذلك، ويبالغ في الرَّد على من ذكره، فقال شيخ الإسلام: هكذا يا شيخ محمد؟! وكرَّر ذلك عليه حتَّى قال له الشيخ محمد: يا مولانا شيخ الإسلام! آمنتُ بذلك، وصدقت به، وقد تبت، فقال: هذا هو الظَّنُّ بك يا شيخ محمد، ثم قمنا ولم يعاتبني الجويني على ما صدر مِنِّي).

هذه الدولة الصوفية لا يعرف أركانها إلا أهل الله المقتفون شرع الله، أصحاب القَدَم الراسخة والمقامات العالية.

ومن أراد الاستفاضة أكثر في هذه المراتب؛ فليرجع إلى كتب القوم التي سأثبتها
في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

مكانة (الشيخ)

في الطرق الصوفية

إن السادة الصوفية هم أحرص الناس على حياة تعبدية خالصة، تقوم أُسسها على السمع والطاعة، والإذعان لنصيحة ناصح، أو توجيه مرشد، فنشأت بينهم تلك المدارس الروحية التي قامت على أعظم أساليب التربية والتقويم، وأقوى صلات الروح بين الشيخ والمريد.

ولذا يوصي العارفون بالله تعالى كل من أراد سلوك طريق الحق الموصل إلى معرفة الله تعالى ورضاه: بالصُّحبة، وروحها الاعتقاد والتصديق بهؤلاء المرشدين الدالين على الله تعالى، الموصلين إلى حضرته القدوسية.

من الشيخ؟

سُئِلَ سيّدنا ومولانا الشَّيخ عبدُ الرَّحمن الشَّاعوري قدّس اللهُ سرّه ونفعنا به في الدَّارين: من الشيخ؟ فقال:

الشَّيْخُ من شهدت له ذاتك بالتَّقديم وسرُّك بالتَّعظيم.

الشَّيْخُ من هدَّبك بأخلاقه وأدَّبكَ بإطراقه وأنار باطنك بإشراقه.

الشيخُ من نهض بك حاله، وأخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى،
نهض بك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، وما زال محاذيًا لك حتى
الفاك بين يديه، فزجَّ بك في نور الحضرة وقال: *ها أنت وربُّك*، هناك محلُّ الولاية
من الله، ومواطنُ الإمداد من الله، وبساطُ التلقي عن الله.

قال سيدي *الإمام أبو الحسن الشاذلي* قدس الله سره ونفعنا بذكره:

"كلُّ شيخٍ لم تصل إليك الفوائد منه من وراء حجاب فليس بشيخ"

وقال مولانا العارف بالله ابن عجيبة في تعليقه:

"قلتُ: ولعله يشير إلى أن الشيخ الكامل يُمدُّ تلميذه ولو كان بعيدًا عنه في

الحس " انتهى

لذا إن لم يكن التلميذ أرضًا خصبة تتشرب الخيرات والنفائس بشغف وحب فلن
يستفيد، ولا يشترط القرب الجسدي في هذا قط، بل على العكس، قد يستفيد من
البعد أكثر من القرب بشرط اللقاء الجسدي ولو مرة واحدة، إلا أن القرب والملازمة
أتم وأفضل وأعلى..

كم ممن صحب المشايخ دهرًا وحاله لم يتغير، وكم ممن حظي بنظرة عناية بلقاء
واحد فكان من خاصة الخاصة.

وهذه نقول عن أشهر العلماء بالله في تعريف (الشيخ) وبيان مكانته:

*** * الإمام أبو حامد الغزالي * ***

قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى:

(الدخول مع الصوفية فرض عين؛ إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض إلا الأنبياء عليهم السلام)^(١).

وقال رحمه الله تعالى:

(كنت في مبدأ أمري منكراً لأحوال الصالحين، ومقامات العارفين، حتى صحبت شيخني يوسف النساج، فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات، فرأيت الله تعالى في المنام، فقال لي: يا أبا حامد؛ دع شواغلِكَ، واصحب أقواماً جعلتهم في أرضي محلّ نظري، وهم الذين باعوا الدارين بحبِّي، قلت: بعزتك إلا أذقتني برّد حُسنِ الظن بهم، قال: قد فعلتُ، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا، فاخرج منها مختاراً قبل أن تخرج منها صاغراً، فقد أفضتُ عليك أنواراً من جوار قدسي.

(١) «شرح الحكم» لابن عجيبة (ج ١ / ص ٧).

فاستيقظتُ فرحًا مسرورًا، وجئتُ إلى شيخي يوسف النساج، فقصصت عليه المنام، فتبسم وقال: يا أبا حامد؛ هذه ألواحنا في البداية، بل إن صحبتني ستكون بصيرتك بإئتمد التأييد... إلخ^(١).

وقال رحمه الله تعالى أيضًا:

(مما يجب في حق سالك طريق الحق أن يكون له مرشدٌ ومربٌ ليدله على الطريق، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة، ومعنى التربية: أن يكون المربي كالزارع الذي يربي الزرع، فكلما رأى حجرًا أو نباتًا مضرًا بالزرع قلعه وطرحه خارجًا، ويسقي الزرع مرارًا إلى أن ينمو ويتربى؛ ليكون أحسن من غيره، وإذا علمت أن الزرع محتاج للمربي؛ علمت أنه لا بد للسالك من مرشد ألبته؛ لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا دليلًا لهم، ويرشدوهم إلى الطريق المستقيم وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى

(١) «شخصيات صوفية» لطفه عبد الباقي سرور (ص ١٥٤) توفي سنة ١٣٨٢ هـ بمصر.

الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين نواباً عنه؛ ليدلوا الخلق إلى طريق الله تعالى، وهكذا إلى يوم القيامة، فالسالك لا يستغني عن المرشد ألبته^(١).

ومنه قوله رحمه الله تعالى: (يحتاج المريد إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة؛ ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه؛ قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة... فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر، فمعتصم المريد شيخه، فليتمسك به)^(٢).

ويقول الإمام الغزالي أيضاً:

(إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخفَ عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم! يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه!! فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق... (منها):

(١) «خلاصة التصانيف في التصوف» لحجة الإسلام الغزالي (ص ١٨) توفي سنة ٥٠٥ هـ في طوس.

(٢) «الإحياء» ج ٣/ ص ٦٥.

أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، مطلع على خفايا الآفات، ويحكمه في نفسه، ويتبع إشاراته في مجاهداته، وهذا شأن المريد مع شيخه، والتلميذ مع أستاذه، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه، ويعرفه طريق علاجها... إلخ^(١).

**** الأمير عبد القادر الجزائري **:**

قال الأمير العارف بالله عبد القادر الجزائري في كتابه «المواقف»: (الموقف المئة والواحد والخمسون:

قال الله تعالى حاكياً قول موسى للخضر عليهما السلام: ﴿هَلْ أَتَبَعُكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مَا عُلِّمْتَ رَشْدًا﴾؟ [الكهف: ٦٦]:

اعلم أن المريد لا ينتفع بعلوم الشيخ وأحواله إلا إذا انقاد له الانقياد التام، ووقف عند أمره ونهيه، مع اعتقاده الأفضلية والأكمالية، ولا يغني أحدهما عن الآخر؛ كحال بعض الناس يعتقد في الشيخ غاية الكمال، ويظن أن ذلك يكفيه في نيل غرضه، وحصول مطلبه، وهو غير ممثل ولا فاعل لما يأمره الشيخ به أو ينهاه عنه، فهذا موسى عليه السلام - مع جلالة قدره وفخامة أمره - طلب لقاء الخضر عليه

(١) «الإحياء» ج ٣/ ص ٥٥.

السلام، وسأل السبيل إلى لُقيّه، وتجشم مشاق ومتاعب في سفره؛ كما قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]

ومع هذا كله لما لم يمثل نهياً واحداً؛ وهو قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]؛ ما انتفع بعلوم الخضر عليه السلام، مع يقين موسى عليه السلام الجازم أن الخضر أعلم منه بشهادة الله تعالى؛ لقوله تعالى عندما قال موسى عليه السلام: لا أعلم أحداً أعلم مني: *بلى، عبدنا خضرٌ* وما خصَّ علماً دون علم، بل عمّم.

وكان سيدنا موسى عليه السلام أولاً ما علم أن استعداده لا يقبل شيئاً من علوم الخضر عليه السلام، وأما سيدنا الخضر عليه السلام؛ فإنه علم ذلك أول وهلة فقال: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧].

وهذا من شواهد علمية الخضر عليه الصلاة والسلام، فلينظر العاقل إلى أدب هذين السيدين.

قال سيدنا موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رَشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] أي: هل تأذن في اتباعك؛ لأتعلم منك؟ ففي هذه الكلمات من حلاوة الأدب ما يذوقها كل سليم الذوق!

وقال الخضر عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تُسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] وما قال: فلا تسألني، وسكت، فيبقى سيدنا موسى عليه السلام حيران متعطشاً، بل وعده أنه يُحدث له ذكراً؛ أي: علماً بالحكمة فيما فعل، أو ﴿ذِكْرًا﴾ بمعنى: تذكُّراً.

فأكملية الشيخ في العلم المطلوب منه المقصود لأجله لا تغني عن المريد شيئاً إذا لم يكن ممثلاً لأوامر الشيخ، مجتنباً لنواهيه، وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهلة؟ وإنما تنفع أكملية الشيخ من حيث الدلالة الموصلة إلى المقصود، وإلا فالشيخ لا يعطي المريد إلا ما أعطاه له استعداداً، واستعداداً مُنطَوِّجاً فيه وفي أعماله؛ كالطبيب الماهر إذا حضر المريض وأمره بأدوية فلم يستعملها المريض؛ فما عسى أن تغني عنه مهارة الطبيب؟ وعدم امتثال المريض دليل على أن الله تعالى ما أراد شفاؤه من علته، فإن الله إذا أراد أمراً هياً له أسبابه.

وإنما وجب على المريد طلب الأكمل الأفضل من المشايخ خشية أن يلقي قيادته بيد جاهل بالطريق الموصل إلى المقصود، فيكون ذلك عوناً على هلاكه^(١).

(١) «المواقف» ج ١/ ص ٣٠٥.

والأمير عبد القادر الجزائري هو المجاهد الكبير الذي جاهد الإفرنسيين الطغاة،
ووقف سداً منيعاً أمام الاستعمار الفرنسي سبعة عشر عاماً مجاهداً ومناضلاً، وهو
أشهر من أن يعرف، وإنه لغريب على الأسماع قولنا بتصوف الأمير عبد القادر
الجزائري مع أنه من صفوتهم، وكتابه "المواقف" يشهد له بذلك، وله «ديوان»
متوسط الحجم أطول قصيدة فيه الرائية، وعنوانها: (أستاذي الصوفي) اخترنا للقارئ
بعض أبياتها:

وولّت جيوش النحس ليس لها	أمسعودُ جاء السعد والخير واليسر
يحدثني عنكم، فينعشني الخبرُ	أسائل كل الخلق: هل من مُحَبِّرٍ؟
بعيدٍ: ألا فاذنُ فعندي لك الذخر	إلى أن دعتنني همّةُ الشيخ من مَدَى
جناحُ اشتياقٍ ليس يُخشى له كسر	فشمَرْتُ عن ذيلي الإطارَ وطار بي
وحطت بها رحلي، وتمّ لها البشر	إلى أن أنخنا بالبطاح ركابنا
ولا عجبٌ فالشأن أضحى له أمر	أتاني مُرَبِّي العارفين بنفسه
لمتظر لقياك يا أيها البدر	وقال: فإني منذ أعداد حجة
وذا الوقت حَقّاً ضمّه اللوح	فأنت بُنْيي مذ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

وَجَدُّكَ قَدْ أَعْطَاكَ مِنْ قِدَمٍ لَنَا ذَخِيرَتَكُمْ فِينَا، وَيَا حَبْذَا الذَّخِرُ!
فَقَبَّلْتُ مِنْ أَقْدَامِهِ وَبَسَاطَةِ وَقَالَ: لَكَ الْبُشْرَى، بَذَا قُضِيَ الْأَمْرُ
وَأَلْقَى عَلَى صُفْرِي^(١) بِإِكْسِيرِ سَرِّهِ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا هُوَ الذَّهَبُ التَّابِرُ
مُحَمَّدُ الْفَاسِي، لَهُ مِنْ مُحَمَّد صَفِيَّ الْإِلَهِ الْحَالُ وَالشِّيمُ الْغُرُّ
عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ مَا قَالَ قَائِلٌ: أَمْسَعُودُ جَاءَ السَّعْدُ وَالْخَيْرُ وَالْيَسْرُ

ولد الأمير سنة (١٢٢٢هـ) الموافق (١٨٠٧م) بقرية قيطنة في الجزائر، وتوفي سنة (١٣٠٠هـ) الموافق (١٨٨٣م)، ودفن بجوار الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي داخل القبة، رحمة الله تعالى عليهما، ثم نقل رفاتهما إلى بلده الجزائر عام (١٣٨٦هـ) الموافق (١٩٦٦م).

*** * ابن عطاء الله السكندري * :**

يقول ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه: (وينبغي لمن عزم على الاسترشاد، وسلوك طريق الرشاد؛ أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق، سالك للطريق، تارك

(١) (الصفرة) هو النحاس.

لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجدته فليمتثل ما أمر، وليتته عما نهى عنه وزجر^(١).

وقال أيضًا: (ليس شيخك مَنْ سمعت منه، وإنما شيخك من أخذت عنه.

وليس شيخك من واجهتك عبارته، وإنما شيخك الذي سَرَتْ فيك إشارته.

وليس شيخك من دعاك إلى الباب، وإنما شيخك الذي رَفَعَ بينك وبينه الحجاب.

وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذي نهض بك حاله.

شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى.

شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك، حتى تَجَلَّتْ فيها أنوار ربك، أنهضك

إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، وما زال محاذيًا لك حتى ألقاك بين

يديه، فزَجَّ بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك^(٢).

وقال أيضًا: (لا تصحب من لا يُنْهَضُك حاله، ولا يدُلُّك على الله مقاله)^(٣).

(١) «مفتاح الفلاح» ص ٣٠.

(٢) «لطائف المنن» ص ١٦٧.

*** * الإمام الشيخ عبد القادر * الجيلاني * قدس سره :**

يقول صاحب «العينية» سيدي الإمام عبد القادر الجيلاني قدس الله سره :

وإن ساعد المقدور أو ساقك القضا إلى شيخ حق في الحقيقة بارع
فقم في رضاه وأتبع لمراه ودع كل ما من قبل كنت تسارع
ولا تعترض فيما جهلت من أمره عليه فإن الاعتراض تنازع
ففي قصة الخضر الكريم كفاية بقتل غلام والكليم يدافع
فلما أضاء الصبح عن ليل سره وسلّ حسامًا للغياهب قاطع
أقام له العذر الكليم وإنه كذلك علم القوم فيه بدائع^(١)
*** الشيخ عبد الوهاب الشعراني * :**

(١) «إيقاظ الهمم في شرح حكم ابن عطاء الله السكندري» المتوفى سنة ٧٠٩ هـ لأحمد بن عجيبة الحسني ج ١ / ص ٧٤.

(٢) «فتوح الغيب» للجيلاني، من قصيدة تسمى «النوادر العينية في البوادر الغيبية» في ٥٣٤ بيتاً ص ٢٠١، وتوفي رضي الله عنه سنة ٥٦١ هـ في بغداد.

قال العالم الرباني سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه "العهود المحمدية": (أَخَذَ عَلَيْنَا الْعَهْدُ الْعَامُّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَوَاضِبَ عَلَى الرُّكْعَتَيْنِ بَعْدَ كُلِّ وَضُوءٍ، بِشَرَطِ الْأَنْ نَحْدُثَ فِيهِمَا أَنْفُسَنَا بِشَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، أَوْ بِشَيْءٍ لَمْ يُشْرَعْ لَنَا فِي الصَّلَاةِ. وَيَحْتَاجُ مَنْ يَرِيدُ الْعَمَلَ بِهَذَا الْعَهْدِ إِلَى شَيْخٍ يَسْلُكُ بِهِ؛ حَتَّى يَقْطَعَ عَنْهُ الْخَوَاطِرَ الْمَشْغَلَةَ عَنْ خُطَابِ اللَّهِ تَعَالَى.... ثُمَّ قَالَ: فَاسْلُكْ يَا أَخِي عَلَى يَدِ شَيْخٍ نَاصِحٍ، يَشْغَلُكَ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ حَتَّى يَقْطَعَ عَنْكَ حَدِيثَ النَّفْسِ فِي الصَّلَاةِ؛ كَقَوْلِكَ: أَرَوْحُ لَكَذَا، أَفْعَلُ كَذَا، أَقُولُ كَذَا، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَمِنْ لَازِمِكَ حَدِيثُ النَّفْسِ فِي الصَّلَاةِ، وَلَا يَكَادُ يَسْلَمُ لَكَ مِنْهُ صَلَاةٌ وَاحِدَةٌ، لَا فَرَضٌ وَلَا نَفْلٌ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَرِيدَ الْوُصُولَ إِلَى ذَلِكَ بِغَيْرِ شَيْخٍ؛ كَمَا عَلَيْهِ طَائِفَةُ الْمُجَادِلِينَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَإِنْ ذَلِكَ لَا يَصِحُّ لَكَ أَبَدًا)^(١).

وقال الشيخ الشعراني أيضًا: (وكانت صور مجاهداتي لنفسي من غير شيخ أنني كنت أطلع كتب القوم كـ«رسالة القشيري»، و«عوارف المعارف» و«القوت» لأبي طالب المكي و«الإحياء» للغزالي، ونحو ذلك، وأعمل بما ينقدح لي من طريق الفهم،

(١) «لوائح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية» للعارف بالله عبد الوهاب الشعراني ج ١/ ص ٥١

توفي رضي الله عنه سنة ٩٧٣ هـ في مصر.

ثم بعد مدة يبدو لي خلاف ذلك، فأترك الأمر الأول وأعمل بالثاني... وهكذا، فكنت كالذي يدخل دربًا لا يدري هل ينفذ أم لا؟ فإن رآه نافذًا خرج منه، وإلاّ رجع، ولو أنه اجتمع بمن يُعرّفه أمر الدرب قبل دخوله؛ لكان بيّن له أمره وأراحه من التعب، فهذا مثال من لا شيخ له.

فإن فائدة الشيخ إنما هي اختصار الطريق للمريد، ومن سلك من غير شيخ تاه، وقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده؛ لأن مثأل الشيخ مثال دليل الحجاج إلى مكة في الليالي المظلمة^(١).

وقال أيضًا: (ولو أن طريق القوم يوصلُ إليها بالفهم من غير شيخ يسير بالطالب فيها؛ لما احتاج مثل حجة الإسلام الإمام الغزالي والشيخ عز الدين بن عبد السلام أخذَ أدهما عن شيخ، مع أنهما كانا يقولان قبل دخولهما طريق القوم: كل من قال: إن ثمَّ طريقًا للعلم غير ما بأيدينا؛ فقد افترى على الله عز وجل. فلما دخلا طريق القوم

(١) «لطائف المنن والأخلاق» للإمام الشعراني ج ١ / ص ٤٨ - ٤٩.

كانا يقولان: قد ضيعنا عمرنا في البطالة والحجاب!! وأثبتنا طريق القوم ومدحاهما^(١).

ثم قال: (وكفى شرفاً لأهل الطريق قولُ سيدنا موسى عليه السلام لسيدنا الخضر: ﴿هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾؟ [الكهف: ٦٦].

واعتراف الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله تعالى عنه وأرضاه لأبي حمزة البغدادي بالفضل عليه، واعترف الإمام أحمد بن سريج رحمه الله لأبي القاسم الجنيد، وطلب الإمام الغزالي له شيخاً يدلّه على الطريق مع أنه كان حجة الإسلام، وكذلك طلب الشيخ عز الدين بن عبد السلام له شيخاً مع أنه لُقِّبَ بسلطان العلماء... وكان رضي الله عنه يقول: ما عرفت الإسلام الكامل إلا بعد اجتماعي على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وأرضاه.

فإذا كان هذان الشيخان قد احتاجا إلى الشيخ مع سعة علمهما بالشريعة؛ فغيرهما من أمثالنا من باب أولى!^(٢).

(١) «لطائف المنن والأخلاق» للإمام الشعراي ج ١ / ص ٢٥.

أبو علي الثقفي:

قال أبو علي الثقفي: (لو أنّ رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس؛ لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه عن أمرٍ له وناهِ، يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه؛ لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات^(٢))^(٣).

وقالوا عن بصيرة:

هناك شيخ تربية وهناك شيخ ترقية، ومجموع الفروق بين الشيخين عشرة، وقد يجتمعان في شيخ واحد:

(١) «لطائف المنن والأخلاق» للإمام الشعراني ج ١ / ص ٥٠.

(٢) «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٣٦٥.

(٣) وانظر كتاب «حقائق عن التصوف» لفضيلة الشيخ عبد القادر عيسى (صفحة الطريقة الرفاعية العلية).

١- شيخ التربية يهئك لتلقّي الأنوار وشيخ الترقية يقلبك في بحار الأنوار والأسرار.

٢- شيخ التربية يزيل الصداً عن مرآة القلب وشيخ الترقية يصقلها ويوجهها.

٣- شيخ التربية يخلصك من الأقدار والأكدار وشيخ الترقية ينفي عنك الأغيار.

٤- شيخ التربية يبعد عنك العوائق وشيخ الترقية يخلصك من العلائق.

٥- شيخ التربية يُعدُّكَ للفناء وشيخ الترقية يفنيك ويخرجك إلى البقاء.

٦- شيخ التربية يبصركَ بعيوب نفسك وشيخ الترقية يعرفكَ نفسك.

٧- شيخ التربية يوقفك على طريق السلوك وشيخ الترقية يريقك إلى معرفة ملك الملوك.

٨- شيخ التربية يدلُّكَ على الطريق وشيخ الترقية يأخذ بيدك للتحقيق.

٩- شيخ التربية يوصلك إلى البداية وشيخ الترقية لا يوقفك على نهاية.

١٠- شيخ التربية يريك بالحال والعبارة وشيخ الترقية يريك بالنظرة والإشارة.

اللهم ارحم أشياخنا ووفقنا للوراثة التي ذكرت في القرآن الكريم: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وذكرها صلى الله عليه وسلم بقوله: «العلماء ورثة الأنبياء».

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

الطريقة الشاذلية

سيد هذه الطريقة سيدنا أبو الحسن علي الشاذلي

تختلف طريقته عن الطرق الأخرى باشتهارها بالذكر بالاسم المفرد (الله) أو مضمراً (هو).

من أفكارها:

التوبة: وهي نقطة انطلاق المريد أو السالك إلى الله تعالى.

الإخلاص: وينقسم قسمين: إخلاص الصادقين، وإخلاص الصديقين.

النية: وتعد أساس الأعمال والأخلاق والعبادات.

الخلوة: أي اعتزال الناس، وهي من أسس التربية الصوفية في الطريقة، يدخل المريد الخلوة لمدة أيام بعد سلوك الطريق.

الذكر: والأصل فيه ذكر الله، ثم الأوراد، وقراءة الأحزاب المختلفة في الليل والنهار (حزب البحر - حزب البر - حزب النصر...) والذكر المشهور عندهم هو الاسم المفرد (الله) أو المضمّر (هو، هو)

الزهد: فراغ القلب عما سوى الله تعالى، وهذا زهد العارفين، وهو أيضاً الزهد في الحلال وترك الحرام.

النفس: ركزت الشاذلية على أحوال النفس سعياً منهم لتزكيتها، وهي سبعة أنواع: النفس الأمارة بالسوء - اللوامة - الملهمة - المطمئنة - الراضية - الكاملة ولها شواهد من كتاب الله تعالى.

الورع: وهو العمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الكامنة.

التوكل: وهو صرف القلب عن كل شيء إلا الله تعالى.

الرضا: وهو رضا الله عن العبد.

المحبة: وهو سفر القلب في طلب المحبوب ولهج اللسان بذكره على الدوام، وللحب درجات لدى الشاذلية، وأعلى درجاته ما وصفته السيدة رابعة العدوية رحمها الله تعالى:

أحبك حُبَيْنِ حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاك

السماع: وهو سماع الأناشيد والأشعار الصوفية وهي قسمان إلهيات ونبويات يشيدان إلى معالي الأمور. وقد نقل عن أحد أعلامهم قوله: (الصوفي هو الذي سمع

السمع وآثره على الأسباب) ونقل عن الإمام الشعراني رحمه الله عن الحارث المحاسبي قوله: (ما يتمتع به الفقراء سماع الصوت الحسن)، وقد أفرد كتاب التصوف للسمع أبوابًا منفصلة في مؤلفاتهم لما له من أهمية خاصة عندهم، وقد جمعتُ لذلك كتابًا سمّيته أناشيد الحضرة الشاذلية.

أبرز شخصيات هذه الطريقة قديماً:

الإمام سيدنا أبو الحسن الشاذلي علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المغربي الزاهد (٥٧١-٦٥٦ هجري) وشيخه سيدنا الشيخ عبد السلام بن مشيش وكان له أكبر الأثر في حياته، ليس له مؤلفات، بل قال: كُتبي أصحابي.

ومفتاح طريقته الحب في الله تعالى مقابل طريق المجاهدة المعروف قبله، أخذاً من حديث الأعرابي: متى الساعة؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم: «وماذا أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صوم وصلاة غير أني أحب الله ورسوله قال: «المرء مع من أحب».

فالسائر إلى الله إذا أدى الواجبات واجتنب المنهيات وأحب الله ورسوله كان وصوله إلى الله أسرع ممن جاهد نفسه بالمجاهدات والرياضات والعبادات مع افتقاد الحب الذي هو جناح الطيران إلى حضرة الرحمن. وكل منهما يرجى له الوصول.

تزوج وأنجب أربعاً، وانتقل إلى تونس وتفقه وتصوف فيها، وسكن مدينة شاذلة ونسب إليها، ثم سكن الإسكندرية وتوفي بصحراء عيذاب متوجّهاً إلى بيت الله الحرام أوائل ذي القعدة ٦٥٦ هجري بجميشرة

له كرامات يعجز العقل عن إدراكها...

من كرامات سيدي الإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه:

كان سيدنا أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه يحج عاماً ويقعد في الإسكندرية عاماً، ولما حانت إحدى سنوات الحج انشغلت مصر وجيشها بصد هجمات المعتدين مما جعل السلطان يعتذر لأهل مصر هذا العام عن عدم استطاعته إرسال فرق من جيش مصر تحمي الحجيج ذهاباً وعودة، وقد أفتاهم سيدي العز بن عبد السلام بذلك قبل أن يلحق بطريق سيدي أبي الحسن الشاذلي.

وكانت فتواه أنه لا يجوز السفر عند عدم الأمن والجيش

فأبلغ الناس سيدي أبا الحسن الشاذلي بذلك، فاجتمع الناس يوم الجمعة بالمسجد عليهما وقد سأل سيدي أبو الحسن الشاذلي سيدي العز بن عبد السلام سؤالاً فقال له: أرايت لو أن رجلاً جعلت له الدنيا خطوة واحدة هل يباح له السفر في المخاوف أم لا؟

فقال سيدي العز بن عبد السلام: من كان على هذه الحال فهو خارج عن هذه الفتوى وغيرها

فقال له سيدي أبو الحسن الشاذلي: أنا والله الذي لا إله إلا هو ممن جعلت لي الدنيا كلها خطوة واحدة، سهلها وجبلها، وبرها وبحرها، وإذا رأيت ما يخيف الناس أخطى بهم حيث الأمن، ولا بد لي ولك من المقام بين يدي الله عز وجل حتى يسألني عن حقيقة ما قلت لك.

(وكانت هذه إشارة لكون سيدي أبي الحسن سيجعله من أبناء طريقته ويرقيه مراقي كبار العارفين).

ثم سافر سيدنا أبو الحسن الشاذلي بالمحمل المصري والحجيج المصري بلا أي جيش يحميهم وبلا أي حراسة أو أي سلاح، فكان هو رضي الله عنه المتعهد بحمايتهم كما تقدم من قوله رضي الله عنه.

وفي السفر حصلت الكرامات التي لم يصدقها الفقهاء في مصر إلا لما رأوها بأعينهم ودونتها الكتب:

فكان سيدي أبو الحسن يمشي بين الحجيج كالبدري في السماء والشمس في ضحاها... وهو كفيف البصر.

فكمن اللصوص من الأعراب وقطّاع الطرق والهاربين من الأحكام لقافلة
المحمل والحج المصري..

فكانوا كلما انطلقوا بخيلهم وأسلحتهم نحو القافلة يجدون سورًا عاليًا منصوبًا
على القافلة فلا يستطيعون النفاذ منه إلى أي فرد من الحجيج
فعلموا أن الأمر هو كرامة من الله عزَّ وجلَّ لأحد أوليائه في المحمل، فسألوا إذا
ما كان بين الحجيج رجلٌ صالحٌ فعرفوا أنه هو سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله
عنه.

فنادوا من خلف الأسوار مذعنين بالتوبة ييكون، ورقت قلوبهم لله وحت
وتابوا على يد سيدي أبي الحسن الشاذلي
ثم ذهب سيدي أبو الحسن بالحجيج واللصوص للحج وزيارة سيدنا محمد صلى
الله عليه وسلم ورجع بهم إلى مصر أولياء..
فلما دخل القاهرة استقبله الفقهاء ووزير مصر وقائد جيشها فرأوا المجرمين
الذين كانوا يطلبونهم صاروا نساكًا وعبادًا لله تعالى فسألوا سيدي أبا الحسن الشاذلي
فقال لهم: إسألوهم عما رأوه.

فأخبروا الفقهاء بالكرامة التي حدثت، وهي منعةُ الله للحجيج بركة سيدي أبي الحسن.

ثم قال سيدي أبو الحسن الشاذلي لسيدي العز بن عبد السلام:

- يا فقيه والله لولا تأدبي مع جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخذتُ المركب من ههنا وتخطيت به إلى عرفات يعني بخطوة واحدة. فقال له سيدي العز باكيًا:

- آمنت بالله.

ثم قال له سيدي أبو الحسن الشاذلي:

- انظر من مكانك أنت والواقفون أجمعين.

فإذا بهم يرون البيت الحرام والكعبة، فصاح الناس والفقهاء بالصلاة على سيدنا محمد من هول كرامة الموقف وعظمة سيدي أبي الحسن الشاذلي.

فوضع سيدي العز بن عبد السلام رأسه بين يدي سيدي أبي الحسن الشاذلي باكيًا وقال له:

- أنت شيخني يا مولانا.

فقال له سيدي أبو الحسن:

- بل أنت أخي إن شاء الله.

قال ناظم العقيدة:

وأثبتن للأوليا الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

سيدنا الإمام أبو العباس المرسى:

أحمد بن عمر المرسى يتصل نسبه إلى سيدنا سعد بن عبادة الصحابي، ولد سنة ٦١٦ هجرية وأهله من مرسية في الأندلس، وكان من أهل الإسكندرية، يعد الخليفة الأول للإمام الشاذلي، وانتقل معه إلى مصر سنة ١٢٤٤م، وصار قطب زمانه بعده. نشر العلم في الإسكندرية ثلاثاً وأربعين سنة، وهذب النفوس، حتى صار ممن يضرب المثل بورعه وتقواه، تولى خلافة المشيخة سنة ٦٥٦ هجرية وكان عمره أربعين سنة، أبرز تلامذته سيدنا ابن عطاء الله الإسكندري. توفي في الإسكندرية سنة ٦٨٦ ودفن في مقبرة باب البحر.

وله مقام كبير ومسجد باسمه في الإسكندرية، قال عن نفسه (والله لو حُجِبَ عني رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه عين ما عدت نفسي من المسلمين) قال عنه

شيخه سيدنا أبو الحسن: (يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا، وأنا أنت) ومن أشهر أتباعه في تونس السيدة المنوبية.

سيدنا ابن عطاء الله أحمد بن محمد السكندري:

وهو أحد أركان الطريقة الشاذلية.

ولد في الإسكندرية سنة ٦٥٨ هجرية وتوفي في القاهرة سنة ٧٠٩ هجرية، وأقيم على قبره قبة عام ١٩٧٣ م.

من ألقابه: قطب العارفين وترجمان الواصلين ومرشد السالكين.

له ذوق ومعرفة بكلام الصوفية وآثار السلف، قال له شيخه أبو العباس المرسى: (الزم، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيًا في المذهبين) أي الشريعة والحقيقة.

تأثر به سيدنا تقي الدين السبكي كثيرًا وسيدي أحمد زرُّوق، وترك الكثير من المؤلفات غير «الحكم» العظيمة على لسان أهل الطريقة، وهي أهم كتبه.

ومنها: «تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس».

«التنوير في إسقاط التدبير».

«لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن».

«عنوان التوفيق في آداب الطريق» مدحه المؤرخون كالذهبي وابن حجر العسقلاني.

سيدنا ياقوت العرش:

أجلُّ أصحاب الشيخ أبي العباس المرسى، وأخذ عنه ابن عطاء الله السكندري، وصفه الشعراني بأنه إمام في المعارف، بشرَّ به سيدنا أبو العباس، ولما وُلِدَ وَضَعَ طعامًا لإخوانه وأخبرهم بأنها وليمة ولدنا ياقوت، ولد ببلاد الحبشة وسيأتيكم.

وكان حبشيًّا وسمي بالعرش لأن قلبه لم يزل تحت العرش على ما نقلوه، وما على الأرض إلا جسده، وقيل: لأنه كان يسمع أذان حملة العرش كما جاء في «طبقات الشعراني» رحمه الله تعالى.

له الكثير من الكرامات العجيبة وكان جم التواضع، زوجه الشيخ أبو العباس من ابنته فكان يعظمها أشد التعظيم، وكان يقول: أنا أعلم الخلق بلا إله إلا الله (أي بالتوحيد) ومن أقواله: على الفقير أن يعظم الناس بحسب دينهم لا بحسب ثيابهم.

ومناقبه لا تحصى، توفي في الإسكندرية سنة ٧٠٧ هجرية، ودفن بجوار مسجده الكبير في ٧٣٢ هجرية عن ثمانين عامًا، ثم وُسِّع مسجده وجُدِّد حديثًا.

الطريقة الشاذلية الدرقاوية الهاشمية في الشام

قدم من تلمسان الجزائر سيد الطريقة في بلاد الشام سيدنا الإمام محمد بن يلس التلمساني (1854-1928) وولده سيدنا الشيخ أحمد (ت ١٣٥٩) هاجر إلى دمشق سنة 1902. فنشر الطريقة الشاذلية رحمه الله تعالى.

ثم تبعه تلميذه سيدنا محمد بن أحمد بن الهاشمي (ت 1381 هجري - ١٩٦١ م) وكان خليفته من بعده مع ولده سيدي أحمد التلمساني، وبويع بالذكر الخاص من سيدي أحمد بن مصطفى العلوي، فنشر التصوف وعلم التوحيد في البلاد الشامية.

ومن تلامذته في البلاد الشامية المجازين بالورد العام والخاص:

سيدنا الشيخ محمد هاشم الخطيب (ت ١٩٥٨ م)

ومن شيوخها سيدنا الشيخ سعيد الكردي (ت ١٩٧٢ م) بعد أن عمّر ٨٢ عامًا.

ومن شيوخها سيدنا الشيخ محمد سعيد البرهاني (ت ١٩٦٦ م)

ومن شيوخها الشيخ محمد النبهان في حلب

نقيب الأشراف سيدنا الشيخ محمد سعيد الحمزاوي (ت ١٩٧٨ م)

سيدنا الشيخ شاكّر الخالدي

ومن شيوخها سيدنا عبد القادر عيسى في حلب.

ومن شيوخها الولي الزاهد الحافظ الجامع سيد وقته مولانا الشيخ شكري اللّحفي (ت ٢٠١٥م) عن عمر ٩٦ عامًا ودفن بجوار سيدنا نور الدين زنكي خليفة المسلمين.

ومن شيوخها سيدنا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري (ت 2004م)

ومن شيوخها سيدنا الشيخ أحمد خورشيد (ت ٢٠١٠م)

ومن شيوخها سيدنا الشيخ مصطفى التركماني (ت ٢٠٠٦م).

ومن شيوخها سيدنا الشيخ صالح الحموي (ت ٢٠٠٩م).

وسيدنا الشيخ محمد صالح بن أحمد الخطيب (ت ١٩٨٠).

الطريقة الشريطة

شيخ هذه الطريقة علي نور الدين الشريطي الشاذلي، لم يكن ليخرج عن مدار الشريعة في معظم أحواله وأقواله، لكن أتباعه حرفوا أقواله، وشوّهوا التصوف الذي عنده، وأنكر عليهم بعض رجالات الطريقة الشاذلية في الجزائر ولبنان وسورية.. وأمّا الشاذلية في الأصل فإنهم لم يمسّوا الأصول العقديّة، بل نبهوا أن الشرع هو من يحكم أقوالهم، لا أن أقوالهم تحكم الشرع. أما الشريطة فقد أخذوا عقائدهم عن الشيخ، لا عن الشرع، وكلما جاءهم شيخ شاذلي ولكنه ليس شريطياً ونبههم على أخطائهم جعلوا أصابعهم في آذانهم. وقد أتوا بطامات... الشاذلية منها بريئة، وربما أتوا بمخالفات صريحة في الأخلاق، وهذا كله حدث بعد شيخهم علي نور الدين الشريطي، وذلك على عهد رجل يسمى أحمد الهادي.

وقد ألف رجل رسالة دكتوراه في الفلسفة سماها المدرسة الشاذلية الشريطة وشيخها علي نور الدين، وكتب الدكتور صالح المرقب مقالة مرعية عنوانها (هذه حقيقة الشاذلية الشريطة) ونقد زعيمها الحالي أحمد الهادي الشريطي الذي يعيش حالياً في الأردن.

ورد الطريقة الشاذلية

الورد العام

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

آية: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مَجْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا
وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]

أستغفر الله ١٠٠

أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه ٣ مرات

آية ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا
تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه
وسلم ١٠٠ مرة.

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً من الأزل إلى الأبد على ما تعلق به علم الله عز وجل ٣ مرات.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]

لا إله إلا الله 100 مرة.

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله في كل لحظة ونفس بعدد كل معلوم لك..

قراءة سورة الإخلاص ٣

الدعاء للمؤمنين والمؤمنات.

يكرر هذا الورد صباحًا ومساءً

ومن الدعاء أن يقول:

اللهم اغفر لشيخ الطريقة الشاذلية ومريديهم واقض حوائجهم ورددْهم إليك

ردًّا جميلاً

اللهم ارحم شيوخنا ووالدينا ورضّهم عنا وارضّ عنا وعنهم

اللهم ارحم أمة سيدنا محمد

اللهم اغفر لأمة سيدنا محمد

اللهم استر أمة سيدنا محمد

اللهم اشف أمة سيدنا محمد

سيدنا الإمام محمد بلقايد التلمساني

قطب الأقطاب وشيخ المشايخ الغوث في عصره سيدي محمد بلقايد التلمساني.

هكذا يلقب بشيخ مشايخ المغرب العربي، وفي مصر الشيخ المجدد، ومحبي الطريقة الهبرية الدرقاوية الشاذلية، وصدق القائل: إن لم تجالس أغواث هذا العصر واحد في الشمال والآخر في الجنوب، فما عليك يا فتى إلا البكاء عند قبورهم.

كيف لا وهو الذي قال فيه أحد مريديه -ومن هو هذا المريد؟ إنه الشيخ الداعية محمد متولي الشعراوي رحمه الله، لما زار شيخه الغوث سيدي محمد بلقايد التلمساني رحمه الله فأنشد في حق شيخه وقال:

طوفت في شرق البلاد وغربها وبحثت جهدي عن إمام راشد
فهداني الوهاب جل جلاله حتى وجدت بتلمسان مقاصد

نسبه:

هو الإمام الفاضل العارف بالله قدوة السالكين الغوث الشيخ السيد الشريف محمد بن محمد بلقايد التلمساني الإدريسي الحسني، شيخ مشايخ عصره، الذي ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن السبط ابن الإمام علي رضي الله عنهم ابن أبي طالب.

ولادته ونشأته:

عندما نتناول سيرته رحمه الله؛ نرجو الله أن ينفعنا بها، فكانت في بلاد الجزائر، وبالتحديد في مدينة تلمسان الشهيرة.

ولد الشيخ محمد بن محمد بلقايد عام ١٩١١م بمدينة تلمسان، ثم نشأ وتربى على أرض هذه المدينة، وتلقى العلم عن أكابر علمائها وأجلة مشايخها، فنشأ في بيت علم وشرف وولاية، فكان أبوه على قدر كبير من الصلاح الشديد.

وقد كان شيخنا مجددًا ومجتهدًا، ذكيًا نابغًا ذا ذاكرة حادة، سريع الحفظ، متيقظًا لما حًا.

مشايخ الإمام:

تلقى الإمام بلقايد العلم عن أساطينه، فمن مشايخه بتلمسان: العلامة الشيخ أحمد أبو عروق، والشيخ العلامة بالحسايين النجار، والشيخ أحمد الخالدي، والشيخ ابن ناصر.

وله في طلب العلم رحلات جاب فيها الأرض غرباً وشرقاً وجنوباً في بلاد الجزائر والمغرب والمشرق، وقد أجازته كل من لقيه، سواء من المتقدمين كالشيخ العلامة عبد الحي الكتاني والحافظ أحمد بن الصديق الغماري، أم من المتأخرين كالشيخ عبد الفتاح أبي غدة، وتلقى العلم أيضاً قراءة لكتب الأمهات والبحوث المهمة

شيخ الفتوح للإمام:

أكرم الله الإمام بلقايد بأن هياً له المربي الأسوة الإمام الشريف نابغة عصره الشيخ القطب الكبير سيدي محمد الهبري رحمه الله، مؤسس الطريقة الهبرية الدرقاوية الشاذلية بالجزائر والمغرب العربي، وقد ربي جسد الشيخ الإمام بلقايد وروحه، وتعهده بالعناية والرعاية منذ الصغر، وأخذ منه الشيخ بلقايد جل العلوم، فكان شيخ فتوحه، ومربي جسده وروحه.

عصر الشيخ:

وكان عصر الإمام الشيخ عصرًا عصيبًا، فقد عاصر الاستعمار، فوجد بلده وقومه تحت الاحتلال الذي يريد أن يقضي على العقيدة والعروبة

فقاوم الشيخ الاستعمار أشد المقاومة، وانخرط في سلك الثورة التحريرية والمجاهدين الأحرار المدافعين عن العقيدة والعروبة، بل كان من كبار المجاهدين الصادقين الأبرار، وأبلى البلاء الحسن، وقدم نفسه وولده وماله وكان عزيزاً لديه، حتى أتم الله نصره للجزائر وأهلها، وأقر عين الشيخ برؤيته جند الباطل مهزومين، وقد خرجوا من بلده مخذولين.

ظهور الإمام:

كانت بداية ظهور الإمام عيداً لمريديه، فبعد مضي فترة من الزمن قضاهما الشيخ بلقايد في رحاب شيخه الشيخ الهبري رحمه الله، يتغذى أشرف العلوم، ويرتشف أعذب المواهب وأنداءها، حتى غدا على قدم راسخ وكعب عالٍ في جميع العلوم والمعارف؛ أذن له شيخه بالسير ونشر الخير وتلقين الذكر وتربية المريدين، لكنه لزم الصمت تأدباً مع شيخه، ولاذ من هذا الأمر بالفرار حتى غادر شيخه هذه الدنيا، وكذلك كان متأدباً مع أبناء شيخه وأحفاده حتى مضى أكثرهم، وتجمع حوله المريدون والطلبة، وبايعوه على الخلافة.

عندها لم يجد الشيخ بلقايد من هذا الأمر بدءاً، فما كان أمامه إلا أن يصدع بما أمر، ويظهر في هذا الطريق، ويستمر نشرًا لما أوتي من العلم ومعرفته، لا يكتفم علمًا آتاه الله إياه، فجهر بدعوته.

منهج الشيخ:

كان منهج الشيخ منهجاً ربانياً يقوم على الصفاء والإخلاص والعمل والجد في كل شيء، وقد أقام دعوته على التوبة التي هي أول مراتب مسار المريد - كما كان يقول رحمه الله - وبداية مراقبي درج صعوده في مقامات الرقي والكمال التي كان ينشدها الشيخ لمريديه، وهي من أهم الأعمال وأخطرها شأنًا، وأجلها وأعظمها أثرًا، ومن بين المبادئ الأخرى التي كان الشيخ حريصًا فيها على مريديه: العلم؛ لأنه رحمه الله كان يقول: (العلم هو الأساس المتين، والحرز المكين، والحصن الحصين).

وكان هذا هو المنهج الذي بنى عليه الشيخ دعوته وطريقته أساسًا من أسس طريقه.

ولقد كان الشيخ رحمه الله شديد المحافظة على الوقت، حريصًا كل الحرص على اغتنامه وعدم إضاعته هدرًا، فكان رحمه الله لا يرى إلا وهو في عمل متواصل، بلا كلل ولا ملل، وكانت كل أوقاته في طاعة وذكر وعبادة وصلة للأرحام ومواساة للإخوان وزيارة للمرضى وتفقد للطلبة وتدريس لهم وقضاء لمصالحهم، وكان رحمه

الله شديد الحرص والعناية والاهتمام والرعاية بتوجيه الطلبة لاغتنام وقت الأسفار، وقد كان يقول رحمه الله: (السحر أنقى الأوقات وأصفها).

عاش رحمه الله طوال حياته جاداً في النصيح لطلبته ومريديه، متابعاً لسلوكهم ومعاملاتهم في شتى المجالات، وكان رحمه الله كريماً إلى أبعد الحدود، يأكل عنده الجميع حتى البهائم والحيوانات والطيور.

وفاته رحمه الله تعالى:

انتقل الشيخ الغوث حجة عصره إلى جوار ربه راضياً مرتضياً يوم الجمعة ٢٩ ربيع الثاني ١٤١٩ هـ الموافق ٢١ أغسطس ١٩٩٨ م، ودفن في مقبرة سيدي السنوسي بمدينة تلمسان.

سيدنا الإمام محمد عبد اللطيف بلقايد

من وهران الجزائر

المربي الشريف سيدي محمد عبد اللطيف بلقايد الإدريسي الحسني العلوي
المحمدي، المالكي الأشعري الجنيدي الهبري البلقايدي، شيخ الزاوية البلقايدية
الهبرية وطريقتها، وأحد كبار علماء الجزائر.

هو عالم من علماء المذهب المالكي، وعلم من أعلام العقيدة الأشعرية، وسالك
من سالكي المنهج الجنيدي، أسهم في حفظ مكانة الزوايا العلمية في الجزائر ومبادئها؛
وهي الاهتمام والتركيز على تدريس القرآن العظيم وعلومه، والالتزام بالدين الحنيف
الذي يدعو إلى ترك الخرافات والخزعبلات البدعية التي لا أصل لها من كتاب ولا
سنة، والدعوة إلى الإسلام المعتدل الخالي من كل غلو وتطرف، وتدريسه وتبليغ
تعاليمه، ونشر ثقافته، ولا ننسى أن نذكر بمحور نشاطه، وإشعاع مقامه، ورافد
أخلاقه وسلوكه؛ وهو التربية وعمادها المحبة، فهي هيئة في نفسه راسخة، تصدر عنه
بيسر وسهولة، فتدثر المريدين، وتشمل المحبين، وتحيط بالخلق أجمعين، ولا عجب!
فهو من نسج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إنه شيخ الشيوخ وكبيرهم، وتاج
العلماء والمربين.

نسبه:

يعد الشيخ محمد عبد اللطيف من آل البيت، ويمتد نسبه إلى إدريس الأزهر بن إدريس الأول بن عبد الله المحض الكامل بن الحسن المثنى بن الإمام الحسن السبط بن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهو حسني وحسيني، فجدّه عبد الله المحض الكامل أبوه هو الحسن المثنى بن الإمام الحسن السبط، وأمه هي فاطمة بنت الإمام الحسين السبط (فاطمة بنت الحسين بن علي). فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب جدّاه، وحمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار في الجنة عمّاه، وخديجة الصديقة وفاطمة بنت أسد الشفيقة جدّاته، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيدة نساء العالمين وفاطمة بنت الحسين سيدة ذراري النبيين أمّاه، والحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبواه.

ويمتد نسبه الروحي من حيث طريق القوم إلى سيدي محمد الهبري المتصل السند بمولانا العربي الدرقاوي، عن سيدنا أبي الحسن الشاذلي، عن سيدنا عبد السلام بن مشيش.

ولادته ونشأته:

هو نجم سمائنا وبدر زماننا ونقطة دائرة عهدنا الشيخ الكامل سيدي محمد عبد اللطيف ابن سيدنا الشيخ محمد بن أحمد ابن الحاج محمد الشريف الإدريسي الحسني.

ولد (دام ظله) بمدينة تلمسان المصونة بتاريخ ٢٢ شعبان ١٣٥٦هـ الموافق ٢٨ أكتوبر ١٩٣٧م ونشأ بها وسط أسرة كريمة باسقة شجرة سخائها، ضاربة بأصولها في أرض الشرف والأشراف، ممتدة أغصانها في سماء المعرفة والمروءة.

نقله غداة مولده جده سيدي أحمد بلقايد (رضي الله عنه) إلى سماحة الشيخ سيدي محمد الهبري، فوضعه في حجره، ونظر إلى وجهه متفرسًا ثم قال: "إنّ ابني هذا سيكون له شأن في هذه الطريقة".

فكان لتلك المقولة وقعها المؤثر في قلب والده سيدنا الشيخ محمد بلقايد (قدس سره) فراح يحوط ابنه بكل عناية، ولما شب أشرف بنفسه على تعليمه وتلقينه وتربيته، فتلقى عنه الفقه والسيرة والعقيدة ومختلف علوم الشريعة، ولما اشتد ساعده بدأ يلقيه علوم القوم، كما تلقى (حفظه الله) عن عمه سيدي عبد الكريم ابن الحاج محمد بلقايد الذي تولى تدريسه القرآن العظيم، ودرس علوم اللغة والآداب على مجموعة من المشايخ، على رأسهم الإمام الشيخ البشير بوهجرة، وكانت له جولات في

المنافشة والمدارسة مع ساحة الشيخ محمد متولي الشعراوي، وقد اشتهر منذ صباه بالجد في طريق القوم، وبلغ فيها مبلغ الرجال في سن مبكر في عهد والده الذي سمعنا منه (قدس الله سره) قوله: "نالها عَبْدُ اللّطيف بذراعه" أي: أنه ما حاز المقام إلا بجده واجتهاده، كما شهد له بمكارم الأخلاق، وهذا مما يشهد له به الخاص والعام.

ودخل ذات مرة على والده وشيخه، فاستقبله فرحًا مستبشرًا مرددًا:

اسْمَعْ كلامي ولتهم إن كنت تفهم لأن كنزك قد عرا عن كل طلسم

وما ذلك إلا لتجلي الأمر عليه وبزوغ فجره، أما هو دام ظله الوارف؛ فما عهدناه إلا متسترًا بدثار الخمول يرفض الظهور والإطراء، وكثيرًا ما يردد: (لست سوى خادمٍ للطريق والفقراء) وهذا شأن العارفين، ولولا أننا نعرف منه رفضه للحديث عنه ونخشى من سوء الأدب معه؛ لاسترسلنا في وصفه بما يليق بمقامه وإن كنا لا ندرك ذلك، ولا يسعفنا فيه زاد إلا ما أسعفنا به هو.

مآثره:

ونذكر من مآثره تلك التحفة المعمارية التي شيدها بإذن من والده بقرية سيدي معروف بوهران وبها مقر إقامته.

هذا وقد منَّ الله علينا أن أخذ عنه الطريق ثلة من كبار العلماء والدكاترة من مختلف بلدان العالم الإسلامي؛ منها: المغرب ومصر والسعودية وتونس وسورية ولبنان واليمن، ومن بعض الدول الغربية كفرنسة وأمريكة.

كما تخرج في هذه الزاوية عدد من الطلبة؛ منهم من شارك في المسابقة التي تنظمها وزارة الشؤون الدينية فنجح بامتياز وصار إمامًا خطيبًا، ومنهم من صار معلمًا رسميًا للقرآن، وما زال باب الفضل مفتوحًا وطموح الشيخ ممتدًا لأن يجعل من هذا المعهد مدرسة يتخرج فيها العلماء والفقهاء خدمةً للدين والوطن والمسلمين. وقد سخر لهذا الغرض كل ما يملك، وجند أبناءه لخدمة الزاوية والفقراء.

مواقفه النضالية والثورية:

لقد كان شيخنا سيدي محمد عبد اللطيف (دام ظله) من المجاهدين الأوائل الذين تخرجوا في الزاوية على يد الشيخ سيدي محمد بلقايد (رحمه الله) وحدث ذات مرة أن كان محل مطاردة من الاستعمار صحبة والده الشيخ سيدي محمد بلقايد وأخيه سيدي عبد الرحيم، واستمر الاستعمار يطارده ويضيق الخناق عليه لكونه كان يتولى التنسيق بين المجاهدين وجمع السلاح وتوزيعه، وتنظيم الاتصال بين الفدائيين المجاهدين في الجبال والمجاهدين المناضلين في المدينة، وقد نجاه الله من محاولة

الإعدام رمياً بالرصاص كما نجاه صحبة والده سيدي محمد بلقايد وأخيه سيدي عبد الرحيم من المعتقل، وهذا اضطره إلى الرحيل إلى سيدي بلعباس وظل يمارس نشاطه الثوري حتى توقفت الحرب.

ثمَّ أشرف على تنظيم استفتاء ٢ ديسمبر ١٩٦٢م الموافق لـ ٥ رجب ١٣٨٢هـ في منطقة سيدي بلعباس وما جاورها، مع تصفية قائمة الأسماء المقترحة والصالحة لأن تتولى مهام السلطة في إدارة الجمهورية الجزائرية.

المصادر

^ تراجم علماء التصوف^ مع علماء الجزائر: سيدي محمد بلقايد الشريف الحسني الإدريسي - جريدة البصائر الجزائرية نسخة محفوظة ٤ نوفمبر ٢٠١٤ على موقع واي باك مشين.^ أ ب -الطريقة البلقائدية الهبرية- تراجم رجال سند الطريقة البلقائدية الهبرية.

بسم الله الرحمن الرحيم

إجازة من مولانا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري (ت ٢٠٠٤م)

الحمد لله الذي وَصَلَ من أراد من كُمل عبادَه، وفقَّههم في الدين بتسلسل أمداده.
والصلاة والسلام على من تواتر عليه الوحي بأحكام الله ومراده، وعلى من حملها
من عدول الأُمَّة بصحيح إسناده. وسلَّم تسليمًا.

أمَّا بعد: فإنَّ علم الدين أعزُّ وأشرف مطلوب، والفقه والحديث أنفس مقتنى
ومرغوب؛ لذا كثر الاعتناء بضبط كل محفوظ ومكتوب، وأيُّ كتاب ليس له سند
فهو مطروح، وعنه مرغوب؛ حفظًا لهذا الدين الذي تواتر من الله نزوله؛ لقوله صَلَّى
الله عليه وسلَّم: «يحمل هذا الدين من كلِّ خلف عدوله».

وقد طلب منِّي الشيخ عبد العزيز بن الشيخ محمَّد سهيل بن الشيخ عبد الفتَّاح
خطيب الحسني نسبًا والشافعي والأشعري مذهبًا والشاذلي طريقة والدمشقي مولدًا
 وإقامة؛ أن أجزيه بما أتصل إليَّ من مشايخي الأعلام، بوأني الله وإيَّاهم برحمته دار
السلام، فأجزته بذلك ممَّا تلقَّيته عن سيِّدي الشيخ محمَّد الهاشمي وسيِّدي الشيخ
سعيد الكردي وسيِّدي الشيخ عبد القادر الدكالي وغيرهم.

كما أجزه بالإرشاد والتدريس الديني وبإعطاء الورد العام، وأسأل الله تعالى أن يكون أهلاً لذلك وأن ينفع به عارفه، ويجنبه معاصيه، ويوفقه لما يحبه ويرضيه.

وإنني أوصي المجاز أن يلازم تلاوة القرآن في كل مكان، وأن يعمر أوقاته بذكر الرحمن، كما وأنني أرجوه أن لا ينساني من دعواته الصالحة، في أوقاته الناجحة، ولا سيما بالعفو والغفران، وحسن خاتمة الإيمان، وصلى الله على سيدنا محمد سيد بني الإنسان، وآله وصحبه مدى الزمان.

حررته يده عن العبد الفاني

الشيخ عبد الرحمن الشاغوري

شيخ الطريقة الشاذلية

في جمادى الآخرة ١٤١٣هـ

الموافق ٣٠ تشرين الثاني ١٩٩٢م

١- الشيخ عبد الوكيل الدروبي:

إنني أوافق على ذلك.

٢- الشيخ أحمد نصيب المحاميد مدرس دمشق:

أؤكد ما أجز به الشيخ عبد العزيز الخطيب، وأنا أجزه بذلك أيضاً، فهو أهل لكل علم، وموئل لكل فضيلة، ونسأل الله له الزيادة والتوفيق.

دخلت الخلوة عند سيدي عبد الرحمن ثلاثة أيام ومن قبلها ثلاثة عند الشيخ أحمد خورشيد رحمهما الله تعالى. ولما خرجت من الخلوة الثانية سألني سيّدنا الشيخ الشاغوري: ماذا رأيت في هذه الليلة؟ قلت: رأيت رؤيا عظيمة. رأيت سيّدنا إبراهيم الخليل أتى إليّ وصافحني وقال: بايعتك. ثمّ ولى، فناديته: سيدي؛ ما هذه البيعة؟ قال: هذه البيعة الإبراهيمية، فقال الشيخ عبد الرحمن لما سمع ذلك: إنّ إبراهيم كان أمة، وستكون أنت أمة يُقتدى بك، فاستبشرتُ خيرًا كثيرًا، وكأنّها كانت إرهابًا لتوليّ مشيخة الطريقة فيما بعد، فكان كما بشرني رحمه الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

إجازة

الحمد لله الذي وصل من أراد من كمال عباده . وفقهم في الدين بتسلسل أعداده
والصلاة والسلام على من تواتر عليه لوجي بأحكام الله ومراده . وعلى من جعلها من عدول
الأئمة بصحيح إسناده . وسلم تسليمياً .

أما بعد : فإن علم الدين أغزر وأشرف مطلوب . والفقه وأحدث أنفس مقتني ومرغوب
لذا كثر الاعتناء بضبط كل محفوظ ومكتوب . وأي كتاب ليس له سند فهو مطروح وعنه مرفوب .
حفظاً لهذا الدين الذي تواتر من الله نزوله . لقوله صلى الله عليه وسلم : «دحبل هذا الدين من كل خلف
عدوله» .

وقد طلب مني الشيخ عبد العزيز بن الشيخ محمد معين بن الشيخ عبد الفتاح الخطيب الحنفي نسباً ولساني
والأستغري مذهباً . والسادة الطائفة والسادة المتقي مولد وإقامة أن أجيزه بما اتصل إلي من مستأجي
الأعلام بوأني إليه وإياهم برحمة دار السلام . فاجزته بذلك جهات طائفة عن سيدي
الشيخ محمد الأستغري وسيدي الشيخ سعيد الكندي وسيدي الشيخ عبد القادر الكاشي
وغيرهم . كما أجيزه بالإرشاد والتدريس الديني وبالخطاب والورد العام . وأسأل الله تعالى أن يكون
أهلاً لذلك . وأن ينفع به عارفيه ويحببه معاصيه . ويوفقه لما يحبه ويرضاه .

وإني أوصي المجاز أن يلائم تلاوة القرآن في كل مكان . وأن يعبر أوقاته بذكر الرحمن . كما وأني
أرجوه أن لا ينساني من دعواته الصالحة . في أوقاته الناجحة . ولا يسي بالعبود والغفران . وحسن خاتمة
الإيمان . وصلى الله على سيدنا محمد سيد بني الإنسان . وآله وصحبه مدى الزمان .

حررته يده عن لعبد الغاني شيخ الطريقة الساذلية عبد الرحمن الشاذلي

عليه السلام

في جمادى الآخرة ١٤١٧

الموافق ٢٠ تشرين الثاني ١٩٩٤

عبد الوكيل الروبو

في ١٢ ربيع الثاني

أذكر ما أجز به الشيخ عبد العزيز الخطيب
في جمادى الآخرة ١٤١٧
في ١٢ ربيع الثاني ١٩٩٤
مصدق عليه

إجازة سيدنا الشَّيخ شكري اللُّحفي

في

الطَّرِيقَة الشَّاذِلِيَّة الدَّرقاوِيَّة الهاشمِيَّة

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله وحده، والصَّلَاة والسَّلَام على مَنْ لا نَبِيَّ بعده.

وبعد:

فقد شاءت الأقدار الإلهيَّة أن تجمعني مع العالم العلَّامة والبحر الفهامة مرشد
المريدين وعمدة المسلكين سيدي أبي محمَّد عبد العزيز الخطيب في أسعد الأوقات؛
لأُطَّلِع [على] بعض اللُّمع الوهبيَّة التي استقاها مِنْ معين المرشد الكامل سيدي
الشَّيخ عبد الرَّحمن الشَّاغوري رحمه الله تعالى، ممَّا لم أجد لدي ريبًا بأن أرفع إليه هذه
الإجازة العطرة مضيًّا في تأدية واجبه السَّامي، مأذونًا بجميع الأوراد الخاصَّة والعامَّة
لطريقتنا الشَّاذِلِيَّة الدَّرقاوِيَّة العلوية، وهو جدير بها وأحقُّ بها، والله الموفِّق للصَّواب
والسَّلَام.

الفقير لله تعالى

شكري أحمد اللُّحفي

إِسْنَادُ الطَّرِيقَةِ الشَّاذِلِيَّةِ الدَّرَقَاوِيَّةِ الْعَلِيَّةِ

سيدي محمد بن الهاشمي التَّلْمِسَانِي (١٣٨١هـ / ١٩٦١م) * أَخَذَ عَنْ مَجْدِّ الطَّرِيقَةِ الشَّاذِلِيَّةِ سَيِّدِي أَحْمَدَ بْنَ مُصْطَفَى الْعَلَّاءِي الْمُسْتَغْنَمِي (١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م) وَسَيِّدِي مُحَمَّدَ بْنَ يَلَّسَ التَّلْمِسَانِي (١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م) * كِلَاهُمَا عَنْ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَبِيبِ الْبُوزِيْدِي الْمُسْتَغْنَمِي (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) * عَنْ مُحَمَّدَ بْنَ قَدُورِ الْوَكِيلِي (١٣٠١هـ / ١٨٨٤م) * عَنْ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْقَادِرِ الْبَاشَا وَأَبِي يَعْزَى الْمَهَاجِي (١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م) * كِلَاهُمَا عَنْ مَجْدِّ الطَّرِيقَةِ الشَّاذِلِيَّةِ مَوْلَايَ الْعَرَبِي الدَّرَقَاوِي (١٢٣٩هـ)^(١) * عَنْ عَلِي بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعِمْرَانِي الشَّهِيرِ بِالْجَمَلِ (١١٩٤هـ) * عَنْ الْعَرَبِي بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ * عَنْ وَالِدِهِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ * عَنْ قَاسِمِ الْخَصَاصِي * عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْنٍ الْأَنْدَلُسِيِّ الْفَاسِيِّ * عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْفَاسِيِّ * عَنْ أَخِيهِ يُوسُفَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْفَاسِيِّ * عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَجْدُوبِ * عَنْ عَلِي

(١) وَكَانَ مِنْ تَلَامِذَتِهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْحَبِيبِ الْبُوزِيْدِي الْغُمَارِي الْمَغْرِبِي (١٢٢٩هـ)، وَهُوَ شَيْخُ سَيِّدِي أَحْمَدَ بْنِ عَجِيْبَةٍ (١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م)، وَيَقَعُ بَعْضُ السَّالِكِيْنَ فِي أَوْهَامٍ فَيَخْلُطُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَيِّدِي مُحَمَّدَ بْنِ الْحَبِيبِ الْبُوزِيْدِي الْمُسْتَغْنَمِي الْجَزَائِرِيِّ (١٣٢٧هـ)، وَهُمَا شَيْخَانِ مِنْ شِيُوخِ الطَّرِيقِ فِي عَصْرَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ.

الصنهاجي الملقب بالدوار * عن إبراهيم الفحام الزُّهوني * عن أحمد بن أحمد
 البرنسي الفاسي المعروف بـ(زُّروق) (٨٩٩هـ) * عن أحمد بن عقبة الحضرمي
 (٨٩٥هـ) * عن يحيى بن أحمد القادري * عن علي بن محمد بن وفا (٨٠٧هـ) * عن
 والده محمد بن وفا المعروف بـ(بحر الصفا) (٧٦٥هـ) * عن داود بن عمر الباخلي
 (٧٣٢هـ) * عن ابن عطاء الله السكندري (٧٠٩هـ) * عن أبي العباس المُرسي
 (٦٨٥هـ) * عن أبي الحسن الشاذلي (٦٥٦هـ) رضوان الله تعالى عليهم، وأخذ
 سيدي أبو الحسن طريق الإرادة والتحكيم: عن عبد السلام بن مشيش * عن عبد
 الرحمن العطار الزيات * عن تقي الدين الفُقَيْر * عن فخر الدين (من أهل
 التَّصْرِيف) * عن نور الدين أبي الحسن علي * عن محمد تاج الدين * عن محمد
 شمس الدين (بأرض الترك) عن زين الدين القزويني * عن أبي إسحاق إبراهيم
 البصري * عن أبي القاسم أحمد المرواني * عن أبي محمد سعيد * عن سعد [بن عبد
 الله] * عن محمد فتح السعود * عن سعيد الغزواني * عن أبي محمد جابر بن عبد الله
 * عن سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا الحسن * عن سيدنا علي بن أبي
 طالب * عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه و[على] آله وصحبه وسلّم.

وألْبَسَ الخُرْقَةَ سيّدي أبا الحسن الشاذلي محمد بن علي بن حِرَزْهَم * عن صالح
 بن نِصَارَن بن غُقيعان * عن أبي مدين الغوث * عن سيدي عبد القادر الجيلاني *

عن سعيد المبارك * عن أبي علي الحسن بن يوسف * عن أبي الفرج الطرطوسي *
عن أبي الفضل التميمي * عن أبي بكر بن جحدر الشبلي * عن أبي القاسم الجُنيد *
عن سَرِيٍّ السَّقَطِي * عن معروف الكرخي * عن داود الطائي * عن حبيب
العجمي * عن الحسن البصري * عن سيِّدنا علي بن أبي طالب * عن سيدنا رسول
الله صلى الله عليه و[علي] آله وصحبه وسلم.

إِسْنَادُ الطَّرِيقَةِ الشَّاذِلِيَّةِ الدَّرَقَاوِيَّةِ الْعَلِيَّةِ مِنَ الطَّرِيقِ الْهَبْرِيَّةِ

الشيخ عبد العزيز الخطيب الحسني

أجازني بالورد العام والخاص في الطريقة الشاذليّة:

١. سيّدِي الشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدُ اللَّطِيفِ بْنِ مُحَمَّدٍ بَلْقَايْدَ
٢. عَنْ وَالِدِهِ سَيِّدِي مُحَمَّدٍ بَلْقَايْدَ
٣. عَنْ سَيِّدِي مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ الْهَبْرِي
٤. عَنْ سَيِّدِي مُحَمَّدٍ الْهَبْرِي
٥. عَنْ أَبِي يَعْزَى الْمَهَاجِي / ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠هـ
٦. عَنْ مَجْدَدِ الطَّرِيقَةِ الشَّاذِلِيَّةِ مَوْلَايَ الْعَرَبِيِّ الدَّرَقَاوِي / ١٢٣٩هـ /
٧. عَنْ سَيِّدِي عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعِمْرَانِيِّ الشَّهْرِائِيِّ الْجَمَلِ / ١١٩٤هـ /
٨. عَنْ سَيِّدِي الْعَرَبِيِّ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
٩. عَنْ وَالِدِهِ سَيِّدِي أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
١٠. عَنْ سَيِّدِي قَاسِمِ الْخَصَاصِي
١١. عَنْ سَيِّدِي مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْنِ الْأَنْدَلُسِيِّ الْفَاسِيِّ

١٢. عن سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي
١٣. عن أخيه سيدي يوسف بن محمد الفاسي
١٤. عن سيدي عبد الرحمن المجذوب
١٥. عن سيدي علي الصنهاجي الملقب بالدوار
١٦. عن سيدي إبراهيم الفحام الزرهوني
١٧. عن سيدي أحمد بن أحمد البرنسي الفاسي المعروف بـ ((زروق)) ٨٩٩هـ
١٨. عن سيدي أحمد بن عقبة الحضرمي ٨٩٥هـ
١٩. عن سيدي يحيى بن أحمد القادري
٢٠. عن سيدي علي بن محمد بن وفا ٨٠٧هـ
٢١. عن والده محمد بن وفا المعروف بـ ((بحر الصفا)) ٧٦٥هـ
٢٢. عن سيدي داود بن عمر الباخلي ٧٣٢هـ
٢٣. عن سيدي ابن عطاء الله السكندري ٧٠٩هـ
٢٤. عن سيدي أبي العباس المرسى ٦٨٥هـ

٢٥. عن سيدي الإمام أبي الحسن الشاذلي رضوان الله تعالى عليهم ٦٥٦ هـ وأخذ

سيدي أبو الحسن طريق الإرادة والتحكيم

٢٦. عن سيدي عبد السلام بن مشيش

٢٧. عن سيدي عبد الرحمن العطار الزيّات

٢٨. عن سيدي تقي الدين الفقير

٢٩. عن سيدي فخر الدين ((من أهل التصريف))

٣٠. عن سيدي نور الدين أبي الحسن علي

٣١. عن سيدي محمد تاج الدين

٣٢. عن سيدي محمد شمس الدين ((بأرض الترك))

٣٣. عن سيدي زين الدين القزويني

٣٤. عن سيدي أبي إسحاق إبراهيم البصري

٣٥. عن سيدي أبي القاسم أحمد المرواني

٣٦. عن سيدي أبي محمد سعيد

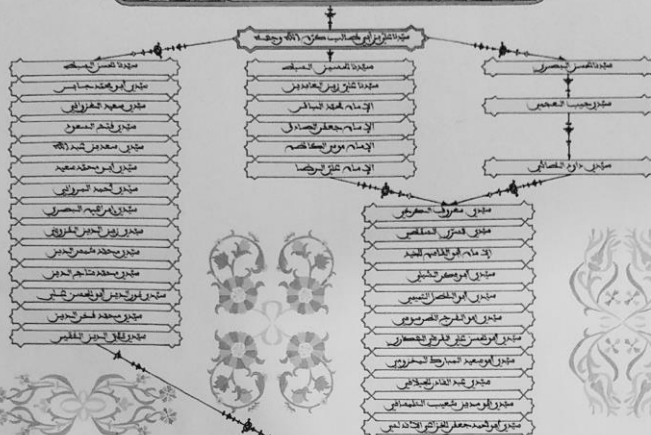
٣٧. عن سيدي سعد بن عبد الله رضي الله عنه

٣٨. عن سيدي محمد فتح السعود
٣٩. عن سيدي سعيد الغزواني
٤٠. عن سيدي أبي محمد جابر بن عبد الله
٤١. عن سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم سيّدنا الحسن
٤٢. عن سيّدنا عليّ بن أبي طالب
٤٣. عن سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين

التعليق الطبي على الخروقة التأقيدية العبرية

سورة فاتحة الكتاب

[illegible]

منه واحمد من عبد القادر السامري

سید و قلمی محمد العبد

2014-2015

والله اعلم بالصواب

بدی عنه لغزیم: الخلفاء
الکرام

~~Erklärung~~
Erklärung

أهـ رث الشؤسدهم عنه لغرض الخلف لمن له صفه
باب الرد الحام العام

الطريقة الدندراوية

سيد الطريقة السلطان محمد الدندراوي المصري

دخل عليّ في جامع الدرويشية بهيبته وطول قامته، يشع النور من خلال بشرته السمراء، وابتدرني بابتسامته العذبة، وألقى علي السلام مع صحبه وقالوا: هذا سيدنا الأمير الفضل..

رددت السلام وقلت مداعبًا: بل أمير المؤمنين.

جلس إلي ودارت كؤوس الأحاديث قبل صلاة الجمعة، ثم دعاني إلى حضور المولد الشريف الذي يقيمه كل عام في قرية بجوار دمشق.

المسافة قصيرة، لكن ما أبعد المسافة التي تفصلني عن حقيقتهم، وعن تاريخهم، وعن نظام الحكم في دولتهم، وعن أميرهم الذي أخذ البيعة منهم، فصار حاكمًا لـ "أكثر من ١٨ مليونًا" من البشر يتشرون في أربعة أنحاء المعمورة!!

خرج الأمير الفضل من المسجد وهو يقول: حضرت خطبًا كثيرة، لكنني ما رأيت أسدًا على المنابر مثل سيدي الخطيب عبد العزيز.. وكان كلما قدمني في الاحتفالات يقدمني بهذه الصفة: أسد المنابر.

سأحدثكم:

عن دولة العمامات البيضاء، عن "الأسرة الدندراوية" أتحدث.. وما أعجبه من

حديث!!

مُذ كنت صغيراً أقرأ عن التصوف بحسب أسرتي التي تنتهج التصوف بحكم منهج الأجداد الذي توارثناه لعقود، كنت وأنا صغير حينما أذهب للجمعة ومجالس سيدي الوالد عليه رحمة الله أرى الرجال يرتدون الملابس الفضفاضة، جلبابهم أبيض، وعمامتهم كذلك.

لكنني عندما رأيت أتباع الأمير الفضل استشعرت عظمة الإسلام بتلك العمام التي تتميز من بقية العمام أن بها "عذبة" تتدلى على الكتف، ما إن تراها حتى تعرف أنهم من "الأسرة الدندراوية".

ورغم أنَّ مقر الأسرة في صعيد مصر وأن التصوف منهج غالب في جنوب الصعيد ترى تشعب الطرق الصوفية يضيفي تنوعاً في صورة أتباعها، فمن "الشاذلية" أتباع الإمام أبي الحسن الشاذلي، إلى "الرفاعية" أتباع الإمام السيد أحمد الرفاعي، وإلى "الدسوقية" أتباع الإمام السيد إبراهيم الدسوقي، وإلى "الأحمدية"

أتباع الإمام السيد أحمد البدوي، وغيرها من الجماعات الصوفية، تراهم يختلفون في مظهرهم باختلاف مشربهم الصوفي.

وهذا ما جعلني أنظر لـ"الندراوية" على أنهم ليسوا أكثر من مجرد "طريقة صوفية" مثل بقية "الطرق الصوفية" حتى فاجأني الأمير قبل أيام وحكى لي كلامًا جديدًا عن "الأسرة الندراوية" ومنهجهم الفكري الذي أرى أنه تجسيد للإسلام الحضاري، الذي كان يجب أن يلقي الرعاية من الدول العربية والإسلامية بديلاً متطوراً عن كل "الجماعات الإسلامية" التي ترى أنها أساءت للدين الإسلامي.

وهنا طلبتُ من سمو الأمير الفضل أن يضع كتاباً يعرّف فيه هذه الطريقة، ويذكر تاريخها؛ لتكون منارة للأجيال بعده.

وبعد سنوات من اللقيا المتكررة قدّم لي كتاباً سماه "الوثيقة البيضاء"، وحين طالعه قلت: كيف لا يتم تدريس "الوثيقة البيضاء" "دستور الأسرة الندراوية"؟ وسيأتي الكلام عليها.

ثم بدأت رحلتي في البحث عن هذه الجماعة؛ لأكتشف وأنا الأقرب منها جغرافياً -حوالي ١٠ كيلومترات أو ٢٠ بين دمشق وقرية فرع دندرة، عاصمة الخلافة في "إمارة الندراوية" بدمشق التي أصبحت "دندراوية" بوجود الأمير الفضل فيها.

لكن السنوات لم تطل فقبل حوادث ٢٠١١ توفي الأمير الفضل، وتم مبايعة الأمير هاشم بن الأمير الفضل، الذي يقال: إنه أسر القلوب في الصعيد، حتى بايعه الأقباط الذين انضموا لإمارته، وهم على دين غير الدين.

سألت عن الأمير هاشم، وبحث في شبكة الإنترنت، وعرفت أنه الأمير الرابع في "إمارة الدندراوية"، التي نشأت منذ ١٣٥ سنة على يد محمد الدندراوي، الملقب بالسلطان، ويعدُّ الجد المعنوي للدندراويين، مهما اختلفت أنسابهم أو أعراقهم أو جنسياتهم، وجاء في إحدى الرسائل التعريفية بالفكر الدندراوي، بقلم أميرها الأمير الفضل بن العباس: أن جدهم محمدًا هو من أحفاد السلطان اليوسف، من ذرية الشريف إدريس الأول، مؤسس دولة الأدارسة في المغرب العربي، وحفيد الإمام سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه، وهي معلومة تخالف ما يشاع من أنهم أحفاد أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بعد انتقال سيدنا الأمير الفضل إلى رحاب ربه في شهر يناير ٢٠١١ شهدت قرية "دندرة" عاصمة إمارتهم حفل تنصيب الأمير هاشم حاكمًا جديدًا للإمارة في ٢٧ يونيو من العام ٢٠١١، بحضور ممثلين عن ساحات الدندراوية في العالم، وشهدت القرية البعيدة حضورًا ملفتًا للانتباه من جنسيات مختلفة من أعضاء "الأسرة

الندراوية" التي أصبح ينتسب إليها مختلف أطياف المجتمع، بفئاته المختلفة؛ من أساتذة وعمداء كليات، إلى رجال أعمال، ورجال برلمان.

ثم البسطاء الذين انضموا للأسرة وأصبحوا يشكلون تجمعاً ملفتاً انتشر في مختلف محافظات الجمهورية، وعدد من بلدان أوروبا وآسية، وبعض الدول الإفريقية، لكن يبقى مقرهم على شارع صلاح سالم في القاهرة "كعبة القصاد" ممن أثارهم الفضول للانضمام إلى "الأسرة الندراوية"، وهناك يتم استقبالهم، وتوفر لهم "الأسرة" إقامة شاملة، ودورات تدريبية، تعرّف منهجها التنظيمي والفكري؛ ليعودوا بعدها إلى بلدانهم سفراء دعوة للأسرة الندراوية في بلدان العالم.

وما زالت الأسرة الندراوية في دمشق مخلصه لطريقتها، تقيم الدروس في زاويتها على أرض منطقة الميدان برئاسة شيخها نائب الأمير الشيخ عبد الرزاق الملقى، ومن شيوخها الشيخ عصام بن الشيخ يوسف عرار، ومن وجهائها وساداتها البارزين الشيخ ياسر سرحان وأحضر أحياناً معهم في كل عام مرة أو مرتين في المولد النبوي والإسراء والمعراج.

منهاج الطريقة الدندراوية

(جمع إنسان محمد - الأسرة الدندراوية)

هذا هو اسم الجماعة التي انتشرت في مصر وكثير من بلدان العالم بفضل أميرها والمؤسس الفعلي لها الإمام الفضل بن العباس الذي لا يكاد يستقر في دندرة - موطن دعوته - حتى يرجع ليطوف بجميع دول العالم داعياً إلى فكرته ودعوة جده، حتى نجح في إقناع الملايين داخل مصر وخارجها بصدق دعوته، وجمع حولها ملايين من المؤيدين والمنتسبين... وتقدم أنني عندما بحثت عن معلومات عن هذه الجماعة لم أجد عنها كتاباً مطبوعاً، ولا بحثاً منشوراً، ولا مقالاً مكتوباً، فقلت لسيدي الأمير الفضل: لماذا لا تنشرون فكركم على الملأ لئلا يتسنى لأحد أن يفتری عليكم فينسب إليكم ما يسيء إلى الطريقة؟

فوعد خيرًا. وقدم كتابه العظيم: "الوثيقة البيضاء"، الذي طبع بعد ذلك في جزأين.

عرفت بعدها أن الدندراويين لا يرغبون في وضع أنفسهم وجماعتهم تحت عدسة الإعلام، ولا مرصد الباحثين، وهذا لم أجد له تفسيرًا مؤكدًا، لكنني لم أعدم مصادر

داخل الجماعة أمدتني ببعض الرسائل المطبوعة والمكتوبة بخط اليد، منسوبة إلى أميرها الفضل بن العباس آل الدندراوي قبل تقديمه "الوثيقة البيضاء".

كما كشفت لي عن كثير من الأمور التي لا يسمح لأحد غير دندراوي أن يعرفها.

النشأة والتعريف

نشأت الدندراوية على يد محمد الدندراوي، الملقب بالسلطان، ويعده الدندراويون جدهم المعنوي، وكان يقيم في دندرة -إحدى قرى محافظة قنا بصعيد مصر-

ومع أننا لم نجد إجابة تفسر سبب إطلاق لقب "السلطان" على محمد الدندراوي، ولا لقب "سمو الأمير" على الفضل بن العباس، إلا أنه يبدو أن هناك ارتباطاً بين إطلاق هذه الألقاب على زعماء الدندراوية ونسبتهم إلى أمراء دولة الأدارسة وسلاطينها.

وفي إحدى الرسائل التي كتبها الفضل بن العباس وصف فيها جماعته بأن دعوتها دعوة شاملة، وقال عنها: إنها ليست بدعوة مذهبية حديثة.. وليست بطريقة صوفية جديدة.. وليست بجماعة سياسية قومية.. وليست بجمعية خيرية إقليمية.. ويوضح الفضل في فصل لاحق أنه لم يرد أن يكون كيان أسرته كياناً متخصصاً يضاف إلى

الكيانات السابقة، بل أراد أن يكون كياناً يضم كل هذه الكيانات ويحتوي على كل مميزات وخصائصها، فيذكر أن "جمع إنسان محمد - الأسرة الدندراوي" ليست كياناً من الكيانات الطائفية أو الطبقية، ولا القومية أو الإقليمية، وإنما هي كيان اجتماعي يجمع الأفراد المتفرقة والتجمعات المتوزعة في وعاء الأسرة الواحدة، فجمع إنسان محمد صيحة نداء لجميع المسلمين -أيّاً كان مذهبهم السلفي أو طريقتهم الصوفية أو تنظيمهم السياسي أو جمعيتهم الخيرية- بأن يتجاوزوا حواجز الفرقة، وأن يتألفوا تحت ظل الزعامة المحمدية الجامعة.

سررتُ كثيراً حينما اجتمعت قبل اللقاء الأخير بسمو الأمير الفضل فقدم لي كتاباً عن الطريقة الدندراوية؛ لأنه استجاب لمطلبي، وكان ذلك قبل وفاته بستين تقريباً. نظرت في الكتاب فإذا به أنّ لهم إمارة، إمارة لها أتباع يتشرون في إنجلترا، وأفغانستان، وباكستان، وماليزية، واليمن، ولبنان، وسورية، والمغرب، وتونس، والسودان، وغيرها من البلدان، عدد صفحاته 1043، وهو في أربعة فصول:

الأول: تمهيد وتعريف منهج "الأسرة الدندراوية"

والثاني: "الإصلاح والمصلحون"

والثالث: "توصيف الأداء"

والرابع: "التأسيس والأساس".

ويشرح في مجمله منهج الأسرة الدندراوية "التكوين والكيان"

دهشت مما رأيته في الوثيقة التي تعطي صورة رائعة عن الإسلام أمام الجماعات المتطرفة التي تقدم النموذج الأسوأ عنه، وأثارني الكتاب حتى قلت: على الأمة اليوم أن تقرأ هذا المنهج الصوفي الرائع، لعله يكون الترياق الذي نخرجنا مما نحن فيه من تطرف إلى صوفية نقية خالصة؛ إذ في جمعهم سلوكيات وأخلاقيات تفتقدها أمتنا اليوم.

تأسيس الكيان

في كتاب "الوثيقة البيضاء" حاول مؤلفه سيدي الفضل بن العباس أمير الأسرة الدندراوية تعريف الفكر الدندراوي.

فبدأ بأسباب نشأة الفكرة نفسها على يد جده السلطان محمد، ووضع خلفية لصورة الواقع المتردي للأمة الإسلامية وقتها وقد "أنهكها الهوان وأضنتها المهانة"، هذا هو الذي دفع مؤسس الأسرة بصفته "واحدًا من المصلحين" إلى محاولة البحث عن تفسير لهذا الواقع المؤلم، ومن ثم اتخاذ خطوات لعلاج "ذلك البلاء المهين".

وفي رحلة تفسير هذا الواقع رأى السلطان أن هناك أربع طوائف وصفها بـ
"الإصلاحية" انفردت كل منها بتصور لما أصاب "إنسان محمد"، ووضعت دواء
حسب تصورهما لهذا الداء:

الطائفة الأولى: المذاهب السلفية.

والثانية: الطرق الصوفية.

والثالثة: الجمعيات الخيرية.

والرابعة: رؤساء التنظيمات الوطنية.

وتوزع السواد الأعظم من أهل الإسلام على هذه الطوائف المتشابهة في الغاية،
المتغايرة في كيفية الوصول إليها، فانقسمت بذلك طوائف الشارع الإسلامي
"المتخصصة" كل منها إلى قسمين: تجمعات صالحة ومجموعات فاسدة، وابتعد عن
مواقع تلك الطوائف أكثر أهل الإسلام، ففقدت تلك الطوائف تأثيرها في المسلمين
على مر الزمان.

وبعد أن جال الدندراوي الأول في مصر وفي عدد من البلدان الإسلامية، عَلِمَ أنه
لن يجد في أي تجمع من التجمعات المتخصصة المخلصة مَنْ تماثلت رؤيته معه، فبدأ
برصد الداء من أجل توصيف الدواء، فقال:

"إنَّ أصلَ بلاء ما قد وصلنا إليه هو تركنا لما كنا عليه".

فأحد أدوار الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حياة إنسان أمته هو دور الرسول الزعيم الجامع، الذي جمع الله به المسلمين، وإعمالاً لهذا الدور لسيد البشر محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جعل الله الارتباط بشخصه (صلى الله عليه وسلم) متساوياً في العقيدة مع التسليم برسالته، فبالسليم برسالته الخاتمة أقام في الوجدان قيم الإسلام، وأقام في الوجود قيمة المسلمين، وبالارتباط بشخصه (صلى الله عليه وسلم) امتلك بسيادته المحمدية الشاملة الوجدان، فترسخ فيه قيم الإنسان، وهيمن بزعامته المحمدية الجامعة على الوجود حتى شمنت في الوجود قيمة المسلمين.

وبهذا الارتباط الانتهائي صار كل من اتبع السيادة المحمدية الشاملة وبايع الزعامة المحمدية محمدية التكوين، فبتكوينه المحمدي بنى الإنسان ذاته، وألف أسرته، وأقام مجتمعه، وأنشأ أمته، فالجميع في كيان إنساني لا يتجزأ مهما تنوعت الطائفيات أو الطبقات، ومهما تعددت القوميات أو الإقليميات، ومن أجل هذا أنشأ الدندراوي الأول الأسرة الدندراوية.

التنظيم الدندراوي:

مع أن الدندراويين يصفون جماعتهم بالأسرة إلا أنهم منظمون تنظيمًا جيدًا، فأصغر وحدة في هذا الكيان هي الساحة، وتضم عددًا من جموع "إنسان محمد" في مكان ما، قد يكون مدينة أو قرية أو عدة قرى، وتكوّن عدة ساحات في محافظة ما "تجمّع ساحات إنسان محمد" وتصب هذه التجمعات في دندرة؛ مقر الأمير الفضل ونوابه من أمراء الأسرة الدندراوية.

وليس هناك شروط يجب أن تتوفر في المسلم حتى يكون دندراويًا ويدخل في جموع (إنسان محمد) إلا شرط واحد؛ وهو أن يكون محبًا لسيد الخلق، وأن يؤمن بإخلاص بالرؤية الدندراوية.

تقول مصادر في الأسرة: إن القيادة في الساحة جماعية وليست فردية، والأمير يبايع ولا يفرض، ولا يُقدّس، ولا تقبل يده.

ومع أن الأسرة الدندراوية غير معترف بها قانونًا؛ لأنها ليست طريقة صوفية فحسب فتخضع للمجلس الأعلى للطرق الصوفية، ولا هي جمعية خيرية فحسب فتخضع لقانون الجمعيات، ولا حزب سياسي فتحصل على رخصة الحزب السياسي،

لذلك لا تتعرض للمساءلة القانونية، ولا إلى الهجمات الأمنية، وتنعقد اجتماعات ساحاتها ومؤتمراتها تحت غطاء قانوني.

وعندما سألت مصادر داخل الأسرة عن سبب تمتعهم بحرية الاجتماع والحركة في حين أنهم يعدون جماعة محظورة تتشابه مع جماعة الإخوان المسلمين في شمولية منهجها وكيفية تنظيمها، ومع السلفية الحركية في رفع شعار "نحن نعلم بالسياسة ولا نعمل بها"؛ نفى هذا المصدر صفة الحظر عن الأسرة، وقال: إن لقاءاتهم واجتماعاتهم تعقد تحت غطاء (مراكز دندرة الثقافية) المشهورة وفق قانون الجمعيات.

واتخذت الأسرة الدندراوية مثال النعل النبوي شعارًا لها، وأعلاهُ نجمة سباعية خضراء عليها اسم الله تعالى واسم رسوله سيدنا محمد صلوات الله عليه، يحيط بها هلال أخضر مكتوب عليه:

ومن تكن برسول الله نصرته
إن تلقه الأسد في آجامها تجم
قال فيها الشاعر:

ونعل تدوس العرش روعي
إذا وضعت فوق الرؤوس لنا نعلو
شفاء لنا من كل داءٍ وإنما
حقيقتها تاج وصورتها

هذا الشعار مرفوع في كل بيت دندراوي؛ ليلتزم مسيرة المسألة المحمدية.

وكل ساحة من الساحات لها اجتماعان؛ الاثنين والخميس من كل أسبوع، يقرأ فيهما القرآن، وتعدّد الحضرة، ويتم الشدو بالأهازيج الدندراوية بأداء جماعي، ويدرس فيها سلسلة كتب الوثيقة البيضاء، وبعض الرسائل الأخرى التي يكتبها الأمير الفضل، ويناقش في هذه الاجتماعات أحوال الساحة.

والأسرة الدندراوية تمتد بمظلتها الاجتماعية على كل متسببها، فواجب على الدندراوية أن يتزاوروا ويعرفوا أحوال بعضهم بعضاً، ويتآزروا في أوقات الشدة والفرح، ويقوموا بعمل اجتماعي وخيري وتثقيفي في إطار ساحاتهم، ويعقدوا دورات تدريبية للحرفيين المنتسبين للأسرة، وينشئوا جمعيات خيرية تخصص لمساعدة فقراء أهل البلدة أو الحي.

المؤتمر العام

مشهد مهيب يأسر القلوب ويشرح الصدور ويسمو بالروح.. يؤكّده ما يفيض به الدندراوية في وصف مشهد جموعهم في مؤتمراتهم العام، فالدندراويون يتوافدون إلى دندرة مرتين كل عام؛ مرة في المولد النبوي الشريف، وأخرى في مناسبة الإسراء

والمعراج، مرتدين زيهم الأبيض، كما أنهم يتميزون بالعمامة البيضاء التي تأخذ شكل العدد ٧، وترتخي من الخلف بعذبة على الرقبة.

ففي المولد النبوي الشريف؛ يتجمعون بمئات الآلاف في المؤتمر العام للدندراوية، الذي يتوافد إليه منتسبو أسرهم من جميع قارات العالم، بخلاف مؤتمر الإسراء والمعراج الذي يقتصر الحضور فيه على المصريين منهم فقط.

وقد حضرت صورة مصغرة عنه مرات في مؤتمراتهم بدمشق بحضور سمو الأمير الفضل رحمه الله.

وقبل حلول المؤتمر بشهر تقريبا تبعث القيادة في دندرة خطاباتٍ لجموع الساحات، تطلب منهم اقتراحاتهم للبرنامج المزمع تنفيذه في المؤتمر، وتعتقد الساحات اجتماعاتها لطرح أفكارها للبرنامج القادم، وهذه الأفكار تأخذ بها القيادة في دندرة بعد مناقشتها لدى لجنة المتابعة والتقرير.

عندما قمت بالاطلاع على نموذج البرنامج الأخير لمؤتمر الإسراء والمعراج وجدت أنه أوراق مجدولة مخصص فيها: لقاءات لمناقشة أحوال الساحات، وجلسات للاقتراحات والشكاوى، ولقاء المدارس القرآنية، ودورات للحاسب

الآلي والإنترنت، وملتقى المواهب، وملتقى شباب جموع الساحات، ولقاء مختلف
جموع الساحات، ومحاضرات يلقيها الأمير الفضل ومحاضرات غيرها.

لقد استطاعت هذه الطريقة بحسن تنظيمها أن تنال احترام جميع الطرق في العالم
الإسلامي... فهنيئاً للإسلام بهم، وهنيئاً لهم بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،
فشعارهم:

الله أكبر، نحن المحمديون، والله الحمد

وعلى الحقيقة الكبرى نقول: جميع رجال الطرق محمديون بالفطرة والمنهج
والسلوك.

الطريقة الدسوقية

سيدها سيدي إبراهيم الدسوقي

الجامع بين الشريعة والحقيقة

لله سبحانه وتعالى عبادٌ صفّوا فتخلصوا من علائق الدنيا، فأخلصت قلوبهم وأرواحهم في عبادة الله ونفع خلقه، فاصطفاهم الله أولياءً له وخصهم ببعض فضله، فأصبح ذكرهم مرفوعاً في مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنهم ساروا على قدم الحبيب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فتعلّموا وعلمّوا فأصبحوا من أهل الورثة المحمدية.. فالعلماء ورثة الأنبياء.

ومن هؤلاء العلماء الذين ذاع علمهم وانتشر مريدوهم في الآفاق الإمام العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي القرشي، الذي يلقب بـ "أبي العينين" والمقصود بهما عين الشريعة وعين الحقيقة؛ لأنه حاز فضل إتقان علوم الشريعة كلها، وتخلّق بها، وسار في طريق الله يجاهد نفسه حتى ارتقى فأصبح من أهل الحقيقة؛ وهي معرفة الدنيا على حقيقتها، فيفنى العبد في الله ويعرض عما سواه، وينكشف له من الحقائق ما لا يراها غيره من أهل الدنيا الذين حجبتهم الشهوات.

نسبه:

أجمع علماء الأنساب والمؤرخون كافة على اتصال نسب القطب الدسوقي بسيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب، فهو:

سيدنا إبراهيم الدسوقي، بن عبد العزيز أبي المجد، بن قريش، بن محمد المختار، بن محمد أبي النجا، بن علي زين العابدين، بن عبد الخالق، بن محمد أبي الطيب، بن عبد الله محمد الكاتم، بن عبد الخالق، بن أبي القاسم جعفر الزكي، بن علي الهادي، بن محمد الجواد، بن علي الرضا، بن موسى الكاظم، بن جعفر الصادق، بن محمد الباقر، بن علي زين العابدين، بن الحسين بن علي بن أبي طالب زوج السيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولد رضي الله عنه في التاسع والعشرين من شهر شعبان عام ٦٣٣ للهجرة على أرجح الأقوال.

نشأ سيدي الإمام إبراهيم الدسوقي في بيت إيماني صالح، فحفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، ودرس العلوم الشرعية والعربية المختلفة -من توحيد وفقه وتفسير وبلاغة وأدب- حتى أتقنها وأصبح أحد كبار علماء الأمة وعيناً من علوم الشريعة، ودرس في علوم التصوف والأخلاق تركية النفس وتبحر فيها حتى

صار عيناً من علوم الحقيقة؛ ولذا لُقّب بـ "أبي العينين"، وكان يعمل في صناعة الفخار والحصير والزراعة ليكسب قوت يومه، وكان مجاهدًا في سبيل الله فشارك في فتح عكا مع جيش المسلمين حيث عسكر الصليبيون.

وقد نسب له أبيات من الشعر عن نشأته الصوفية تقول:

نعم نشأت في الحب من قبل آدم وسرّي في الأكوان من قبل نشأت
على الدرة البيضاء كان اجتماعنا وفي قاب قوسين اجتماع الأجرة

لم يترك سيدي إبراهيم الدسوقي كثيرًا من المؤلفات والكتب؛ بسبب انشغاله بتربية المريدين؛ لذلك فقدت معظم كتبه وضاعت، وعلى حسب استنباط شيوخ الصوفية - كالكركي والمناوي والبقاعي - تم الإلمام ببعض أسماء مؤلفاته التي نسبت إليه.

يُقام له في مدينة دسوق احتفالان سنويًا؛ أحدهما في شهر نيسان يُسمى بالمولد الرجبي، والثاني في تشرين الأول وهو الاحتفال بمولده الذي يُعد من أكبر الاحتفالات الدينية في مصر، حيث يزور مسجده الذي بقلب المدينة أكثر من مليون زائر تقريبًا خلال أسبوع من داخل مصر وخارجها.

ولسيدي الإمام إبراهيم الدسوقي أقوال وإرشادات كثيرة وجَّهها لمريديه لتكون نبراساً لهم في طريقهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وكان يأخذ العهد على المريد، فيقول له: "يا فلان اسلك طريق النسك على كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، وعلى أن تتبع جميع الأوامر الشرعية، والأخبار المرضية، والاحتفال بطاعة الله عزَّ وجلَّ قولاً وفعلاً واعتقاداً، وألاً تنظرياً ولدي إلى زخارف الدنيا ومطاياها وقماشها ورياشها وحظوظها، واتبع نبيك في أخلاقه، فإن لم تستطع فاتبع خُلُق شيخك، فإن نزلت عن ذلك هلكت، واعلم يا ولدي أن التوبة ما هي بكتابة درج ورق ولا كلام من غير عمل، إنما بالتوبة العزمُ على ارتكاب ما الموتُ دونه، فصفَّ أقدامك يا ولدي في حندس الليل البهيم، ولا تكن ممن يشتغل بالبطالة ويزعم أنه من أهل الطريق".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"من لم يحبس نفسه في قعر الشريعة، ويختتم عليها بخاتم الحقيقة؛ لا يقتدى به في الطريقة"، ويقول: "الشريعة كالشجرة، والحقيقة ثمرتها، فلا بد لكل واحد من الأخرى، ولكن لا يدرك ذلك إلا من كمل سلوكه في طريق القوم".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"من عرف الله وعبدته فقد أدرك الشريعة والحقيقة، فأحكموا الحقيقة والشريعة ولا تفرطوا إن أردتم أن يُقتدى بكم، ولم يكن اسم الحقيقة إلا لأنها تحقق الأمور بالأعمال، ومن بحر الشريعة تنتج الحقائق".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"من لم يكن عنده شفقة ورحمة على خلق الله لا يرقى مراقبي أهل الله".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"لو هاجر الناس مهاجرةً صحيحةً طالبين الله خالصًا، ودخلوا تحت أوامره؛ لاستغنوا عن الأشياء، ولكنهم جاؤوا إلى الطريق بعللٍ وأمراض، فاحتاجوا إلى حكيم".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"قوة المبتدئ الجوع، ومطره الدموع، وفطره الرجوع، وأما من أكل ونام، ولغا في الكلام، وترخص وقال: ما على فاعل ذلك من ملام؛ فلا يجيء منه شيء والسلام".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"من رأى أن له عملاً يقبل فقد سقط من عين رعاية الحق تعالى"، ويقول: "احذر

يا ولدي أن تدعي أن لك معاملةً خاصةً مع الله، واعلم أنك إن صُمْتَ فهو الذي صَوَّمَك، وإن قمت فهو الذي قَوَّمَك، وإن اتقيت فهو الذي وقاك، وليس لك في الوسط شيء، وإنما الشأن أن ترى أنك عبد عاصٍ ليس لك حسنة واحدة، وهو صحيح، فمن أين لك حسنة وهو الذي أحسن إليك؟! وإن شاء قبلك وإن شاء ردك".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"يا ولدي إن كنت تصوم الدهر وتقوم الليل وتدعي أن لك سريرة ظاهرة ومعاملة خالصة؛ فلا تدعي قط أنك شملت لطريق القوم رائحة، ولا تشهد نفسك إلا عاصياً مفلساً من جميع الأعمال الصالحة، واحذر نفسك، فكم تلف من غرورها وزورها فقير!".

الجانب العملي من تصوفه:

تشير أقوال الإمام إلى العمل بأحكام القرآن والسنة، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

وتقوم على اصطناع المكابدة والمجاهدة وسلوك طريق النسّاك والزاهدين، وذلك بالإكثار من الصيام والقيام والذكر وقراءة القرآن، وبالتسبيح والتقديس والدعاء

والابتغال، إلى جانب الزهد في الدنيا والترفع عن اللذائذ والشهوات، والابتعاد عن ضروب اللهو، وأن يرضى المريد بقضاء الله وقدره.

وكان الدسوقي ينصح مريديه باتباع الشريعة الإسلامية بحذافيرها، والبعد عن البدع بحسب ما هو مذكور في القرآن: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وكان يقول:

اللهم إن كان أحد من أصحابي يفعل خلاف طريقي؛ فلا تهلكني بذنوبهم، فيا أولادي إن كنتم أولادي وخالفتموني فأنتم كاذبون.

ونجد بعض أهل السنة يقول: إن أبناء الطريقة الدسوقية وفروعها قد خالفوا طريق شيخهم الدسوقي، وبعّدوا تمامًا عن التصوف العملي السني الداعي إلى العمل بالقرآن والسنة النبوية، وإن الدسوقي كان يخشى من أتباعه هذه الأيام أن يندسوا طريقته ويسيئوا إليها بعدهم عن طريقه؛ لذلك قال:

يا أولادي ناشدكم بالله، لا تسيئوا إلى طريقي، ولا تلبسوا في تحقيقي، ولا تدلسوا ولا تدنسوا، وإن كنتم صحبتُمونا لتأخذوا مِنَّا أوراقًا من غير عمل فلا حاجة لنا بكم.

وأما وحدة الشهود ووحدة الوجود عند الدسوقي؛ فيقول عنها بعضهم: إن هذا المذهب يشبه السوفسطائية إلى حدٍّ كبير، وكذلك يُعتقد أن مبدأ الحلول عقيدة زائفة منقولة غلوًّا عن الدسوقي.

كراماته:

تقول الصوفية: إن سيدنا إبراهيم الدسوقي بُشِّرَ بمولده قبل أن يولد، فكان بقرية سنهور المدينة -جنوب شرق مدينة دسوق- شيخ من كبار الصوفية وقتها اسمه محمد بن هارون، وكان على صلة وطيدة بوالد الدسوقي «أبي المجد عبد العزيز»، فكلما رأى ابن هارون أبا المجد قام له وشدَّ على إكرامه، حتى لاحظ أصحابه ذلك وسألوه عن سببه، فقال لهم: إِنَّ في ظهره وليًّا يبلغ صيته المشرق والمغرب، وبعد ذلك بمدة رأوه قد ترك القيام فسألوه عن السبب، فقال لهم: إن القيام لم يكن لشخص أبي المجد، بل لبحر في ظهره وقد انتقل إلى زوجته.

وقيل: إنه في ليلة مولده ظهرت له أول كرامة، فقد كان ابن هارون حاضراً عند أبي المجد والد الدسوقي في الليلة التالية للتاسع والعشرين من شعبان فاتفق وقوع الشك في هلال رمضان، ولم يعرفوا إن كان المسلمون سيصومون في اليوم التالي أم لا، فسأل ابن هارون أمَّ الدسوقي عما إذا كان رضع في هذا اليوم، فقالت: إنه

منذ أذان الفجر لم يرضع، فأخبرها: أن لا تحزن فسوف يرضع -الدسوقي - ثانية بعد أذان المغرب، ويعني بقوله أن الدسوقي قد صام، وعلى أساس معرفته بهذا الأمر أمر الناس بالصَّيام.

وقد نُسِبَ للدسوقي عن كرامته الأولى في كتابه «الحقائق» أنه قال: إن الفقير منّ الله عليه من ظهر أبيه ولطف به في الأحشاء، فحين وضعتني أُمِّي كنت مبشّرًا في ذلك العام بالصيام، ولم يُرَ الهلال، وإن ذلك أول كرامتي من الله.

ورغم ما يُنسب للدسوقي من أقوال تظهر خشيته على أتباعه من الكاذبين ومروّجي الأساطير ينسب له كثيرٌ من أتباعه العديد من الكرامات، وقد قال الدسوقي في هذا الصدد:

خواص الخواص جعلوا زواياهم قلوبهم، ولبسوا تقواهم، وخوفهم من ربهم ومولاهم، قد رفضوا الكرامات ولم يرضوا بها، وخرجوا عنها لعلمهم أنها من ثمرة أعمالهم، فلم يطيروا في الهواء، ولم يمشوا على ماء، ولم يُسَخَّرْ لهم الهواء، ولم تُبَصِّصْ لهم الأسود، ولم يضربوا بالأرض فيتفجر الماء، ولا لامسوا مجذومًا ولا أبرص فبرئ ولا غير ذلك، فخرجوا من الدنيا وأجورهم موفورة كاملة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن الكرامات المنسوبة للإمام الدسوقي: أن تمساح النيل - وكان مُنتشرًا في نهر النيل بمصر في ذلك الوقت - خطف صبيًا من شاطئ دسوق، فأَتَت أمه مذعورة إلى الدسوقي تستنجد به، فأرسل نقيبهِ فنادى بشاطئ النيل: «معشر التماسيح، من ابتلع صبيًا فليطلع به»، فطلع ومشى معه إلى الشيخ الدسوقي، فأمره أن يلفظ الصبي فلفظه حيًّا بمشهد الناس، وقال للتمساح: مُتْ؛ فمات حينها.

وفي كرامة أخرى نسبت إليه: ذُكِرَ توجه أحد تلامذته إلى الإسكندرية لقضاء شيء من السوق لشيخه، فتشاجر أحد التجار مع الرجل، فاشتكاها التاجر إلى قاضي المدينة، وكان هذا القاضي ظالمًا يكره الأولياء بحسب الرواية، ولما علم أن خصم البائع من أتباع إبراهيم الدسوقي أمر بحبسه وإهانته، فأرسل التابع إلى الشيخ يستغيث به من ظلم القاضي، فكتب الشيخ الدسوقي رقعة وأعطاه لرجل من أتباعه، وأمره بتسليمها للقاضي، وكانت تتضمن هذه الأبيات:

سهام الليل صائبة المرامي	إذا وُتِرت بأوتار الخشوع
يُفَوِّقُها إلى المرمى رجالٌ	يطيلون السجود مع الركوع
بالسنة تَهْمُهُمْ في دعاءٍ	وأجفانٍ تفيض من الدموع

إذا أوترنَ ثم رمينَ سهماً فما يغني التحصنُ بالدروع

فلما وصلت الرقعة إلى القاضي؛ جمع أصحابه وأخذ يستهزئ بحامل الورقة وبما فيها، حتى وصل به الحال إلى سبِّ الشيخ، ثم أخذ يقرأ الورقة على أصحابه، فلما قرأها قضى نحبه إذ شهق فمات.

وفي رواية أخرى: عندما وصل إلى قول الشيخ: «إذا أوترنَ ثم رمينَ سهماً»؛ خرج سهمٌ من الورقة فدخل في صدره وخرج من ظهره فوقع ميتاً.

ورويت له كرامة أخرى نسبت له: أنه سافر مرة إلى دمنهور الوحش، فمر ببئر فطلب منها ماء ليشرب، فقليل له: إن ماءها مالِح، فتفل فيها فتحولت إلى مياه عذبة من وقتها، فقال:

إذا وردوا الأطلال تاهت بهم عجباً وإن لمسوا عوداً زها غصنه رطباً

وإن وطئوا يوماً على ظهر صخرة لأنبت الصمّاء من وطنهم عشباً

وإن وردوا البحر الأجاج شوارباً لأصبح ماء البحر من ريقهم عذباً

ومن خرق العوائد للإمام الدسوقي أيضاً: أنه جاء سبعة من القضاة إلى مدينة دسوق لكي يمتحنوه، فلما وصل مركبهم إلى شاطئ المدينة أرسل النقيب لهم

فدفعهم، فوجدوا أنفسهم خلف جبل، فأقاموا سنة يأكلون حشيش الأرض حتى تغيرت أجسادهم، وأصبحت ثيابهم قديمة، ثم تذكروا ما وقعوا فيه، فتابوا هناك، فأرسل الدسوقي لهم النقيب فدفعهم، فوجدوا أنفسهم على ساحل دسوق، ومُسحت من قلوبهم أسئلتهم، فسألهم الدسوقي عن المسائل التي كانوا سيمتحنونه بها، فضحكوا وقالوا: «يكفينا ما رأيناه!» فأخذوا عليه العهد، وصاروا من تلامذته حتى ماتوا.

ولما شعر سيدي إبراهيم الدسوقي بدنو أجله؛ أرسل نقيبهِ إلى أخيه سيدي أبي العمران شرف الدين موسى، الذي كان يقطن جامع الفيلة بالقاهرة، فأمره أن يبلغه السلام، ويسأله أن يطهر باطنه قبل ظاهره، وذهب النقيب إلى أخيه، ودخل عليه المسجد وهو يقرأ على طلابه كتاب الطهارة، فأخبره النقيب برسالة أخيه سيدي إبراهيم، فلما سمعها طوى الكتاب وسافر إلى دسوق، فلما وصل وجد سيدي إبراهيم الدسوقي قد تُوفي وهو ساجد، وكان ذلك عام ٦٩٦ هـ الموافق ١٢٩٦ م على أرجح الأقوال؛ أي: توفي وله من العمر ثلاثة وأربعون عامًا.

وقد دُفن سيدي إبراهيم الدسوقي بمدينة دسوق محل مولده، التي لم يغادرها في حياته إلا مراتٍ معدودة، وأقام أهل المدينة بعد ذلك على ضريحه زاوية صغيرة،

وتوسعت شيئاً فشيئاً حتى تحولت الزاوية إلى مسجد من أكبر مساجد مصر، ويُعرف حالياً بمسجد سيدي إبراهيم الدسوقي أو المسجد الإبراهيمي اختصاراً.

ومسجد العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي واحد من أهم معالم مدينة دسوق ومساجدها بمحافظة كفر الشيخ، وقد بني في عهد الأشرف خليل بن قلاوون سلطان مصر في ذلك الوقت، فكان زاوية صغيرة تجاورها خلوة للإمام الولي الصالح سيدي إبراهيم الدسوقي الذي زاره قلاوون وأمر ببناء هذه الزاوية والخلوة له، وبعد وفاة الإمام إبراهيم الدسوقي دفن في خلوته الملاصقة للمسجد.

إجازة في الطريقة الدسوقية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيّدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: أجزتُ الأخ الشيخ عبد العزيز محمّد سهيل الخطيب الحسني بالطرق الصوفيّة بما أجازني به سيّدي الوالد مولانا الشيخ محمّد مكّي الكتّاني الحسني رحمه الله تعالى، والله خير الشاهدين.

السيد الشيخ محمّد الفاتح الكتّاني الحسني

هذه إجازة عامّة بسائر الطرق بشرط ألاّ يجيز بها إلّا المستحق.

هذه الإجازة العامّة كما أجازني بها مولانا الوالد الشيخ السيد محمّد المكّي الكتّاني؛ كما أجاز به بذلك سيّدنا الجد الإمام السيد محمّد عبد الله بن جعفر.

والله وليّ التوفيق.

والله المستعان على ما يصفون.

محمّد الفاتح الكتّاني

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

حضر الإجازة

سيدي أنس الكتّاني بن سيّدنا الفاتح وولده

الشيخ رضوان درويش وولده

الشيخ يوسف خورشيد وولده

جمع من المنشدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن داله

أجرت عبد العزيز محمد سكين الطيب الحنفي

بما أجازني به سيدي الوالد مولانا الشيخ محمد بكى اللطاني الحنفي

رحم الله علي ، والله خير الساعدين .

السيد الشيخ محمد الفاتح اللطاني الحنفي

١٤٢٦
٩-١٥

لهذه إجازة عامة بسائر الطرق
بشرط أن لا يجز بها إلا الله وخو
لهذه الإجازة العامة كما
أجازني بها مولانا الوالد الشيخ
السيد محمد ملكي اللطاني كما أجاز
بذلك سيدي الجدي مولانا السيد محمد
عبد الله بن جعفر والله ولي
التوفيق مولانا الشيخ عبد الله
ما يصفون محمد الفاتح اللطاني

جغرافيا الإجازة

سيدي أبي اللطاني بن سيدنا الفاتح مولانا

الشيخ رضوان درويش مولانا

الشيخ بكف خورشيد مولانا

جميع من أجازني

سلسلة رجال الطريقة

ال خليفة الثاني

الإمام الحسن البصري

٢١هـ - ١١٠هـ

اعلم أن شيخهم في الخرقة والطريقة، وأستاذهم في البيعة والوثيقة؛ الإمام الورع الزاهد السيد السند البطل الشجاع المجاهد، مقتدى أكابر أهل الله العارفين، المرشد الأكمل، شيخ الكل في الكل، رئيس الطوائف وإمام كل عارف، خليفة ابن عم النبي القرشي، ووارث مضمير العلم، إمام العلماء الصوفية سيدنا أبو سعيد الحسن بن يسار بن مطهر بن غاضرة بن قرهد (وقيل: فرهد بالفاء) العوفي البصري رضي الله عنه.

والده أبو الحسن يسار من سبي ميسان، وهي كورة واسعة عظيمة القرى والنخل، بين البصرة وواسط من أرض العراق، سكن المدينة المنورة، وكان مملوكًا

فَأُعْتَقَ وَبَقِيَ فِي الْمَدِينَةِ، وَتَزَوَّجَ فِيهَا، وَذَلِكَ فِي خِلَافَةِ الْفَارُوقِ سَيِّدِنَا عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

وَوُلِدَ لَهُ سَيِّدُنَا الْحَسَنُ فِي الْمَدِينَةِ، لِسَتَيْنِ بَقِيَّتَا مِنْ خِلَافَةِ سَيِّدِنَا عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَيَّ: سَنَةِ (٢١ هـ).

تَرَبَّى فِي بَيْتِ النَّبُوَّةِ، كَانَتْ أُمُّهُ تَنْشُغِلُ عَنْهُ، فَيَبْكِي، فَتَرْضِعُهُ السَّيِّدَةُ أُمُّ سَلَمَةَ، وَتُخْرِجُهُ إِلَى الصَّحَابَةِ، فَيَدْعُونَ لَهُ، وَدَعَا لَهُ سَيِّدُنَا عُمَرُ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَحَبِّبْهُ إِلَى النَّاسِ»، فَحَفِظَ الْقُرْآنَ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ، وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِمَامًا فِي الْفَقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ وَعِلْمِ الْقُرْآنِ وَاللُّغَةِ وَالْأَدَبِ وَالبَلَاغَةِ وَالتَّصَوُّفِ، وَكَانَ مِنْ

(١) أَسْتَاذُهُ: سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَرَأَى عِدَدًا كَبِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ سَيِّدُنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَتَتَلَمَذَ عَلَى الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَامِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، وَسَيِّدُنَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ، وَمَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ، وَالْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَمَنْ تَلَامَذَتْهُ: سَيِّدُنَا قَتَادَةُ، وَوَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ الَّذِي انفَصَلَ عَنْهُ، سَأَلَ سَيِّدُنَا الْحَسَنُ عَنْ عَصَاةِ الْمُوحِدِينَ، فَقَالَ لَهُ سَيِّدُنَا الْحَسَنُ: هُمْ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَذِبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غُفِرَ لَهُمْ، فَقَالَ وَاصِلُ: بَلْ هُمْ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، ثُمَّ اعْتَزَلَ حَلَقَتَهُ، فَقَالَ سَيِّدُنَا الْحَسَنُ: اعْتَزَلْنَا وَاصِلَ، فَسُمِّيتَ فِرْقَتُهُ بِالْمَعْتَزَلَةِ.

العظماء، وسيماً، شجاعاً، قال عنه أستاذ العربية أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري!

وفي سنة ٣٧هـ انتقل إلى البصرة، فكانت بها رحلة التلقي والتعلم، فقد استمع إلى الصحابة الذين استقرُّوا بها، وكان فيها محدثاً وقاضياً، ولبس الخرقة من الإمام سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه، كما صحح ذلك الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله^(١).

وقد أطبق القوم على أن إمام طريق التصوف من التابعين هو الإمام الحسن البصري رضي الله عنه، وقد انتهت إليه أسانيد الصوفية على الغالب.

سئل سيّدنا أنس بن مالك عن مسألة، فقال: سلوا مولانا الحسن، قالوا: يا أبا حمزة نحن نسألك تقول: سلوا الحسن، قال: سلوا مولانا الحسن؛ فإنّه سمع وسمعت، فحفظ ونسينا، وقال: إنّني لأغبط أهل البصرة بهذين الشّيخين؛ الحسن البصري ومحمّد بن سيرين.

(١) بسبب الخلاف في السّماع من سيّدنا علي بين الصحابة؛ لأنّه التقاه وكان عمره ١٤ سنة يوم بويج بالخلافة، وقال التّرمذي: لا نعرف للحسن سماعاً من علي بن أبي طالب، والعجيب أنّهم يقولون: أدركه وراه، لكن لم يسمع منه!

قال محمد بن الحسن: كان الحسن البصري قدوة وإمامًا في الشريعة والطريقة والسنة، وكان لقبه سيّد التّابعين، لقبه به سيّدنا عمر بن عبد العزيز حيث يقول: ولَيْتُ قضاء البصرة سيّد التّابعين، والسّيدة عائشة رضي الله عنها لما سمعته يتكلّم قالت: من هذا الذي يتكلّم بكلام الصّديقين؟!.

كان له مجلسان للعلم: مجلس خاص بمنزله، ومجلس عام في المسجد في الحديث، والفقه، وعلوم القرآن، واللّغة، وكانت حلقاته كبيرة.

وكان يقول: من أحب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمل بما كان عليه أصحابه؛ فليقتد بالحسن.

وكان سيّدنا الحسن يقول: من لبس الصوف تواضعًا لله زاده الله نورًا في بصره وقلبه، ومن لبسه إظهارًا للزهد في الدنيا والتكبر به على الإخوان في نفسه؛ كُوِّرَ في جهنم مع الشياطين.

وكان يقول: ما كل الناس يصلح للبس الصوف؛ لأنّه يطلب صفاءً ومراقبة لله عزّ وجلّ.

وكان يقول: بئس الرّفيقان: الدّينار والدّرهم، لا ينفعاك حتّى يفارقانك.

وكان يقول: نضحك ولا ندري لعلَّ الله قد اطلع على بعض أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئاً، ويحك يا ابن آدم! هل لك بمحاربة الله طاقة؟! إنَّ من عصى الله فقد حاربه، والله لقد أدركت سبعين بدرية لو رأيتموهم لقلتُم: مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا: ما هؤلاء من خلاق، ولو رأوا شراركم لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب. وقيل له مرة: ما سبب لباسك الصوف؟ فسكت فقيل له: ألا تجيب؟ فقال: إن قلتُ: زهداً في الدنيا زكيتُ نفسي.

عظمت هيئته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف في الحق لومة لائم.

عاش في دولة بني أمية، وكان موقفه متحفّظاً على الأحداث السياسية وخاصة ما جرَّ إلى الفتنة وسفك الدماء، فلم يخرج في أيِّ ثورة ولو كانت باسم الإسلام، وكان يرى أنَّ الخروج يؤدِّي إلى الفوضى والاضطراب، وفوضى ساعة يرتكب فيها من المظالم ما لا يرتكب في استبداد سنين؛ لأنَّ النَّاس يخرجون من يد ظالم إلى ظالم.

نصح مرّة سيّدنا عمر بن عبد العزيز فكتب له يقول له: فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملّكك الله كعبدٍ ائتمنه سيّده واستحفظه ماله وعياله، فبدّد المال، وشرّد العيال، فأفقر أهله، وبدد ماله.

يقول الإمام الغزالي رضي الله عنه: كان الحسن البصري أشبه الناس كلامًا بكلام الأنبياء، وأقربهم هديًا من الصحابة، وكان غايةً في الفصاحة، تتصبب الحكمة من فيه، وله مع الحجاج مواقف سلم فيها من أذاه.

لما ولي سيدنا عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: إني قد ابتليت بهذا الأمر فانظر لي أعوانا يعينونني عليه. فأجابه سيدنا الحسن: أما أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستعن بالله.

تلك كلمات بوارق سارت مشرقة ومغربة.

منها قوله: من نافسك على الدنيا فنافسه على الآخرة.

وكان شديد الحزن والبكاء، وحين سئل عن ذلك قال: يحقُّ لمن يعلم أنَّ الموت مورده، وأنَّ السَّاعة موعده، وأنَّ القيام بين يدي الله تعالى مشهده؛ أن يطول حزنه.

سئل عن النَّفاق، فقال: هو اختلاف السِّرِّ والعلانية، والمدخل والمخرج، ما خافه [أي: النَّفاق] إلاَّ مؤمن ولا آمنه إلاَّ منافق.

توفي في البصرة سنة ١١٠ هجرية. رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

عاش ثمانياً وثمانين سنة، وكانت جنازته مشهودة عقب صلاة الجمعة.

هذا رأس السلسلة الصُوفية وخصوصًا الشاذلية، ارفعوا رؤوسكم عاليًا،
لأثمتكم أئمة الهدى وسادة الورى، ولا تلتفوا للناعقين على أهل التّصوف؛ لأنّ
همّهم الاعتراض على كلّ من عداهم.

اعترضوا وتكلّموا على سيّدنا عمر، واعترضوا على المذاهب الأربعة، يريدون
هدم الدّين من أساسه، وأنتم على سبيل هداية، فثقوا بأثمتكم؛ ليسلم لكم دينكم،
ولا تردّوا عليهم، فسيّدنا النّبي صلّى الله عليه وسلّم شهد لهم بالخيريّة، وليس بعد
كلام النّبوة كلام.

اللهم أرنا الحقّ حقًا وارزقنا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.

مصادر الترجمة:

*تهذيب التهذيب

*وفيات الأعيان

*حلية الأولياء ٢ / ١٣١.

*الأعلام للزركلي ٢ / ٢٢٧.

*المذاهب والأديان في العراق - الحينون ص ٦٧.

سلسلة رجال الطريقة

الخليفة الثالث

العارف بالله داود الطائي رضي الله عنه

هو من أكابر القوم الأعيان، وأشياخ الطريق أهل العرفان، مولانا الكبير، الفقيه، القدوة، الزاهد، العارف الشهير، خليفة الإمام الحسن البصري: الإمام أبو سليمان داود بن نصير الطائي، الكوفي، أحد الأولياء رضي الله عنه.

مولده بعد المئة بسنوات، عاش في أيام المهدي العباسي، ويعد من الطبقة السابعة من أتباع التابعين.

رحل إلى بغداد، فأخذ عن الإمام أبي حنيفة حتى برع، وعاد إلى الكوفة، واعتزل الناس، وأقبل على شأنه، ولزم الصمت^(١).

(١) بعد أن أحكم الشريعة قال له الإمام أبو حنيفة: يا أبا سليمان! أمّا الأداة؛ فقد أحكمناها، فقال داود: فأى شيء بقي؟!، قال: بقي العمل به، فنازعته نفسه على الخلوة، فقال لها: حتى تجلسي معهم، فلا تحيبي في مسألة، فبقي سنة لا يجب قبل أن يعتزل، انتبهوا لم يعتزل مجالس العلم حتى أحكم الشريعة وأصبح إماماً، وكان الإمام أبو حنيفة يزوره.

كَانَ مِنْ كِبَارِ أَيْمَةِ الْفَقْهِ وَالرَّأْيِ، وَمِنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ، وَدَرَسَ الْفَقْهَ وَغَيْرَهُ مِنْ الْعُلُومِ، ثُمَّ اخْتَارَ بَعْدَ ذَلِكَ الْعُزْلَةَ، وَآثَرَ الْإِنْفِرَادَ وَالْخُلُوةَ، وَلَزِمَ الْعِبَادَةَ، وَاجْتَهَدَ فِيهَا إِلَى آخِرِ عَمْرِهِ.

وكان يقول: سبقني العابدون، وقُطِعَ بي، والهفاه!!

كان سفيان الثوري يعظمه ويقول: أبصر داود أمره.

وقال ابن المبارك: وهل الأمر إلا ما عليه داود؟!

قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ^(١): رَأَيْتُ دَاوُدَ الطَّائِيَّ، وَكَانَ مِنْ أَفْصَحِ النَّاسِ وَأَعْلَمِهِم بِالْعَرَبِيَّةِ، يَلْبَسُ قَلَنْسُوَةً طَوِيلَةً سَوْدَاءَ.

وكان ثقة، من رواة الحديث، في «الحلية» روى له أبو نعيم نيفاً وعشرين حديثاً عن التابعين، من ضمنها حديث أسنده إلى أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لَأُمَّتِي».

كان إماماً فقيهاً، ذا فنون عديدة، ثمَّ تعبد، وآثر الخلوة والوحدة، وأقبل على شأنه، حتى ساد أهل زمانه، فكان ممن فقهه، ثمَّ علِمَ، ثمَّ عمل.

(١) وكان تلميذه وممن حدثوا عنه.

قال أبو سليمان الداراني: ورث داود الطائي من أمه دارًا، فكان ينتقل في بيوت الدار كلما تخرب بيت من الدار انتقل منه إلى آخر ولم يعمره، حتى أتى على عامة بيوت الدار. قال: وورث من أبيه دنائير فكان يتقوت بها حتى كفن بآخرها.

وَعَنْ حَفْصِ الْجُعْفِيِّ قَالَ: وَرِثَ دَاوُدُ الطَّائِي مِنْ أُمِّهِ أَرْبَعَ مِئَةِ دِرْهَمٍ، فَمَكَثَ يَتَقَوَّتُ بِهَا ثَلَاثِينَ عَامًا، فَلَمَّا نَفِدَتْ جَعَلَ يَنْقُضُ سُقُوفَ الدُّوَيْرَةِ، فَيَبِيعُهَا.

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ مُسْلِمٍ: عَاشَ دَاوُدُ عَشْرِينَ سَنَةً بِثَلَاثِ مِئَةِ دِرْهَمٍ.

وَقَالَ إِسْحَاقُ السُّلُوِّيُّ: حَدَّثَنِي أُمُّ سَعِيدٍ قَالَتْ: كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ دَاوُدَ الطَّائِي جِدَارٌ قَصِيرٌ، فَكُنْتُ أَسْمَعُ حِينَهُ عَامَّةَ اللَّيْلِ لَا يَهْدَأُ، وَرُبَّمَا تَرَنَّمَ فِي السَّحَرِ بِالْقُرْآنِ، فَأَرَى أَنَّ جَمِيعَ النَّعِيمِ قَدْ جُمِعَ فِي تَرَنُّمِهِ، وَكَانَ لَا يُسْرِجُ عَلَيْهِ؛ لَذَا نُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مُتَعَبِّدًا وَاهًا مُسْتَغْفِرًا بِالسَّحَرِ.

زهد وورعه

كان من أئمة الزهد في عصره، وكان زهده مصدرًا دائمًا لنصح الآخرين وإرشادهم، فإنَّ الزَّاهِدَ فِي الدُّنْيَا لَا يَحِبُّ الْبَقَاءَ فِيهَا.

قال عبد الله بن صالح بن مسلم العجلي: دخلت على داود الطائي في مرضه الذي مات فيه وليس في بيته إلا دَنْ مُقَيَّرٌ يكون فيه خبز يابس ومطهرة وَلَبَنَةٌ كبيرة على التراب يجعلها وسادة وهي مُحَدَّثَةٌ!!

وقد ورد في «حلية الأولياء» أن محمد بن بشر قال: دخلت على داود الطائي المسجد فصليت معه المغرب، ثم أخذ بيدي فدخلت معه البيت، فقام إلى دن له كبير فأخذ رغيفاً منه يابساً فغمسه في الماء ثم قال: ادْنُ فكل، قلت: بارك الله لك، فأفطِرُ، فقلت: يا أبا سليمان؛ لو أخذت شيئاً من ملح، قال: فسكت ساعة ثم قال: إن نفسي تنازعني ملحاً، ولا ذاق داود ملحاً ما دام في الدنيا، قال: فما ذاقه حتى مات رحمه الله، وكان يقول: حالت وحشة القبر بيني وبين وحشة الدنيا^(١).

وقد ورد في «صفة الصفوة» عن حماد بن أبي حنيفة قال: قالت مولاة لداود الطائي: يا داود لو طبختُ لك دسماً، قال: فافعلي، فطبخت له شحمًا ثم جاءته به، فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: على حالهم، قال: اذهبي به إليهم، فقالت له:

(١) من كراماته قوله: ماتت امرأة بجواري، ولم يكن لها كبير طاعة، فقيل: يا داود اطلّع في قبرها، فاطلّعت، فرأيت فيه نوراً عظيماً، وفُرْشاً وطِيبَةً، وسرراً عالية، فقلت: بَمَ استوجبت هذا؟!، فنوديت: استأنست بنا في سجدتها، فأنسناها في وحدتها.

فديتك إنما تأكل هذا الخبز بالماء، قال: إني إذا أكلته كان في الحشّ، وإذا أكله هؤلاء الأيتام كان عند الله مذخورًا، وهذا كثير في سيرته يقدّم طعامه للفقراء ويبيت طاويًا.

حدّث رجل من أهل داود الطائي قال: قلت له يومًا: يا أبا سليمان؛ قد عرفت الرحم التي بيننا فأوصني، قال: فدمعت عيناه ثم قال: يا أخي إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زادًا لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمرك، إني لأقول لك هذا وما أعلم أحدًا أشدّ تضييعًا مني لذلك. ثم قام وتركني.

صام داود الطائي أربعين سنة ما علم به أهله، وكان خرازًا، وكان يحمل غداءه معه، ويتصدق به في الطريق، ويرجع إلى أهله يفطر عشاء لا يعلمون أنه صائم، حتى قالوا: لو كان داود في الأمم الماضية؛ لقصّ الله شيئًا من خبره.

كان محافظًا على صلاة الجماعة، وكان إذا سلّم من الفريضة؛ أسرع إلى منزله، وكان لا يخرج من منزله حتّى يقول المؤذّن: قد قامت الصّلاة، فيخرج، فيصلّي؛ خوفًا ومنعًا من الرّياء.

من أقواله:

توَحَّش من الدُّنْيَا كما تتوَحَّش من السَّبَاع.

وقال مرة: إن كنت لا أشرب إلا باردًا ولا آكل إلا طيبًا ولا ألبس إلا لينًا؛ فما أبقيت لآخرتي؟!

قَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَوْصِنِي. قَالَ: اتَّقِ اللَّهَ، وَبِرِّ وَالِدَيْكَ، وَيُحِكَ! ^(١) صُمِّ الدُّنْيَا، وَاجْعَلْ فِطْرَكَ الْمَوْتَ، وَاجْتَنِبِ النَّاسَ غَيْرَ تَارِكِ لِحِمَامَتِهِمْ قال: زدني، قال: لا يراك الله عند ما نهاك عنه، ولا يفقدك عند ما أمرك به، قال: زدني، قال: ارضَ باليسير مع سلامة دينك؛ كما رضي قوم بالكثير مع هلاك دينهم.

وقال له آخر: أوصني، قال: عسكر الموت ينتظرونك.

وَعَنْهُ قَالَ: كَفَى بِالْيَقِينِ ^(٢) زُهْدًا، وَكَفَى بِالْعِلْمِ عِبَادَةٌ ^(٣)، وَكَفَى بِالْعِبَادَةِ شُغْلًا.

(١) تُسْتَعْمَلُ لِلتَّوَجُّعِ، وَالتَّرْحَمِ، وَإِظْهَارِ الشَّفَقَةِ، كَلِمَةٌ رَحْمَةٌ مُقَابِلُ كَلِمَةِ (وَيْلِكَ) كَلِمَةُ عَذَابٍ.

(٢) الْيَقِينُ: اعْتِقَادٌ رَاسِخٌ، وَثَقَّةٌ تَامَّةٌ بِأَمْرٍ وَاقِعٍ، وَسُرْعَةٌ تَصْدِيقٌ؛ يَعْنِي: لَا تَشْكُ أَنَّ الزُّهْدَ خَيْرٌ لَكَ.

(٣) خَيْرُ الْعِبَادَةِ الْعِلْمُ، وَمَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ.

وورد في «صفة الصفوة» عن داود الطائي قال: ما أخرج الله عبداً من ذل المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وأنسه بلا بشر. وكان يقول: لا ينبغي للمسلم أن يحزن للمصيبة؛ لأنه يعلم أن لكل مصيبة ثواباً، والله تعالى أعلم بالصواب.

وورد في «حلية الأولياء» أن داود الطائي خرج في جنازة بالكوفة، فقعد ناحية وهي تدفن، فجاء الناس فقعدوا قريباً منه، فقال: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد^(١)، ومن طال أمله ضعف عمله^(٢)، وكل ما هو آت قريب.

وفاته

مَنَاقِبُ دَاوُدَ كَثِيرَةٌ، كَانَ رَأْسًا فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَلَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِ جِنَازَتِهِ^(٣)، لَمَّا حَمَلُوهُ عَلَى سَرِيرِ الْمَوْتِ تَكْسِرَ لَشِدَّةِ الزَّحَامِ^(٤) حَتَّى قِيلَ: بَاتَ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ مَخَافَةً

-
- (١) المؤمن يبقى خائفاً من سوء الخاتمة حتى يصبح قريباً من الموت، فيغلب الرجاء في رحمة الله تعالى.
- (٢) هناك من يقول لك: أصلي فيما بعد، أتصدق فيما بعد، والفتاة تقول لك: لا أضع منديلاً باكراً، هؤلاء يأملون، فيضعف عندهم العمل الصالح.
- (٣) سبب وفاته: أنه سمع آية فيها ذكر النار، فكررها مراراً في ليلته، فأصبح مريضاً، فوجدوه قد مات ورأسه على كنبته، وقبل وفاته رآه أحد أصحابه من الصالحين في منامه وهو يعدو، ف قيل له: ما لك؟! فقال: السَّاعَةُ تَخْلَصْتُ مِنَ السَّجْنِ، فَاسْتَيْقِظَ الرَّجُلُ، وَإِذَا بِالصَّيَاحِ: مات داود الطائي.

أَنْ يُقُوتَهُمْ شُهُودُهُ، مَاتَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَمِئَةٍ^(١)، وفي قول: (١٦٢هـ).
رضي الله عنه وأرضاه.

مصادر الترجمة: (بتصرف)

*سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٢٤.

*الرسالة القشيرية.

*مجموعة رسائل مولاي العربي الدرقاوي.

*تهذيب الكمال.

*الأعلام خير الدين الزركلي ١٩٨٠

(١) نُقِلَ أَنَّهُمْ بَدَّلُوا ثَلَاثَةَ أَسْرَةٍ، وَهِيَ تَتَكَسَّرُ مِنْ شِدَّةِ الْإِزْدِحَامِ عَلَى جَنَازَتِهِ، مِنْ «سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ».

(٢) قَامَ تَلْمِيزُهُ ابْنَ السَّهْمِكَ عِنْدَ دَفْنِهِ فَقَالَ: يَا دَاوُدُ؛ كُنْتَ تَسْهَرُ لَيْلِكَ إِذَا النَّاسُ يَنَامُونَ، فَقَالَ الْقَوْمُ جَمِيعًا: صَدَقْتَ، وَكُنْتَ تَرْبِحُ إِذَا النَّاسُ يَخْسِرُونَ (يَعْنِي: فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ)، فَقَالَ الْقَوْمُ جَمِيعًا: صَدَقْتَ، وَكُنْتَ تَسْلُمُ إِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ، فَقَالَ النَّاسُ جَمِيعًا: صَدَقْتَ، حَتَّى عَدَّدَ فَضَائِلَهُ كُلَّهَا، «اذْكُرُوا مُحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ»، وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمَيِّتِ، «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ»، ثُمَّ قَامَ أَبُو بَكْرٍ النَّهْشَلِيُّ فَقَالَ: يَا رَبُّ؛ إِنَّ النَّاسَ قَدْ قَالُوا مَا عِنْدَهُ مَبْلَغٌ، وَمَا عَلِمُوا، فَاعْفِرْ لَهُ بِرَحْمَتِكَ، وَلَا تَكْلَهُ إِلَى عَمَلِهِ.

*طبقات الشاذلية الكبرى

*تاريخ بغداد.

*جامع كرامات الأولياء للنَّبْهاني

*حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني.

*الطبقات الكبرى للشُّعْراني

*بحار الولاية المحمّديّة في مناقب أعلام الصّوفيّة.

*الكواكب الدُّريّة في تراجم السادة الصوفية للمُناوي.

سلسلة رجال الطريقة

ال خليفة الرابع

سيدنا معروف بن فيروز الكرخي

(ت ٢٠٠هـ)

أنقل لكم اليوم الأنباء من بغداد فرج الله عنها حيث نلتقي

مع أكابر القوم العارفين، السالك طريق سيد المرسلين، الزاهد الذي انتهت إليه رئاسة الطريق^(١)، خليفة القطب أبي سليمان داود الطائي المعروف^(٢)، عربي أصيل، يكنى أبا محفوظ، كان أبواه نصرانيّين، فأسلماه إلى مؤدّبهم وهو صبي.

(١) أحد علماء أهل السنة والجماعة، ومن أعلام التّصوف الإسلامي في القرن الثاني الهجري في بغداد، وصفه الذهبي بعلم الزّهاد، بركة العصر (سير أعلام النبلاء).

(٢) تأثر بسيدنا داود، وأثر بسيدنا السّري السّقطي، وداود الطائي أخذ عن الحبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن الإمام علي، وقيل: له طريق آخر، عن الإمام علي الرضا، عن الإمام موسى الكاظم، عن الإمام جعفر الصّادق، عن الإمام محمّد الباقر، عن الإمام علي زين العابدين، عن الإمام حسين، عن الإمام علي.

قال أخوه عيسى: كنتُ أنا وأخي معروف في الكتَّاب وكنا نصارى، وكان المعلم يعلم الصبيان أب وابن^(١)، فيصيح أخي معروف: أحدٌ أحد، فيضربه المعلم على ذلك ضرباً شديداً، حتى ضربه يوماً ضرباً عظيماً، فهرب على وجهه، فكانت أُمِّي تقول: لئن ردَّ الله علي ابني معروفاً لأتبعنَّه على أي دين كان.

فقدم عليها معروف بعد سنين كثيرة فقالت له: يا بُني على أي دين أنت؟ قال: على دين الإسلام. قالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فأسلمت أُمِّي، وأسلمنا كلنا.

عن يحيى بن جعفر قال: رأيت معروفاً يؤذن، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله؛ رأيت شعر لحيته وصدغه قائماً كأنه زرع.

لم يشتهر عنه العلم، لكنَّه رأس في العمل، وصفه أحدهم بأنَّه قصير العلم فقال ابن حنبل: أمسك، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف؟

(١) كان المؤدَّب يقول له: قل: ثالث ثلاثة، فيقول: بل هو الأحد الصمد، قيل: أسلم ببركة سيِّدنا علي الرضا، فلمَّا تحول إلى باب الإمام أحمد؛ صار قريباً من السُّنة.

وعن عمرو بن موسى قال: سمعنا معروفاً وعنده رجلٌ يذكر رجلاً فجعل يغتابه فجعل معروفاً يقول له: "اذكر القطن إذا وضعوه على عينيك، اذكر القطن إذا وضعوه على عينيك"^(١).

وكان يقول: ينادي منادٍ يوم القيامة: يا ماح الله! قم، فلا يقوم إلا من كان يكثر قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٣].

وقال سري: سألت معروفاً عن الطائعين بأي شيء قدروا على الطاعة لله عز وجل؟ قال: بخروج الدنيا من قلوبهم.

ومن كلامه: قيام الليل نور للمؤمن يوم القيامة، يسعى بين يديه ومن خلفه، وصيام النهار يبعد العبد من حرّ السَّعير.

وكان يحض أصحابه وتلامذته على ترك ما لا يعينهم

(١) أتاه رجل بعشرة دنانير، فمر سائل، فناوله إياها، وكان يبكي، ثم يقول: يا نفس كم تبكين؟! أخلصي تخلصي.

فعن إبراهيم البكار قال: سمعت معروفاً الكرخي يقول: إذا أراد الله بعبد خيراً
فتح عليه باب العمل، وأغلق عليه باب الجدل، وإذا أراد به شراً أغلق عليه باب
العمل وفتح عليه باب الجدل.

ومن كلامه: الدُّنيا أربعة أشياء: المال، والكلام، والمنام، والطَّعام، فالمال يُطغي،
والكلام يُلهي، والمنام يُنسي، والطَّعام يسقي.

وقال مرة: ما أبالي رأيت امرأة أو رأيت حائطاً، وكان يقول: غَضُّوا أبصاركم ولو
عن شاة أنثى، ويقول: إذا كنت لا تُحسَن تتقي؛ أكلت الرِّبَا ولقيت المرأة فلم تغضَّ
عنها...

ما أكثر الصَّالحين، وأقلَّ الصَّادقين في الصَّالحين! ومن كلامه: السَّخاء إثَار ما
يحتاج إليه عند الإعسار.

أُتَعرَفون كم مرة كان ورد الإمام؟

كان يتلو ورده كل يوم عشرة آلاف مرة وهو يقول: (وا غوثاه يا الله) ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]^(١).

كان متسامحاً كريماً، نزل يتوضأ من دجلة، ووضع مصحفه وملحفه، فجاءت امرأة، فأخذتهما، فتبعها وقال: أنا معروف، لا بأس عليك، ألك ولد يقرأ القرآن؟، قالت: لا، قال: فزوج؟، قالت: لا، قال: فهات المصحف، وخذي الملحفه، القيمة العالية التي تركها هي التسامح، فقلبه كان مفتوحاً للجميع.

كان رضي الله عنه من السادات الأجلاء، وشيخاً عظيماً مبجلاً، وكان كلامه كله حكماً وعبراً، وكلامه في الزهد والتصوف يأخذ بالقلوب، وأثرت مواعظه في أفئدة الرجال، ترى في كلامه عبارات إنسان عاقل فطن أخذته الشفقة على الخلق، فمن ذلك ما رُوي عن إبراهيم الأطروش قال: كان معروف قاعدًا على دجلة ببغداد إذ مرَّ بنا أحداث في زورق يضربون الملاهي ويشربون، فقال له أصحابه: أما ترى أن هؤلاء في هذا الماء يعصون الله، ادعُ الله عليهم، فرفع يده إلى السماء وقال: إلهي وسيدي أسألك أن تفرحهم في الآخرة كما فرحتهم في الدنيا، فقال له أصحابه: إنما قلنا لك:

(١) كان كثير الذكر، أراد أحدهم قصَّ شارب معروف، فلم يفتّر عن الذكر، فقال: كيف أقصُّ؟ فقال: أنت تعمل وأنا أعمل.

ادع الله عليهم، لم نقل: ادع الله لهم، فقال: إذا أفرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم بشيء.

هذا هو منهج الإصلاح الذي اتبعه سيدنا معروف في حياته، إنه منهج أخلاقي عظيم، وكان يدعو أصحابه إلى هذا المنهج ويقول: قلوب الطاهرين تشرح بالتقوى وتزهر بالبر، وقلوب الفجار تظلم بالفجور وتعمى بسوء النية.

سئل: ما علامة الأولياء؟ فقال: ثلاثة: همومهم لله، وشغلهم فيه، وفرارهم إليه. وما يدل على عظم شأن هذا الشيخ الكبير ما قاله تلميذه السري: هذا الذي أنا فيه من بركات معروف؛ انصرفت من صلاة العيد فرأيت مع معروف صبيًا شعثًا، فقلت: من هذا؟ قال: رأيت الصبيان يلعبون وهذا واقف منكسر، فسألته: لم لا تلعب؟ قال: أنا يتيم، قال سري: فقلت له: فما ترى أنك تعمل به؟ قال: لعلني أخلو فأجمع له نوى يشتري بها جوزًا يفرح به، فقلت له: أعطنيهِ أغير من حاله، فقال لي: أو تفعل؟ فقلت: نعم، فقال لي: خذه أغنى الله قلبك، فسويت الدنيا عندي بأقل من كذا.

وكراماته رضي الله عنه كثيرة^(١)، فمنها: ما رواه خليل الصياد قال: غاب ابني إلى الأنبار فوجدت أمه وجداً شديداً، فأتيتُ معروفاً فقلت له: يا أبا محفوظ؛ ابني قد غاب فوجدتُ أمه وجداً شديداً، قال: فما تشاء؟ قلت: تدعو الله أن يرده عليها، فقال: اللهم إن السماء سماءك، والأرض أرضك، وما بينهما لك، فأت به. قال خليل: فأتيتُ باب الشام فإذا ابني منبهر، فقلت: يا محمد أين كنت؟ فقال: يا أبت الساعة كنت بالأنبار^(٢).

اشتهر حتى صار علماً من أعلام السُّنة، وكان سيِّدنا سفيان بن عيينة يسأل رجالات بغداد: ما فعل ذلك الخبر الذي فيكم ببغداد؟ قالوا: من هو؟ قال: أسد محفوظ معروف، يقولون: بخير، فيقول: لا يزال أهل تلك المدينة بخير ما بقي فيهم.

(١) سئل: كيف تصوم؟ فغالط السائل، وقال: صوم نبينا كان كذا وكذا، وصوم داود كذا وكذا، فألح عليه، فقال: أصبح دهري صائماً، فمن دعائي أكلت ولم أقل: إني صائم، ومرة مرّ وهو صائم بسقاء يقول: رحم الله من شرب، فشرب رجاء الرّحمة.

(٢) قيل له: بلغني أنّك تمشي على الماء، قال: ما وقع هذا، ولكن إذا هممت بالعبور جُمع لي طرفا النّهر فأخطاه، وراه أحدهم وفي وجهه أثر سقطة، فسأله، فقال له: سل عمّا يعنيك، عافاك الله، فأقسم عليه، فتغير وجهه، ثم قال: صليت البارحة ومضيت، فطفت بالبيت، وجئت لأشرب زمزم، فزلقت، فأصاب وجهي هذا.

وعن أبي بكر الزجاج قال: قيل لمعروف الكرخي في عِلَّتِهِ: أوص، فقال: إذا متُ فتصدقوا بقميصي هذا فإني أحب أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلت إليها عرياناً^(١).
توفي^(٢) رضي الله عنه ببغداد^(٣) وقبره ظاهر^(٤)، يُستسقى به ويُتبرك، وهو محل إجابة الدعاء كما هو مشهور. وكان إبراهيم الحربي يقول: قبر معروف الترياق المجرب؛ أي: لإجابة الدعوة^(٥).

(١) من جميل شعره في السحر وهو ينوح ويبكي:

أَيُّ شَيْءٍ تَرِيدُ مِنِّي الذُّنُوبُ	شَغَفْتُ بِي فَلَيْسَ عَنِّي تَغِيبُ
مَا يَضُرُّ الذُّنُوبَ لَوْ أَعْتَقْتَنِي	رَحْمَةُ بِي فَقَدْ عَلَانِي الْمَشِيبُ

(٢) سنة ٢٠٠هـ = ٨١٥م.

(٣) حضر جنازته ٣٠٠ ألف، فلمّا دفنوه تحولوا إلى جنازة أبي نواس وصلّوا عليه، حتّى قيل: ببركة معروف غُفر لأبي نواس، فقد رئي أبو نواس في المنام، فقيل: ما فعل الله بك؟!، فقال: غُفر لي بصلاة الذين صلّوا على معروف وعليّ.

(٤) في مقبرة باب الدير العتيقة على جانب الكرخ من مدينة بغداد، وسميت بعدها مقبرة الشيخ معروف، ورغم خراب المغول لبغداد وغيرهم بقي قبره مصاناً إلى الآن.

مصادر الترجمة

*الشخصيات الإسلامية لكاتب هذه الكلمات.

*سير أعلام النبلاء.

*طبقات الأولياء لابن الملقن ص ٢١٦.

*طبقات الصوفية ١/ ٨٣ للسلمي ط ٣/ ٢٠٠٣

*صفة الصفوة ٢/ ٥٩٢.

(١) له دعاء لا يفتر لسانه عنه، أجمع الصالحون على أنه من الكلمات التي لا ترد، ومن الابتهالات التي تفتح لها السبع الطباق، قال لأحد تلامذته: ألا أعلمك عشر كلمات -خمس للدنيا وخمس للآخرة- من دعا الله عزَّ وجلَّ بهن وجد الله تعالى عندهنَّ، قلت: اكتبها لي؛ قال: لا، ولكن أرددها عليك كما ردَّدها عليَّ بكر بن خنيس رحمه الله: حسبي الله لديني، حسبي الله لدنياي، حسبي الله الكريم لما أهُمَّنِي، حسبي الله الحليم لمن بغى عليَّ، حسبي الله الشَّدِيد لمن كادني بسوء، (هذه الخمسة لدنياه)، حسبي الله الرَّحِيم عند الموت، حسبي الله الرَّؤُوف عند المسألة في القبر، حسبي الله الكريم عند الحساب، حسبي الله اللَّطِيف عند الميزان، حسبي الله القدير عند الصُّراط، حسبي الله لا إله إلاَّ هو عليه توكلت وهو ربُّ العرش العظيم، (وهذه الخمسة للآخرة). كتاب «الدَّعَوَات المستجابة ومفاتيح الفرج» لسَيِّدِي الغزالي.

*حلية الأولياء للأصفهاني ٨ / ٤١٢

*المذاهب والأديان في العراق - الحينون، رشيد ص ٦٧

سلسلة رجال الطريقة

الخليفة الخامس

الإمام السري السقطي

سيدي الإمام السري السقطي (١٦٠-٢٥١هـ) شيخ صوفية العراق وهو مثال تطبيقي لأركان التصوف وآدابه.

على بساط الأنس والمشاهدة شرب العارفون من رحيق النور الأزلي، وارتووا من معين الوصل الإلهي، فهامت أرواحهم في سرادقات الجلال والجمال، مستغرقة في عظمة المولى، فانية في وجوده، متنعمة بشهوده، إنها أرواح مختصة بالعطاء، وقلوب سجلت لهم العناية مراسيم الولاء، تلك منحٌ وعطايا وهبها الله تعالى لأحبابه الأولياء الذين رضي عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم.

ومن خواص أهل الولاية والاصطفاء والعناية والاجتهاد الإمام العارف والصوفي الشامخ سيدي أبو الحسن السري بن المغلس السقطي، أحد أئمة الصوفية العظام الذين تفجرت عيون مواردهم في المعارف الإلهية، وفاضت مناهل عرفانهم بالنفحات القدسية. وناهيك بمن هو شيخ الإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية، فهو

خاله وأستاذه، وهو إمام التصوف بالعراق في عصره، وهو كما قال الإمام القشيري في «رسالته»:

(أوحد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد).

ويقول عنه الإمام أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقاته»:

(وهو أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال، وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته).

فالإمام السري إذن يعد رائد عصره في كشف حقائق التصوف وعلومه، ثم هو إمام زمانه في أحوال القوم وأخلاقهم ومناهجهم السلوكية التي ترتقي بالعبد إلى قمة الوصول.

والعارف أبو الحسن السري بغدادى المولد كما أنه بغدادى الوفاة؛ إذ توفي في سنة إحدى وخمسين ومئتين هجرية، ومقامه بالشونزية ظاهر يزار وتلتمس منه البركات..

تلقى القطب السري طريقته عن قطب عصره الإمام العارف سيدي معروف الكرخي^(١) الذي يعد شيخ التصوف بالعراق في زمنه، وتلقى بدوره الطريق عن سليل البيت النبوي سيدي علي بن موسى الرضا.

وقد استمد الإمام السري المدد الصوفي من سيدي معروف ليسري إليه نور هذه السلسلة المنتهية إلى بيت النبوة، ثم منه إلى الإمام أبي القاسم الجنيد الملقب بسيد الطائفة الصوفية.

وعن قصة البداية في الطريق الصوفي للإمام السري مع شيخه سيدي معروف: يروي الإمام القشيري بسنده عن أبي العباس بن مسروق يقول: (بلغني أن السري السقطي كان يتجر في السوق - وهو من أصحاب معروف الكرخي - فجاءه معروف يوماً ومعه صبي يتيم فقال: اكسُ هذا اليتيم. قال سري: فكسوته. ففرح به معروف وقال: (بَغَضَ اللهُ إِلَيْكَ الدُّنْيَا وَأَرَاكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ)، قال: فقامت من الحانوت وليس شيء أبغض إلي من الدنيا، وكل ما أنا فيه من بركات معروف.

(١) حدث عن الفضيل بن عياض.

وعلى إثر هذا الحادث واستجابةً لدعوة سيدي معروف توجه الإمام السري إلى الله، وترك تجارة الدنيا ليشرع في تجارة الآخرة، بل ليستقبل عهده مع الله في محراب العبادة والعبودية، يعبدته تقرباً إليه لا طمعاً في ثوابه ولا خوفاً من عذابه كما هو الشأن في عبادة الأحرار.

ولقد سلك الإمام السري طريق القوم على تعطش للعبادة والمعرفة، فأقبل على الطاعات بروح تَوَاقَّة شَغُوفَة بالتححرر من الآنية والغيرية، دُؤُوبَة على الخدمة والعكوف بباب المولى حتى يؤذن لها بالدخول.

وكان يقول: أربع خصال ترفع العبد: العلم، والأدب، والفقه، والأمانة. وإنَّ أخبار عبادات الإمام السري تثير العجب وتفوق الخيال: يقول الإمام الجنيد: (ما رأيت أعبد من السري، أتت عليه ثمانٍ وتسعون سنة ما رئي مضطجعاً إلا في علة الموت).

أي طراز هذا من الرجال؟؟

إنه الطراز الملائكي الذي يقتات من العبادات ويتنفس بالطاعات؛ كما قال تعالى في حق الملائكة: ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وهذا هو دأب العارف السري، وقد كان يوصي به أصحابه ومريديه، ولقد سمعه الإمام الجنيد يقول: (إني أعرف طريقاً يؤدي إلى الجنة قصداً، فقليل له: ما هو يا أبا الحسن؟ فقال: (أن تشتغل بالعبادة وتقبل عليها حتى لا يكون لك فيها فضل).

لقد فسر هو بنفسه معنى قوله: (حتى لا يكون لك فيها فضل) عملياً، وذلك بعبادته المتصلة ثمانية وتسعين عاماً أمضاها بين صيام وقيام وذكر وفكر، حتى لقد كان يقول: (إذا فاتني جزء من وردي لا يمكن أن أقضيه أبداً).

وعلل ذلك الإمام الجنيد قائلاً: (لأن السري كان متصل التنفل).

وكان يقول: (من قام بين يدي الله في الظلام؛ نُشِرت له يوم القيامة الأعلام)^(١).

ولقد كان المنهج السلوكي عند العارف السري ذا جوانب متعددة عميقة الغور والأبعاد، وكانت تلك الجوانب في مجموعها تمثل حلقات متصلة تفضي في النهاية إلى بلوغ قمة النضج الروحي حيث تحلق الروح في سماء المعرفة والولاية.

(١) مدح الله عباده: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيَلًا﴾ [المزمل: ٦]، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ففي مجال النفس مثلاً: تطالعنا عند الإمام السري صفحات مضيئة يكاد سنا
برقها يذهب بالأبصار، يقول: (إن نفسي تطالبني منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة أن
أغمس جزرة في دبس - أي: عسل التمر وعسل النحل - فما أطعتها).

إنها مجاهدة النفس في شهوة حلال من أجل قطع مآربها؛ لكي يصفو الجو للروح
فتنطلق إلى معارج الوصول.

إنَّ ترك المباح يؤدي أن يكون تاركه صاحب خلق عظيم، فافعله؛ لذا كان الصوم
عبادة.

ولقد دخل عليه الإمام الجنيد يوماً فقال له: يا جنيد؛ عصفور يجيء كل يوم أفْتُ
له الخبز في يدي فيأكله، فنزل الساعة ولم يسقط على يدي، فتذكرت أنني أكلت ملحاً
بأبزارٍ فأليت ألا آكله بعدها.. فعاد كما كان).

ولطالما تحرى الإمام السري الحلال مع شدة الورع حتى تحمل في ورعه الكثير
والكثير، وكان يقول دائماً: (آه على لقمة ليس لله فيها تبعة^(١) ولا لمخلوق فيها منة!!)

(١) مؤاخذه.

هناك ربط بين فروض الشريعة ونوافلها، الفروض وحدها لا تكفي للوصول إلى الله تعالى، ولذلك صلى الله عليه وسلم كان تنفله أكثر من فروضه، بل كان يقوم بعبادة ربه حتى تتورم قدماه الشريقتان، رغم أن الله قال له: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] كان يقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟!».

ومن تلك الوقائع التي تجلى فيها ورع سيدي السري ما رواه الإمام الشعراني في «طبقاته» إذ قال: وقال علي بن الحسين: بعثني أبي للسري بشيء من حب السعال لسعال كان به، فقال لي: كم ثمنه؟ فقلت له: لم يخبرني بشيء. فقال اقرأ عليه السلام وقل له: نحن نعلم الناس منذ خمسين سنة ألا يأكلوا بأديانهم، أفتراني اليوم آكل بديني؟؟؟ ولم يأخذ منه شيئاً!!!.

فكان لا يأكل بدينه، وهذه تعلمتها من والدي رحمه الله، كان إذا وصى أحداً أن يشتري له شيئاً دفع ثمنه ولو ساعه، ويعلمه أن الإسلام أمر بهذا، وبهذا تدوم المحبة...

ويؤكد صاحب «الحلية» هذا المرتقى السامي عند الشيخ السري قائلًا: (وسمعت أبا علي الحسن البزاز^(١) يقول: سألت أبا عبد الله أحمد ابن حنبل عن السري بعد قدومه من الثغر^(٢) فقال: أليس الشيخ الذي يعرف بطيب الغذاء؟ قلت: بلى. قال: هو على سيره عندنا قبل أن يخرج).

ثم يقول الإمام أبو نعيم: وقد كان السري يعرف بطيب الغذاء وتصفية القوة وشدة الورع حتى انتشر ذلك عنه، وبلغ أبا عبد الله أحمد ابن حنبل فقال: (الشيخ الذي يعرف بطيب الغذاء) وقد كان منهج السري في الورع منطويًا على جواهر الحكم السلوكية الصوفية، فهي ما يقول: (لا يقوى على الشهوات إلا من ترك الشبهات).

ويؤيده ما ورد في الحديث الشريف في «الصحيحين»: (فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) الشُّبُهَات: الأمور المترددة بين الحِلِّ والحُرمة، وتركها مندوب،

(١) بائع أقمشة أو ملابس، ضرب من الثياب؛ لذا يقال: أمتعة البزاز.

(٢) كلُّ فرجة في جبل، أو بطن واد، أو طريق مسلوك، والثغرة: مواطن الضعف من الحدود، ومنه: (أنت على ثغر من ثغور الإسلام، فلا يؤتَيْنَّ من قبلك).

والسَّبب اختلاط الحلال والحرام في الأطعمة والأشربة، فمن اتقاها؛ فقد فعل الأولى، وحصل البراءة لدينه من الدَّم الشرعي، وصان عرضه عن كلام النَّاس فيه.

وأيضاً كان العارف السري يقول: (تصفية العمل من الآفات أشد من العمل).

وأخرج الإمام أحمد قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ» وقال تعالى في صفة المنافقين: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٦]، فكلُّ رياء شرك، وفخ من عند الشَّيْطَانِ للمؤمنين، والتَّعَلُّقُ بالدُّنْيَا يَجُرُّ الْعَبْدَ لِلْوُقُوعِ بِهَذَا الْفَخِّ، والمرائي مشرك؛ لَأَنَّهُ يَعْبُدُ أَكْثَرَ مِنْ مَعْبُودٍ وَاحِدٍ.

ثم إلى جانب الزهد والورع كانت المراقبة في أعلى درجاتها متمثلة في سلوك الإمام السري، والمراقبة هي إحدى مرتبتي الإحسان الوارد معناه في الحديث الشريف؛ إذ قال سيد الوجود: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، فالشق الأول للمشاهدة والثاني المراقبة.

والمراقبة عند العارفين لها درجات ومنازل، ولقد تربع سيدي السري في قمة المراقبة والحضور، يقول: (تلوُّتُ وردي ليلة فمددت رجلي في المحراب، فنوديت: يا

سري؛ كذا تجالس الملوك؟! قال: فضممت رجلي ثم قلت: وعزتك لا مددت رجلي أبداً!!)

إنه نداء المراقبة من قبل الحضرة العلية للعارف السري، ولقد عُرِفَ نفس النداء مع سيدي أبي يزيد البسطامي وسيدي إبراهيم بن أدهم، رضوان الله تعالى عنهم. ومع المراقبة هناك التوكل والرضا، ولكلٌّ مفهومه عند العارف السري، فهو يعرّف التوكل أنه: (الانخلاع من الحول والقوة) .

ثم يقول عن الرضا والورع والعبادة والشكر: (رأس الأعمال الرضا عن الله، وعمود الدين الورع^(١))، ومخ العبادة الجوع، وضبط اللسان حصن حصين، ومن شكر الله جرى في ميدان الزيادة).

ويرى الإمام السري السقطي أن التجرد لله تعالى هو أقرب ما يوصل إلى الحضرة الإلهية، فلقد سئل يوماً: كيف الطريق إلى الله؟ فقال: (إن أردت العبادة فعليك بالصيام والقيام، وإن أردته فاترك كل ما سواه تصل إليه).

(١) ترك ما لا بأس به خشية مما به بأس.

أي: أن هناك طريقتين موصلين إلا أن أقربهما للوصل هو ترك السوى، ولقد ترك الإمام السري كل ما سوى الله فوصل إلى الله، وصل إليه على جناحي المحبة والشوق.

وللمحبة عند العارف السري مقام لا يرام بالكلام، ولا يسطر بالأقلام، يقول الإمام الجنيد: (سألني السري يوماً عن المحبة فقلت: قال قوم: هي الموافقة، وقال قوم: الإيثار، وقال قوم: كذا.. فأخذ السري جلدة ذراعه ومدّها فلم تمتد، ثم قال: وعزته لو قلت: إن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت. ثم غشي عليه فصار وجهه كأنه قمر مشرق، وكان السري به أدمة؛ أي: سُمرة).

ومصدّقاً لمنطق هذه الواقعة رفع السري إلى الإمام الجنيد يوماً رقعة وقال له: انظر ما فيها؟ فإذا فيها:

إذا ما شكوتُ الحب قال كذبتني فما لي أرى الأعضاء منك

فلا حبّ حتى يلصق الجلدُ بالحشا وتذبل حتى لا تجيب

ولقد جاء رجل وقال يوماً للعارف السري: كيف أنت؟

أجابه قائلاً:

من لم يبت والحب حشؤ فؤاده..

إنها محبة العبد لسيدته ومولاه، هي القوت والغذاء، وهي الخمر وهي الكأس، وهي النعيم وهي السرور، فأعجب لنعيم يفتت الأكباد ويذيب المهج ويلصق الجلد بالحشا ويقطع المحب عن كل شيء سوى محبوبه.

ولقد ارتفع سيدي السري بمحبته إلى درجة العشق، حتى إنه مرض يوماً ولم يُر عليه تغير. فأخذ الإمام الجنيد بوله فذهب به إلى طبيب نصراني، فتأمله وقال: هذا بول عاشق!! فصعق الإمام الجنيد وأغمي عليه، ثم أخبر شيخه السري فقال: قاتله الله! ما أخبره! ما كنت أظن أن الحب يظهر في هذا!!!.

وما من شك في أن غاية المحب ومناه في الوصال.

وكان الإمام السري يتضرّع إلى ربه ويناجيه قائلاً: (اللهم مهما عذبتني بشيء فلا تعذبني بذلّ الحجاب)؛ لذلك الحجاب عن المحبوب هو أشد ما يعانيه المحب من العذاب، إن الأولياء ينشدون الوصال دائماً، فهو مطلبهم الأسمى، ومع الوصال يكون الأنس والرضا والهيبة والجلال، وكلها مقامات لها شأنها عند أهلها، وقصارى ما يمكن أن نصل إليه هو المدلول النظري عن طريق التعرف والبحث.

نحن لا نستطيع أن نرى ونحسّ هذه المقامات إلّا بما ينقل إلينا من الكتب، فنحن ما وصلنا إلى مقاماتهم حتّى نعرفها حقّ معرفتها.

أما الإدراك الصوفي العملي^(١) فهو وقف على أهله الذين اصطفاهم ربهم واجتباهم، وقد أوجد البون الشاسع بين النظر والتطبيق عقبةً منيعةً في التصديق^(٢)، ولكن لا يسعنا إلّا نشدان الحقيقة والتعرف إليها من أي الوجوه والزوايا.

وفي مقام الأنس والهيبة^(٣) يقول الإمام السري:

(يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر^(٤)).

(١) لمن ذاقها وعرفها من الصّوفية.

(٢) وبين معرفتنا النّظرية لها وشهودها عند الله مسافة كبيرة، فتعالوا نتعرفها ولو معرفة نظرية من أيّ وجه كان.

(٣) مقامات الطّريق والسُّلوك عند الشّاذلية أكثر من تسعة، وهذه المقامات آخر مرحلة يجتازها الصّوفي في الوصول إلى الله، بعد المجاهدة ترقّ وقطع مقامات، ويقول عنها ابن عطاء الله: لا يصحّ واحد من هذه المقامات إلّا بإسقاط التّدبير مع الله والاختيار، ومن أراد أن يترقى بنفسه فقد دبّر واختار، فسيّدنا السّري يحدثنا عن هذا المقام الذي وصل إليه في الأنس والهيبة، وماذا كان شعوره.

ويعلق الإمام الجنيد على كلام شيخه قائلاً: (وكان في قلبي منه شيء حتى بان لي الأمر كذلك؛ وذلك لأن الهيبة والأنس حالتان فوق القبض والبسط^(١)).

والقبض والبسط فوق الخوف والرجاء، فالهيبة مقتضاها الغيبة^(٢) والدهشة، فكل هائب غائب حتى لو قطع قطعاً لم يحضر من غيبته إلا بزوال الهيبة عنه؛ أي: لا يشعر حتى تزول عنه هيئته؛ كما حصل مع سيدنا ابن الزبير لما قطعوا رجله وهو في الصلاة لم يشعر.

والأنس مقتضاه الصحو والإفاقة، ثم إنهم يتفاوتون في الهيبة والأنس، وقيل: أدنى مرتبة في الأنس أنه لو ألقى في النار ما تكدر أنسه، ألا ترى إلى قول السري:

(١) في هذين المقامين من شدة سروره وأنسه نسي كل شيء، وغاب إحساسه عن كل شيء، حتى لو ضُرب بالسيف لا يشعر...

(٢) القبض والبسط حالتان تتعاقبان على القلوب تعاقب الليل والنهار، فإذا غلب حال الخوف على العبد؛ كان مقبوضاً، وإذا غلب حال الرجاء عليه؛ كان مبسوطاً، وهذا حال السائرين، أمّا الواصلون (كإمامنا)؛ فقد اعتدل خوفهم ورجاؤهم، فلا يؤثر فيهم قبض ولا بسط؛ لأنهم مالكو الأحوال، قال الإمام القشيري: إذا كشف العبد بنعت جماله؛ بسطه، وإذا كاشفه بنعت جلاله؛ قبضه، فالقبض يوجب إيماءه، والبسط يوجب إيناسه.

(٣) يغيب عن كل شيء من هيئته.

(يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر) وذلك لأن الأنس يتولد من السرور بالله، ومن صح أنسه بالله استوحش مما سواه.

فهذه مقامات العارفين السابحين في بحار القرب، الفائزين برضا الرب، الناعمين بالولاية الربانية، المجتبيين للمعرفة الإلهية، وللمعرفة علامات أبان عنها العارف السري إذ قال: (من علامة معرفة الله القيام بحقوق الله، وإيثاره على النفس فيما أمكنت فيه القدرة).

فإذا أردت أن تعرف أنك مؤمن حقيقة فانظر في قيامك بحقوق الله وإيثاره على نفسك، هل أنت تقوم الليل؟ هل تصدقت وبقيت بلا طعام؟ يحكى عن الشيخ يحيى الصباغ أنه كان يحمل الطبخة كلها ويتصدق بها وهو أحوج ما يكون إليها.

والإيثار بصفة عامة خلق من أخلاق الكمّل من الرجال، وقد بلغ الإمام السري منه الغاية القصوى، وهي الفتوة في الطريق، وحمل أثقال المسلمين وتقديم مصلحتهم على الجانب الشخصي، فلقد أثر عن سيدي السري أنه كان يقول: (وددت أن أحزان الخلق كلها علي).

إنه يريد أن يتحمل وحده عناء الخلائق وأحزانهم؛ شفقة منه عليهم، وإيثاراً لهم على نفسه، وذلك هو عين المشرب المحمدي، فأنعم به من مشرب!.

ومن النماذج التطبيقية لخلق الفتوة عند الشيخ السري ما ذكره الإمام القشيري في «رسالته» قائلاً: ويحكى السري أنه قال: (منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي: (الحمد لله) مرة، قيل: وكيف؟

فقال: وقع ببغداد حريق فاستقبلني رجل فقال: نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله! فممنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت حيث أردت لنفسي خيراً مما حصل للمسلمين. لله درك أيها العارف! هذه هي أخلاق المسلم التي ارتفع بها صرحه وساد العالمين، وبها تتحقق ذاتية المسلم الكامل الوارث لأخلاق النبوة.

إن هذا السمو الأخلاقي هو وليد التربية الصوفية التي تنزع من العبد نفسه الأمارة بالسوء، وتمحو منه أنانيته؛ لكي يصفو ويسمو حتى يخلق في أجواء الحب النقي الطاهر لله الواحد الأحد.

ولقد وضع أقطاب الصوفية في مناهجهم السلوكية أكمل المبادئ والأسس الأخلاقية التي ترتقي بالعبد إلى مصاف الأبرار المقربين، فكيف أصبح مثل هؤلاء الأبرار صوفيين؟ تعالوا نأخذ الجواب من سيدنا السري:

يقول الإمام السري: (ثلاث من أخلاق الأبرار: القيام بالفرائض، واجتناب المحارم، وترك الغفلة، وثلاث من أخلاق الأبرار يبلغن بالعبد رضوان الله: كثرة

الاستغفار، وخفض الجناح^(١)، وكثرة الصفات^(٢)، وثلاث من أبواب سخط الله: اللعب^(٣)، والمزاح، والغيبة^(٤)، والعاشر من هذه الثلاث: عمود الدين وذروة سنامه: حسنُ الظن بالله^(٥).

إنها مدارج الكمال، ومعاريج الاتصال، يصفها العارف سيدي الإمام السري^(٦) كما يحدثنا عن عقبات الوصول ووسائل الاتصال بالله تعالى قائلاً: (انقطع من انقطع عن الله بخصلتين، واتصل من اتصل بأربع خصال: فأما من انقطع عن الله

(١) لا تتعالَ على من حولك.

(٢) تحقّق بالصفّات الخيرة جهدَ استطاعتك.

(٣) بيده الجوال يلعب به، تناديه أمه أو أبوه، ولا يرد!!

(٤) مربّ يقول لولده: ألا تقوم الليل؟ فيجيبه: فلان لا يفعل، فقال: لو قمت ليلتك كلّها ما سدّت مسدّ غيبتك لأخيك!.

(٥) «إنَّ حسنَ الظَّنِّ بالله عزَّ وجلَّ من حسن عبادة الله» رواه الإمام أحمد، وهو حديث حسن (٢٨٩/١٦)، «لا يموتنَّ أحد منكم إلّا وهو يحسن الظَّنَّ بالله» رواه ابن ماجه (٣٣٧٨) وهو حديث صحيح.

(٦) الإمام السري لا يتحدث عن نظريات، بل يتحدث عن أخلاقه التي وصل بها إلى الله، وهنا تكمن عظمته، فهو ليس منظرًا، وإنَّها يتكلّم على تجربته الشخصية في الوصول إلى الله.

فبخصلتين: يتخطى إلى نافلة بتضييع فرض^(١)، والثانية: عملٌ بظاهر الجوارح لم يواطئ عليه صدق القلوب^(٢)، وأما الذي اتصل به المتصلون: فلزوم الباب^(٣)، والتشمير في الخدمة^(٤)، والصبر على المكاره^(٥)، وصيانة الكرامات^(٦).

ولمعنى الصبر تحليل جميل عند العارف السري، إذ يقول: (معنى الصبر أن تكون مثل الأرض؛ تحمل الجبال وبني آدم وكل ما عليها، لا تأبى ذلك؛ كذلك الصابر

(١) قضايا جوهرية لا بدَّ أن تُعرف، أيُّ عمل يأتيك فاعرضه على كتاب الله وسُنَّة رسوله، مثلاً: رفيقك اتصل بك يريدك، وأمك أو أبوك طلبوا منك شيئاً، أو زوجتك، نفذ أمرهم على طلب رفيقك، هذا مثال واحد.

(٢) والنبِّي صَلَّى الله عليه وسلَّم يقول: «الرِّيَاءُ شُرْكٌ»، فإن لم تعمل عملاً في إخلاص لله؛ فستنقطع عن الله، وأنت خلقت لترضي الله ورسوله، لا لترضي النَّاسَ، فإن أردت رضاهم فخذ أجرتك ممَّنْ أشركت مع الله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

(٣) بالدُّعاء والذكر وأداء حقوق الله تعالى.

(٤) بعمل الطَّاعات وأداء حقوق النَّاسِ.

(٥) لآثَمها من الله.

(٦) لا تتحدث عن حالك مع الله، اجعلها بينك وبينه؛ كقيام الليل والصدقة.

يحتمل كل ما كرهته النفوس، لا يأبى ذلك ولا يسميه بلاءً، بل يسميه نعمة وموهبة من الله سبحانه وتعالى^(١).

ثم لقد تعرض العارف السري لبيان أخلاق الصديقين، فقد قال الإمام الجنيد: (دخلت يوماً فقال لي: ما أوائل أحوال الصديقين؟ قلت: لا أدري.

قال: ثلاثة: أن يكونوا بما في أيديهم مع إخوانهم سواء^(٢)، ويطلبوا نفوسهم بما للناس عليهم^(٣)، وإذا عرض أمران لله فيهما رضى أحدهما حملوا أنفسهم على أصعبهما وأشدّهما وإن كان فيه تلف نفوسهم^(٤).

(١) الآن عرفتم كيف وصل هؤلاء إلى مقامهم العالي عند الله، وفي الحديث: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتبه، فإن رضي اصطفاه»؛ لذلك يسمُّون البلاء نعمة، وفي حديث: «إذا أحبَّ الله عبداً؛ ألصق به البلاء، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يريد أن يصفاه»، وفي حديث آخر: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أحبَّ عبداً ابتلاه لسمع صوته».

(٢) يقسمون ما معهم بينهم وبين إخوانهم، فإذا اشترى شيئاً ومعه صديقه يشتري له أيضاً، سعره بسعرك.

(٣) أداء الحقوق، تجده مشغولاً كيف يرد حقَّ فلان عليه.

وبعد ذلك ترى كيف يعقد الإمام السري مقارنة صوفية بين الأبرار والمقربين قائلاً: (قلوب المقربين معلقة بالسوابق؛ ماذا سبق من الله لنا؟^(٣)). وأما عن أخلاق الأبدال من الأولياء فيقول: (أربع من أخلاق الأبدال: استقصاء الورع، وتصحيح الإرادة، وسلامة الصدر للخلق، والنصح لهم^(٣)). .

تلك إشارات نورانية ولطائف رقيقة اتصف بها قوم في الذروة العليا من الصفاء والطهر والنقاء، وتكلم بها إمام في المعرفة تفجرت في قلبه ينبوع الحكمة فتحدث عن موارد القلوب^(٤)، يقول الإمام الجنيد: (بعثني السري يوماً في حاجة فأبطأت عليه،

(١) وهكذا يعرف أنه يخالف نفسه التي تحب دائماً أن تميل إلى الدعة والرّفاهيّة: وخالف النَّفس والشَّيطان واعصهما...

(٢) هل نحن من السُّعداء أم لا؟ يخافون أن يكونوا من الأشقياء في عِلْم الله تعالى.

(٣) فهم يعملون للحاضر، ويقومون بواجب الإسلام، إذا عملت خيراً فأنت على خير إذن، قم بواجبك وما عليك من الخاتمة، البدايات تدلُّ على النِّهايات.. من أشرقت بدايته أشرقت نهايته.

(٤) الواردات: التي ترد على القلوب فيطمئنُّ إليها العارفون بالله؛ لأنّها تأتيهم بلا طلب، والوارد: هو الحال الذي يرد على قلب المريد من المعارف الرّبانيّة، والعلوم الوهبية، فكأنّه رسول من قبل الله تعالى له، فهناك وارد مَلَكِي (روحي عبادي)، وارد رحمني ووارد شيطاني، فالملكي: يورد برداً، ويحدث لذة، ولا يترك ألماً.

فلما جئتُ قال لي: (إذا بعث بك رجل يتكلم في موارد القلوب في حاجة؛ فلا تبطئ عليه فإنك تشغل قلبه).

إنه إمام فذُّ في عصره، فريد من طرازه، وقد كانت نظرة عصره إليه نظرة المأموم للإمام، فلقد روى صاحب «الحلية» أن الإمام الجنيد سمع الحسن البزار^(١) يقول: (كان أحمد ابن حنبل ههنا، وكان بشر بن الحارث ههنا، وكنا نرجو أن يحفظنا الله بهما، ثم إنهما ماتا وبقي السري، وإني أرجو أن يحفظنا الله بالسري).

وقد كان للإمام السري مع الإمام أحمد ابن حنبل - في حياته - شأن جليل في أمور الحقائق، ومن ذلك ما ذكره الإمام الغزالي قائلاً: وأرسل السري إلى أحمد ابن حنبل شيئاً فردّه.

فقال له: احذر آفة الرد؛ فإنها أشد من آفة الأخذ.

فقال: أعد عليّ ما قلتَ، فأعاده.

فقال: ما رددت إلا لأنّ عندي قوتاً، فاحبسْه عندك وأرسلْه بعد شهر.

(١) الحسن بن الصّباح بن محمّد البزار الزعفراني، فقيه، حدث عن طبقة الإمام أحمد، وسفيان بن عيينة، وخرّج له خ-د-ت، كان راوياً للإمام الشّافعي، يقال: لم يكن في وقته أفصح منه، ولا أبصر باللّغة، توفي (٢٥٩هـ).

لقد تلاقى علم الشريعة وعلم الحقيقة في أعلى قمتين شاختين في العصر كله،
واتفقت الكلمتان وتوحدتا وما كان لهما أن تختلفا أو تتفرقا أبداً برغم ما يقوله أهل
الزور من أعداء الصوفية الذين عميت بصائرهم عن رؤية الحقيقة، ولقد أوضح
الإمام السري الحقيقة بجلاء في قوله: (من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم فهو
غالط^(١)).. ولنعم ما قاله أهل الله تعالى: (الشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده^(٢))،
والحقيقة أن تشهده^(٣))!

ولكن ما ذنب الشمس في أن يُحجب عنها أعمى أو لا يحس بها فاقد لجوهر
الحياة؟؟؟!

فليبك المحجوبون على أنفسهم بدلاً من أن يصبوا أحقادهم على المتنعمين بشهود
الجمال القدسي، فالذين رفعت لهم أعلام الولاية؛ لن يضيرهم عدااء أهل الظلمة

(١) ليكن ظاهرك مثل باطنك، فالحقيقة لا تتغير، وذو الوجهين لا يكون عند الله وحيهاً.

(٢) وذلك الإخلاص.

(٣) وهو خالق كل شيء سبحانه.

والغواية. وبعد هذه الجولة السريعة في جوانب حياة الإمام السري الصوفية^(١) أنتقل بكم إلى جانب الكرامات عند قطب الأقطاب العارف المعرّف سيدي السري السقطي، ولن نضع في حسابنا الذين ينكرون على الأولياء كراماتهم رغم ورودها في الكتاب وصحيح السنة.

- يروي لنا صاحب «الحلية» بسنده عن علي بن عبد الحميد الغضائري يقول: (سمعت سرياً السقطي ودققت عليه الباب، فقام إلى عضادتي الباب فسمعتة يقول: «اللهم اشغل مَنْ شغلني عنك بك» فكان من بركة دعائه أن حججتُ أربعين سنة من حلب على رجلي ماشياً ذاهباً وجائياً)^(٢).

- ومما ذكره الإمام النبهاني في «جامع الكرامات» قال: (وحكي أنّ السري السقطي لما ترك التجارة كانت أخته تنفق عليه من ثمن غزلها، فأبطأت يوماً، فقال لها الإمام السري: لم أبطأت؟

(١) تذكروا أنّه من أعلام التّصوف السّني في القرن الثّالث الهجري، وإمام البغداديين، وشيخهم في وقته، وتذكروا أنّه خال الإمام الجنيد، وأنّه توفي سنة (٢٥١هـ).

(٢) استجابة الدّعاء للأولياء ثابت في الكتاب والسّنة، فأصف بن برخيا دعا الله باسمه الأعظم، فحضر عرش بلقيس أمام سيّدنا سليمان، وفي الحديث القدسي الصحيح: «ولئن سألتني لأُعطيَنَّه».

فقال: لأن غزلي لم يشتر، وذكروا أنه مخط.

فامتنع الإمام السري عن طعامها؛ [للغش الذي في غزل أخته].

ثم إن أخته دخلت عليه يومًا فرأت عجوزًا تكنس بيته وتحمل كل يوم إليه رغيفين، فحزنت أخته وشكت إلى الإمام أحمد ابن حنبل، فقال الإمام أحمد للإمام السري فيها، فقال: «لما امتنعتُ عن أكل طعامها قيَّض الله لي الدنيا لتنفق عليَّ وتخدمني^(١)».

وقال أحمد بن خلف: دخلت يومًا على السري فرأيت في غرفته كوزًا جديدًا مكسورًا.

فقال: أردت ماء باردًا في كوز جديد، فوضعتُه على هذا الرواق ونمت، فرأيت في منامي جارية مدنية فقالت: يا سري؛ من يخطب مثلي يُبرِّد الماء؟!، ثم رمته برجلها، فاستيقظت من نومي فإذا هو مطروح مكسور.

(١) أكل الحلال أحد أسباب الفلاح والفتوح، وسيدنا النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم يقول: «أطب طعمتك تستجب دعوتك».

قال الإمام الجنيد: فرأيت الخزف المكسور لم يمسسه ولم يرفعه حتى عفى عليه التراب، وعلمت أن مخالفة النفس وقمع الشهوات واللذات من دواعي الوصول وشواهد المشاهد.

ولقد فلسف العارف السري نظرته للكرامات بقوله: (من أطاع من فوقه أطاعه من دونه^(١)) كما فلسف من قبل نظرته للمحبة الإلهية إذ قال: (لا تكمل محبة بين اثنين حتى يقول كلُّ للآخر: يا أنا).

والصوفية لا يعرفون المحبة إلا لله أو في الله؛ لأن قلوبهم ممحضة لله تعالى.

إنهم عباد إلهيون ربانيون، اجتمعت قلوبهم في محراب الخصوصية والاصطفاء؛ لتتال من الله وافر العطاء^(٢).

وبعد؛ فقد أمضينا هذه الرحلة النورانية مع قطب من أقطاب الصوفية الأجداد، وإمام من أئمة الولاية الأفراد، من هذه السلسلة الذهبية من رجال الطريقة سيدي

(١) ورد: يا دنيا من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه.

(٢) ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * هُمُ الْبَشَرَى...﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

الإمام العارف السري السقطي شيخ الإمام الجنيد^(١) وإمام التصوف في عصره، وقد اقتبسنا منه هذه النفحات المباركات زادًا لأرواحنا ونورًا لقلوبنا؛ علَّنا نقتني الأثر ونسير على الدرب ونسلك السبيل.

رضي الله عنك يا مولانا السري، وأمدَّنَا منك بالمدد الأعلى، وشَرَّفْنَا معك بالصحبة المباركة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

فماذا يقول أعداء التصوف بعد هذا البيان...!!؟

المصادر:

* كتاب بحار الولاية المحمدية في مناقب أعلام الصوفية للأستاذ الدكتور جودة محمد أبو اليزيد المهدي. ص ٢٦٣-٢٧٥.

(١) وصيَّته رحمه الله كما في «الرسالة» للإمام القشيري: يا معشر الشَّباب! جدوا قبل أن تبلغوا مبلغًا، فتضعفوا وتقصِّروا كما قصَّرت، فكان اجتماعه بالإمام السَّري مهمًّا جدًّا فقد بلغ الإمام الجنيد الإمامة العظمى في الدِّين؛ ولهذا يقول الإمام القشيري في «رسالته»: سمعت أبا علي الدَّقَّاق يقول: الشَّجر إذا نبت بنفسه ولم يستنبت به أحد؛ يورق، ولكنه لا يثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتخرج به؛ لا يجيء منه شيء؛ لذا كان كلُّ إمام يحدث عن أشياخه الذين أخذ عنهم.

*وفيات الأعيان ١٠١/٢.

*حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ١١٦/١٠.

*طبقات الصوفية: ٤٨.

*مرآة الجنان ١٥٨/٢.

*شذرات الذهب ١٢٧/٢.

*الرسالة القشيرية

*تاريخ بغداد ١٨٧/٩.

*صفة الصّفة ٣٧١/٢.

سلسلة رجال الطريقة

ال خليفة السادس

سيد الطائفة الصوفية

الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد

٢٢٠هـ - ٢٩٧هـ

على طريق النور تمضي مواكب العارفين إلى غايات الغايات، حيث تنعم الأرواح التي شربت من ينابيع المحبة والصفاء حتى لم تبق فيها لغير الله بقية، فهي دائماً وأبداً مع الله وبالله، إنها أرواح الصفوة الأولياء، الذين اصطفاهم الله تعالى لهداية خليقته، فهم الضياء المنبعث في أرجاء هذه الحياة الذي يغمر سناه آفاق الإنسانية فيجذب الأرواح التائقة إلى النور، فمن رضي الله عنه التقى بهم وأخذ عنهم.

وعلى طريق النور نلقى قمة شاخحة من قمم التصوف؛ إنه الإمام الجنيد، فهو أحد أركان الطريق الصوفي الذي يشار إليه بالبنان، وهو إمام أئمة السلوك الذين ارتفعت على أيديهم منارات المعرفة واليقين، وشربت من منابعهم العذبة أرواح المريدين والسالكين، هذه المعاني اتفق عليها أهل الله جميعاً في هذه الشخصية الفذة.

ولو ذهبنا نلتمس كلمة أو عبارة نستوحي من خلالها مكانة الإمام الجنيد؛ لما وجدنا خيرًا من عبارة الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي إذ قال فيه: (هو سيد هذه الطائفة)، ولقد صارت هذه الكلمة اصطلاحًا لدى الصوفية على شخصية العارف الجنيد، بجانب ما قيل فيه من أنه شيخ التصوف على الإطلاق، وإمام أهل الخرقه، ومقدم الجماعة، وشيخ الطائفتين الحقيقة والشرعية.

وهو الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج القواريري، أصله من نهاوند، ومولده (سنة 220) ومنشؤه بالعراق، وقد تفقه على مذهب أبي ثور من أصحاب الإمام الشافعي وراوي مذهبه القديم، وكذا مذهب سفيان الثوري، وكان الجنيد يفتي بحضرته وهو في العشرين من عمره، فذاعت شهرته في مختلف الأوساط العلمية ببغداد.

سيدنا الإمام شيخ الطائفتين أبو القاسم الجنيد البغدادي من آل بيت سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا نسبه الشريف:

١- سيّدنا الجنيد ابن السيد محمد الزجاج.

٢- ابن السيد الجنيد.

٣- ابن السيد الإمام موسى الثاني.

٤- ابن السيد الإمام إبراهيم المرتضى .

٥- ابن السيد الإمام موسى الكاظم .

٦- ابن السيد الإمام جعفر الصادق .

٧- ابن السيد الإمام محمد الباقر .

٨- ابن السيد الإمام علي زين العابدين .

٩- ابن السيد الإمام السبط الحسين ابن أمير المؤمنين سيدنا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

١٠- وابن السيدة فاطمة الزهراء البتول بنت سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

إذن بينه وبين النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرة رجال، وهذا النسب معلق في الغرفة التي فيها مقامه الشريف .

واعلم أن الإمام الجنيد البغدادي هو الذي بيّن مذهب أهل التصوف ومهّد طريقاً يوصل الناس إليه، وهو الذي أخذ الطريقة ولبس الخرقة من خاله السري السقطي الذي أخذها من شيخه معروف الكرخي الذي أخذها ولبسها من شيخه

داود الطائي، وهو أخذها من سيدنا الحسن البصري الذي أخذ الطريقة ولبس الخرقه من الإمام الغضنفر والسيد الأشهر جدي المطهر سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو الذي أخذ العلوم والأسرار والمعرفة والأنوار من مولانا سيد الثقلين سيدنا محمد رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم.

أما عن تربيته الصوفية؛ فقد أخذ الطريق من خاله السري السقطي^(١) وهو من أئمة رجال التصوف في عصره، وقد قال عنه الإمام القشيري: (كان أوحّد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم الوحي) فتلقّى عنه أصول الطريق، كما صحب كلّاً من الحارث المحاسبي وأبي العبّاس بن سريج^(٢)، ومرّةً تكلم الإمام أبو العبّاس، فعجبوا من كلامه، فقال: ببركة مجالستي لأبي القاسم الجنيد وغيره، ومن أساتذته بشر بن الحارث الحافي.

قال عنه الإمام أبو عبد الرحمن السُّلمي: (هو من أئمة القوم وسادتهم، مقبول على جميع الألسنة).

(١) شيخ الحسين بن منصور الحلاج، وأبي بكر الشُّبلي.

(٢) ابن سريج المزني، الأنطاقي، القاضي، إمام الشافعية، وفقه العراقيين في عصره، ومجدّد المئة الثالثة من السُّلسلة الذهبية، ٢٤٩-٣٠٦.

ويقول الإمام المناوي في «طبقاته»: إنه صحب من هذه الطائفة أربع طبقات، كل طبقة ثلاثون رجلاً، وانتهت إليه الرئاسة، هذا ويؤرخ لوفاته بسنة سبع أو ثمان وتسعين ومئتين هجرية.

وقال عنه الإمام أبو نُعيم في «حلية الأولياء»: (كان الجنيد رحمه الله ممن أحكم علم الشريعة).

وقال الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام»^(١): كان شيخ العارفين، وقدوة السَّائرين، وعَلَم الأولياء في زمانه رحمة الله عليه.

وقال السُّبكي: سيد الطائفة، ومقدّم الجماعة، وإمام أهل الخرقة، وشيخ طريقة التَّصَوُّف، وعَلَم الأولياء في زمانه.

والمُتصفح لتاريخ الإمام الجنيد يقف في كل جانب على سر من الأسرار التي توحى بجملتها أن هذا الطراز من الرجال قد أعدته العناية الإلهية ليحمل مشعل الهداية لبني أمته، وليقدم لها ميزان العبودية الصادق الذي تزن به نفسها في إطار

(١) «تاريخ الإسلام» (٢٢ / ٧٢).

علاقتها مع الخالق جل شأنه، ونرى الإمام الجنيد يعد منذ صغره لتحمل هذه الأمانة.

انظر إليه وهو يقول: كنت بين يدي السري أَلعب وأنا ابن سبع سنين والجماعة يتكلمون في الشكر، فقال: يا غلام ما الشكر؟ قلت: ألاَّ يعصى الله بنعمه. فقال: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك! فلا أزال أبكي على هذه الكلمة.

أجل؛ لقد أحدثت هذه الكلمة في نفس الجنيد من خاله السري دويًّا هزَّ أركان نفسه؛ إذ خشي أن يكون حظه من التصوف مجرد الكلام فيه وترديد عباراته، وأن يجرم من التحقق بمضمونه فعمل من ساعته على أن يكون صوفيًّا بالحقيقة والحال، لا باللسان والمقال.

وحين تصدَّق من العبد الإرادة ويصحَّبها من الله العون والتوفيق؛ فقلَّ من الخير ما شئت. فهذا هو الإمام الجنيد يقبل على مولاه إقبالاً يغنيه عن نفسه وعن وجوده. وهو يصور معنى هذا الإقبال ودرجته قائلاً: لو أقبل صادقٌ على الله ألف ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة؛ كان ما فاتته أكثر مما ناله!!). أستغفر الله العظيم

إنه يرى أن لحظة تفوت العبد مع ربه فيها فوات مغنم تودي خسارته بكل مكاسب العمر! أرايت همة أرقى من هذه الهمة؟! وهل وقفت على تعبير يصور ما صورته من معان؟ لذا مكث أربعين سنة لا يأوي إلى فراشه!

ولكن التساؤل الآن: بم تكون معية الخلق لخالقهم؟؟ كيف يقبل العبد على مولاه؟

وما الصفات التي تؤهل العبد للإقبال على ربه وترفعه إلى مصاف المقربين؟
فصل الخطاب في ذلك إنما هو اتباع منهج الشريعة المحمدية اتباعًا كليًا، ليس بالأشباح فقط، وإنما بتطويع النفس لطاعة الله، وبمكابدة النفس بأنواع المجاهدات درجة فدرجة حتى يساير هوى النفس مقصود الشارع الحكيم، وحتى تصير

الطاعات عاداتٍ تألفها النفس وتتوق إليها^(١)، وأساس ذلك كله صدق النية في اتباع الشريعة المحمدية اتباعاً مبنياً على علم، فلا وصول إلا من هذا الباب^(٢).

ولذا يقول الإمام الجنيد: (الطرق كلها مسدودة عن الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول واتبع سنته ولزم طريقته).

ومن أقواله: مَنْ لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث؛ لا يقتدى به في هذا الأمر^(٣).

وبعد أن بيّن معالم السبيل بصراحة لا لبس فيها؛ تجده يربط بإحكام بين منبع الطريق الصوفي ومصبه؛ فالمنبع: هو الشريعة المحمدية ممثلةً بهدي الكتاب والسنة، والمصب: هو الحقيقة التي يصل إليها العبد باتباعه لمنهاج الشريعة المستقيم^(٤).

(١) يصير من أَلَف قِيَام اللَّيْلِ يقوم عند الوقت، فيجد نفسه مستيقظاً بلا ساعة أو منبه، وكأنَّ ملكاً يوقظه، وعلمنا الوالد دعاء نقوله ليوقظنا الله عند ساعات التَّجلي: اللهم لا تؤمِّنِي مكرًا...

(٢) ليس عندنا جدبة ودروشة، بل عندنا عِلْم يوافقه عمل، وسروري بطلبة العِلْم بينما لا يعدله سرور، والإمام مالك له عبارة في ذلك: مَنْ تصوَّف ولم يتفقَّه؛ فقد تزندق، ومن تفقَّه ولم يتصوَّف؛ فقد تفسَّق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق.

(٣) سيّدنا الإمام محمّد بن يلس شيخ الطَّريقة الأوَّل، لما جاء إلى دمشق صار يحضر دروس الشَّيخ محمّد بدر الدِّين الحسني المحدث الأكبر؛ ليعلم تلامذته ما قاله الإمام الجنيد.

الشريعة هدفها الحقيقة؛ بالتَّعرف إلى الله، وعبادته، والتخلُّق بأخلاق الشريعة.

وهنا يقول: (مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة) وهذا التقييد إنما هو من

قبيل تقييد النتيجة بالمقدمة^(١). وهو بلا جدالٍ قاطعٌ لأي منافاة بينهما.

ثم تعال معي لننظر إلى مدى بعد الرؤية عند الإمام الجنيد: لقد أدرك هذا العارف بالله الذي كان يعيش في القرن الثالث الهجري ورأى ببصيرته التي نورها الله أن ثمة دعاوي سيلفها أعداء التصوف ويلصقونها به بعد حين من الزمن؛ وهي القول بخروج التصوف عن الشريعة، ودعوى أن الصوفية يسقطون الأعمال والتكاليف^(٢)، فقطع عليهم الطريق وقطع ألسنتهم، فقد ذُكر أمامه أن شخصاً قال: (إن أهل المعرفة

(١) المثال الذي أضربه لكم؛ لتوضيح الصلة بين الشريعة والحقيقة هو الصلاة، فالإتيان بشرائها وأركانها وسننها شريعة، والحضور فيها مع الله حقيقة، إنها جسد وروح لا غنى لأحدهما عن الآخر.

(٢) المقدمة: الكتاب والسنة، ونتيجته: الطريقة الصوفية، فأنت تصدر عن الأصل لتصل إلى فرع...، وتصوُّفنا صادر عن قال الله وقال رسوله، وهذا معنى الربانية، ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِينَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

(٣) يترك الصلاة والعبادة، ويقول لك: صرت بروفوراً وقدوة، فلا حاجة لي بالعبادة، أنا وصلت!!

بالله يصلون إلى ترك الحركات - أي: الأعمال - من باب البر والتقرب إلى الله) فقال الإمام الجنيد: (إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنتقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها)^(١).

سيّدنا الجيلاني رأى غمامة ونورًا، فناداه منها صوت: يا عبد القادر! قد أحللت لك المحرّمات؛ فقال سيّدنا الجيلاني: أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، وإذا بالغمامة تصير دخانًا؛ إذا هو إبليس يجيبه: قد نجوت مني بعلمك وبحفظ ربّك...

لذا كان يقول: لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال، فاتّفق قول الجيلاني مع قول الإمام الجنيد.

(١) بعض النّاس من طلبه العِلْم يقول لك: لا أحتاج إلى أوراد... فالعِلْم مقدّم على الورد، وهذا القول ينافي ما عليه الأولياء والعلماء، بل كلّما ازداد العبد علمًا؛ ازداد شكرًا وذكرًا لله تعالى.

وقال أبو نُعَيْم الأصبهاني بسنده: سألت الجنيد: ما علامة الإيمان؟، فقال: علامته طاعة من آمنت به، والعمل بما يحبُّه ويرضاه، وترك التَّشَاغُل عنه بما ينقضي ويزول^(١).
هذا هو قول سيد الطائفة الصوفية الرجل الذي أقام عشرين سنة وورده من النوافل في كل يوم ثلاث مئة ركعة، وثلاثون ألف تسيحة.
كان يدخل حانوته، فيسبل السَّتر، ويصلي.

إلى جانب مجالسه العلمية التي كانت ببغداد حيث الرائح والغادي، وكان يؤمها الأدباء لينهلوا من بلاغته وروعة أسلوبه، والفقهاء ليأخذوا من فتاواه واستنباطاته، والفلاسفة لدقة نظره وسمو أفكاره، والمتكلمون لبراعته وتحقيقه، والصوفية لإشاراته وحقائقه، حتَّى كان يقول في المسألة الواحدة وجوهاً كثيرة لم تخطر للعلماء ببال.

ثم هو القطب الصوفي الذي كان آية عصره علماً وتحقيقاً، فأوضح منهاج التصوف للمريدين، وأبرز معالمه وآدابه للسالكين حيث قال^(٢):

(١) ومن أقواله: مَنْ خالفت إشارته معاملته؛ فهو مدَّع كَذَّاب.

(٢) تريدون تعلُّم التَّصَوُّف تعالوا وانظروا.

(التصوف جامع لعشر خصال:

- ١-التقلل من كل شيء في الدنيا مع القدرة عليه (حقيقة).
- ٢-واعتماد القلب على الله سبحانه وتعالى مع عدم السكون إلى الأسباب (حقيقة).
- ٣-والرغبة في الطاعة بما استطاع منها (شريعة).
- ٤-والصبر عند فقد الدنيا عن المسألة والشكوى (حقيقة).
- ٥-والتمييز في الشبهات والحلال (شريعة).
- ٦-والشغل بالله تعالى عمن سواه (حقيقة).
- ٧-ودوام الذكر بالقلب واللسان (شريعة وحقيقة).
- ٨-وتحقيق الإخلاص مع الصدق (حقيقة).
- ٩-واستواء السريرة والعلانية (شريعة: ما يكون منا منافق).
- ١٠-ودوام العافية لله مع السكون إليه في جميع الأحوال (حقيقة) [التَّسْلِيم المطلق لله].

(فإذا اجتمعت هذه الخصال؛ كان الصوفي في أول مراحل المحبة، ثم يرقى إلى حال المشاهدة، فيؤخذ منه إليه، ويبقى معه في ميدان المحبة والدهشة).

كان يقول: سألت الله ألاَّ يعذِّبني بكلامي، وربِّما وقع في نفسي أنَّ زعيم القوم أرذلهم.

هذه هي آداب التصوف التي بها يدنو العبد من باب الحضرة الإلهية حيث الأنس والمشاهدة.

ومن أقواله: إنما اليوم -إن عقلت- ضيفٌ نزل بك، وهو مرتحل عنك، فإن أحسنت نُزله وقراه؛ شهد لك، وأثنى عليك بذلك، وصدق فيك، وإن أسأت ضيافته ولم تحسن قراه؛ شهد عليك، فلا تبع اليوم ولا تعدله بغير ثمنه، واحذر الحسرة عند نزول السَّكرة، فإنَّ الموت آت، وقد مات قبلك من مات.

اعلم ابن آدم أنَّ طلب الآخرة أمر عظيم لا يقصَّر فيه إلاَّ المحروم الهالك، فلا تركب الغرور وأنت ترى سبيله، وأخلص عملك، وإذا أصبحت فانتظر الموت، وإذا أمسيت فكن على ذلك، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله.

ويقول: (إن الله يُخْلِص إلى القلوب من بره بحسب ما تخلص إليها القلوب من ذكره، فانظر ماذا خالط قلبك؟)^(١).

وها هو ذا يندد بالغفلة عن الله قائلًا: (الغفلة عن الله أشد من دخول النار)^(٢).

(١) فالذاكر الغافل ثوابه قليل، فإذا أردت نيل ثواب الذكر؛ فلا تكن غافلًا عند ذكرك، عندما تقول: لا إله إلا الله؛ فاجعل قلبك يقول: لا معبود بحق إلا الله، وكذا عندما تقول: الحمد لله؛ فاعرف معنى الحمد والثناء، واستحضر من تحمده. وفي «سنن ابن ماجه» حدثهم رسول الله: أن عبدًا من عباد الله قال: يا رب! لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانتك، فعضلت بالملكين، فصعدا إلى السماء، وقالا: يا ربنا! إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها... قال: اكتبها كما قال عبدي حتى يلقياني فأجزيه بها، وأول آية في القرآن ياجماع العلماء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] أتعرفون لماذا ذكرها الله تعالى؟ لما عليم سبحانه عجز عباده عن حمده حمد نفسه بنفسه في الأزل؛ ولذا سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال: «سبحانك لا أحصي ثناء عليك»، و(الحمد) وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

(٢) هل نحن منهيون عن الغفلة عن الله؟ نعم؛ نعمى الله على المنافقين أنهم لا يذكرون الله إلا قليلًا، وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]؛ لذلك يجب أن نعرف أن كل ما نهى عنه الشرع المطهر فيه شر مستطير، والجنيد عبّر عنه بقوله: (أشد من دخول النار)، ومصادقه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

وفي تصويره لمعنى الشوق والمحبة يقول: (بلغني أن يونس بكى حتى ابيضت عيناه، وقام حتى انحنى، وصلى حتى أقعد، ثم قال: (وعزتك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته شوقاً إليك) .

ويقول: ما أخذنا التَّصَوُّفَ عن القيل والقال، بل عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات.

يريد: قطع أكثر المألوفات، وترك فضول الدنيا، وجوع بلا إفراط، أمّا من بالغ في الجوع كما يفعله الرُّهبان، ورفض سائر الدنيا، وترك مألوفات النَّفس من الغذاء والنَّوم والأهل؛ فقد عَرَّضَ نفسه لبلاء عريض، وربّما خولط في عقله، وفاته بذلك كثير من الحنيفيّة السَّمحة، والسَّعادة في متابعة السُّنن.

ثم يوضح ماهية التصوف قائلاً:

(التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى، وأصله الصرف عن الدنيا؛ كما قال حارثة: صرفتُ نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري).

ثم في شرحه لمفهوم العبودية لله تعالى يقول: (إنك لن تكون له على الحقيقة عبداً وشيءٌ مما دونه لم يُسْتَرْقَ، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديته بقية [عبودية الدنيا وشهواتها]، فإذا كنت له وحده عبداً كنت مما دونه حرّاً).

فلا تسعَ خلف الدُّنيا وتنسى الآخرة، وتترك صلة الرَّحم والعِلْم والطَّاعات، وتؤذي
النَّاس، وتدَّعي أنَّك عبد الله وحده!!

يا ابن آدم دينك دينك، إنَّك موقوف بين يدي الله، ومرتهن بعملك، فخذ مما في
يديك لما بين يديك، وعند الموت يأتيك الخبر، إنَّك مسؤول، ولا تجد جواباً، إنَّك لا
تزال بخير ما دمت واعظاً لنفسك محاسباً لها، وإلاَّ فلا تلومنَّ إلاَّ نفسك.

هذه هي حكمة الإمام الجنيد في إشراقها وعمق مغزاها.

وأما عن جانب الكرامات والخوارق؛ فإننا نجتزئ من كثرتها بهذه الكرامة مثلاً،
يسوق لنا الإمام الجنيد هذه الواقعة فيقول: (كان السري يقول لي: تكلم على الناس،
وكان في قلبي حشمة - أي: حياء - من الكلام على الناس، وكنت أتهم نفسي في
استحقاق ذلك حياءً، فرأيت النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام ليلة جمعة قال لي:
تكلم على الناس، فانتبعت وأتيت باب السري قبل أن أصبح، ودققت عليه الباب
فقال - قبل أن يسمع منه شيئاً -: لم تصدِّقنا حتى قيل لك ذلك؟!).

فقعد الإمام الجنيد للناس في الجامع بالغداة، فانتشر في الناس أن الجنيد قد يتكلم
على الناس، فوقف عليه غلام نصراني، وقال: أيها الشيخ؛ ما معنى قول الرسول:

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(١) فأطرق الإمام الجنيد رأسه ثم رفعه فقال: أسلم فقد حان وقت إسلامك. فأسلم الغلام وقطع الزنار).

ذلك يسمّى بالفراسة؛ وهي القدرة على معرفة بعض الأحوال الباطنة ببعض العلامات الظاهرة، والشُّعُور القلبي أهم من النظر بالعين: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] أهل الفراسة قال الله عنهم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، وفي حديث: «إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ»^(٢).

الفراسة: ما يوقعه الله في قلوب أوليائه، فيعلمون أحوال بعض الناس، وليست من ادعاء علم الغيب، بل نوع من الكرامات، وإصابة الظن والحدس، وإنما تعلم بالدلائل والتجارب والخلق، قال تعالى لنبية: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، واللحن ضربان: صواب وخطأ، فالفراسة نور يقذفه الله في قلب عبده يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب، فهي من خواطر الإيمان.

(١) أخرجه الترمذي والطبراني.

(٢) أخرجه الطبراني بإسناد حسن.

كان شاه الكرمانى حادّ الفراسة لا يخطئ، ويقول: من غَضَّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشّهوات، وعَمَّرَ باطنه بالمراقبة، وظاهره باتباع السُّنَّة، وتعوَّدَ أكل الحلال؛ لم تخطئ فراسته^(١).

هذا هو نور البصيرة الذي يمنحه الله لمن اجتباه وجعله من خواص عباده ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ونظر إليه أحدهم فرأى بين يديه سبحة فقال له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟! فقال: طريق وصلت به إلى ربي لا أفارقه.

نعم المذكر السُّبحة، كان يذكر الله كل يوم ثلاثين ألف تسبيحة، هذا ورده من الذكر.

(١) قال ابن مسعود: أفرس النَّاس ثلاثة: العزيز في يوسف، قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١]، وابنة شعيب قالت لأبيها في سيِّدنا موسى: ﴿اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وسيِّدنا أبو بكر في عمر حين استخلفه، وزيد عليها امرأة فرعون حين قالت: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]، وكان سيِّدنا أبو بكر أعظم الأئمة فراسة، ما قال لشيء: (أظنه كذا) إلّا كان كما قال.

فلم يصل بالعلم فقط بل بالذكر أيضًا، تذاكر أصحابه بين يديه أهل المعرفة والعلم، وما استهانوا به من الأوراد والعبادات بعدما وصلوا إليه، فقال الجنيد: العبادة على رؤوس العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك.

وقال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت له: ماتقول في السماع [الأنشيد والحضرة] الذي نفعل ويحصل منا الحركات فيه؟ فقال: ما من ليلة إلا وأحضر معكم، ولكن ابدؤوا بالقرآن واختموا به.

وبعد:

فهذا هو الإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية، الإمام الرباني والعالم اللدني الذي قال: (ما أخرج الله إلى الأرض علمًا وجعل للخلق إليه سبيلًا إلا وقد جعل لي فيه حظًا).

وقد شهد له أبو العباس ابن عطاء الله قائلًا: (إمامنا في هذا العلم ومرجعنا والمقتدى به الجنيد، إنه مقدم الجماعة، وإمام أهل الخرقه، وشيخ التصوف الذي كان لا يغفل عن الله طرفه عين) إذ كان يقول: (العفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار).

هذا هو إمام أهل الحقيقة وعَلَم الأولياء في زمانه الذي كان يناجي مولاه قائلاً:
(يا من هو كل يوم في شأن؛ اجعلني من بعض شأنك).

وهو الذي تكلم في المحبة - وهو شاب - في موسم الحج بمكة على كبار المشايخ
إذ قالوا له: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال واصفاً من
تحقق بالمحبة: (عبد ذاهل عن نفسه، متصل بربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه،
وقد أحرق قلبه الأنوار الإلهية، وصفا شربُه من كأس ورده، وانكشف له الحق من
أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمِن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع
الله، فهو بالله ومع الله).

فبكى المشايخ، وقالوا: ما على هذا من مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين!!

وفي آخر ليلة له سنة ٢٩٧ رآه أصحابه يصلي ويبكي، ويسجد ويبكي، حتى ختم
القرآن، فقالوا: ارفق بنفسك يا أبا القاسم، فقال: ما رأيت أحداً أحوج إليه في هذا
الوقت مني، وهما هو ذا تطوى صحيفتي.. ثم بدأ ختمة جديدة فلما وصل إلى قوله في
سورة البقرة: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] نظروا
إليه فإذا هو قد فاضت روحه إلى بارئها.

وضجت بغداد بوفاة سيدها بعد أن عاش ستاً وسبعين سنة قضاها بين الشريعة والحقيقة.

ورئي في المنام، قال محمد بن إبراهيم: رأيت الجنيد في النوم، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيت تلك العلوم، ونفدت تلك الرسوم، وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في الأسحار.

صلى عليه ولده، ودفن بمقبرة معروف الكرخي في بغداد عند خاله السري السقطي، ثم قام الملك غازي بتعمير قبره وتوسعته، وفي ١٩٨٠م أعيد بناؤه وترخيمه، وبني معه جامع كبير مساحته ٢٥٠٠م مربع، يعرف اليوم باسم جامع الجنيد البغدادي.

إنه الرجل الذي اكتملت فيه ولاية الله تعالى، وفاضت من ينبوع معرفته لطائف الحكم؛ لترتوي بها أرواح العارفين، وهو الإمام الذي ضرب بعلمه وحاله وسلوكه أروع المثل، وقدم من جوهر صوفيته وتحققه أنصع البراهين وأقوى الحجج على أن التصوف يمثل أعلى قمة في الإسلام يظل لواؤها صفوة عباد الله.

فسلام عليه في الخالدين، وسلام عليه مع النبيين والصديقين، ونفعنا بمدده وبركاته دنيا وآخرة، اللهم آمين.

بناء على ما تقدّم من تراجم السّادة الأعلام أخاف على من يجرح الصّوفيّة ويقدح في حقهم أن يدخل في حديث: «من عادى لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة، وإنّي لأغضب لأوليائي»^(١).

والحقُّ أنّ أولياء الله هم المؤمنون المتقون، سواء سمّي أحدهم فقيراً، أم صوفيّاً، أم فقيهاً، أم عالماً، أم تاجراً، أم جنديّاً، أم صانعاً، أم أميراً، وفقاً للقاعدة المعروفة: (العبرة بالمسميات لا بالأسماء) أو (العبرة بالمسميات والمضامين لا بالأسماء والعناوين).

المصادر:

* رسائل الجنيد د. جمال رجب ٢٠٠٥م، وبلغت رسائله ٣١ رسالة.
* بحار الولاية في مناقب أعلام الصوفية: الأستاذ الدكتور جودة محمد أبو اليزيد المهدي.

* الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي طبعة ١٩٩٩م.

* صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ٦٥٢

(١) «شرح السنة» للبخاري.

*شرح الرسالة القشيرية.

*سير أعلام النبلاء ١٤/٦٦ - ١١/٤٣ طبعة ١٩٨١م.

*طبقات الحنابلة ١/١٢٧

*وفيات الأعيان ١/٣٧٣

*تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٨/١٦٨

*طبقات الصوفية للسلمي ١٥٥.

*الشخصيات الإسلامية لكاتب هذه الكلمات غفر الله له ولوالديه وأشياخه.

*شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ج ٣ ص ١٨٤ دار ابن كثير.

*حلية الأولياء للحافظ أبي نُعيم.

*تاريخ الإسلام للذهبي.

*الطبقات الكبرى لابن السُّبكي.

*البداية والنهاية لابن كثير ١٤/١٧٦٨.

سلسلة رجال الطريقة المولوية

مؤسس الطريقة

الإمام شمس الدين التبريزي

الإمام شمس الدين التبريزي محمد ابن الإمام علاء الدين ملك داد التبريزي^(١)،
من تبريز (٦٤٥-٥٨٢ هـ) الموافق (١١٨٥-١٢٤٨ م) من بلد خوي.

هو عارف ومتصوف وفيلسوف، وشاعر فارسي (إيراني)، ويُعدُّ المُعلِّم الروحي
للإمام جلال الدين الرومي الملقب بـ(مولانا).

كان شمس الدين التبريزي أحد الدراويش [من رجال الدين].. ولقَّب
بالشمس؛ لأنَّه تهرب من الظَّلام إلى شمس الحقائق.

وقيل: إنه راودته رؤى منذ سن العاشرة تقريباً، فقال لأبيه ذلك ولكنه لم
يصدق.. وبعد مدة ترك منزله وبدأ بالتجوال حتى قيل عنه: إنه لم ينم بمكان أكثر من
ليلة واحدة؛ لكثرة تجواله وترحاله، وعندما رأى أنَّ أهله لم يبالوا بمرائيه وحاله؛ ترك
بيته وساح في البلاد لعلَّه يجد من يستمع إليه.

(١) لم أجد من ترجمته سوى أنَّ اسمه مَلِك داد.

راح الفتى الشمس يكسب النقود لطعامه وشرابه من تفسير الأحلام.. ولكن لم يكن أحد يصدقه حول الرؤى التي قال: إنها تراوده، وكانوا ينعتونه بـ(المجنون).

وادعى التبريزي بأنه كَلَّمَ الله والملائكة^(١).

وقام برحلاتٍ إلى مدن عدة؛ منها حلب وبغداد وقونية ودمشق^(٢)، وأخذ التصوف عن ركن الدين السجاسي^(٣)، حتى عثر الإمام الشمس على ضالته أخيراً، فوجد من يستمع إليه ويصدقه، وهو الإمام الرومي.

اعتكف الإمامان شمس التبريزي وجلال الدين الرومي أربعين يوماً في مدينة قونية لكتابة (قواعد العشق الأربعين) المشهورة في التصوف، وانتقيت لكم قاعدة على سبيل المثال؛ لتتعرفوا إليها وهي: (الوحدة والخلوة شيئان مختلفان، فعندما تكون وحيداً فمن السهل أن تخدع نفسك وتخيل إليك أنك تسير على الطريق القويم.. أما

(١) والحقيقة أنه يمكن رؤية الله والملائكة في المنام كما ثبت عن الإمام أحمد وغيره.

(٢) من تبريز إلى قونية، ومن قونية إلى بغداد، ومن بغداد إلى حلب، ثم إلى دمشق... تحوال كبير في عهد الدواب طويل الأمد.

(٣) أبو الغنائم محمد، ولم تسعفني مصادرني لترجمته، لكنه ضمن سلسلة التَّصَوُّف التي تنتهي بأبي بكر الشُّبلي عن الإمام الجنيد.

الخلوة فهي أفضل لنا؛ لأنها تعني أن تكون وحدك من دون أن تشعر بأنك وحيد، لكن في نهاية الأمر من الأفضل لك أن تبحث عن شخص؛ شخص يكون بمثابة مرآة لك.. تذكر أنك لا تستطيع أن ترى نفسك حقاً إلا في قلب شخص آخر وبوجود الله في داخلك..^(١).

ومن القواعد الجميلة المناسبة لحالنا اليوم قوله في (القاعدة ١١٦): لماذا يحدث كلُّ هذا معي؟ لأنَّ الله يريدك أقوى، إنَّ الطَّريق إلى الحقيقة يمرُّ من القلب لا من الرَّأس، فاجعل قلبك دليلك لا عقلك الرَّئيس، إنَّ معرفتك بنفسك ستقودك إلى معرفة الله (من عرف نفسه عرف ربَّه) (القاعدة: ٢).

يوجد معلمون وأساتذة مزيِّفون في هذا العالم أكثر عدداً من النُّجوم في الكون المرئي، فلا تخلط بين الأشخاص الأنانيين الذين يعملون بدافع السُّلطة وبين المعلمين الحقيقيين، فالمعلم الرُّوحي الصادق لا يوجه انتباهك إليه... بل يساعدك على أن تقدِّر نفسك الدَّاخلية وتحترمها، إنَّ المعلمين الحقيقيين شفافون كالبلور يعبر نور الله من خلاهم... (القاعدة: ١٣).

(١) (قواعد العشق الأربعون) (القاعدة: ٧)

كان التقاء التبريزي بالشاعر العظيم جلال الدين الرومي في تجواله عام ١٢٤٤م^(١)، لقاءً عظيمًا للأدب الصوفي، وتكونت بعد ذلك اللقاء صداقة غيّرت مجرى حياة كليهما، فالرومي تحول من رجل دين عادي إلى شاعر يجيش بالعاطفة، وصوفي ملتزم، وداعية إلى الحب، ولكن رابط الصداقة الجميل الذي ربط هذين الاثنين بعضهما مع بعض بدأ بالتآكل حتى انفصلا -وذلك بعد ثلاث سنوات تقريبًا- على نحو مأساوي.

من آثاره: مثنوية «مرغوب القلوب» و«مقالات»^(٢) و«ده فصل» وديوان شعر.

ديوان شمس الدين التبريزي:

بعد أن وصل شاعرنا الفارسي شمس الدين التبريزي إلى مدينة قونية عاصمة السلجوقيين الروم في عام ١٢٤٤ بحث عن شخص يجد فيه خير الصحبة، حتى وجد في الرومي ضالته، ولم يفترق الصاحبان منذ لقائهما، حتى إن تقاربهما ظل دافعًا لحسد الكثيرين لجلال الدين الرومي؛ لاستثارة بمحبة الصوفي التبريزي، وحين

(١) كان عمر الإمام الرومي ٣٧ سنة.

(٢) كتاب نثر فارسي، كتبه في أواخر حياته.

اغْتِيلَ التَّبْرِيزِي وَلَمْ يُعْرِفْ قَاتِلَهُ؛ حَزَنَ الرُّومِي عَلَى مَوْتِ شَيْخِهِ وَحَبَّهُ الْعَمِيقَ لَهُ،
فَأَفَاضَ بِأَشْعَارٍ وَمَوْسِيقَا وَرَقَصَاتٍ تَحَوَّلَتْ إِلَى دِيْوَانٍ سَمَّاهُ «دِيْوَانُ شَمْسِ الدِّينِ
التَّبْرِيزِي» أَوْ «الدِّيْوَانُ الْكَبِيرُ»، وَهُوَ فِي مَجَالِ الْعَشْقِ الْإِلَهِيِّ؛ يَعْنِي: عَزَا أَكْثَرَ شَعْرِهِ إِلَى
التَّبْرِيزِي دَلِيلًا عَلَى حُبِّهِ لَصَدِيقِهِ الرَّاحِلِ.

وَمِنْ «دِيْوَانِ شَمْسِ الدِّينِ التَّبْرِيزِي» أَوْ «الدِّيْوَانِ الْكَبِيرِ» الَّذِي قَامَ بِتَرْجُمَتِهِ سَيِّدُ
عَلِيٍّ

حَسِينِي اقْتَطَفْنَا هَذِهِ الْغَزَلِيَّاتِ، طَبْعًا هُوَ شِعْرٌ أَعْجَمِي تَرْجَمَ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، وَرَبِّمَا لَا
يُرُوقُ لَنَا؛ لَأَنَّا عَرَبٌ، لَكِنَّهُ عِنْدَ الْأَعَاجِمِ شِعْرٌ لَهُ قِيَمَتُهُ وَرَمُوزُهُ:

يَا مَلِكُ جِسْمِنَا وَرُوحِنَا..

يَا مَنْ يَسَبِّبُ ابْتِسَامَنَا..

يَا مَكْحُلَ عَيُونِنَا..

يَا نُورَ عَيْنِ رُوحِنَا..

يَا مَنْ خَجَلَ الْقَمَرُ مِنْ جَلَالَتِكَ..

يَا مَنْ أَحَلَّ عَشْقَكَ مِنْ دَمِنَا..

عندما رأيتك كان القلب يقول: جاء القضاء، جاء القضاء.. يعني: آن وقت الحبّ.

نحن كالكرات المحتارة وسط معركة لعبتك..

يعني: تقلّبنا كما تحبُّ كالكرة بيد النَّاسِ.

وفاته:

وفقاً للنقولات الصوفية فإن شمس الدين التبريزي اختفى في أحوال غامضة.. فبعضهم يقول: إنه قتل على يد المناوئين له بسبب غيرتهم من علاقته مع الرومي.. وبعضهم يقول: إن التبريزي غادر مدينة قونية فأرّاً إلى دمشق ثم إلى بلد خوي^(١)، وتوفي في خوي سنة ٦٤٥ هجري، ثم حيث دفن هناك وله ضريح مشهور^(٢)، زرته أثناء زيارتي لقونية في تركيا.. ورُشِّحَ ضريحه ليكون من مواقع التراث العالمي لليونسكو.

لم أكثر من الحديث عنه؛ لأنّه أميل إلى الفلسفة منه إلى غيره من العلوم الشرعية.

(١) في محافظة قونية.

(٢) ضمن حديقة في برج.

وقامت إحدى الكاتبات بتحويل القواعد إلى فلسفة روائية جعلت الشريعة
مظاهر لا قيمة لها أمام العشق الإلهي، وهذا خطأ بيّن وزندقة، فليتنبه، فهناك فرق بين
(قواعد العشق) للرومي ورواية قواعد العشق لتلك الكاتبة... فهي تحرض فيها على
العنف والكراهية والحق قد يعكس كلام الرومي الذي انتقل من علوم الشريعة إلى
علوم الحقيقة، واستطاع أن يرقى بروحه إلى أعلى درجات العشق؛ وهو حبُّ الإله.

سلسلة رجال الطريقة المولوية

الخليفة الأول

الإمام جلال الدين الرومي

الإمام جلال الدين الرومي محمد بن محمد بن حسين بهاء الدين البلخي (١٢٠٧ - ١٢٧٣ م) قد عرف بمولوي جلال الدين الرومي، وهو منسوب لسيدنا أبي بكر الصديق.

عرف بالرومي لأنه قضى معظم حياته لدى سلاجقة الروم في تركيا الحالية.

ولد في منطقة بلخ في خراسان من أعمال إيران، وما يعرف حالياً بأفغانستان.

وانتقل مع أبيه إلى بغداد في الرابعة من عمره، ثم رحل معه في البلدان، وبعد وفاة

أبيه ٦٢٨ هـ وعند قدوم المغول هاجر إلى نيسابور، والتقى بالشاعر الفارسي فريد

الدين العطار، وهو أول من أثر فيه، وفي أثناء تجواله التقى بسيدنا ابن عربي، وأهداه

بعض أعماله، وبقي معه أربع سنوات.

أديب وفقهه ومنظر وقانوني صوفي.

من أشهر فقهاء عصره بالمذهب الحنفي، وقد برع في سائر العلوم الشرعية واللغة العربية والشعر، وتولى التدريس لسنوات في أربع مدارس في مدينة قونية التركية، ثم تزهد في الدنيا وفي المناصب، وسلك مسلك الصوفية في الزهد والتفكير، وكان لطريقته في التربية الروحية الأثر الكبير لدخول الآلاف من الفرس والأعاجم واليهود والنصارى في دين الإسلام، لما تميّز به من سراحة واعتدال، وله عشرات الحكم المتفرقة في كتبه...، وكلُّ من قال عنه: إنّه زنديق وكافر وو...نقل ما يريد من افتراءات وأكاذيب لو قيلت في مشايخه أو فيمن يجب من السابقين لقامت قيامته.

تأثر هذا الإمام بشمس التبريزي، وابن عربي، والإمام الجياني...

وفي تعاليم الرومي:

كان جلال الدين مسلماً مؤمناً بتعاليم الإسلام السمحة، لكنه استطاع جذب أشخاص من ديانات وملل أخرى؛ وذلك بسبب تفكيره المرن المتسامح، فطريقته تشجع التساهل اللامتناهي مع كل المعتقدات والأفكار؛ كما كان يدعو إلى التعليل الإيجابي^(١)، ويحثُّ على الخير والإحسان وإدراك الأمور عن طريق المحبة، وينظر إلى

(١) كلُّ شيء يحمله على محمل حسن، أو المساندة الاجتماعية: عندما نفسر أعمال الآخرين تفسيراً مفيداً بين الأولاد والأصدقاء نقوم بدور كبير في خفض الآثار السلبية للأحداث والمواقف السيئة التي

كل الديانات على أنها خيرة وحقيقية بمفاهيمها؛ لذلك كانوا يعاملون المسلمين والمسيحيين واليهود معاملة سواسية.

ومثل كل الصوفيين آمن الرومي بالتوحيد مع حبه لله^(١)، هذا الحب الذي يبتعد عن الإنسان، ويُبقيه في مهمة إيجاد العود إليه، وبطلب من مريديه وضع أفكاره ومبادئه في كتاب سماه «المثنوي» واستعمل في حياته خيوطاً من قصص يومية وإرشادات قرآنية وحكم من خبرته لينسج كتاباً ثميناً ممتلئاً بمعان عميقة.

وآمن الرومي بالإنشاد والرقص الدائري^(٢) سبيلاً أكيداً للوصول إلى الله، واستعمل النَّاي سبيلاً للحنين إلى الله تعالى، فالإنصات إلى النَّاي عندهم رحلة روحية تأخذ الإنسان في رحلة تصاعدية للوصول إلى الكمال. فالموسيقا الداخلية

يتعرضون لها... وتؤدي إلى خفض الأعراض الاكتئابية، وتقليل درجة الشعور بالمشقة، فهي عامل مهم في الصحة النفسية، فأسلوب التعليل لأفعال الآخرين بحسب ما تفسره تكون الإيجابيات، فتعامل مع النَّاس بحسن الظنِّ، واحمل الأشياء على محمل حسن.

(١) ولا أدلَّ على ذلك من أنَّه كتب «قواعد العشق الإلهي الأربعين»، وهي تدلُّ على الله وحبه.

(٢) بالدَّوران عندهم تكبر المحبة في الإنسان، فتخفت أنانيته، ويصل إلى الحقِّ والكمال.

الروحية للأناشيد الدينية تساعد المريد على التركيز على الاتصال بالله بقوة لدرجة أن المريد ينشد ثم يعود إلى الواقع فيجد الاختلاف الروحي^(١).

وحين قدم الإمام التبريزي إلى قونية باحثاً عن شخص يجد فيه خير الصحبة وجد في الرومي ضالته، ولم يفترق الصاحبان منذ لقائهما، حتى إن تقاربهما ظل دافعاً لحسد الكثيرين للرومي؛ لاستثارة بمحبة القطب التبريزي.. وفي عام ١٢٤٨م اغتيل التبريزي ولم يعرف قاتله، فحزن الإمام الرومي على شيخه، ومن شدة حبه له فاض بأشعار ورقصات مولوية تحولت إلى ديوان سماه «الديوان الكبير».. وحتى مماته كان الرومي يقدم المواعظ والمحاضرات لمريديه ومعارفه وللأمة.. وبناء على طلب منهم وضع معظم أفكاره في كتب، ويمكن أن تصنف أعمال الرومي عدة تصانيف؛ وهي:

* الرباعيات.

* ديوان الغزل.

* مجلدات المثنوي الستة مطبوعة في ستة أجزاء من القطع الوسط.

(١) نحن الفقراء كيف نعود بعد مجلس الحضرة من الصفاء ونور القلب والراحة النفسية؟ هكذا كل الطرق التي تتخذ الإنشاد والذكر مسيراً إلى الله تعالى.

*المحاضر أو الخطب.

*الرسائل والمواعظ الستة.

وكان لمؤلفات الرومي التأثير الكبير في الأدب الفارسي والتركي والأوردي كما أثر في التصوف، وتمت ترجمة العديد من مؤلفاته إلى اللغات العالمية المعاصرة، ومن ضمنها اللغات الأوروبية، وعندني نسخة مترجمة إلى العربية مطبوعة طبعة نفيسة، كما غنّى نجوم موسيقا بوب غربيون -مثل مادونا- ترجمات أشعار الرومي؛ لتعظيمه قوة الحب، واعتقاده الفائدة الروحية للموسيقا (الناي) والرقص.

من أقواله:

*الحب النقي هو من يسكن الوحش الذي بداخلك.. أطلق العنان للمحبة وكن روحانياً^(١).. كن طيباً.. كن عاشقاً..

(١) الرُّوح خلق من أعظم مخلوقات الله، شَرَّفَهَا وكرَّمَهَا غاية التَّشْرِيف والتَّكْرِيم، فنسبها لذاته العليَّة في القرآن: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، الرُّوح لا يصدر عنها إلَّا خير؛ لأنَّها من أمر الله.

*وقال: الوداع لا يقع إلا لمن يعشق بعينه، أما ذاك الذي يحب بروحه وقلبه فلا
ثمة انفصال أبداً.

*الروح أساس الإدراك في العالم، حياتك بروحك، ومفارقة الروح للجسد هي
تعريف للموت، فالروح تبقى والجسد يبلى، والذي يذوق الموت هو نفس الإنسان
وليست روحه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

*العشق المحبب الذي لا قرار له ولا سكون.. فكيف يحمل الجسم كله على
الجنون؟!!

*إنك عابد للصنم لو بقيت أسير الصورة^(١).. لأن الصورة مانعة قاطعة
للطريق.. فدع صورة الصنم وانظر إلى الحقيقة.

*لا تحرق بساطاً من جرّاء برغوث.. ولا تُضِعِ اليوم لانزعاجك من بعوضة.

*إن الثمار تظهر عندما تسقط البراعم.. وكذلك تظهر الروح عندما ينزع عنها
الجسد.

(١) أسير المظاهر، أسير البذلة، والحذاء، والكرافة، والكنزة، والأكلة...، تعتنى بمظهرك، وتترك
الاعتناء بقلبك ودينك.

وسيدنا النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى ذلك بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَبْدَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

*أي شيء يعني تعظيم الله وتمجيده؟.. أن تجعل النفس ذليلة كالتراب في وجوده.

*ما معنى أن توحد الله؟.. أن تحرق نفسك وتعدمها أمام الواحد.

*إن كنت تريد أن تشرق مثل النهار.. فاحرق كيائك المظلم كما الليل.

*ومن جميل كلامه: ارتق بمستوى حديثك لا بمستوى صوتك، فالطر الذي ينمي الأزهار، وليس الرعد.
ونختم بشيء من شعره:

نذهب ونسكن في بيت قرب البحر... لأن عطاءه الجوهر وطبعه السخاء..

اعلم أن مصاحبة الروح تجعلك مثلها... وقد أصبحت النجمة جميلة من مصاحبتها للسماء..

جمالية الروح في القرآن واضحة؛ لأن الله ذكرها مقدسة مشرفة لا تتدنس:
﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾

[المجادلة: ٢٢]، ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢]، والروح هنا هي الكلمة الإلهية والأمر الإلهي، فلا تكون محلاً للشهوة أو الهوى.

أَمَّا النَّفْسُ فتتدنى وتهبط وتجانس إبليس في معصيته، النفوس المظلمة تهبط بفجورها إلى الدَّرَكِ الشَّيْطَانِي؛ ولذا حجبهم الله عن رؤيته يوم القيامة: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]

أتعلم أن الجسد أصبح جميل الوجه من مصاحبته للروح؟؟
وفاته:

حين توفي حضر جنازته جميع الملل والديانات، وحمل نعشه أشخاص من ملل خمسة، ودفن في قبر بجانب قبر والده.. وسمى أتباعه هذه الليلة بالعرس.. وما زالوا يحتفلون بهذه الليلة إلى الآن.. وأصبح مدفنه مزاراً، وقد زرته في قونية ورأيت فيه دلالة على تعظيم الأولياء...

جمع مريدوه محاضراته ومواعظه في عدد من الكتب والرسائل.

الطريقة المولوية

للحقيقة الإمام جلال الدين لما مات قام ابنه سلطان^(١) فأسس الطريقة المولوية مع أتباعه، فكان يوم موته هو عرسه يحتفلون فيه بالرقص والذكر والصلاة، والنأي يرافق الرقص الدائري؛ يعني: ربّما هيئة الرقص المولوي من إعداد ابنه سلطان، وليست من إعدادة.

النأي يشبه أنينه أنين الحنين البشري لأصله في عالم الأزل^(٢)!

(١) له ولدان سلطان وعلاء الدين شلبي، ثمّ ماتت زوجته، فتزوج بأخرى، وأعقب منها ولدًا وبتنًا (أمير العلم شلبي).

(٢) له قصيدة في النأي مطلعها:

أنصت إلى النأي يحكي حكايته... ومن ألم الفراق يبت شكايته..

ومذ قطعُ من الغاب والرجال والنساء لأنيني يكون...

فكلُّ من قطع عن أصله... دائمًا يحن إلى زمان وصله..

وهكذا غدوت مطربًا في المحافل..

أشدو للسُّعداء، وأنوح للبائسين، وكلُّ يظن أنني له رفيق...

طقوس السماع في (السمع خانة) أو بيوت الذكر كانت تقيمها —وما تزال— فرق المولوية. وفي مدينة (قونية) شرق تركيا التي توفي فيها يستقبل كل عام في ذكره آلاف الآلاف من السواح، فتقام لهم طقوس (مجالس) الطريقة المولوية الصوفية.. ولا تتوقف طوال العام أيضًا.. وتعتمد على الموسيقى الخاصة جدًا، ولها أنغام معروفة على الناي... وتعرف فرقها الراقصة المعروفة في كل العالم باسم (فرقة الدراويش) ((Whirling Darwishes)) وهي من أجمل ما يمكن أن نراه بين الطرق الصوفية المولوية.

وكانوا أول من أدخل الناي في حلقات الذكر، وأول من تحرك بحركات راقصة دائرية بعد أن كان الذاكرون في طقوسهم يثبتون في أماكنهم مع تحريك أجسادهم يمينًا وشمالًا.

الرقص لدى المولوية طقوس.. (برنامج ديني كامل) فكل حركة من اليدين والقدمين والرأس لها معنى ودلالة خاصة، والدوران عكس عقارب الساعة^(١) دليل على تبادل الليل والنهار^(٢).. وهم يدخلون الساحة بعباءة بيضاء بلون التراب؛ دليلًا على

(١) كما هو الطواف حول الكعبة.

(٢) الوقت يمر عليك، فاشغله بالذكر والطاعة، هذا مدلوله.

الأرض ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، ورئيس الفرقة يرتدي عباءة سوداء، فوق ألبسة بيضاء فضفاضة تدل على كفن الموت، ويضع طربوشاً طويلاً من اللباد الخشن يسمى (القلب) وهو يرمز إلى (شاهد القبر).

يخلع الدراويش عباءاتهم البنية ببطء ويمرون على شيخهم ويقبلون يده فيقبل رؤوسهم^(١). يخلعون العباءة وكأنهم يتجردون من الحياة ذاتها في طريق الخلاص، فتبدو تحتها ثيابهم البيضاء الواسعة -وهي الكفن- استعداداً للموت..

هذه المعاني تساعدكم على خوض غمار الحياة، فيشعرون أنهم في كل لحظة مفارقون الدنيا متجهون نحو الآخرة، فتصفو قلوبهم، ويقبلون على ربهم، وكأنهم ينفذون الحديث الشريف: «صَلِّ صَلَاةً مُودَّعٍ».

يدور الشيخ بحركات دائرية واسعة كأنه يدور حول مركز الكون^(٢). ثم يدور الراقصون حوله فكأنهم يرمزون لحركة الكون أيضاً.. يرقصون بدورات بطيئة في

(١) كأنهم يطلبون الإذن منه في الرقص الصوفي.

(٢) وهكذا كل شيء يدور حول مركزه، ونحن نطوف حول الكعبة مركز الأرض أم القرى، حتى الإلكترونات تدور حول النواة.

البداية حول شيخهم، والدوران يكون بثبات القدم اليسرى التي تدور في مكانها على العقب، ثم تلتف القدم اليمنى على أطراف الأصابع حولها في تتابع سريع. القدم الثابتة هي الشريعة (الثابتة) والقدم المتحركة هي الدنيا وما يستجد فيها.. وفي كل لفة يذكر اسم الجلالة الذي يرسمونه بحركة أيديهم وأجسامهم!! للاستعانة به لحفظ الشريعة أمام هول الذنوب وسرعة تعاقب الأيام.

هذا الدوران يتسارع حتى يبلغ الذروة^(١) ويشترط أثناء الدوران ألا تلامس أيديهم ثيابهم بأي حال^(٢)!! كف اليد اليمنى المرفوعة إلى أعلى تعني التوجه للسماء وطلب الرحمة والمدد، واليسرى تتجه إلى أسفل، وتدل على الأرض وما فيها من خطايا.. فهو يتلقى الرحمة من الله تعالى، ويحاول أن يتوجه بها إلى البشر على الأرض أملاً في تخطي ذنوبه^(٣)...

إذن هذا الرقص ليس عبثاً، له معنى ومدلول يستحضره الذاكر عند حركته.

(١) والدُّنيا تدور حتى تنتهي.

(٢) لأنّها تمثل الدنيا، وفي الطريق إلى الله يجب الابتعاد عن الدنيا والزُّهد فيها.

(٣) فهو كالميزاب، ما يأتيه من الله يوزعه على البشر ومن حوله رجاء مغفرة الذنوب.

يبدؤون مجلسهم بقراءة القرآن، ثم يبدأ الإنشاد على الناي في حب رسول الله مع ارتفاع صوت الموسيقى بالتدرّج ، وتتردد كلمة (الحي) ليختتم صلة الدوران بعبارة (الله الله الله..).

الإنسان حي يرجو رحمة الله وهو مشدود إلى الأرض والتراب والذنوب.. وعليه أن يستعد للموت فيلبس كفته^(١)، ولكي يكون راضياً صالحاً سعيداً عليه أن يذكر الله ويعبده؛ ليتخلص في النهاية من كل ما يتعلق به من الأرض، ويقوم على خدمة عباد ربه في الدنيا ليرحل سعيداً في النهاية إلى الخالق!! فالحياة رحلة... بين الولادة والموت.

هذه بعض أحوال الطريقة المولوية.. ولا شك أن الناي لم يُجْزَ من العلماء إلاّ المالكية أجازوه لراعي الغنم فقط.. وأمّا الدوران والحركة فهو أمر مباح لا يقال فيه: حلال ولا حرام^(٢).. وأمّا الإنشاد الديني فهو حلال.. حلال.. حلال..

(١) كيف تتصوّرون رجلاً يحمل كفته معه؟ كيف ستكون أخلاقه ودينه وتعامله مع الخلق وأخذه من الدنيا لآخرفته؟!

(٢) إلاّ إذا كان متشبّهًا بالنساء فيحرم...

لقد حضرتُ مجلسهم الذي يعقدونه، وبويعت فيه على خلافة الطريقة المولوية...
ولله الحمد.

سند الطريقة المولوية

وسندي في الطريقة المولوية:

- ١- الشيخ حياة نور آتران.
- ٢- عن حضرة شيخ شفيق جان، ولد في (٢٢/٦/١٩٠٩م)، وتوفي في (٢٣/١/٢٠٠٥م).
- ٣- عن حضرة شيخ طهير مهلوي، ولد في (١٣/٩/١٨٧٧م)، وتوفي في (٢٠/٦/١٩٥١م).
- ٤- عن حضرة شيخ مهمت اساد، ولد في (١٨٤٣م)، وتوفي في (٩/٨/١٩١١م).
- ٥- عن حضرة شيخ حسن حسنو (HUSNU)، ولد في (١٨٣١م)، وتوفي في (١٩٠٩م).

هذا النسب معروف في تركيا كالنسب الذهبي .

المصادر:

-«جلال الدين الرومي بين الصُّوفيَّة وعلماء الكلام»، عناية الله أبلاغ الأفغاني،

الدار المصرية للكتاب (١٩٧٩).

-«عمدة التحقيق في بشائر بيت آل الصِّديق» لأبي المكارم الصِّديقي.

-«رشف سلاف الرَّحيق في نسب حضرة الصِّديق» للزَّبيدي.

-«شعراء الصُّوفيَّة» محمَّد حسن الأعظمي (١٩٨٨).

-«مناقب العارفين» الأفلاكي.

-«جلال الدين الرومي» محمَّد عبد السَّلام كفاقي.

-«جلال الدين الرومي وآثاره بالعربيَّة»، د. حسين علي محفوظ - د. نبيلة داود،

(١٩٧٧).

سلسلة رجال الطريقة النقشبندية

المؤسس الأول

الإمام محمد بهاء الدين النقشبندي الأوسي^(١) البخاري

شيخ الطريقة النقشبندية

هي مثل الشاذلية، ترفض الأفكار الثورية، وتمنع الاندماج فيها، وتؤكد أنَّها لا تكفر أحداً، وتعتقد ضرورة الزهد، والورع، والتفرغ للعبادة، تحت شعار: دع الملك للملك، وتركية تعدُّ الطريقة الكبرى من الطرق الصوفية، مركزها الرئيس في إسطنبول، وعندنا في الشام كان شيخها الشيخ لطفی الفيومي، وقبله الشيخ أبو الخير الميداني، وكان لهم زاوية في شارع بغداد تسمى الأزبكية، وهي فرقة من الفرق النقشبندية، وفي لبنان فرقة الأحباش، وفي العراق أتباع مولانا خالد منذ (١٨٠٨ م).

(١) سَمِّي أَوْسِيًّا؛ لَأَنَّ خُلُقَهُ فِي التَّصَوُّفِ هُوَ خُلُقُ سَيِّدِنَا أَوْيسَ الْقُرْنِيِّ، وَقِيلَ: إِنَّهُ اسْتَمَدَ مِنْ مَشَائِخِ الطَّرِيقَةِ الرَّاحِلِينَ قَبْلَهُ كَمَا اسْتَمَدَ سَيِّدُنَا أَوْيسُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بَعِيدٌ عَنْهُ، فَكَمَا رَبَّتْ الْحَضَرَةُ النَّبَوِيَّةُ سَيِّدَنَا أَوْيسًا بِلَا وَاسِطَةٍ؛ كَذَلِكَ تَرَبَّى سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ بِهَاءِ الدِّينِ، وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا مِمَّا تَوَجَّهَ لَهُ أَكْثَرُ مَشَائِخِ الطَّرِيقَةِ أَثْنَاءَ سُلُوكِهِمْ، وَتَرَبَّوْا بِالرُّوحَانِيَّةِ.

أخذت الطريقة النقشبندية اسمها من اسم إمامها رضي الله عنه، ومتبعو طريقته
سُمُّوا بالنقشبندية.

وسلسلة الطَّريقة تصل إلى النَّبي صَلَّى الله عليه وسلَّم بعد عشرة من المشايخ، من
الإمام بهاء الدِّين إلى سيِّدنا أبي بكر الصِّدِّيق (طريقتنا بينها وبين النَّبي ١٧ رجلاً)؛
لأنَّهم قصار الأعمار، وكلَّما كثر رجال الطَّريقة؛ زادت بركتها، بعكس الإسناد في
الحديث كلَّما قلَّت رجاله علا.

وكلمة (النَّقْشَبَنْد) من حيث المعنى تنقسم قسمين؛ القسم الأول منها: هو
(النَّقْش) وهو يحمل المعنى العربي نفسه الذي يدل على فعل النقش على الحجر أو
الجدار أو القماش، والقسم الثاني: هو (البَنْد) وهو باللغة الكردية والفارسية والتركية
يعني: الحبل أو الوتر؛ لذا يقصد بـ(النقشبند): نقش اسم الجلالة (الله) على حبال
القلب وأوتاره وشغافه، وقال شاعر النَّقشبندية:

يا رَفِيقًا في طريق النَّقشبند انقُش ذِكْر الحقِّ في قلبك بِجِدِّ

وقيل: إن سبب التسمية أن سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده الشريفة
على قلب الإمام محمد بهاء الدين، فنقش نور كف سيدنا رسول الله على قلب الإمام،

وأصبح النور ظاهرًا يُرى فقليل: إن النقش بان.. ولذلك أطلق عليها النقشبنديّة..
والله أعلم.

حياته رضي الله عنه:

هو الشَّيْخ الإمام بهاء الدين مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد، الملقب بمُحَمَّد البخاري،
وذكرت بعض المصادر أنَّه حسيني النَّسب.

ولد رضي الله عنه في شهر محرم الحرام عام (٧١٧ هجرية) في قصر عارفان؛ وهي
قرية بالقرب من بخارى...

وبعد أن تلقى العلوم الشرعية صحب في الثامنة عشرة من عمره الشيخ محمد بابا
الساماسي المدفون بقرية سماس القرية من بخارى^(١)، فأخذ عن شيخه السكينة

(١) الإمام السَّامَاسِي عَلم الأولياء، وولي العلماء، جمع بين علمي الظَّاهر والباطن، توفي سنة ٧٥٥هـ على
بعد ثلاثة أميال من بخارى، وكان علامة في كلِّ الفنون، عاش ٥٠ سنة، ٧٠٥-٧٥٥هـ، وترك بعده
أربعة خلفاء منهم الشَّيْخ كلال، وسيمر ذكره كان كلِّما مرَّ بقرية عارفان، قال: إني لأشم ريحة
عارف، فلمَّا ولد؛ قال: زادت الرائحة، ومرة حلَّ مع عدد من مريديه ضيفًا على قرية الإمام بهاء
الدِّين ولم تمض ثلاثة أيام من عمر الطَّفل بهاء الدِّين، فاحتضنه جدُّه مُحَمَّد جلال الدِّين، وقَدَّمه
للشَّيْخ السَّامَاسِي، ففرح به، وقال: قبلْتُ هذا الطَّفل ولدًا لي، وبشَّر به، وأنه سيكون له شأن، بل إمام

والخشوع والتضرع، وبعد وفاة السماسي صاحب الشيخ الأمير كلال رضي الله عنه^(١) فاعتنى به ورعاه ورباه أفضل تربية^(٢).. حتى غلبت عليه جذبة إذ سمع هاتفاً يناديه: (أما آن لك أن تعرض عن الكل وتتوجه إلى حضرتنا؟!). فترك سيدنا الشاه نقشبند الكل، وأخذ يهيم على وجهه مدة شهر تقريباً، وقد أصبحت الجذبة من مبادئ الطريقة.

وكان يريدو سيدنا الأمير كلال رضي الله عنه إذا اجتمعوا يذكرون جهراً^(٣)، وإذا انفردوا يذكرون خفية، وكأنَّ الشاه نقشبند لم يقرهم على الذكر الجهري واقتصر على

زمانه، فربَّاه جده تربية صوفيَّة وزوجه وعمره ١٨، ووضعه خادماً لشيخه السماسي، وتلقَّى منه الطَّريقة التي كانت تسمَّى طريقة خواجه خان.

(١) أخذ به جدُّه إلى سمرقند فقدمه لخليفة السماسي الأمير كلال.

(٢) وقال الأمير كلال: إنَّ شيخه أوصاه به، وقال له: لا تألَّ جهداً في تربية ولدي محمَّد بهاء الدِّين ولا بالشفقة عليه، فبدأ بهاء الدِّين بالذكر والفكر والسلوك الصوفي وتربية القلب وتزكية النَّفس، وكان استعداداه فوق العادة، يقطع مسافة شهر بيوم، ومسافة عام بأيام.

(٣) نحن الشاذلية والقادرية الذكر جهري عندنا، والمولوية تعرف بقراءة الأشعار والذكر وحفلات السماع.

الخفي^(١)، وفي ذلك يقول: (هناك طريقان للذكر: سري وجهري، فاخترت منهما السر لأنه أقوى)، فأصبح هذا النوع من الذكر أهم ما يميز الطريقة النقشبندية العلية من سواها من الطرق الصوفية الأخرى^(٢).

وبعد إتمام التحصيل على سيدي الأمير كلال رضي الله عنه^(٣) أخذ سيدنا الشاه نقشبند يزور الصالحين^(٤) ويستفيد من أحوالهم^(٥)، وفي تلك الأثناء حج ثلاث مرات، ثم أقام بمرو وبخارى، ثم عاد أخيراً إلى بلدته قصر عارفان ليستقر فيها، فطار صيت

(١) وكلها تلتقي في هدف واحد هو معرفته سبحانه والقرب منه.

(٢) والحقيقة أنه رَوَّج الذكر الخفي من أجل دوام المذكور في القلب، ونقشه في الباطن، وسيمر معنا تفصيل الكلام على الذكر الخفي إن شاء الله.

(٣) جمع الأمير كلال مريديه يوماً، وقال لمحمد بهاء الدين أمامهم: إِنِّي نَفَذْتُ وَصِيَّةَ مُرْشَدِي الْخَوَاصِّ السَّمَّاسِي بِتَرْبِيَّتِكَ، وَلَمْ أَلْ جَهْدًا فِي تَرْبِيَّتِكَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إِلَى صَدْرِهِ وَقَالَ: إِنِّي أَرْضَعْتُكَ جَمِيعَ مَا فِي صَدْرِي، فَيَسِّرْ ثَدْيِي، فَتَمَكَّنْتَ مِنْ إِخْرَاجِ قَلْبِكَ مِنْ قَشْرَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ، وَتَخْلِيصِكَ مِنَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ، وَأَصْبَحْتَ رَجُلًا عَظِيمًا، وَأَنْبَتُكَ مَحَلَّ نَفْسِي، وَهَمَّتْكَ تَتَطَلَّبُ الْعِلَى، وَهَذَا مَنْتَهَى مُقَدَّرَتِي عَلَى تَرْبِيَّتِكَ، وَأَجِيزُكَ لَتَبَحْثَ عَنْ رَجُلٍ أَصْلَحَ مِنِّي؛ لَعَلَّهُ يَرْجِعُ بِكَ إِلَى مَقَامِ أَعْلَى.

(٤) كالإمام عارف الديك كراني والشيخ خليل أنا.

(٥) وكانت له أسفار عديدة ينتقل بين علماء الشرع، ولا سيَّما السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ.

إرشاده إلى كل المدن والأمصار، وقصدته الناس من كافة الأقطار، وتبدلت غيوم القلوب بعلوم الغيوب، وشرورو النفوس سرورا وحبورًا، وأصبح ييث من العلوم والأسرار الوهية والمعارف الأحدية والفيوضات المحمدية ما لا يحيط به محيط^(١).

وفاته رضي الله عنه:

لما مرض رضي الله عنه دخل خلوته، وأخذ مريدوه يتوافدون عليه ويلازمونه، فكان يوصي كلًّا منهم بما يناسبه، وبعد ذلك أخذوا يتلون سورة (يس) فلما أتموها رفع رضي الله عنه يديه بالدعاء فدعا، ثم مسح وجهه وفاضت روحه، رحمه الله تعالى، وذلك ليلة الاثنين المصادف الثالث من شهر ربيع الأول سنة (٧٩١ للهجرة)، ودفن في بستانه كما أوصى^(٢).

(١) ورَبَّى عشرات آلاف من المريدين، ووصل بعضهم إلى درجة الإجازة المطلقة، وبركته تمكن خلفاؤه ونوابه من إبلاغ مريدتهم إلى غاياتهم، ومن ضمنهم خواجه محمد بارسا، وترك عشرين مؤلفًا منها: «القدسية»، وهو كتاب يضمُّ أقوال الشيخ نقشبند، طبعه السيد أحمد طاهر العراقي، ووضع عليه صورة ضريح الشيخ.

(٢) ويقولون: إنَّ هذا البستان ما زال إلى اليوم يزهر الفواكه كافة، وبني جامع بجواره، وخلفه ابنه أبو النصر بارسا، وهو من كبار مشايخ النَّقشبندية، ومن عظماء الطريقة، وبلغ مريدوه عددًا لا يحصى حتَّى قيل في كتاب «الحقائق الوردية»: إنَّ له خلفاء كنجوم السَّماء، ويتوافد على ضريحه على الدَّوام

مصادر البحث:

- القدسيّة.
- رسائله.
- مكتوبات الإمام الرّباني.
- نفحات الأنس ملا جامي.
- أنيس الطّالين وعدّة السّالّكين.
- «الحديقة النّدى في آداب الطّريقة النّقشبندیّة»، محمّد بن سليمان البغدادي.
- «مناهج السير» لأبي الحسن المجددي.
- «الحقائق الوردیّة في أجلاء النّقشبندیّة».
- «الأنوار القدسيّة من مناقب السّادة النّقشبندیّة» محمّد الرّخوي.

خلق كثير حتّى من الصّين، ويقوم أهل بخارى بزيارته كلّ أربعاء، ووقف على بستانه وضرّجه وجامعه كثير من الملوك، وللإمام رسائل عدّة؛ كـ«الأوراد البهيّة»، و«الورد الصّغير»، و«الأوراد البهائيّة»، و«دليل العاشقين»، ورسالة «الحياة»، وهي نصائح.

- «المواهب السَّرمديَّة في مناقب النَّقشبندِيَّة».

مولانا الشيخ خالد النقشبندي

(١١٩٣-١٢٤٢هـ) (١٧٧٩-١٨٢٦م)

العالم المجدد

شيخ مشايخ الطريقة النقشبندية

بعد قرون متطاولة حوالي أربعة قرون من وفاة مؤسس الطريقة النقشبندية سيدنا الإمام الشاه نقشبند رضي الله عنه؛ مَنْ الله على الطريقة بإمام مجدِّ لها هو:

سيدنا ضياء الدين أبو البهاء خالد بن أحمد بن حسين الشهرزوري السلفي الشافعي النقشبندي المجددي القادري السهروردي الكبروي الجشتي^(١)، سليل العارف بير^(٢) ميكائيل المشهور بين الأكراد بـ شُشَانكشت؛ يعني: صاحب

(١) هذه أسماء الطرق الصُوفيَّة المجاز فيها.

(٢) هذه كلمة مرتبة دينيَّة عند الأكراد إلى اليوم، والأكراد والأعاجم سخرهم الله لنصرة دين الإسلام بصد هجمات أعداء الإسلام، فهل كان السُّلطان عبد الحميد ومحمَّد الفاتح إلَّا أعجميين من

الأصابع الست الشَّيخ خالد بينه وبين شاه نقشبند ١٢ خليفة، وهو رقم ١٣، وهو خليفة الشَّيخ عبد الله الدهلوي، والشَّيخ ناظم الحَقاني بينه وبين مولانا خالد سبعة خلفاء.

ويتهي نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويتصل نسب والدته بالعارف بير خضر المنسوب إلى السيدة فاطمة رضي الله عنها.

ولد سنة ١١٩٣هـ في قسبة قره طاغ على خمسة أميال من بلدة السليمانية^(١)، ونشأ فيها برعاية والده، وقرأ في مدارسها القرآن الكريم، و«المحرر» للإمام الرافعي^(٢)،

الترك؟، وهل كان قطز إلا عبداً مملوكاً من أصفهان؟، وهل كان صلاح الدين إلا كردياً لا ينطق بالعربية؟، أمثال هؤلاء يدين لهم العرب والمسلمون، ولولا أن الله سخرهم للإسلام؛ لكانت بغداد الآن للمغول، والجزيرة العربية والشام لليهود، وتركيا والمغرب العربي كله بيد الصليبيين... بل كثير ممن أوصلوا إلينا الإسلام كانوا موالي؛ منهم عطاء بن أبي رباح، وأبو حنيفة، وسيبويه، والخوارزمي، والبخاري، وبقية السُّنة، واليوم نحن مع الإمام خالد النقشبندي الكردي.

(١) شمال العراق؛ يعني: هو كردي.

(٢) الإمام الرَّافعي كتب هذا الكتاب من ثمانية كتب ألفها، اختصر فيه المذهب الشَّافعي، يقول الإمام ابن حجر (ت ٩٧٤هـ) في «التُّحفة» (١/ ٣٥): وتسميته «المحرر» مختصراً لقلة ألفاظه، لا بكونه ملخصاً من كتاب معين، ويقول البجيرمي: إنَّه مختصر من «الوجيز» للغزالي، رغم أنَّ الإمام الرَّافعي

وشياً من النحو والصرف، وبرع في النظم والنثر وهو دون البلوغ، وجعل يدرب نفسه على الزهد والعفة منذ وقت مبكر.

ثم رحل إلى بعض نواحي بلاده لطلب العلم، فقرأ في السليمانية على الشيوخ فيها.

ثم سافر إلى جهات^(١) فقرأ على أجلائها^(٢)، ثم قدم بغداد فقرأ «المنتهى» في الأصول. وفي هذه الزيارة الأولى لبغداد اجتمع به كبار العلماء ورأوا علمه الزاخر وكان يومئذ يتعاطى التبغ، فكانوا إذا خرجوا من عنده بالغوا في مدحه وانتقدوه على التدخين - ولم يكن التدخين محرماً وقتها - فلما بلغه ذلك دعاهم إلى طعام ثم بحث في الأصول وبيان الحلال والحرام والإباحة وأقام عليهم الحجة، وعندئذ أحضر أدوات التدخين فكسرها أمامهم.

لم ينص في مقدّمة كتابه أنّه مختصر منه (١/ ١٥)، وحقيقة هذا الكتاب عمدة في الفقه الشافعي، ويحوي خلاصة المذهب بعبارات موجزة، وقد اختصره الإمام النووي في كتابه «منهاج الطالبين»، وهو مطبوع بثلاثة مجلدات.

(١) عاش في العراق وسورية والحجاز والهند وأفغانستان وإيران وفلسطين.

(٢) ومارس التدريس فيها.

رغب الأمير إبراهيم باشا أن يعينه مدرسًا في بعض المدارس ويخصص له الوظائف العلمية العالية فاعتذر وقال: لست من أهل هذا المقام.

ثم رحل ليزداد علمًا في نواح عدة من السليمانية فقرأ فيها الحساب والهندسة والاصطrolab والفلك.

كما تعلم الكردية والفارسية إلى جانب العربية، وقرأ المنطق بعدد من الكتب.

ثم ولي تدريس مدرسة أجلّ أشياخه^(١) الشيخ عبد الكريم البرزنجي بعد وفاته بطاعون السليمانية سنة ١٢١٣ هجرية، وبقي فيها حتى سنة ١٢٢٠ هـ حين جذبه الشوق إلى البيت الحرام وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم، فخرج قاصدًا الحج عن طريق الموصل وديار بكر والرها وحلب ودمشق.

(١) في أيّ مدرسة حلّ يكون هو الأتقى والأورع، ولا يسأل عن مسألة من العلوم إلّا ويحيب بأحسن جواب، ولا يمتحن بعويصة من «تحفة ابن حجر» أو «تفسير البيضاوي» إلّا ويكشف عن وجوه عجائب الفوائد، مع قوة حافظة وذكاء خارق، فاشتهر خارق علمه، وطار إلى الأقطار صيت تقواه وفهمه.

وفي دمشق اجتمع بعلمائها كالشيخ محمد الكزبري^(١) سمع منه وأخذ عنه الأسانيد العالية والإجازات المسلسلة في ذهابه وإيابه، واجتمع أيضًا بتلميذه الشيخ مصطفى الكردي فأجازه كشيخه بأشياء منها الطريقة القادرية.

ولما وصل إلى المدينة المنورة مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصائد فارسية.

وبحث عن شيخ عالم، فلقي شيخاً يميناً، فاستنصحه، فنصحه بأمور؛ منها: لا تبادر بالإنكار في مكة على ما ترى ظاهره يخالف الشريعة، فلما وصل إلى الحرم المكي، وبكر للصلاة الجمعة؛ جلس يقرأ «دلائل الخيرات»، فرأى رجلاً ذا لحية سوداء، عليه زي العوام قد أسند ظهره إلى الشاذروان، ووجهه إليه، فقال في نفسه: هذا الرجل لا يتأدب مع الكعبة، فأنطق الله الشيخ فقال: يا هذا! أما عرفت أن حرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمة الكعبة؟! فلماذا تعترض علي؟! أما سمعت نصيحة من في المدينة وأكد عليك؟! قال: فلم أشك أنه من أكابر الأولياء، وقد تسرّ بأمثال هذه الأطوار، فصار يقبل يديه، ويسأله العفو، وطلب منه أن يدلّه على الحق، فقال له: فتوحك لا

(١) وصف هذا الشيخ بأنه شيخ القديم والحديث، ومدرس دار الحديث.

يكون في هذه الدّيار، وأشار بيده إلى الدّيار الهندية، وقال: تأتيك إشارة من هناك،
فرجع إلى الشّام.

وفي الهند في جهان آباد سنة ١٢٦٠هـ التقى بشيخه الإمام العَلَم عبد الله
الدّهلوي، وأمضى خمسة أشهر نال فيها المشيخة والخلافة والإجازة في خمسة طرق:
النّقشبندية، والقادرية، والسهروردية، والجشتية، والكبروية، ثمّ عاد إلى كردستان،
ونشر الطّريقة في بقاع العراق، ونظم قصيدة من ٧١ بيتاً في شيخه وبشّره ببشارات.

وفي السنة نفسها رحل إلى بغداد فنزل في زاوية جدنا مولانا الإمام الشيخ عبد
القادر الجيلي أيام وزارة سعيد باشا بن سليمان باشا، وبقي يرشد الناس نحو خمسة
أشهر، ثم عاد إلى وطنه بشعار الصوفية.

وفي ذلك الوقت هاج عليه بعض معاصريه ومواطنيه ووشوا به عند حاكم
كردستان، فترك السليمانية سنة ١٢٢٨هـ ورجع إلى بغداد، ونزل في المدرسة
الأحسائية الأصفهائية فعملها بالعلوم والأذكار.

وحدث حينئذ أن ألف فيه الشيخ معروف البرزنجي رسالة بعث بها إلى والي بغداد سعيد باشا يحرضه فيها على إهانته وإخراجه من بغداد وضلّله فيها وكفّره^(١). ومما قال في رسالته: إن الأكراد كلهم اتبعوه، وملاً ببدعته الآفاق، وإنه يدعي التصرف في الكائنات، ويدعي علم الغيب، وإنه ذهب إلى الهند فتعلم من السحرة الجوكية، ومن نصارى الإنكليز ديناً ظهر عندهم، ثم حرض الباشا على تمزيق طريقته وشعوذته... إلى غير ذلك.

فانتدب الوالي للرد عليه^(٢) مفتي الحلة الشيخ محمد أمين، فألف رسالة مهرها علماء بغداد^(٣) دافعوا فيها عن الإمام خالد.

رجع بعد ذلك إلى السليمانية^(٤) فبنى له أمير الأمراء محمود باشا بن عبد الرحمن باشا زاوية ومسجداً^(٥)، وأوقف عليهما وقفاً، ورتب للطلاب المواظين فيها رواتب

(١) من سنة الله أن يجعل حساداً لكلّ من تفرّد بالفضل، لا ترى عالماً يحلّ بأرض إلا أورشوه دار هوان،

هذه الكعبة بيت الله يسعى لحجّها الثقلان، وترى أزهد الناس فيها أهلها لقرب المكان!!

(٢) وعرف الوالي بأنّها رسالة حسد وبغضاء.

(٣) والإمام قابله بالدعاء والمسامحة.

كافية، فأقبل المريدون عليه وطلبة العلم من مختلف البلاد، وانتفع به خلق كثيرون من الأكراد^(٣).

مدحه وقتذاك أدباء عصره^(٤) بالقصائد العربية والفارسية، وألف فيه الشيخ عثمان بن سند النجدي البغدادي كتابه "أصفى الموارد من سلسال أحوال مولانا خالد" ووضع فيه الشيخ حسين الدوسري الأحسائي خليفته في بلاد الأحساء كتب "الأساور العسجدية في المآثر الخالدية".

بلغ رتبة الإمامة وهو لم يبلغ الأربعين من عمره، أراد أن يعلي قدر الإمام؛ لإخلاصه وعلمه وصوفيته الصادقة.

(١) أراد الله بجولة الإمام نشر الطريقة النقشبندية في الأرض، وأن تتبارك تلك الأراضي التي مرَّ عليها الإمام.

(٢) هيا الله له هذا الأمير؛ ليتخذ زاوية ومسجدًا في السليمانية.

(٣) طالب العلم إذا وجد من يصرف عليه؛ أقبل على طلب العلم، والإمام الشافعي يقول: لو كلفت بصلة ما تعلمت مسألة.

(٤) لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه، العالم يعرف قدر العالم، والأديب الشاعر يعرف قدر الأديب الشاعر.

رحل إلى بغداد بعد ذلك فنزل المدرسة الأحسائية أيضًا، وجددت له، فجعل ينشر العلم، وانقاد له العلماء وشاع فضله، وصار يرسل الخلفاء إلى البلدان المختلفة، فأرسل إلى الشام الشيخ عبد الرحمن العقري الكردي، ثم أرسل الشيخ أحمد الخطيب الأربيلي الذي تلقى عنه كثيرون الطريقة النقشبندية، ومنهم مفتي دمشق الشيخ حسين المرادي^(١) الذي كتب إلى الشيخ خالد يشير عليه بقدوم دمشق فأنشراح صدره للرحلة إليها.

فلما أراد الرحيل إلى الشام سنة (١٢٣٨هـ - ١٨٢٠م)^(٢) أقام مقامه على سجادة الإرشاد الخلفاء في البلاد، ثم خرج من بغداد وأبقى أهله فيها، وتبعه الناس أفواجًا فودعهم، وصحبه كثير من العلماء والخلفاء والمريدين والشيخ عيسى الكردي^(٣).

(١) هذه الأسماء تجدونها في كتاب «الحدائق الوردية في تراجم النقشبندية».

(٢) قبل وفاته بأربع سنين.

(٣) كبير النقشبندية في عصره، فقيه شافعي، ولد ١٢٤٧هـ - ١٨٣١م، أخذ العلم عن شيوخ عصره أهمهم إبراهيم الباجوري، شيخ الأزهر، (ت ١٢٧٦)، وانتفع الناس بعلمه وعمله وعطائه، وتعلمذ عليه علماء دمشق الكبار؛ من تلاميذه: الشيخ عطا الكسم مفتي الشام، والشيخ أبو الخير الميداني رئيس رابطة العلماء، والشيخ إبراهيم الغلاييني، وأمين كفتارو، وأمين الزملكاني، من كلامه: عليك

وصل دمشق بموكبه الحافل في السنة المذكورة ١٨٢٠م، واستقبله كثير من أهلها بالإعزاز والترحيب، كان نزوله أولاً في الجامع المعلق فهرع لزيارته العلماء والأمراء والحكام، ثم نزل في خلوة بني الغزي بالجامع الأموي، وتزوج بعد ذلك منهم شقيقة الشيخ إسماعيل الغزي^(١) السيدة عائشة، ثم أحضر أهله من بغداد، ثم اشترى داراً فخمة بحي القنوات جعل قسمًا منها مسجدًا.

أقام^(٢) ينشر العلوم الشرعية، وأشاد دعائم الطريقة النقشبندية، وجعل يرشد السالكين ويربي المريدين، وصارت له منزلة عظيمة، ورحل إليه الأعلام من مختلف البلاد، وأرسل الرسل للأقطار حتى ذاع صيته وعم النواحي نفعه.

بالمحبة والصدق، والمواظبة، واتباع الشريعة المطهرة، والدأوم على ذكر الله في القلب من غير فتور في كل الأحوال، إنَّ المقصود من الذكر هو تذكُّر المذكور، ومن دون ذلك لا فائدة من ذكر اللسان والقلب، توفي في دمشق (١٣٣١هـ-١٩١٢م)، ودفن بجوار شيخه مولانا خالد النقشبندي، للشيخ أبي الخير الميداني صهره وتلميذه رسالة في ترجمته.

(١) ألف رسالة «حصول الأنس في انتقال حضرة مولانا إلى حضرة القدس» وآل الغزي مفتو الشام من زمن طويل.

(٢) في دمشق ٤ سنوات.

أحيا كثيرًا من مساجد دمشق بالأذكار^(١) حيث يصلي الجمعة، وفوض أمر تربية المريدين فيه لخليفته الشيخ إسماعيل الأناراني، والشيخ أحمد الخطيب - كما هو الحال أيضًا في جامع السويقة "النقشبندي" - بإقامة الذكر وختم الخواجكان (وهو ورد النقشبندية)، وأذن كذلك للشيخ عبد القادر الديملاني في جامع الصاحبة في الصاحية، وقرأ هو بنفسه صباحًا في مدرسة داره بالقنوات «شرح المنهاج» للرملي، جامعًا بين أقوال الخطيب والرملي وابن حجر، وكان معيد درسه الشيخ عمر الغزي، ثم الشيخ محمد الخاني.

كان له في كل بلدة خلفاء ومريدون، وخصوصًا في الآستانة التي اشتهر فيها اسمه وأقيمت له فيها تكايا وزوايا، ورحل بموكبه إلى القدس الشريف، فزار مدينة الخليل، ثم في سنة ١٢٤١ هـ حج البيت الحرام^(٢).

وقع له في دمشق شبه ما وقع له في بغداد^(٣)؛ ذلك أنه أرسل من أتباعه رجلًا يدعى عبد الوهاب السوسي لنشر الطريقة النقشبندية في الآستانة، فاعتقد به شيخ الإسلام

(١) مجلس صباح الجمعة، وورث هذا المجلس تلاميذه ومريدوه وخلفاؤه.

(٢) بقي جوالاً رغم مكثه في دمشق، وهذه الحجة كانت حجة الوداع له.

(٣) لم يسلم الشيخ من بعض المنافقين في دمشق أيضًا.

وجمهور العلماء والوزراء، فمالت نفسه إلى الدنيا والشهرة، ولما بلغ أمره الشيخ خالد أحضره واستتابه واستخلف غيره، فأظهر التوبة وأضمر المكر، ثم ما لبث الرجل أن أرسل إلى أتباعه في الآستانة مراسلات زائفة، فاطلع عليها الشيخ خالد وكتب عندئذ ثلاثة كتب إلى إخوانه هناك بحقيقته، ورحل عبد الوهاب إلى المدينة المنورة فاجتمع فيها بأشخاص لفقوا معه أقوالاً على الشيخ، وزعموا أنه يدعي رؤية الجن، وألفوا رسالة بتكفيره أرسلوها إلى دمشق مع أحد الأكراد العوام.

واطلع الشيخ على الرسالة فأمر بعبد الوهاب فشهر به في البلدة وعُزِّر، ثم أمر به فأدخل عليه ووعظه وعفا عنه وأكرمه، وعندها ألف تلميذه الشيخ محمد أمين عابدين رسالة يرد فيها على المفتريين سماها "سلّ الحسام الهندي لنصرة مولانا الشيخ خالد النقشبندي" ولكنَّ الشيخ خالدًا توفي قبل استكمالها.

وضع الشيخ خالد مؤلفات عديدة؛ منها:

- شرح لطيف على مقامات الحريري "لم يتم".

- فوائد الفوائد "باللغة الفارسية، وهو شرح على حديث جبريل، جمع فيه عقائد

الإسلام".

- رسالة العقد الجوهري في الفرق بين كسب الماتريدي والأشعري.

- شرح على أطواق الذهب^(١) للزنجشيري ت ٥٣٨ "مع ترجمة إلى الفارسية".
- رسالة في إثبات الرابطة.
- رسالة في آداب الذكر في الطريقة النقشبندية.
- رسالة في آداب المريد مع شيخه.
- شرح على العقائد العضدية.
- حاشية الخيالي "في علم الكلام".
- حاشية على «نهاية الرمي» "إلى باب الجمعة".
- حاشية على «جمع الفوائد» من كتب الحديث. وصفها الخاني بقوله: تكتب بهاء الذهب، قد جردتها بخطي فجاءت مجلدًا.
- جلاء الأكراد والسيوف البتار بالصلاة على النبي المختار "فيها أسماء أهل بدر".
- وفي الظاهرية دفتر كتبه التي أمر بوقفها بعد وفاته، يقع في ١٤ ورقة "رقم ٢٥٩".

(١) في المواعظ والخطب.

وجمع رسائله ابن أخيه الشيخ أسعد الصاحب في كتاب سماه "بغية الواجد في مكتوبات حضرة مولانا خالد".

ومن أشهر مواعظه قوله لأتباعه: "اعلموا أن أَحَبَّكُمْ إلي أَقَلُّكُمْ أتباعًا وعلاقةً بأهل الدنيا وأخفُّكم مؤونة وأشغَلُكم بالفقه والحديث، وقد ورد في بعض الأحاديث: (ما ازداد رجل من السلطان قربًا إلا ازداد من الله بعدًا، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلا اشتد حسابه) وحيثُ لم يبق وجه للميل إلى تكثير السواد بهؤلاء إلا الطمع وحب الشهوة والجاه وأخذ الدنيا بالدين، وجميع هذه النيات فسادها غني عن البيان. اهـ.

وذكر في «الحدائق الوردية» عدد كثير من كراماته.

وذكر البرهان إبراهيم فصيح البغدادي في "المجلد التالذ^(١)" أن محدث العراق النور علي السويدي البغدادي اختبر الشيخ خالد لما دخل بغداد بقلبه لثلاثين إسنادًا

(١) «المجلد التالذ في مناقب الشيخ خالد» كتاب يتناول حقيقة التصوف وبيان آداب الطريقة النقشبندية الخالدية وخلوها عن كل بدعة مع بيان أحوال الشيخ خالد.

لثلاثين حديثاً من الكتب الستة، فرد الشيخ خالد عليه بالقلب، وأملى عليه الأحاديث بأسانيدھا الأصلية، فأذعن المحدث المذكور.

وذكر تلميذهما الشهاب الألوسي في كتابه "نزهة الألباب" أن السويدي المذكور قال للشيخ خالد في ملاء عظيم: "بئس ما يفعله أكثر علماء الأكراد اليوم! لاشتغالهم بالعلوم الفلسفية وهجرهم لعلوم الدين كالتفسير والحديث عكس ما يفعله علماء العرب". فقال له الشيخ خالد: "كلا الفريقين طالبٌ بعلمه الدنيا الدنية، وطلبها — قال أرسطو أو قال أفلاطون خير من طلبها — قال الله وقال رسوله، فإن الدني يطلب بدنيّ مثله" فسكت السويدي.

صفاته:

كان رجلاً طويل القامة، ضخّم الرأس، أبيض اللون، أحمر الخدين، أسود الشعر والعينين، أقنى الأنف، مديد الحاجبين، طويل الذراعين، عريض ما بين المنكبين، كثير شعر الجسد، يلبس فاخر الثياب، ولا يدع الطيلسان والعصا، وكانت عليه هيبة

ووقار تخالطه رحمة، لا يظهر لأحد إلا لدرس أو ذكر أو عبادة أو عيادة أو لزائر من أهل العلم ولا سيما إن كان من المنسوبين؛ إذ كان يبالغ في تعظيم آل البيت.

كان علامةً عظيمًا، لقبَّوه بمجدد القرن الثالث عشر، وكان كريم النفس حميد الأخلاق، حلّو المفاكهة والمحاضرة، رقيق الحاشية طلق اللسان، لم يمالئ أحدًا ولم يتردد إلى حاكم، ولم تأخذه في الله لومة لائم، وكان إلى هذا ذا حافظة وذكاء وعبادة.

صبر على كيد أعدائه كما صبر على مصائب الدنيا، فقد توفي له في الطاعون سنة ١٢٤٢ هـ ولدان نجيبان في الخامسة والسادسة من عمريهما، بهاء الدين وعبد الرحمن، فاحتسبهما عند الله تعالى، وكان هو المسلي لمن جاء يعزيه^(١).

وكان وعدَ قبل ظهور الطاعون في شوال أن يزور القدس مع إخوانه، فلما ظهر الطاعون سأله إنجاز الوعد، فقال: ما نحن فيه من مصابرة الطاعون خير ثوابًا مما

(١) أخرج البخاري قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوُلْدِ كَانُوا حِجَابًا مِنَ النَّارِ»، قالت امرأة: واثنان؟ قال: «واثنان» (خ ٩٩-٤٧٨٦م) وقوله: «مَا مِنَ النَّاسِ مُسْلِمٌ يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوُلْدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحَنْثَ إِلَّا أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ» (خ ١٢٩٢).

ترغبون^(١). وقال: ما جئنا إلى الشام إلا لنموت في هذه الأرض المقدسة، وهذه الشهادة إن تَمَّتْ فهي السعادة الأبدية.

وبعد وفاة ولديه كأنما أحس بدنو أجله، فأحضر الشيخ إسماعيل الغزي شقيق حرمه، وأشهده أنه أقام خليفته من بعده على سجادة الإرشاد الشيخ إسماعيل الأناراني.

ثم جمع خلفاء وأعاد الوصية، وأمرهم باتباع السنة والتمسك بالطريقة والاتفاق والاتحاد.

وجمع أهله ليلة الأربعاء ١١ ذي القعدة ١٢٤٢هـ وأوصاهن واستبرأ ذمته من كل حق لهن عليه، وبقين معه حتى مضت ساعات من الليل، فقام وتوضأ وصلى ركعات ثم قال: "إني طُعنْتُ" الآن فلا يدخل علي أحد إلا مرة" ثم اضطجع على هيئة السنة ولم يسمع منه تأوه ولا توجع.

(١) سيّدنا النبي صَلَّى الله عليه وسلّم يقول: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونَ بِأَرْضٍ؛ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا؛ فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا» متفق عليه.

(٢) أصابه الطّاعون.

وجاء لزيارته مساء الثلاثاء الشيخ محمد أمين عابدين صاحب الحاشية المشهورة في الفقه الحنفي، فقال له: إني رأيت في المنام منذ ليلتين أن سيدنا عثمان ذا النورين رضي الله عنه ميت وأنا واقف أصلي عليه، فقال له: أنا من أولاده؛ يشير أن هذه الرؤيا تومئ إليه، ثم لما صلى المغرب أقبل على خلفائه وأشهدهم بثلاث ماله الله تعالى.

ولما كانت صبيحة الخميس دخل عليه الخلفاء وسلموا وأشار إليهم أن يقللوا من الكلام، وبقي كذلك حتى ليلة الجمعة ١٤ ذي القعدة ١٢٤٢هـ حين سمع مؤذن المغرب يقول: الله أكبر؛ ففتح عينيه وقال: الله حق، الله حق، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّاتٍ ﴿[الفجر: ٢٧ - ٣٠] ثم لحق بربه وعمره خمسون سنة سوى شهر ونصف.

حزن عليه الناس شديد الحزن، واضطرب خلفاؤه ومريدوه، واشتد عليهم أمره بعدما حملوه ليلتئذ إلى مدرسته، وذلك بمباشرة كل من الشيخ إسماعيل والشيخ محمد الناصح والشيخ عبد الفتاح والشيخ محمد الصالح؛ تنفيذًا لوصيته، وقرؤوا له القرآن الكريم والأذكار حتى مطلع الفجر، ثم خرجت جنازته حافلة إلى جامع يلبغا، وحضر الناس للصلاة عليه أفواجا فلم يسعهم المسجد، وأمهم الشيخ محمد أمين عابدين بناء على وصيته، ثم ساروا به إلى سفح قاسيون، فأعيدت الصلاة عليه

ودفنه هناك حيث كان أمر أن يحفر قبره وعيّن لهم محله ومحل قبور حرمه والخلفاء، وأمر أن يحوط عليها بجدار وصهريج ماء، وقال: أظنه سيبنى هنا تكية للفقراء! وأشهد أنه منذ سنتين وقف كل كتاب يخصه، ثم حرر الوقفية على ظهر «القاموس».

وبنى على قبره السلطان عبد الحميد بناءً جميلاً عليه قبة وبجواره مسجداً.

وكان من جملة وصيته ألا يبكي أحد عليه ولا يعدد شمائله، وأنه محتاج إلى صدقة وقراءة الفاتحة وسورة الإخلاص^(١).

كان الشيخ لطفی الفيومي رحمه الله يزوره كل اثنين من أوّل الشهر العربي، ويعمل ختمًا عنده وأذكارًا، وتابعه على ذلك بعد رحيله الشيخ نجاة يغمور إلى اليوم، جزاه الله خيرًا، وأوصى أنه من أحب أن يذبح ويقدم لروحه أضحية فليفعل، وأن

(١) الشيخ لطفی الفيومي رحمه الله يزوره كل اثنين من أوّل الشهر العربي، ويعمل ختمًا عنده وأذكارًا، وتابعه على ذلك بعد رحيله الشيخ نجاة يغمور إلى اليوم، جزاه الله خيرًا.

تقضى عنه جميع صلواته من بلوغه إلى يوم وفاته^(١)، وألا يبنى على ضريحه، ولا يكتب إلا: "هذا قبر الغريب خالد"^(٢). رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

المراجع:

- «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» عبد الرزاق البيطار (ج ١/ ص ١٢١٦).

- «الشيخ خالد النقشبندي العالم المجدد، حياته وأهم مؤلفاته»، لنزار أباطة.

- «الطُّرق الصُّوفيَّة» أحمد النقشبندي الخالدي.

- «الفلسفة الصُّوفيَّة في الإسلام» د. عبد القادر محمود.

- «أصفي الموارد في سلسال أحوال الإمام خالد» عثمان النَّجدي.

- «طبقات الأولياء» ابن الملقن.

- «جامع كرامات الأولياء» الشَّيخ يوسف النَّبْهاني.

(١) مذهبنا: «لا يصلينَّ أحد عن أحد» حديث شريف.

(٢) لأنَّه تنقَّل في البلاد، ولم يستقر ببلد، ومات خارج بلده.

الطريقة النقشبندية

لا بدّ لنا ما دام حديثنا عن شيوخ الطريقة النقشبندية من التعرّيج على هذه الطريقة، والحديث عنها ذو شقّين:

* أصلها وتاريخها وتأسيسها.

* أسلوبها وذكرها وتأثيرها في أتباعها في البلاد العربية والأجنبية وخصوصاً الأتراك.

فأولاً: الطريقة النقشبندية هي واحدة من أكبر الطوائف الصوفية، وتنسب إلى سيدنا محمد بهاء الدين الشاه نقشبند المتقدم ذكره، واشتق اسمها منه، ومن ثم عرفت به.

تنقل عنها مصادرها أنّها الطّريقة التي تتبع السلسلة الروحية المباشرة مع نبي الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من خلال سيدنا أبي بكر الصديق، وبذلك

تكون تلك الطريقة مرتبطة بطريق غير مباشر بسيدنا علي عن طريق سيدنا جعفر الصادق^(١).

تاريخها:

مرت النقشبندية بمراحل كثيرة عبر تطورها التاريخي، وثمة علاقات ربطتها بغيرها من الطرق الصوفية، وكذا التيارات الروحية التي انتشرت في البلاد الإسلامية، ومن الممكن أن نطلق على المرحلة الأولى في تاريخ النقشبندية مرحلة

(١) أهمية معرفة السلسلة (السند): لأجل صحّة الانتساب الدال على وراثته رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتصال الفيض، وتحقيق المدد في عباداتهم، والطريقة النقشبندية بحسب سلسلة الإسناد تمر بسيدنا أبي يزيد البسطامي، وهو عن الإمام جعفر الصادق، وهو عن جده قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وهو عن سلمان الفارسي، وهو عن سيدنا أبي بكر الصديق، عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه السلسلة هي شمس السلسلة الصديقية، وهي المشهورة بين مشايخ الطريق، وهناك سلسلة تسمى (سلسلة الذهب)، يمر فيها الشيخ أبو علي الروذباري، عن الإمام الجنيد، عن السري السقطي، عن معروف الكرخي، عن داود الطائي، عن علي الرضا، عن موسى الكاظم، عن جعفر الصادق، عن محمد الباقر، عن علي زين العابدين، عن سيدنا الحسين، عن سيدنا علي، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطرق أخرى، والطريقة النقشبندية يقرؤون هذه السلسلة في كل مجلس تبرّكاً بها، ثم يتوسّلون بهم، ويدعون.

النشأة والتطور (أو اليسوية والنقشبندية)، فثمة علاقة وثيقة بين الطريقتين ليس من حيث الطقوس والماراسم فحسب بل العقائد والأوراد والأذكار كذلك.

كانوا يقولون: على أصولها تنبت الأشجار، وأصل شجرة النقشبندية الطريقة اليسوية.

النقشبندية واليسوية:

يعد أول من أسس اليسوية الإمام أحمد يسوي المتوفى عام ١١٦٧م فقد نهج نهجًا صوفيًا ذاع بين الأتراك، وكان لطريقته الصوفية مكانة في نفوس الشعب التركي في الفترة المبكرة من دخولهم في دين الله.

ومن الكتاب من يقر بفضل الترك في ذبوع الطريقة اليسوية في البلاد؛ لأن الشيخ أحمد يسوي سعى سعيه لنشر الإسلام عن طريق الترويج لتعاليم طريقته الصوفية.

أثرت اليسوية تأثيرًا عميقًا في النقشبندية، وترجع صلة شيوخ النقشبندية بأحمد يسوي إلى مولانا الشيخ بهاء الدين نقشبند محمد البخاري، المعروف بـ"شاه نقشبند".

إذن صلة النقشبندية بطريقة اليسوية كانت عن طريق شيخها الذي اتصل بالإمام أحمد اليسوي، وتلمذ عليه، فلمّا مات انقرضت اليسوية، ولقبت بالنقشبندية نسبة

لشاه نقشبند، وبوسعنا أن نقول: إن اليسوية ظهرت في زي جديد، أو إنها اندمجت في النقشبندية^(١).

وبعدما أسندت النقشبندية إلى الشيخ بهاء الدين نقشبند ونسبت له واتسمت باسمه؛ حمل لواءها بعد أن حصل على العلم الصوفي على يد كبار شيوخ اليسوية، وراح ينشر تعاليم طريقته شرقاً وغرباً^(٢)، وساح الإمام بهاء الدين في البلاد لكي يروج لتعاليم طريقته، وتلك السياحة تعرف لدى الصوفية بالسياحة الروحية، وكثير من الطرق الصوفية الأخرى على علم بها.. وقد أجمع الباحثون على أنها طريقة غالية في سُنَّتها.. لا علاقة لها بأيّ فرقة من غير أهل السُّنَّة، ولقد حضرتُ دروسهم وواظبتُ عليها صيفاً من زمن الشَّيخ لطفي الفيومي، ثمَّ الشَّيخ منير الكسم، ثمَّ تولاهما الشَّيخ نجاة يغمور، فهم من أهل السُّنَّة اعتقاداً وعملاً.

(١) أو أنَّها امتداد لليسوية في حقيقة أمرها.

(٢) فلاحظوا أنَّ مولانا خالد النقشبندي وشيوخه قبله كانوا يحملون عددًا من ميراث الطُّرق الصُّوفيَّة، وليس فقط النَّقشبندية، وفي ترجمة مولانا خالد قلنا: هو خالد النَّقشبندي، المجددي، القادري، السَّهروردي، الكبروي، الجيشتي، وهنا أيضًا شاه نقشبند يحمل الميراث نفسه.

يورد محمد بن محمد الخاني^(١) نقلًا عن سيدنا محمد بهاء الدين نقشبند البخاري أنه قال:

"نمتُ ذات ليلة فرأيت خليل آتا قدس سره -وكان من أكابر مشايخ الترك- وهو يوصي بدرويش، فلما انتبهت ظلت صورة الدرويش في مخيلتي، وكان لي جدة صالحة وقصصت عليها الرؤيا فعبرتها بأن سيكون لك يا ولدي من مشايخ الترك نصيبٌ".

ثم نرى المؤلف في الرؤيا السابقة يذهب إلى أن بهاء الدين نقشبند تلقى الفيض وتعاليم التصوف على يد الشيخ خليل آتا أحد شيوخ الطريقة اليسوية المشاهير، ويورد لنا تلك القصة التي يرويها بهاء الدين نقشبند، إلا أن المؤرخ فؤاد كوبرولي يكمل لنا تلك القصة على لسان سيدنا بهاء الدين الذي يقول: "وذاث يوم حدث أن قابلتُ عن طريق المصادفة ذلك الدرويش الذي رأيت في منامي في أحد أسواق بخارى، ولكنني لم أستطع لقاءه فهرولت من فوري إلى مجلسه بكل شوق، وأردت أن أشرح له رؤيائي القديمة، فقصصتها عليه باللغة التركية وإذا هو يعلمها حق

(١) آل الخاني نقشبندية، والشيخ محمد بن عبد الله الخاني هو الجد الأكبر لهذه العائلة، وله كتاب «البهجة السنية في آداب الطريقة الخالدية».

العلم، وتصادف بعد ذلك أن نصب هذا الدرويش حاكمًا على بلد ما وراء النهر، وتلقب بلقب السلطان خليل، وعندئذ التقى بي فأظهر لي عطفه وشفقته، ولقنني آداب وسلوك طريقته بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى، وظللت على مقربة منه ستة أعوام ملازمًا له، وتقدمت في مدارج التصوف كثيرًا، وظللت أرقى بفيض التصوف وسلوك الطريق، ولزمت خدمة شيعي هذا من دون الناس حتى أصبحت صفيّه ونجيّه المؤمن على مكنون سره. وعندما رأيت ذلك عزفت نفسي عن الدنيا وزهدت في زينتها وزخرفها، ثم قدمت إلى بخارى واتخذت من أحد قراها مقامًا ومستقرًا لي.

فهذه القصة تؤكد صلة الإمام شاه نقشبند بهذه الطريقة ورجالها، وتلك الرؤيا التي رآها سيدنا بهاء الدين نقشبند عن الشيخ اليسوي خليل آتا، وكان شيخ اليسوية على عصر بهاء الدين، وتؤكد صلة بهاء الدين نقشبند بشيوخ اليسوية ودراويشها، وكذا القصص التي تروى في هذا الصدد تدلنا على صحة المعلومات التي ورد فيها أن الإمام بهاء الدين تربى على يديه وأخذ الفيض منه ثم نشر الطريقة التي لها الذيوع والانتشار من بعد.

وفي رأي آخر أن الطريقة النقشبندية ذاع صيتها منذ القرن الخامس حتى القرن التاسع للهجرة، وارتبط تاريخها بتاريخ الأسر التي حكمت التركستان آنذاك، ودام رواجها بين القبائل التركمانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد فيما وراء نهر الخزر^(١). كما جذبت النقشبندية عامة الشعب وأهل القرى بأعداد لا تحصى؛ لأنها لم تكن لتعرف التعصب، بل اتسمت بالتسامح، ولم تكن لتحصر على الزهد المطلق، بل إن من ينتسب إليها بوسعه أن يتعايش مع المجتمع ويمارس حياته الاجتماعية بلا قيود.

وعرفت هذه الطريقة بالجهاد ومحاربة البوذية، ثم تحول جهادها إلى محاربة الروس في منطقة وسط آسية، ومن ثم كان انتشارها عنصراً أساسياً في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، فقد ساعدت على التزام القيم، وحافظت على التقاليد والمثل القويمة، كما صانت التعاليم الإسلامية من الزيف والتشويه، وهذا بدوره أدى إلى انتشارها.

(١) من داغستان والشيشان وأذربيجان حيث انضم إليها عليّة القوم من المفكرين والتجار والقادة والشعراء.

إن من يمعن النظر في هذه الآراء يجد الأتراك لم يتعرفوا إلى الدين الإسلامي إلا عن طريق شيوخ المتصوفة الذين وفدوا من بلادهم نازحين من وسط آسية أو بلاد الفرس؛ بسبب غزوات المغول، ومن ثم نستطيع أن نقول: إن التصوف تغلغل في نفوس الترك وكان له أبلغ الأثر في تفكيرهم ونمط حياتهم منذ فجر إسلامهم حتى يومنا الحاضر، ومن يقرأ التاريخ العثماني يدرك هذه الحقيقة، فقد بُني بنيان الدولة العثمانية وأُقيم أساسها بل رفرت بيارقها فوق كثير من بقاع العالم إلى أن وصلت إلى أوروبا بفضل حملها لواء الإسلام وتصديها للدعوة، ولما كانت دعوتها للإسلام دعوة مقدسة كان سلاطينها يلجؤون إلى شيوخ التصوف لأخذ المشورة منهم وطلب المدد؛ لأن شيوخ الصوفية في تلك الحقبة المبكرة من تاريخ الدولة العثمانية كانوا يتمتعون بنفوذ معنوي قوي على هؤلاء السلاطين والأمراء من الأتراك، فلم يكن السلطان العثماني ليقدم على الحرب أو فتح بلد من البلدان دون أن يرجع إلى رجال التصوف وشيوخه، وسؤالهم فيما يخصه من شأن، وبالذات وقت الأزمات والحروب مع الأعداء^(١)؛ وذلك لمكانتهم الروحية في نفوس رجال الدولة، ولما كان اهتمام الترك

(١) حتَّى نقل المؤرخون أنَّ فاتح القسطنطينية الحقيقي هو العارف بالله آق شمس الدين بن حمزة، أستاذ السلطان محمد الفاتح، فهو الذي ربَّاه، وعندما أصبح أميراً؛ وجَّهه لفتح القسطنطينية وشارك معه

بالمُتصوفين اهتمامًا بالغًا حظي هؤلاء الشيوخ برعايتهم وحمايتهم؛ لكي ينالوا منهم
البركة والمدد.

المصادر:

«النَّقشبندية نشأتها وتطوُّرها لدى الترك» د. بديعة عبد العال، دار الثقافة والنشر.

ومع طلابه في الجيش العظيم الذي فتحها، وكان هذا الشَّيخ الصُّوفي أوَّل من خطب في مسجد آيا
صوفيا، وكان السُّلطان إذا دخل عليه يقوم له ولا يقوم لغيره، وكان هذا الشَّيخ لا يخاف في الله لومة
لائم، وكان عالمًا من علماء النَّبات، وله كتب، وبعد وفتح القسطنطينية عاد إلى قريته ومات فيها سنة
٨٦٣هـ.

أسلوب الطريقة

الملاحظ لدينا -من خلال اطلاعي على المصادر التي تناولتها- أنها طريقة صوفية تندمج كل حين مع طريقة أخرى مناظرة لها، وأما ما ورد من الذكر بالقلب أو باللسان وأحياناً يكون بصوت جهوري؛ فلا بد للمريد أن يتخطى مشاعره للوصول إلى الحقائق الإلهية؛ لأنها تعيق هذا الوصول، والسبيل الوحيد للنجاح في هذا الطريق يكون بمرحلتين:

الأولى: هو العبادة التي تبدأ بتنفيذ الأعمال والتكاليف بما يتناسب والشرعية الإسلامية.

الثانية: مرحلة الانغلاق على النفس، وفيها يعبر الإنسان عن ذاته بإحساسه العميق الذي يتحقق له بانغلاقه على ذاته وهذا يؤدي إلى إيقاظ الحب الخالص الذي يجعله يصل إلى الله تعالى.

مرحلة النقشبندية الخالدية:

دخلت النقشبندية مرحلتها الثالثة بحسب تطورها التاريخي، وتنسب النقشبندية في هذه المرحلة إلى مولانا خالد البغدادي، وقد تناولنا تفاصيل حياته سابقاً.

وتذكر المصادر التركية أن مولانا الشيخ خالد البغدادي يصل إلى سيدنا عثمان بن عفان نسبًا، وإلى الإمام جدي سيدنا علي بن أبي طالب حسبًا، ولابأس من عرض قضية في حياته كان لها التأثير الكبير في الطريقة النقشبندية:

ارتحل مولانا خالد البغدادي من العراق إلى الهند عام ١٢٢٥هـ، إبان الاحتلال الإنجليزي للهند، ولما قابل الإمام عبد الله الدهلوي شيخ الطريقة النقشبندية في الهند؛ أشرق شمس المعرفة في قلبه، وعرفت تلك المرحلة في تاريخ الطريقة النقشبندية بالنقشبندية الخالدية؛ نسبة له، وكان لها الازدهار حتى بلغت أوج تطورها.

هنا حالف الحظ الإمام البغدادي، فأرسي معالم الطريقة النقشبندية الخالدية بعدما أشرق العلم المعنوي في قلبه؛ وهو علم الصوفية الذي يتلقاه الصوفي عن طريق الإلهام بعد تصفية القلب مما سوى الله.. وأجاز له الامام عبد الله الدهلوي مشيخة الطريقة، وإقامة طقوس الطريقة النقشبندية الخالدية قائلاً له: "إن خالدًا النقشبندي لم يدانيه غيره من طلاب العلم الصوفي، ونحن بصدد إعلام الخلائق بهيئته الوجدانية، فإنما قدم إليه من الكردستان لإعلاء شأن النقشبندية الخالدية، فجعلته في صدارة علماء الدين، وقضى في خلوته عشرة شهور هجر فيها عادته

وحظوظ نفسه، فأهّلته ليروج لركن جديد للطريقة يعرف بالرابطة ولم يكن معروفاً، وسعى سعيًا حثيثاً إلى مداومة ذكر الله الذي زين فؤاده، وبفضل الله وبحمده أتم سلوك الطريق الروحي على يد كبار الشيوخ، ونال رعايتهم وقبولهم له، وعلا ذكره لديهم، وحالفه التوفيق، كما استطاع بعون الله أن يمحو وجوده ويفنى في الله ويبقى بالله بإصلاح لطائفه، فأصبح جسده مفعماً بمشاهدة الأنوار اللطيفة.

هذا ما حدث مع الإمام خالد النقشبندي، وكان قد قضى في خلوته عشرة أشهر في الذكر والترقي الروحي على يد كبار الشيوخ، ويشهد هنا الإمام عبد الله الدهلوي برقيه الروحي واجتيازه مراحل سلوكية معينة أهّلته لرئاسة النقشبندية في بلاد الشام. فثمة رباط مقدس يربط شيوخ النقشبندية في سائر الأنحاء؛ ألا وهو العلم الصوفي.

وهم لا يُصرّحون بحقيقة اتجاههم الديني؛ لئلا يتدخل في شؤونهم الآخرون، أو ينكروا عليهم حالهم وعقيدتهم.

كما أنهم متأثرون بفكر فلسفي نكاد نعدمه عند كثير من الطرق الصوفية، فهم يفسرون مراحل سلوكهم تفسيراً فلسفياً مقنعاً، والمدّش في ذلك أنهم يجدون

الآيات القرآنية التي تؤكد ما يذهبون إليه من رأي، ويقولون: إن الانغلاق^(١) على النفس (ترك مخالطة النفس) يحقق للمريد ثلاث مراحل في رُقِيَّه الروحي:

*ارتقاء في قلب المريد.

*معرفة النفس وإدراك حقيقتها.

*الوصول إلى الله تعالى^(٢).

(١) سيّدنا مكحول الدمشقي يقول: (إن كان في مخالطة النَّاس خير؛ فإنَّ في العزلة سلامة)، ومحمّد بن سيرين يقول: (العزلة عبادة)، العزلة في زمن الفتنة فضيلة، وسيّدنا عمر يقول: (إنَّ في العزلة راحة من أخلاط السُّوء)، ولماذا نبعد كثيرًا وعندنا في الأحاديث النَّبَوِيَّة منجاة وملتجأ؟!، وعند البيهقي: سأل رسول الله «أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ»؟ سألهَا ثلاثًا، فقالوا: من جاهد بحاله ونفسه، قال: «ثُمَّ مَنْ؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «مُؤْمِنٌ يَعْتَزِلُ فِي شَعْبٍ يَتَّقِي رَبَّهُ، وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»، وقال أبو الدرداء: نعم صومعة الرَّجل المسلم بيته، يكف فيه نفسه وبصره وفرجه، وفي كتاب «الرُّهْد» للبيهقي في فضائل العزلة: من لم يكن له غار يتعبد فيه لا يكون فتحه كاملاً.

(٢) فإن كان لا بدَّ لك من الجلوس مع النَّاس؛ فالخلوة هنا أن تكون مع القوم، فإن خاضوا في ذكر الله؛ فخص معهم، وإن خاضوا في غير ذلك؛ فأمسك، قال الإمام الفضيل: (طوبى لمن استوحش من النَّاس، وكان الله أنيسه، وبكى على خطيئته) «حلية الأولياء» (١٠٨/٨)؛ لأنَّه إذا خلا لم ير غير الله،

طريقة الذكر عند النقشبندية:

ثمة تأكيد على ما يعرف بالذكر الخفي في الطريقة النقشبندية^(١) والتركيز على أن يكون الذكر بالقلب الذي يتوضّع في القلب الصنوبري^(٢) وعنده ما يسمى بالورد الخفي بعد صلاة الفجر^(٣)، وسيمرّ الحديث عن الذكر القلبي، فلا تستبق الحوادث... ويقولون: إن اللائق بالمبتدئ الذكر الجهري، فإذا ما ترقى إلى المقامات العلا فلزامٌ عليه أن ينتقل منه إلى الذكر الخفي.

فإذا لم ير غير الله لم تجد له إلا خشية الله، داود الطائي قال: فرّ من النَّاس فرارك من الأسد. «الحلية» (٧ / ٣٤٥) الزم الوحدة تنجو، ما بقي في النَّاس خلة، اترك الأصحاب إلا صاحبًا يصحبك الله.

(١) وهو الذي اختاره الإمام شاه نقشبند ورجّحه على الجهري.

(٢) (القلب) مصطلح على اللّطيفة الرّبانيّة التي في القلب الجسماني الصنوبري الشّكل المودع في الصدر، فليس المقصود قطعة اللحم، بل المقصود تلك اللّطيفة الرّوحانية التي لا يعلم أحد بحقيقتها، وهي على هذا المعنى جزء من عالم الغيب، وهو المراد من أنّه إذا صلحت صلح الجسد كلّهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّهُ، صلاحه بصلاح معتقده وإرادته وقصده، وهو العقل والفقه والبصيرة والإرادة، وهو المخاطب والمطالب، فالقوة المدركة بالقلب الصنوبري تسمّى قلباً.

(٣) لأنّه وقت توزيع الأرزاق الحسيّة والمعنويّة.

نفهم من هذا أن الذكر القلبي أكثر قيمة لديهم؛ إذ يتجه القلب نحو المصدر الحقيقي في هذا الكون مرتقيًا إلى هذه المنزلة بوساطة الذكر والعبادة الخالصة لله تعالى، فالذكر هو الأساس الأول الذي سارت عليه النقشبندية رضي الله عنهم^(١). وحقبة الأمر أن كل من يطلع على المؤلفات الصوفية لأي طريقة كانت يلحظ هذا المنهج العلمي فيها؛ لأن العلم في نظر الصوفية ليس الذي يتلقاه المرء في المدرسة، بل هو إلهام رباني ومعرفة ذوقية يتلقاها السالك بعدما يرتقي بنفسه ويخلصها من أدرانها وتسمو روحه، وعندئذ تشرق في قلبه هذه المعرفة إلهاما ونورا من عند الله.

ولما عاد الإمام خالد النقشبندي من الهند بدأ يروج لركن جديد للطريقة يعرف بالرابطة ولم يكن شيئًا معروفًا في الطرق الصوفية التي انتشرت في المجتمعات الأعجمية في المملكة العثمانية؛ مما أثار ضجة هائلة في سائر البلاد^(٢). وتحققت الشهرة

(١) هو الطريق الأوّل للوصول إلى الله، وبه يصل إلى الولاية، يقال: الذكر منشور الولاية، فمن أوتي الذكر فقد أوتي المنشور.

(٢) كيف يستحضر الذكر صورة شيخه قبل الذكر؟ هذه القضية حديثة عهد في الذكر؛ لذا ضج الناس من الفكرة، ولكنهم فيما بعد سكنوا إليها وقبلوها.

للخالدية وأصبح أساس طريقتهم ما يعرف بالرابطة، وتعني: ربط قلوبهم بالله وتعلقها به، فهم يولون وجوههم إلى الله تجاه القبلة أينما كانوا، ويقرؤون سورة الإخلاص والشرح أولاً ثم يبدؤون ذكر الله بالقلب؛ أي: بلا صوت ولا كلام؛ لأنهم يرجّحون الذكر القلبي على الذكر الجهري، ويذهبون إلى أنهم بهذا الذكر يتولد النور في قلوبهم، فهي منصرفة إلى ذكر الله على الدوام، ولا يسبحون إلا بذكر اسم الذات من أعماق قلوبهم.

ثم يتلون ما تيسر من آي الذكر الحكيم، وينشدون بعض الإلهيات؛ وهي نمط من الشعر الديني يناجون فيه المولى عز وجل، يؤديه منشدوهم بأداء يهز القلوب ويحرك المشاعر ويقع في النفس موقعاً حسناً، غير عازفين بأي من آلات الطرب، ويوصي شيوخهم المريدين بصحبة العلماء والصالحين، ويستحبون ارتداء ملابسهم التقليدية التي أصبحت عُرفاً لديهم.

أما عن المصادر فتقول: إن مولانا الشيخ خالداً جاء بنهج جديد للنقشبندية، فلقد نشر روح الزهد والتقوى بفضل طريقته، فقلَّتْ أحداث السرقة والنهب والقتل، وساد الهدوء والأمان في المنطقة الكردية في العراق^(١)...

كانت المنطقة الكردية يهددها قطاع الطرق، وكثيراً ما تعرضت لأعمال السلب والنهب، وبعد أن انخرط الأكراد في سلك النقشبندية لوحظ هدوء عجيب في أحداث السلب والسرقة، وخَفَّتْ حدة الجرائم في مناطقهم، ويذهب المؤرخون إلى أن هذا الذكر الذي يعرف لديهم بالرابطة له أثره العميق في تهدئة الأعصاب وقتل نوازع الشر والعدوان في النفس البشرية، ويرون أنه ما من شيخ من شيوخهم اهتم بتطبيق الرابطة إلا وارتفع شأنه وذاع صيته ودامت المشيخة في أسرته تتوارثها جيلاً بعد جيل، وأتباعهم من شيوخ الأكراد والترك، والغاية من الأدعية إنما هي ترويض المريد على تبعية الشيخ والاستسلام له بكل ما يملك من مال وجاه وروح بكامل الرضا والإخلاص.

(١) ذلك أن الله يحفظ بالولي تلك الجهات التي فيها؛ لكونهم محالَّ نظره تعالى، ولأنَّهم يستغفرون لهم، حتَّى قال النَّبَّهاني في كتاب «نشر المحاسن الغالية»: لا يكون الشَّيْخ شيخاً حتَّى يمحو خطيئة تلميذه من اللُّوح المحفوظ.

وهذا له أساسه الصحيح، فقد اختفت الجرائم بتأثير الإمام خالد البغدادي وطريقته النقشبندية الخالدية بسبب الطاعة المطلقة التي أظهرتها جماهير النقشبندية له ولخلفائه، ومن هنا يؤكد المؤرخون أن هذا يرجع إلى تركيزهم على نمط خاص لهم من الذكر يعرف بـ "رابطة الشيخ".

كان الشيخ عنده فراسة صادقة يكشف بها ماذا يفعل المريد كيف كشف سيدنا عثمان التَّابعي عند دخوله المسجد؟! هكذا... ينظر بنور الله، وهذا مستمد من حديث البخاري: «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»، فأنكشاف الحجب للأولياء أخبر عنه النَّبي الكريم، وبالرابطة يستمدُّ من مدد شيخه ليقوى على الذكر كالمتوسل به إلى الله تعالى، ثمَّ تحصل له غيبة في الذكر، فيترك صورة شيخه ويستغرق في المذكور، فهم يستحضرون أوَّل الذكر صورة شيخهم، وأنَّه يراقبهم كيف يذكرون، فإذا استغرقوا في الذكر؛ نسوا شيخهم وبقوا على ذكر الله تعالى.

وكذلك عندما كنت أحضر عند سيدنا الشيخ لطفي الفيومي شيخ الطريقة كان أثناء الورد يردد كل حين (رابطة شريفة) ويقصد بها ربط المريد بأشياخ الطريقة ولذلك كانوا في نهاية الجلسة يقرؤون سند الطريقة ورجالها..

وبعض الطرق النقشبندية يذكرون الرابطة الشريفة أول الذكر، فإذا بدأ استغراقهم بالذكر تركوا رابطة الشيخ..

الدور السياسي للطريقة:

كان للنقشبندية دورها السياسي الذي تجلّى في مساندتها للدولة العثمانية ضد الثورات التي كانت تندلع على أراضيها بين الفينة والفينة^(١)، فثمة تلميحات في مصادر شتى تشير إلى دور مناطق نفوذها الأخرى في رفعة شأن العقيدة الإسلامية. وهذا ما ألفتناه بالفعل في نشاط النقشبندية في الدفاع عن المذهب السُّنيّ والحدّ من المدّ الشيعي الإيراني (غير السُّنيّ) إبّان حكم الدولة العثمانية التي طالما صانت المذهب السُّنيّ وبذلت ما في وسعها من جهد لتحجيم النشاط غير السُّنيّ.

وكان للنقشبندية دور في إخماد الحركة الوهابية التي تمثل الفكر السلفي زوراً وبهتاناً، وقد استغلت الدولة العثمانية التنافر الديني بين الفريقين أيما استغلال، وحرصت مولانا خالداً البغدادي ضد الوهابيين.

(١) وعرفت بمحاربة البوذية، ثمّ تحوّل جهادها إلى محاربة الروس في وسط آسية.

ومما يدل على شيوع الطريقة في الأراضي العثمانية في أواخر عهدها وجود خمس وستين تكية نقشبندية في إستانبول وحدها، ويسجل المؤلفون من الترك أنَّ الطريقة النقشبندية خدمت الثقافة التركية وسجلت في تراثها الأدبي المعارف والموروثات الشعبية التركية، وأنَّ تركية من أكبر الطرق الصوفية من حيث عدد المنتسبين.

مراتب النفس عند النقشبندية

النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو لِنَفْسِهِ دَائِمًا: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي لَأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، فَإِنَّهُ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ».

ويستمر النقشبندية في ذكرهم ومجاهداتهم حتى ينتقلوا من مرتبة إلى مرتبة أعلى، ومراتب النفس سبع مراتب في عقيدتهم؛ كما هو عند الشاذلية، وعلماء التصوف يقولون: هي ملكة واحدة في الإنسان، ولكن بحسب صفاتها هي متعددة^(١) بحسب تأثرها بالمجاهدات، ترتيب وضع الملكات الثلاث: العقل، القلب، الشهوة، إذا تفكرت بالشهوة؛ مالت إلى القسم السفلي، وإذا تفكرت بالعلوم والمعارف؛ مالت إلى القسم العلوي، وهي:

١ - النفس الأمارة:

ذكرها الله تعالى في القرآن بقوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وانتبهوا إلى قوله: ﴿أَمَّارَةٌ﴾، فهي صيغة مبالغة تدل على أنها نفس تأمر وتأمّر وتأمّر،

(١) انتبهوا هي ملكة واحدة في الإنسان (النفس والروح والقلب والعقل) كلّها واحدة، سميها بحسب متعلقاتها: (النفس) إن تعلقت بالشهوات، و(الروح) بالملا الأعلى، و(القلب) بالروحانيات، و(العقل) بالمعارف.

وتستمر بالأمر بالسوء، والسبب هو تلوثها بالشهوات، حتى صارت معجونة بالأمر بالسوء.

تلك نفس مذمومة، تأمر بكل سوء، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق من الله^(١).

(١) في الحديث عند الترمذي والنسائي: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةَ بَابِنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ؛ فإِعَادُ بالشرِّ وتَكْذِيبُ بالحقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ؛ فإِعَادُ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ اللَّهِ، وَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَ؛ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ...﴾ [البقرة: ٢٦٨]، مثل النفس الأمارة بالسوء مثل الحصان الذي لم يروض، دائماً يحاول أن يلقي بصاحبه من على ظهره، ولا يريد للفارس أن يركب على ظهره، يسقطه مرتين وثلاث وأربع... لكن لو يئس الفارس وقال: هذا لا فائدة منه وتركه؛ هل يترّوض الحصان؟ لا، لكن إن أصرَّ الفارس مرّة بعد مرّة، فإلى ماذا يتحول هذا الإصرار؟، وإلى ماذا يتحول ذاك الرّفْض من الحصان؟ إلى تقبّل وتقبّل وتقبّل، إلى الدّرجة التي يصبح فيها الحصان يفهم الكلمة من صاحبه: انطلق، فيجري بسرعة، ما السبب...؟ رَوْضَ نَفْسِكَ هَكَذَا، أثقل عليها بشيء من الطّاعات بتدرج، عندها تبدأ النّفس بتدوُّق الطّاعة والتّلذّذ بها، فتقبلها وتنقل من الأمارّة بالسوء إلى رتبة أخرى... قيام اللّيل ثقيل وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦] فابدأ بركعتين، حتّى إذا تعودت منك هذا وتلذّذت به؛ تضمّ إليها ركعتين...، وهكذا تروّض النّفس بالذكّر والفكر والتّدبر.

ومن صفاتها:

أنها تميل إلى الشهوات، وترغب في اللذات، وتجذب القلب للأسفل، وهي منبع للشر والأخلاق الذميمة؛ كمثل الحقد والحرص والحسد والغضب والبخل. لا يؤثر فيها الخطاب، ولا تنقاد إلى الصَّواب، أو هي أنفس المتكبرين والمشرّكين والحاسدين وأهل العقوق والكبائر.

٢- النفس اللوامة:

ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، وهي نفس لا تثبت على حال واحدة من التلوم؛ وهو التردد، فهي كثيرة التقلب والتلون، فتذكر وتغفل، تقبل وتعرض، تحب وتبغض، تفرح وتحزن، وتتقي وتفجر^(١)، صاحبها متشوش الفكر، مضطرب لا يستقر على حال، يريد أن يعرف الخير، ولكنه لا يهتدي إليه بسهولة، يتعثر، ولكنه يصحو ويفيق، يندم كثيرًا ويتوب كثيرًا.

(١) فلا ترى المؤمن إلا يلوم نفسه دائمًا: لم فعلت ذلك؟ كان غير هذا أولى... يلوم عند التقصير، ويحاسب عند الإخلال بالتكاليف، فهذه مرحلة من مراحل الإيمان تلوم فيها النفس صاحبها على تقصيره في طاعة الله، وهذه المرحلة تحتاج إلى السَّوق بالإثقال عليها، والتَّشويق إلى الله، أسمعها صوت القرآن، أسمعها صوت منشد؛ تحرك فيها همّة ترعّبها بالصّالحين والخروج معهم.

لقد تنورت بنور القلب، فهي أحياناً تقترب المعاصي، ثم تندم وتلوم، وهي منبع الندامة؛ لأنها منبع الهوى وتتصف بالحرص.

٣- النفس المطمئنة:

ذكرها الله في القرآن بقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧].
والطُّمَأْنِينَةُ إلى الله سبحانه، وترد منه على قلب العبد فتجمعه عليه، وتردّ قلبه الشَّارد إليه حتّى كأنّه جالس بين يديه، فتسري تلك الطُّمَأْنِينَةُ في نفسه وقلبه وقواه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

النَّفْسُ المطمئنة بلغت مرتبة الرُّؤية، ترى الحقَّ حقًّا والباطل باطلاً، إن رأى حفرة حاد عنها، وإن رأى طريقاً معبداً سار فيه، فالسَّلامة ناتجة من صحَّة الرُّؤية، ومن الحرص على السَّلامة، هكذا أعطاك الله هذه النَّفْسَ تحبُّ الكمال ومعالي الأمور، وعليك أن تردّها إلى الله كذلك.

لا تفرع عند الملمات، ولا تصخب في المصائب، ولا تغالي في الفرح والبهجة.
سكون يثمر السَّكِينَةَ والأمن، وثبات للقلب عند هجوم المخاوف عليه، تكره الشرَّ ولا تحبه، وتسعى للخير.

في حديث أحمد: قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ احْتِضَارِ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ تَقُولُ: اخْرُجِي أَيْتَهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأُبَشِّرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟! فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيَقُولُونَ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأُبَشِّرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ».

وفي رواية: قال الصَّدِّيق: ما أحسن هذا يا رسول الله!، فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ»، وأخطر شيء على صاحب النَّفْسِ هذه أن يصيبه الإعجاب بنفسه، وأنه أصبح من الصَّالِحِينَ الْأَكْبَارِ، فإذا تهافت الأنوار على صاحبها يصل إلى مرحلة لا يستطيع تحملها، فتثقل عليه العبادات، فلا يتحملها، فالمطلوب من صاحبها أن يبدأ بالاستزادة من الخُلُقِ الْحَسَنِ حَتَّى تَرَسَخَ قَدَمُهُ فِي طَرِيقِ الصَّلَاحِ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كُلُّفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا».

عندئذ تراها تخلت عن صفاتها الذميمة ووصلت إلى الكمالات، انتقل صاحبها من التلوين إلى التمكين، يخاطب الناس عن بعد لتعلقه بالحق تعالى.

٤ - النفس الملهمة:

الإلهام: إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر، يخصُّ الله به بعض أصفائه، وهذه النفس بين لها ربُّها ما ينبغي لها أن تأتي أو تذر؛ من خير أو شر، أو طاعة أو معصية: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨] أي: علَّمها الطَّاعة والمعصية، وأنَّ أحدهما حسن والآخر قبيح، وممكنها من اختيار ما تشاء.

فالنَّفس هنا قابلة للفجور وقابلة للتَّقوى، فالله بين لها الفجور ونهاها عنه، وبين لها التَّقوى وأمرها به، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] أي: من الفجور، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠] بالفجور.

هذه النَّفس عرفت الصَّواب من الخطأ، لكنَّها خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً، صاحبها تارة يقوم بعمل الخير، وتارة يقوم بعمل الشرِّ، فهو بين حسنة وسيئة، ولكن عليه أن يحذر من مخالطة أهل السُّوء؛ لأنَّهم يمكن أن يضلُّوه.

فالنفس الملهمة ألهمها الله تعالى العلم والتواضع والقناعة والسخاء، وهي منبع الصبر والتحمل والشكر.

٥ - النفس الراضية:

رضيت عن الله وتحقق فيها قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩] وشأنها في هذا: التسليم والتلذذ بالخير، ترضى عن الله بالقليل من الرزق، ولا تسخط على ما قدره الله لها، وهذا غاية في الشرف.

استقرَّ فيها النور، وأخذت تترقى في شعب الإيمان، وتكتسب الصفات العلوية، تعمل إرضاءً لله، وتفعل الخيرات تقرباً إلى الله، فتلك سيرضيها الله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ [الفجر: ٢٨].

٦ - النفس المرضية:

رضي الله تعالى عنها ويبدو فيها أثر رضاه، ويظهر فيها تجلي الأفعال، وهي منبع الكرامة والإخلاص والذكر.. ويقال: إن السالك في هذه المرتبة يخطو الخطوة الأولى في معرفة الله تعالى.

تتنقل النفس من عالم المحب إلى عالم المحبوب، وتتوارد عليها لطائف من الله سبحانه: محبة، عشق، شوق، فيتذوق أنوار التوحيد، وتشرق عليه الفتوحات الربانية، والفيوضات الوهبية، أرضاها الله بعد أن سعت في رضاه، وأرادها لما أَرادته سبحانه، وتظهر بواد المعرفة على صاحبها.

٧- النفس الكاملة:

صارت لها الكمالات طبعاً وسجية، وما زالت ترتقي في الكمال وتؤمر بالرجوع إلى العباد لإرشادهم وتكميلهم، مقامها مقام تجليات الأسماء والصفات، وحالها البقاء بالله، تسير بالله إلى الله، وترجع من الله إلى الله، ليس لها من مأوى سواه تستقي علومها منه تعالى.

كملت حقيقتها واستقرت فيها أنوار القرب من الله، وعرفت الله حق المعرفة، وذلت له، وخضعت لعظمته، وخشعت لجلاله، والتجأت إلى جنابه، وسجدت لكبريائه وعزته، فصاحب هذه النفس هو العارف بالله، وهنا ترقيات لا نهاية لها: ترقى إلى الكرسي، ثم إلى العرش، ثم إلى اللوح، ثم إلى القلم، وحينئذ يصل إلى درجة العلم بالله، ويصبح من الصّديقين الأكابر...، يعني: الكمال مقيد^(١)، فالكمال المطلق لله تعالى.

(١) ومعناه هنا: التّناهي في جميع الفضائل وخصال البرّ والتقوى. «شرح مسلم» للنّووي (١٥/١٩٨)، ولا شك أن أكمل نوع للإنسان الأنبياء، ثمّ الأولياء والصّديقون، والشّهداء والصّالحون.

وفي الحديث الشريف المتفق عليه: «كَمُلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ»، وفي رواية: «كَمُلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعُ: آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ».

من كلام الإمام الهاشمي -وكان سيِّدنا الشَّاعوري رحمه الله يقرؤها لنا- يقول:

إِنَّ النَّفْسَ سَبْعَةٌ مَنْظَّمَةٌ أَمَّارَةٌ لَوَّامَةٌ وَمُلْهِمَةٌ

وَذَاتُ الْإِطْمِئْنَانِ بِاللَّهِ وَلَهُ رَاضِيَةٌ مَرْضِيَّةٌ وَكَامِلَةٌ

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير من زكَّاها.

(رابطه الشيخ) عند النقشبندية

هذه المسألة تاه فيها من لم يطلع على قيمتها عند السادة النقشبندية رضي الله عنهم، وأفصل القول فيها لأهميتها عندهم:

الرابطه: رَبطُ القلب بالشيخ، مع حفظ صورته في الخيال ولو عند غيبته، أو بعد وفاته.

حكم الرابطه:

هذه الرابطه مما تلقيناه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالسند المتصل الذي في السلسله النقشبندية الشريفة، ومع ذلك لها أدلة وشواهد من الشرع والسير، منها:

قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥)، وحققة الرابطه: توسل وتقرّب إلى الله.

قول سيدنا رسول الله في قول الله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: قال: «يُذكر الله بذكرهم»^(١).

(١) الطبراني.

قوله صَلَّى الله عليه وسلّم: «إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لَذِكْرِ اللَّهِ، إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ^(١)».

استقبال الكعبة في الصلاة، والسماء في الدعاء..

وفي بعض الأخبار: "النَّظَرُ فِي وَجْهِ الْعَالَمِ عِبَادَةٌ، وَنَفْسُهُ تَسْبِيحٌ"^(٢).

قال سيدنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم: «خمس من العبادة: النظر إلى

المصحف، والنظر إلى الكعبة، والنظر إلى الوالدين، والنظر في زمزم - وهي تحط

الخطايا- ، والنظر في وجه العالم"^(٣).

وقال: «النظر إلى عليٍّ عِبَادَةٌ»^(٤)، يعني: سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي

الله عنه.

قال الشيخ أمين الكردي: قال العارفون: (كن مع الله، فإن لم تستطع فكن مع مَنْ

كان مع الله).

(١) الطبراني، صححه ابن حبان، وقال السيوطي: حسن.

(٢) الديلمي.

(٣) الدارقطني، قال السيوطي: صحيح.

(٤) الطبراني، قال السيوطي: صحيح.

وقالوا: (الفناء في الشيخ مُقدِّمة الفناء في الله) اهـ

هذه أدلتهم.

صفة الرابطة:

وصفة الرابطة: ما ذكره الشيخُ ماء العَيْنَيْن: "أنَّه ينبغي للمُريد قَبْلَ هذه الشروط كلها والآداب، ومعها: أن يتصوَّر صورة شيخه في ذهنه، ويجعله في جميع ذلك نصبَ عينيه، وسُلماً لِقُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ عَنْ بَيْنَةٍ؛ لأنَّه إذا استمدَّ بِقَلْبِهِ -عند شُرُوعِهِ في الذِّكْرِ- هِمَّةَ شيخه؛ نالَه المَدَدُ على قَدَرِ الاستمداد، ونُصِرَ به على جميع الأجناد؛ إذ قلبُ شيخه يُحاذي قلبَ شيخِ الشَّيْخِ إلى... الحضرة النبويَّة، وقلبُ النبيِّ دائم التَّوجُّه إلى الحضرة الإلهيَّة.

فالذَّاكِرُ إذا تَصَوَّرَ شيخه في بداية الذكر فقط (فقط) واستمدَّ منه؛ فاضت الأمدادُ مِنَ الحضرة الإلهيَّة إلى قلبِ سيِّدِ المرسلين، وَمِنْ قلبِ سيِّدِ المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام أجمعين إلى قلوب المشايخ على التَّرتيب، حتى تنتهي إلى شيخه، وَمِنْ قلبِ شيخه إلى قلبه، بأسرع من لحظِ طَرْفِهِ، فيقوى بذلك على استعمال الآلة؛ إذ هو في البداية على مثال الطُّفْلِ: ليس له قُوَّة على استعمال الآلة بالوجه الذي يُؤثِّر ويَقَع مُحَصِّلاً للغرض..

فإذا استمدَّ مِنْ شَيْخِهِ جَاءَهُ الْمَدَدُ لَا مَحَالَةَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُم فِي الدِّينِ

فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢]

ثُمَّ يَرَى أَنَّ اسْتِمْدَادَهُ مِنْ شَيْخِهِ هُوَ اسْتِمْدَادٌ مِنْ نَبِيِّهِ؛ لِأَنَّهُ نَائِبُهُ "اهـ

وقال محمد البغدادي:

"الرَّابِطَةُ: هِيَ طَرِيقٌ مُسْتَقِلٌّ لِلْوَصُولِ، عِبَارَةٌ عَنْ رِبْطِ الْقَلْبِ بِالشَّيْخِ الْوَاصِلِ إِلَى مَقَامِ الْمُشَاهَدَةِ، الْمُتَحَقِّقِ بِالصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ، وَحِفْظِ صَوْرَتِهِ فِي الْخِيَالِ وَلَوْ بَغِيْبَتِهِ؛ فَرُؤَيْتُهُ بِمُقْتَضَى الَّذِينَ: «إِذَا رَأَوْا ذِكْرَ اللَّهِ» تَحْصِلُ بِهَا الْفَائِدَةُ؛ كَمَا تَحْصِلُ بِهَا الْفَائِدَةُ مِنَ الذِّكْرِ بِمُوجِبِ: «هَمْ جُلَسَاءُ اللَّهِ تَعَالَى».

وَلَا يَخْفَى مَا وَرَدَ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي الْحَثِّ عَلَى الْجُلُوسِ الصَّالِحِ. وَالشَّيْخُ كَالْمِيزَابِ: يَنْزِلُ الْفَيْضُ مِنْ بَحْرِهِ الْمَحِيطِ إِلَى قَلْبِ الْمُرِيدِ الْمُرَابِطِ.

وَإِنْ وَجَدَ الْفُتُورَ فِي الرَّابِطَةِ؛ يَحْفَظُ صَوْرَةَ شَيْخِهِ فِي خِيَالِهِ، بِمُوجِبِ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»؛ فَبِحِفْظِ الصَّوْرَةِ يَتَحَقَّقُ وَيَتَّصِفُ الْمُرِيدُ بِأَوْصَافِ الشَّيْخِ وَأَحْوَالِهِ الَّتِي لَهُ، وَكَمَا قِيلَ: (الْفَنَاءُ فِي الشَّيْخِ مُقَدِّمَةُ الْفَنَاءِ فِي اللَّهِ) "اهـ.

صور الرابطة:

وللرابطة صُورٌ يُراعى فيها استعدادُ المريد، فالنَّقْشِيَّةُ في مجلس ذكرهم يقول لهم الشَّيْخ: رابطة شريفة، فيقوم كل مريد بحسب استعداده الذي وصل إليه، فيتفكَّر بإحدى صور ثلاث:

الأولى: مرحلة الاستمداد من قلب الشَّيْخ:

أن يَتَصَوَّرَ المريدُ صورةَ شيخه بين عينيه، ثم يُقَابِلَ قلبه بقلبه ولو في غيبته، مع ملاحظة أن قلب الشيخ كالميزاب: يَصُبُّ الفيضَ والبركةَ إلى قلب المريد. فإن حَصَلَ له حالٌ غَيْبِيٌّ، أو أثرُ جَذْبَةٍ؛ ترك الرابطة واشتغل بالأمر الحاصل؛ أي: بالذكر، وكلما زال عنه ذلك الحال عادَ إلى الرابطة..

الثانية: مرحلة الاستمداد من قلب سيِّدنا مُحَمَّد:

أن يَتَصَوَّرَ المريدُ صورةَ شيخه بين عينيه، ثم يُقَابِلَ قلبه بقلبه ولو في غيبته، مع ملاحظة الفيض المنبعث من السماء إلى قلب سيِّدنا محمد رسول الله، ومنه إلى قلب الشيخ، ومنه يصبُّ في قلب المريد. فإن حَصَلَ له حالٌ غَيْبِيٌّ، أو أثرُ جَذْبَةٍ؛ ترك

الرابطَة واشتغل بالأمر الحاصل؛ أي: بالذكر، وكلما زال عنه ذلك الحال عادَ إلى الرابطَة، كما قدمنا.

الثالثة: مرحلة الاستمداد من روح شيخه تلاقي الأرواح في الوصول إلى الله تعالى:

أن يتصوّر المریدُ صورةَ شيخه بين عينيه، ثم يتوجّه إلى روحانيّته في تلك الصورة، وما يزال متوجّهاً إليها حتى يحصلَ له حالٌ غيبيّ، أو أثرٌ جذبيّ، فبعد حصول أحد الأمرين يترك الرابطَة ويشتغلُ بالأمر الحاصل بالغيبَة أو الجذبَة؛ أي: بالذكر، وكلما زال عنه ذلك الحال عادَ إلى الرابطَة الشريفة، حتى يفنى عن ذاته وصفاته في صورة الشيخ، فعند ذلك يُشاهد روحانيّة الشيخ مع كمالاته في صورة نفسه؛ لأن الكمالات لا تفارق الروحانيّة، فتربّيهِ روحانيّة الشيخ بعد ذلك إلى أن توصّله إلى الله، ولو كان أحدهما في المشرق والآخر في المغرب..

فنحن نلاحظ أن استحضار الشيخ يكون في بداية الذكر فقط كالمتموِّسل به إلى الله تعالى؛ ليصل إلى رضا مولاه عزَّ وجلَّ، فإذا أخذ في الذكر نسي صورة شيخه لاستغراقه بذكر الله عزَّ وجلَّ.

خاتمة: في صورةٍ من صور الاستمداد الرُّوحي، مذكورة في خبر حنظلة، قال:
"لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حَنْظَلَةُ؟ قلت: نافَقَ حنْظَلَةُ! قال: سبحان الله! ما
تقول؟! قلتُ: نكون عند رسول الله يُذَكِّرنا بالجنَّة والنار كأنا رأيَ عينٍ، فإذا خرجنا
من عند رسول الله عافسنا الأزواج والأولادَ والضيَّعات، نسينا كثيرًا"^(١) اهـ.

هذا مبدأ اتصال المريد بشيخه كاتصال الصحابة الكرام بالنبي في زمنه.. صلى الله
عليه وسلم.

المصادر:

*[صحيفة الشرق الأوسط]: النقشبندية.. طريقة صوفية تلبس عباءة السياسة
(بالعربية). (٤ يونيو ٢٠١٠)

*النقشبندية نشأتها وتطورها لدى الترك، الدكتورة بديعة عبد العال.

(١) صحيح مسلم [مسلم].

شيخ الطريقة النقشبندية

الشيخ عيسى الكردي

هو الشيخ أبو شمس الدين عيسى بن طلحة بن عمر بن عاشور بن حسن الكردي، الدياربكري، الدمشقي، الفقيه الشافعي.

مولده وحياته:

ولد الشيخ عيسى الكردي سنة ١٢٤٧ هـ، الموافقة ١٨٣١ م، في قرية "ترحم" في ديار بكر من شمال سورية، ولما بلغ العاشرة من العمر رحل في طلب العلم إلى نواحي ديار بكر، ثم سافر إلى الحجاز للحج، وزار مصر واجتمع بعلمائها من أمثال الشيخ إبراهيم بن محمد الباجوري شيخ الأزهر (توفي ١٢٧٦ هـ - ١٨٥٩ م)، ونزل دمشق ومكث في قبة الشيخ خالد النقشبندي، ثم رجع إلى بلاده فأخذ العلم عن بعض المشايخ، ومن أشهرهم الشيخ قاسم الهادي الذي أجازته في اثني عشر علمًا، وأخذ الطريق عن الشيخ حسن النوراني واختلى عنده، ولما مات خلفه مدرسًا في مدرسته في بلدة آقبة سنة ١٢٨٣ هـ، وذلك بناءً على رغبة الشيخ قاسم.

وفي سنة ١٢٨٤ هـ أجازته الشيخ عبد الله البيداري في الإرشاد، لكنه فيما بعد لحق بالشيخ قاسم وأتم السلوك عنده وأجازته أيضًا.

وفي سنة ١٢٨٨ هـ انتقل إلى بلاد بشيري من نواحي الأكراد مرشدًا صوفيًا.

وبعد انتهاء الحرب العثمانية الروسية سنة ١٢٩٤ هـ؛ رحل بأهله مهاجرًا إلى بلاد الشام، ومنها إلى مكة حاجًا سنة ١٢٩٥ هـ، ثم عاد إلى دمشق واستقرَّ فيها، وصاحب علماءها من أهل الطبقة العالية؛ كالشيخ محمد بن مصطفى الطنطاوي (توفي ١٣٠٦ هـ) والشيخ أحمد مسلّم الكُزبري (توفي ١٢٩٩ هـ) والشيخ محمود بن محمد نسيب حمزة الحمزاوي (توفي ١٣٠٠ هـ) والشيخ سليم بن ياسين بن حامد العطار (توفي ١٣٠٧ هـ) والأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري (توفي ١٣٠٠ هـ) والشيخ بكر بن حامد العقاد (توفي ١٣٢٠ هـ) والشيخ سليم بن خليل المسوتي (توفي ١٣٢٤ هـ).

صفاته:

كان الشيخ عيسى طويل القامة، واسع العينين كثَّ اللحية، حادَّ الذهن، حاضر الجواب، قوي الحافظة، شديد المهابة، كريم الخلق، متواضعًا، كثير البكاء، دائم المراقبة، رحيماً بأهله ومريديه، زاهدًا منكرًا على مخالفي الشرع، وقافًا عند حدوده، ملازمًا للسنن الشريفة في كل أمور حياته، ويأمر أتباعه بها، وكان له قدم راسخة في الفقه الشافعي، يستظهر معظم مسائله، كثير المطالعة، متبحرًا في علم التوحيد

والتصوف، وكان يقيم كل يوم جمعة مجلساً لقراءة الختم يجتمع عليه أكثر من خمسة آلاف شخص.

ومع أنَّ الشيخ عيسى كان راسخ القدم في الفقه الشافعي، مستحضراً لمعظم مسائله؛ كان مطّلعاً في الوقت نفسه على فقه سائر المذاهب لا سيّما الفقه الحنفي، وقد تفرّغ للتركية، وقاد نهضة إصلاحية من خلال خدمته للطريقة النقشبندية.

تلامذته:

وتكاثر مريدوه حتى بلغوا الآلاف، وكانوا يتوافدون عليه من نواحي دمشق وأريافها، وقد برع منهم كثير؛ مثل: الشيخ عطا الكسم (١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م- ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م) الذي أصبح مفتياً عاماً للجمهورية السورية، والشيخ محمد أبو الخير الميداني (١٨٧٥هـ/ ١٢٩١م- ١٩٦١هـ/ ١٣٨٠م) الذي أصبح رئيساً لرابطة العلماء، وزوجه الشيخ عيسى ابنته فاطمة الملقبة بعين الحياة، والشيخ إبراهيم الغلاييني (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م- ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م) الذي قاد نهضة إصلاحية كبيرة في ريف دمشق والبقاع اللبناني، والشيخ محمد أمين كفتارو (١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م- ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م) الذي أسس حركة الدعوة في جامع أبي النور كما ستحدّث عنه بعد قليل، والشيخ أمين الكردي الأيوبي الزملكاني

(١٢٧٠هـ/١٨٥٣م-١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) الذي تولى مشيخة الطريقة النقشبندية من بعد الشيخ عيسى، والشيخ أحمد بهاء الدين الحسيني شقيق العلامة الشيخ بدر الدين الحسيني شيخ الشام ومحدثها، والشيخ صادق الشمعة، والشيخ مصطفى الحلو، والشيخ صالح كفتارو، والشيخ بكري الحمصي الحافظ، والشيخ سليم نطفجي، والشيخ محمد حسن الكردي، وهو ابن الشيخ عيسى، والشيخ عبد الله الكزبري، والشيخ محمد النحاس، والشيخ أحمد عبد الحفيظ، والشيخ طالب المسطول، والشيخ عبد الرحمن بن يونس الجزماقي، والشيخ إبراهيم سلامة.

إجازاته:

كانت أول إجازة للشيخ عيسى الكردي من الشيخ عبد الله البيداري الخالدي النقشبندي سنة ١٢٨٤ هـ لإرشاد المسلمين، وتعليمهم أحكام الدين القويم، وآداب الطريقة العلية النقشبندية.

وله أيضاً عدة إجازات في الطريقة النقشبندية عن طريق مولانا خالد وغيره، ففي سنة ١٢٨٨ هـ أجازته الشيخ قاسم الهادي الذي أخذ الإجازة من الشيخ حسن الآقبي المعروف بالنوراني، الذي أخذ الإجازة من الشيخ صالح السبيكي، الذي أخذ الإجازة من الشيخ خالد الجزيري، الذي أخذ الإجازة من الشيخ إبراهيم، الذي

أخذ الإجازة من مولانا خالد بإجازته المشهورة. وللشيخ خالد الجزيري إجازة مباشرة أيضًا من مولانا خالد كما رأينا أعلاه.

وللشيخ عيسى إجازة أيضًا من الشيخ الشاعر الملا محمد الفرسافي الملقب بالخرين، الذي أخذ الإجازة من الشيخ عثمان الطويل [١٧٢] الذي أخذ الإجازة من مولانا خالد البغدادي، وهذه أعلى الإجازات إلى مولانا خالد رضي الله عنه.

وله إجازة أيضًا من الشيخ محمد الفرسافي بإجازته عن الشيخ صالح السيبي بإجازته المذكورة أعلاه.

وأجازه أيضًا السيد سعيد (بن صالح) النهري عن عمه عبيد الله النهري [١٧٣] عن عمه السيد صالح الجيلاني الحكاري، عن أخيه السيد طه الجيلاني [١٧٤] الحكاري (أو الهكاري) [١٧٥] عن مولانا خالد البغدادي.

فهذه إجازاته في الطريقة النقشبندية عن طريق مولانا خالد، وله أيضًا إجازة من فضل القدير عن فضل القدوس عن الفضل شاه أحمد عن شاه محمد علي محمد بارسا [١٧٦] عن الشيخ بهاء الدين محمد شاه نقشبند.

من أقواله وأحواله:

كان الشيخ عيسى كثير الاستغفار، وكان كثيرًا ما يدعو بدعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم يا مقلب القلوب والأبصار؛ ثبت قلبي على دينك».

وكان يقول إذا بلغه أن أحداً أظهر له العداوة: «سَلَّمته إلى الله».

وكان وعظه مؤثراً يكثر فيه الشوق والبكاء، وكان يقتصر في وعظه على آية أو حديث، وكان يحب شعر سلطان العاشقين ابن الفارض.

وكان رضي الله عنه يحب أن يباكر المعدة بالطعام، ويقول: إِنَّ لُقْمَةَ الصَّبَاحِ مَسْمارَ البدن، وكان يحب العسل والتمر والحليب.

وكان يقول: «عليك بالمحبة والصدق والمواظبة، واتباع الشريعة المطهرة، والدوام على ذكر الله في القلب من غير فتور في كلِّ الأحوال».

وكان يقول: «إن المقصود من الذكر هو تذكُّر المذكور، وبدون ذلك لا فائدة بذكر اللسان والقلب».

وينقل الشيخ أبو الخير الميداني عن الشيخ محمد النحاس -وهو من تلاميذ الشيخ عيسى- يقول: «سمعت أن الشيخ يريد السفر إلى بيروت ومعه الشيخ محمد أمين

الملكاني، فصار عندي هيام للذهاب، فرأيت في تلك الليلة الشيخ في المنام فقال لي: أريد الذهاب معنا إلى بيروت؟ فقلت: نعم يا سيدي، فقال: تعال غداً إلى التكية. فانتبعت مسروراً وتوجهت إلى التكية، فقال لي: نحن ذاهبون إلى بيروت، أتحب أن ترافقنا؟ فقلت: نعم، والله هذا الكلام وجدته في نومي. وسألني الشيخ: هل عندك نفقة إلى عيالك؟ وليس عندي شيء، فقلت له: ييسر الله. وذهبت إلى سوق النحاس، فوجدت رسالة جاءتني من مصر وفيها ليرتا ذهب إنكليزي، فحمدت الله وقلت: هذه سريرة الشيخ».

وينقل عنه الشيخ محمد أمين الملكاني أنه كان يقول: «لا تغتروا بالكشف والأنوار؛ فإنَّ العبرة بالاتباع والاستقامة على الشريعة». ويقول: «لا تغتروا بكثرة المريدين وكثرة الشهرة؛ فإنَّ الشهرة آفة إلا من عصم الله». ويقول: «خافوا أن يشار إليكم بالأصابع، وعليكم بالتواضع، فإنَّ من تواضع لله رفعه، ولا ترغبوا بالجلوس في صدر المجلس». ويقول: «كلما كانت أحوال المريد مستورة فهو أحسن له، خصوصاً في هذا الزمان؛ لأنَّه قلَّ فيه من يفهم هذه الأحوال أو يصدِّقه». ويقول: «اجعل نفسك كالتراب حتى يطأك الخلق فتصير تراباً تعلقو على الرؤوس».

وينقل سماحة الشيخ أحمد كفتارو أنَّه سمع شيخه ووالده الشيخ محمد أمين كفتارو يقول: «دخلت على شيخنا الشيخ عيسى الكردي رحمه الله ورضي عنه فوجدته يبكي، فجلست أنتظر التفاتته إلي. فلما سكن ما كان فيه سألته عن سبب بكائه؟ فقال: "أبكي على أنني ما عرفت ضعف إيماني حتى اليوم". فقلت له: يا مولانا نحن ما عرفنا حقيقة الإيمان إلا بصحبتك؟ فقال لي: "هو ما سمعت"، فقلت له: ومن أين عرفت ذلك؟ فقال: "تصدقت اليوم بصدقة، فلم أبرح من مكاني حتى ردّها الله عليّ عشرة أضعاف". ثم غلبه البكاء فبكى. فقلت له: ثم ماذا؟! فقال: "يا ولدي وهل بعد هذا ضعف في الإيمان؟! لو علم الله فيّ قوة الإيمان ما عجّل لي الثواب بهذه الصورة».

وكذلك ينقل سماحة الشيخ أحمد في درسه بتاريخ ٢٢ / ٥ / ١٩٨٠، قال: «كان عمي الشيخ صالح قد بدأ سلوكه على الشيخ عيسى الكردي، وأتم سلوكه على الشيخ أمين الزملكاني، فكان مرة يعبر سوق الحميدية، فرأى فرّاءً وبيده فروة نادرة، فاشتهاها أن تكون لشيخه، فسأل الفرّاء عن ثمنها فقال: بعشر ليرات ذهب، وكانت العشر ليرات في ذلك الوقت تكفي للزواج على أتمّ وجه. ولم يكن يملك غير ثلاث عشرة ليرة، فاشترها وبقي معه ثلاث ليرات. وحملها إلى الشيخ أمين الزملكاني. فقال له: "ما هذا يا ولدي؟" فقال: "سيدي، فروة رأيته في السوق فاشتيتها لك".

فلبسها الشيخ فأعجبته وقال له: "ولكنَّ الفروة لا تلبس بلا وجه قماش". فذهب الشيخ صالح من فوره إلى السوق واشترى قماشاً للفروة، ودفع ثمنه ثلاث ليرات ذهبية، وعاد لا يملك لا أحمر ولا أبيض. قال: فكان يحكي لنا أنه لما عاد إلى (بيلا) وكان خطيباً فيها؛ لم يستقرَّ به المجلس حتى دخل عليه أحد إخوانه وكان من وجهاء البلدة، واسمه (عطا الضبع) فقبل يده ووضع صرَّةً بين يديه، وقال: "هذا كل ما أملك"، وكان في الصرة ألف ليرة عثمانية. فقال له الشيخ صالح: "وما الذي تريد أن تصنع به؟" فقال: "هو هدية لك، تجعله حيث شئت"، فأبى الشيخ صالح أخذها، وأصرَّ صاحبنا على ذلك. ولم يزالا يتراجعان حتى انتهوا إلى أن أخذ الشيخ صالح منها مئة ليرة وأعاد إليه الباقي".

وفاته رحمه الله:

توفي الشيخ عيسى الكردي النقشبندي في دمشق يوم الأربعاء في السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ١٣٣١هـ، الموافقة ١٩١٢م، وهي السنة نفسها التي ولد فيها شيخنا سماحة الشيخ أحمد كفتارو، ودفن رحمه الله في المقبرة المجاورة لضريح مولانا خالد النقشبندي.

كان في حين مرضه يقول: سبحان الله! إني لا أتمنى بأكل ولا شرب، حتى إني أتألم من جلوسي ومشبي، ومع ذلك أودُّ الحياة. وفي مرض موته قال: ادعوا الله أن يرافقني بالإيمان، وكان في أول مرضه هذا كثير الاضطراب، ثم رأى بعض الأشياء فسكن اضطرابه، فعلم تلاميذه أن موته متحقق عنده، وقيل موته بساعات شاع خبر وفاته، فتسارع الناس إلى الصالحية، فلما عرفوا أنه حيُّ رجع أكثرهم وأخبروا من كان في الطريق، وبقي بعضهم وفيهم كبار خلفائه، ومات رحمه الله في مساء ذلك اليوم.

خلف رحمه الله سبعة أولاد؛ أربعة ذكور هم: محمد صالح وعبد الله شمس الدين، ومحمد علي، ومحمد حسن، وثلاث بنات هنّ: آسية وحنيفة وفاطمة.

وألّف رسالة في جواز تعدد الجمعة وعدم إعادة الظهر بعدها، وفي انعقادها بأقل من أربعين، وطبق ذلك على نفسه. وقد كتب عنه الشيخ تلميذه وصهره محمد أبو الخير الميداني (توفي ١٩٦١م) رسالة قصيرة في سيرته ما تزال مخطوطة في المكتبة الآجرية بدمشق، وقد أرسل لنا شيخنا فضيلة الشيخ رمضان ديب نسخة عنها، وهي رسالة شريفة سرد فيها الشيخ أبو الخير الميداني سيرة الشيخ عيسى وأحواله وأقواله وذكر بعض تلاميذه وشيوخه وإجازاته.

قدّس الله سرّه العزيز.

الشيخ محمد أمين الكردي الزملكاني

هو الشيخ محمد أمين الكردي الأيوبي الوراق الزملكاني؛ نسبة إلى بلدة زملكا في غوطة دمشق.

مولده وحياته:

ولد الشيخ محمد أمين سنة ١٢٧٠ هـ، الموافقة ١٨٥٢ م في زملكا، وقد عمل مع والده في الزراعة، وكان يحضر مجالس علماء دمشق، ثم اتصل بالشيخ عيسى الكردي فخدمه خدمة صادقة، حتى أوصى له بمتابعة مسيرته مع أنه كان أميًا، ولكنه كان من أشهر تلاميذ الشيخ عيسى إخلاصًا وأكثرهم قربًا منه. وكان له دور في مقارعة الانتداب الفرنسي على سورية من خلال حث الناس على الجهاد ضد الاحتلال.

كانت له همة عالية في العبادة، كثير الرياضة والمجاهدة والخلوات، متمكنًا من الأحوال، عظيم القدر، عالي الشأن، انقطع في بيته بزملكا أكثر من عشر سنين لم يكن يخرج فيها إلا للصلاة الجمعة، وكان محبوبًا عند شيخه يشهد له بعقله وهيمته ويشاوره، ويعمل برأيه في أكثر الأحيان، وصحبه في بعض أسفاره إلى الحج وإلى بيروت وغيرها.

اختلى الشيخ محمد أمين عند شيخه أربعين يوماً لم يأكل فيها إلا اليسير، وكان ورده في الخلوة كل يوم أكثر من مئة ألف. وكان تلامذة الشيخ عيسى يتسابقون إليه عند صلاة الفجر في حي الأكراد في منطقة ركن الدين في جبل قاسيون، فكان الشيخ محمد أمين يصل أوّل الناس حتى في أوقات الشتاء والثلج. فيقول الشيخ أبو الخير الميداني -الذي كان زميله عند الشيخ عيسى-: إنه مرة كان الثلج كثيفاً حتى قطع الطرق، فقرر أنه سيسبقه ويكون عند شيخه قبل الشيخ محمد أمين، ولكنه لما وصل فوجئ به أنه قد سبقه! فقد كانت له همة عالية في العبادة والمجاهدة والذكر، ولكنه كان يفضل للمريد ستر أحواله حتى لا يغترّ بنفسه.

تلامذته:

ومن الشيوخ الذين أخذوا عنه العالم الصالح الورع يحيى بن محيي الدين بن صالح بن أحمد بن رجب الصباغ (١٢٩٦ هـ - ١٣٨١ هـ)، والشيخ القارئ المرشد محمد بن سليم شخاشيرو (١٣١٧ هـ - ١٣٩١ هـ)، والشيخ المجاهد الكبير محمد بن طه بن محمد الأشمر (١٨٩٢ م - ١٩٦٠ م)، وهو أحد أبطال الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ م، وشارك في الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦، والشيخ محمد أمين كفتارو الآتي ذكره.

من أقواله ونقوله عن شيخه:

- كان الشيخ محمد أمين ينقل عن شيخه قوله: «اجعل نفسك كالتراب حتى يطأك الخلق فتصير غبارًا يعلو على الرؤوس».

- وكان رضي الله عنه يقول: «كنت أرى بعض الأحوال فأعرضها على الشيخ فيقول لي: "لا تغتر يا ولد بهذه الخيالات"؛ حتى لا يحصل العُجب».

- وينقل عن شيخه قوله: «الذي لا يرى عندي أحسن من الذي يرى، فإنه مكسور القلب دائمًا، والذي يرى يُخاف عليه من العُجب، فالعُجب خرب بيوتًا كثيرة».

- وينقل عن شيخه أيضًا: «كلما كانت أحوال المرید مستورة كان أحسن له، خصوصًا في هذا الزمان؛ لأنه من يفهم هذه الأحوال أو يصدقها؟!»
وفاته رحمه الله:

توفي رحمه الله في السابع عشر من شهر محرم سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م ودفن في مقبرة مولانا خالد النقشبندی. [١٧٧]

وكتب على قبره رحمه الله:

زر قبر بدرٍ سار في فلكِ البقا وعليه أنوار الشهادة لائحة
واستنشق الأرواح منه تلقها من جنة الفردوس فيه فائحة
وإذا مررت عليه بالتاريخ يو مَّا زائرًا فاقراً عليه الفاتحة

ويروي سماحة الشيخ أحمد كفتارو في أحد دروسه بتاريخ ٢١/١٠/١٩٨٣م،
فيقول: «لم يكن الشيخ أمين الزملكاني عالماً بحسب مصطلح الفقهاء، ولكن لما مات
الشيخ عيسى الكردي خلفَ عشرين خليفة كانوا من كبار العلماء فالأولياء، فكانوا
يجلسون بين يدي الشيخ أمين الزملكاني كالتلاميذ، وهم العلماء وهو الأُمِّي!».

رضي الله عنه.

العارف بالله الشيخ محمد عثمان سراج الدين الثاني النقشبندي رحمه الله

عاش رحمه الله تعالى مئة سنة ونيف، لم تخل لحظة منها إلا وجعلها الله مرشدًا
ناصحًا معلمًا، ذاكرًا الله تعالى أو مذكرًا به، جزاه الله عنا خير جزاء.

قام ببناء دار سكنية كبيرة مع مسجد كبير في ضواحي إسطنبول، ثم وافاه الأجل
هناك فجر يوم الخميس الحادي والعشرين من رمضان سنة سبع عشرة وأربع مئة
وألف هجرية الموافق الثلاثين من كانون الثاني سنة (١٩٩٧ ميلادية) ودفن جثمانه
الطاهر في الزاوية النقشبندية في إسطنبول.

العلامة العارف بالله الولي الأكبر الشيخ

محمد أبو الخير الميداني

شيخ الطريقة النفشبندية

رئيس رابط العلماء

كتبها: فضيلة الشيخ حسين صعبية

تغمده الله برحمته وأسكنه فراديس الجنان، وأغدق عليه شآبيب الرضوان، فقد انتقل إلى جوار ربه الكريم راضياً مرضياً، مأسوفاً على أخلاقه الغر، وسجاياه الزهر، إثر مرضٍ لم يمهلُهُ إلا أياماً قلائل، كنا فيها بين اليأس والرجاء، والشدة والرخاء، لا ينعم لنا بال، ولا يقر لنا حال، حتى وافاه الأجل الذي لا يتقدم ولا يتأخر.

أجل، لقد وقع ما نحاذر، ودنا منا ما نباعد، فلو رأيت النفوس وقد زلزلت زلزالها؛ لرأيت حزناً عظيماً ومصاباً أليماً ورزءاً جسيماً، تفيض له العبرات، وتتصاعد له الزفرات، فإننا لله وإننا إليه راجعون.

تاريخ وفاته والصلاة عليه:

كانت وفاته رحمه الله في داره في حي العقبية، ليلة السابع عشر من رمضان ١٣٨٠هـ الموافق ٤ آذار ١٩٦١م. وصلى عليه في جامع بني أمية الكبير، وحضر الصلاة عليه جميع علماء دمشق، وكثير من علماء المحافظات السورية. وحضر كثير من علماء الأقطار المجاورة. وصلى عليه إماماً الشيخ محمود الرنكوسي.

نسبه ومولده ونشأته:

هو المغفور له العلامة الأشهر والمحدث الأكبر، حنفي زمانه، وخالدي أوانه، البَحَّاثَةُ النادر الأستاذ الأكبر - الشيخ محمد بن محمد بن حسين بن بكري الميداني، المكنى بأبي الخير (وكلُّه خير).

ولد رحمه الله سنة ١٨٧٥ ميلادية في الميدان، وكان أول دراسته في مدرسة الرشدية. ثم في مدرسة عنبر. وكان دائماً يحوز السبق الأول، ويتفوق على أقرانه بالأولى. ثم لما أنهى دراسته وأخذ الشهادات العالية ذهب إلى إستنبول إلى المدرسة الحربية، ولكن لأمر يريده الله تعالى رجع إلى دمشق لإتمام أوراقه، وفي ذلك الحين طلبت المرحومة والدته أن يذهب إلى المرحوم الشيخ سليم المسوتي؛ ليسأله عن مسألة حصلت لها في بيتها، فلما جاء وسأل الشيخ عن المسألة؛ تفرّس الشيخ فيه الصلاح

والذكاء والانتباه، فسأله أن يدرس العلوم الشرعية، فقال: إن أمي لن ترضى بذلك، فذهب الشيخ سليم وكلم أمه في ذلك. ثم لازم الشيخ المسوتي حتى قال له: لم يبق عندي شيء إلا صار في صدرك.

شيوخه الذين أخذ عنهم:

أدرك الشيخ رحمه الله نخبةً ممتازة من الأعلام الجهابذة، ممن سار ذكرهم، وطارت شهرتهم وطبقت الآفاق. أذكر منهم من كان للمغفور له عناية خاصة بالانتساب إليهم؛ تيمناً بذكرهم وتبركاً بالحديث عنهم، وهم:

الأول: المغفور له الإمام الجليل والزاهد الكبير والصوفي العظيم شيخ الأولياء المأذون له بالكلام، الشيخ سليم المسوتي، مدرس جامع التوبة رحمه الله، وكان بركة العلماء في دمشق من غير منازع، حتى إن شيوخه يأتون إليه للتبرك به.

الثاني: العلامة المحقق الفقيه الكبير، وشيخ الطريقة النقشبية، المرشد الكامل، والعالم الزاهد، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، المرحوم الشيخ عيسى الكردي، الذي أخذ عنه العلم والطريق، ثم خلفه وأجازه، وزوجه ابنته لحبه له.

الثالث: الحافظ الجامع الفنان العلامة شيخ القراء بلا منازع المرحوم الشيخ محمد القطب.

الرابع: الأستاذ الجليل ترجمان الأولياء، الأصولي، النحوي، الصوفي، الرياضي،
المرحوم الشيخ أمين سويد.

الخامس: العلامة ذو الشهرة الواسعة والزهد العظيم، ذو التصانيف العديدة
المفيدة، المحقق المدقق، من كان على قدم الصحابة في لباسه ومطعمه ومشربه وزهده
وإقباله على الله تعالى، المحبوب من جميع طبقات الناس، المرحوم الشيخ عبد الحكيم
الأفغاني شارح «البداية» و«الكنز» وغيرهما.

رحم الله الجميع رحمة واسعة وجزاهم خير الجزاء.

وكان المرحوم يتمثل عند ذكرهم بقول الفرزدق:

أولئك آبائي فجنني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجمع

شمائله رضي الله تعالى عنه:

كان رحمه الله مثاليًا في علمه وأعماله وأخلاقه وتواضعه وأدبه، وكان خلقه القرآن
الكريم، وشمائله السنة المطهرة، وكان في جميع أعماله وأقواله وتصرفاته مرشدًا مربيًا
ومعلمًا، ولقد كان كثير ممن أحبوه ولازموه يتعلمون السنة من أعماله وأفعاله، ما رآه
أحد مرة إلا ذكر الله تعالى، وما اجتمع به إنسان إلا انتفع من علمه وفضله، فلم يكن
يخلو مجلسه أبدًا من تعليم وإرشاد ونصح.

وكان مهذبًا، وقورًا، ورعًا، متواضعًا، لا يرى نفسه أهلاً لشيء ما، كريماً كريماً حاتماً، فإنه خرج عن مكتبته التي كانت أعز الأشياء عليه مرتين؛ زهداً في الدنيا، ومأثرة للطلاب على نفسه، ما طلب منه شيء فردّه أبداً إن كان لديه، ولم يمنع أحداً من الدخول عليه، لا في ليل ولا في نهار، حتى في أوقات راحته، وكان يغضب حينما يقال له: جاء فلان فسأل عنك فقلنا: إنه نائم ورجع، فيقول: لا لست نائماً، لم لا تعلموني بذلك؟ لعل له حاجة، ويقول: (إن الله خلقني للناس لا لنفسي) ما رآه أحد إلا هابه، ولم يصاحبه أحد إلا أحبه، كان رحيماً بالناس، صواماً، قواماً، زاهداً فيما في أيدي الناس، مقبلاً على العلم والتعليم والإرشاد والنصح لكل مسلم، بل للناس جميعاً، كان بكاءً من خشية الله تعالى، وكان لا يغضب إلا لله تعالى، أو لفوات درس من الدروس.

أمّا برّه بوالديه فكان عجباً، وأمّا برّه بمشايخه فكان العجب العجيب، حتى إنه كان يخدم كل من يتنمي إلى مشايخه ويقول: (أنا عبدٌ مملوك لهم).

وأما رحمته بطلابه فكان أرفّ بهم من آبائهم وأمهاتهم؛ إذ كان يتفقد جميع أحوالهم، ويساعد المحتاج منهم، ويعود مرضاهم، وكان يقدم لهم الهدايا في المناسبات؛ كالزواج والحج والولادة.

ولسنا نستملي صفاته إلا من أعماله، ولا أعماله إلا من شعاع حياته، ولا حياته إلا من تاريخه الصادق، وإذا كانت عظمة الرجال تقاس بما خلدوا من مآثر نافعة، وما قدموا من جهود مشكورة، ومساعٍ مذكورة، وما بذلوا لدينهم ووطنهم وأمتهم من جليل الأعمال، ومجيد الأفعال، التي تمتد بها أيامهم، وتطول بها حياتهم، ويذكرها الناس جيلاً بعد جيل، وقيلاً إثر قبيل؛ فإن الشيخ رحمه الله ضرب من ذلك بالسهم الأوفر، والحظ الأكبر، فلقد ظلّ طوال حياته كلها يعمل من أجل هذه الغاية السامية النبيلة حتى لقي ربه، وقضى نحبّه في محراب العلم ومجالس الذكر، مأجوراً مشكوراً من الله والناس، مذكوراً بالخير من تلامذته وإخوانه والناس أجمعين.

وأما وفاءه لأقاربه وأرحامه وأصحابه ومعارفه فكان نادر المثال.

حياته العلمية:

هو البحر الخضم الذي لا يدرك ساحله، والميدان الفسيح الذي لا يُعرف أوله من آخره، والروض الأنيق الذي تتفتح أزهاره، وتغرد أطيّاره، فتسحر العقول، وتملك القلوب والنفوس، وتأخذ بالألباب.

تعلق قلبُ الشيخ رحمه الله بطلب العلم حتى شَغفه حبّاً، وحبس نفسه على الطلب فكان مثلاً يُحتذى، ووقف جُهدَه على التحصيل، ووَهَبَ قلبه للعلم ابتغاء

مرضاة الله تعالى، لا يشغله شاغل، ولا يصدّه صادّ عما هو بسبيله، وله في ذلك حوادث وذكريات، فيها عبر وعظات.

وكان لا يحضر درسًا إلا طالعه قبل الحضور مطالعة تامة، ووقف على دقائقه، وأحاط بغوامض مسائله، فإذا ما شرع شيخه في تقرير الدرس على الطلاب أصغى إليه إصغاءً تامًّا؛ ليرى هل يتفق فهمه لتلك المسائل وفهم أستاذه؟ وفي الأعم الأغلب كان يتفق فهمه وفهم أستاذه في تلك المسائل المعروفة بدقتها وصعوبتها، خصوصًا حين قراءته «الهداية» على أستاذه الشيخ عبد الحكيم الأفغاني.

ولقد أجازته أساتذته كلهم ظاهرًا وباطنًا، في المعقول والمنقول.

وكان رحمه الله يستيقظ قبل الفجر بساعة ونصف على الأقل فيصلي النوافل، ومنها صلاة التسابيح، وبعد ذلك يمكث مستقبلًا القبلة يستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر، فيصلي الفجر ثم يقرأ الأوراد المعهودة، وبعدها يقرأ جزءًا من القرآن الكريم، ثم يبدأ بإلقاء الدروس، فيقرأ درسًا عامًّا في جامع التوبة يستمر إلى ما بعد طلوع الشمس فيصلي الضحى، ثم يقرأ دروسًا خاصة بالطلاب في علوم الحديث والتفسير والأصول والفقه والمنطق، مع جميع تفرعات العلوم العربية وآدابها ومعاجمها ك«المزهر» علاوة على علم التصوف والأخلاق والسيرة النبوية والتاريخ والجغرافية.

ويستمر في إلقاء الدروس إلى قبيل الظهر، وبعدها يذهب إلى بيته، وله بعد الظهر درس، وبعد العصر درس، وبعد العشاء درس.

وكان مشهودًا له بحسن إلقاء الدروس، وبأسلوبه الفذ في تعليم الطلاب وتفهمهم، وكان يتقن اللغة التركية، والفارسية، والكردية، والفرنسية، ويلم إلمامًا حسنًا بالإنكليزية.

وكان في بعض المناسبات يتطرق إلى كثير من العلوم؛ كالطب والفلك وتعبير الرؤيا والحساب والجبر وعلم الطبيعة (الفيزياء).

وكان رحمه الله حريصًا الحرص كله على إنماء الروح الإسلامية في النفوس والقلوب، ونشر أسرار الكتاب المجيد وسائر ما جاءت به الشريعة السمحاء الغراء بين طبقات الأمة؛ ليخرج علماء أجلاء يخلصون العمل لله، ويقومون بالدعوة إليه، ويشرحون للناس أسرار دينهم الحنيف، وبذلك تشعر الأمة بوحدتها الكاملة وعزتها الشاملة، وتصبو إلى أن تعود سيرتها الأولى علوًا ورقياً ومجدًا وتقدمًا في أساليب الحياة.

شيخ الطريقة النقشبندية

الشيخ منير الكسم

(١٣٢٧هـ - ت ١٤١٧هـ)

هو الشيخ منير الكسم بن السيد عبد العزيز بن السيد سعيد بن السيد ياسين الحمصي أصلاً الدمشقي مولداً.

ولد بدمشق ٢٤ رجب ١٣٢٧هـ، وحدث بعد مولده بست سنوات الحرب العالمية الأولى، ولم يدرس في مدرسة لِقَلَّة ذات يد أبيه.

سنة ١٣٣٨هـ وضع في مدرسة الاستقامة العربية في شاغور براني - جانب باب الباشورة، ومكث بها ١١ شهراً، وكان شيخه الشيخ خالد عربي كاتب، تعلم عنده القراءة والكتابة وشيئاً من تاريخ الأمم الغابرة، وقرأ عنده كفاية الغلام للشيخ عبد الغني النابلسي.

ثم عمل في صناعة العبي وترك المدرسة، وعمل في سوق مدحت باشا ببيع الأقمشة مؤخراً، وكان يتردد في الصباح والمساء على العلماء، وأدرك نخبة من أجلائهم على رأسهم:

المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني (١٣٥٤هـ)، الشيخ توفيق الأيوبي (١٣٥١هـ)، الشيخ أمين سويد (١٣٥٥هـ)، والشيخ عطا الله الكسم ابن عم أبيه (١٣٥٧هـ)، الشيخ محمد بن جعفر الكتاني (١٣٤٥هـ)، وولده، والسيد مكّي الكتاني (١٣٩٣هـ) ومريده، والشيخ أحمد قشلان، والشيخ صالح التونسي، والشيخ محمد الكافي (١٣٨٠هـ)، والشيخ عبد القادر الإسكندراني، والشيخ عبد المجيد الطرابيشي (١٣٦٣هـ)، والشيخ عربي موصلي، والشيخ محمد بركات (١٣٦٩هـ)، والشيخ عبد المحسن اسطواني (١٣٨٣هـ)، والشيخ حسن أسطواني (١٣٤٩هـ)، والشيخ محمد أسطواني، والشيخ علي الدقر (١٣٦٢هـ)، والشيخ هاشم الخطيب (١٣٧٨هـ)، والشيخ نجيب كيوان، والشيخ محمود العطار (١٣٦٢هـ)، والشيخ محمود ياسين، والشيخ عبد الرحمن البرهاني (١٣٥١هـ)، وولده الشيخ سعيد البرهاني (١٣٨٦هـ)، والشيخ عبد الجليل الدرة (١٣٦٦هـ)، والحافظ الشيخ عبد الرحيم دبس وزيت (١٣٨٩هـ)، وولده الحافظ الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت، وفي (١٣٤٣هـ) اجتمع بالشيخ رضا أبي الذهب في جامع السادات، وقرأ عليه «المراقي» و«الآجرُوميّة» مع شرحهما.

ولكنني أستطيع أن أقول أن باكورة تلمذته على العلماء كانت بتلمذته على شيخه الأكبر الذي انتفع بعلمه وبحاله وهو الشيخ أبي الخير الميداني بدءًا من عام (١٣٤٧هـ)، ولازمه (٣٤) سنة حتى وفاته (١٣٨٠هـ)، وقرأ عليه:

١- في التفسير: «النسفي» وشيئًا من «البيضاوي».

٢- وفي الحديث والمصطلح: «الكتب الستة» و«الجامع الصغير» بشروحه «عزيزي» و«علقمي» و«مناوي» و«مجمع الزوائد» حتى الجزء السابع، ثم «الأربعين النورية»، ثم طلب منه الشيخ أن يجمع لنفسه أربعين حديثًا، فامثل لأمره وجمعها في باب الرجاء، وهي مخطوطة منذ عام (١٣٧٥هـ).

٣- وفي الأصول: «مرقاة الأصول إلى علم الأصول» لملاخسرو.

٤- وفي الفقه: «المراقي» و«القدوري» مع شرحه «الجوهرة النيرة»، و«الغنيمي»، و«ملتقى الأبحر» مع شرحه و«الدر المنتقى» و«الهدية العلائية».

٥- وفي الفرائض: «الرحبية» مع شرحها.

٦- وفي التصوف: «الحلية» و«نوادير الأصول» و«الصلوات الفاخرة بالأحاديث المتواترة» لحامد أفندي العمادي.

٧- وفي اللغة: «الآجرُوميَّة» متناً وشرحاً للأزهري، ثم «الأزهرية» ثم «القطر» ثم «الشدور» ثم «ابن عقيل على الألفية» ثم «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك»، و«مختار الصحاح» و«المزهر» في اللغة.

٨- وفي الصرف: «المقصود» مع شرحه لابن عسكر الحموي.

٩- وفي البلاغة: سؤال وجواب مع البلاغة التطبيقية.

١٠- وفي التاريخ: «النهاية» لابن الأثير.

١١- وقرأ عليه قليلاً من الجغرافية والهندسة والفلك وشيئاً من الفرنسية.

وفي عام (١٣٥٣هـ) أجزى بالطريقة النقشبندية من قبل شيخه الشيخ أبي الخير الميداني، ودخل الخلوة في مسجد سيدي هشام بسوق مدحت باشا، ثم أذن له بقراءة ختم السادة النقشبندية رحمهم الله تعالى، وبقي يقرؤه في درس الشيخ لطفي الفيومي في الآجري حتى وفاته رحمه الله تعالى، وبقي بعده يقرؤه حتى مرض وأقعد في البيت. ونال إجازة عظيمة من شيخه الأكبر الشيخ أبي الخير حيث اجتمع عنده ثلة من شيوخ عصره؛ منهم الشيخ لطفي الفيومي، والشيخ مصطفى الحلبي، والشيخ محمود الرنكوسي، فقال الشيخ أبو الخير الميداني: فقد أذنت لولدي منير بقراءة الدروس التي يريد.

تولّى إمامة مسجد عبد الله بن ذكوان في سوق مدحت باشا في الستينات ودرّس فيه.

وكان حين تجلس إليه تسمعه لا يتكلم إلا بالأحاديث والآيات وبعض الأشعار، وهو يتسم بطابع الجدّة في أغلب أوقاته، وعليه جلال النقشبندية رضي الله عنهم، وهو كثير القراءة في الكتب، يديم مطالعتها والنظر فيها.

للشيخ مجالس أسبوعية منذ فجر الجمعة للختم، وبعده درس في الفقه الحنفي. ثم يوم الإثنين في الحديث.

ثم يوم الثلاثاء في الحديث والتفسير.

ثم يوم الأربعاء في فقه الحديث.

مكث سنوات في أواخر حياته بسبب مرضه وشيخوخته، لكنه لم ينقطع عن الذكر رضي الله عنه.

تزوج وعمره (٢٩) سنة:

* الأولى من آل الكسم، وأعقب له ثلاثة ذكور، وتوفيت له منها ابنة صغيرة.

* ثم تزوج ثانية، وأعقب منها أربعة ذكور وثلاث بنات.

توفي في داره بالمزة، وصلي عليه في جامع التوبة، ودفن بجوار شيخه رحمه الله تعالى في شهر الله المحرم ١٤١٧ هـ.

أكرمني الله تعالى بالاجتماع به كل صيف في ختم النقشبندية، آتية مع صهري الشيخ زهير جانو عندما أبيت عنده كل صيف هو والشيخ لطفي الفيومي، وكان يقرأ الختم الشريف النقشبندي.. وبعده عظة من الشيخ لطفي...

رحمهم الله تعالى وغفر لهم.

عندما مرض مرض الوفاة أذن للشيخ نجاتي يغمور بقراءة الختم.

الشيخ محمد لطفي الفيومي

رحمه الله تعالى

شيخ الطريقة النقشبندية بدمشق

يقول العبد الفقير إلى الله الراجي غفرانه والمترجم لنفسه: هو محمد لطفي بن محمد بن عبد الله، الفيومي نسبة -الدمشقي ولادة ونشأة- الحنفي مذهباً - النقشبندي مشرباً وسلوكاً.

وُلِدَتْ عام ١٩٠٧م ثم بدأت دراستي في الكتاتيب، ثم دخلت المدرسة الجقمقية التي كان يديرها المرحوم الشيخ عيد السفرجلاني، وبعد أن أتممت ما تيسر من التحصيل العلمي؛ شرعت في بعض الأعمال اليدوية بمقتضى الضرورة لاكتساب المعيشة، وبدأت الدراسة الخاصة على العلماء الأجلاء في جامع التوبة، أصلي خلف الشيخ محمد الحلواني شيخ القراء في زمانه الصلوات الجهرية، أتلقى القراءة سماعاً، وقد أصلي خلف الشيخ عبد الرحمن البرهاني ثم أجلس في درسه أتلقى وأستمع دروس الفقه، والشيخ كان علامة زمانه في الفقه الحنفي.

ولما جاء المرحوم سيدي الشيخ أبو الخير الميداني قدس الله سره من مصر؛ شرع الشيخ بإعطاء الدروس في بيوت العقبية قبل أن تنظم له الدروس في جامع التوبة،

وهنا بدأت الدراسة الدائمة في بيت الشيخ، ثم تحول الدرس العام إلى جامع التوبة، وسرت الدراسة على هذا المنوال، ثم أضيف إلى مكان الدراسة مكان آخر؛ وهو المكتبة الآجرية أمام باب جامع التوبة الشرقي، وكان ممن يحضر دروس الشيخ: الشيخ عبده قويدر القارئ المقرئ والجامع وأخوه الشيخ أحمد قويدر الصمادية، فكنت أنا وبعض الإخوة في الدرس نقرأ التجويد على الشيخ أحمد قويدر سماعاً وحفظاً وتجويداً بعد درس الشيخ أبي الخير رحمه الله. أما بقية العلوم فكانت بمجموعها على يد الشيخ أبي الخير الميداني الذي كان حاملاً للشهادات العليا بالإضافة للعلوم الشرعية.

وفي سنة ١٩٣٤م عينت بإذن الشيخ إماماً وخطيباً في جامع سيدي هشام بن عمار في سوق مدحت باشا. ولما افتتحت المدرسة الكاملية الكائنة في البزورية التي يديرها الشيخ كامل القصاب؛ عينت فيها مدرّساً للغة العربية والفقه الحنفي، إلى أن كانت الكلية الشرعية في زقاق النقيب حي العمارّة، فكنت فيها أيضاً مدرّساً، وزيد لي فنون أخرى؛ كالمصطلح للحديث الشريف، والأصل، وتاريخ التشريع، والتوحيد، وقد وضعتُ لبعض هذه الفنون رسائل ومذكرات منها:

علوم القرآن، العقيدة الإسلامية، القواعد الفقهية العامة.

ولما افتتحت كلية الشريعة في جامعة دمشق انتقل اسم الكلية السابق إلى الثانوية الشرعية، وبقيتُ مثابراً على التدريس فيها مع إقامة الدروس في الجامع والمكتبة الآجرية، وفي أواخر السبعينيات ولأسباب صحية أوكلت الخطابة لبعض الطلبة مع حضوري في المسجد، داعياً للجميع وراجياً من الله تعالى أن يكون العلم والعمل والإخلاص له سبحانه هو الرائد لي أولاً وآخرًا.

وهذه إجازتي من شيعي الشيخ أبي الخير الميداني قدس الله سره ونور الله مرقدہ وضريحه، أذكرها شكرًا لله تعالى.

أسانيد الطريقة النقشبندية

وسندي في الطريقة النقشبندية:

عن سيدي الوالد الشيخ سهيل

عن الشيخ عبد الرزاق الطرابلسي

عن مولانا الشيخ خالد النقشبندي، وسنده معروف بعد ذلك.

ولي طريق آخر عن الشيخ أحمد الوهَّاج الصَّدِّيقِي، وهذا نص الإجازة:

إجازة في خلافة الطريقة النقشبندية والقادرية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وأزواجه وعترته الكرام.

أما بعد: فإنني قد أجزت أخي في الله تعالى الشيخ عبد العزيز الخطيب الحسني في الطريقتين النقشبندية والقادرية، وأقمته خليفة عني في بلاد الشام وما حولها من البلدان الإسلامية، ولقنته الذكر الخفي والجلي، وأن يقوم بجمع أهل الطريق النقشبندي، ويذكرون جميعاً الأذكار التالية:

لا إله إلا الله ١٠٠ مرة مع تصوّر المعنى؛ وهو أنه لا معبود بحق إلا الله.

إلا الله ١٠٠ مرة الله الله مرة على قلبه ومرة عن يمينه مكان الروح.

الله ١٠٠ مرة يتصوّر قلبه وهو يذكر الله الله.

تصوّر نور الذكر وهو يعمُّ رأسه وجسمه. ثم تصوّر اسم الله مكتوباً على القلب أثناء الذكر.

قراءة الختم الشريف مع شجرة السادة النقشبندية، ثم يصلُّون على سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالصيغة التالية:

اللهم صلّ على سيّدنا محمّد، وعلى آل سيّدنا محمّد، وعلى أصحاب سيّدنا محمّد،
وعلى أزواجه أمّهات المؤمنين، وأنزلهم في مقعد صدقٍ عندك يا مليكنا المقتدر، وفي
رحمتك يا أرحم الراحمين، وعجّل فرجنا بحقّهم وبحقّ من جعلته رحمةً للعالمين
ورحمةً لنساء العالمين.

هذا وأوصي الأخ المجاز بتقوى الله تعالى وأكل الحلال وأتباع السنة المطهّرة
والدعاء لأشياخه الكرام، وصلى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم،
والحمد لله ربّ العالمين.

شهد بذلك الشيخ أديب الكلّاس وأولاده

وجمعٌ كبيرٌ ممّن حضر في دار الجدّ الكرام

وتلامذة المجاز

الشيخ أحمد الوهّاج الصديقي

التمي القرشي

شيخ الطريقتين

شيخ الطريقة الأكبرية

الشيخ الأكبر^(١)

سيدي محيي الدين بن عربي

(٥٥٨-٦٣٨هـ) (١١٦٤-١٢٤٠م)

المرحلة العلمية

في قمة معاريج الحب الإلهي تنكشف سبحات الجلال عن جمال الذات العلية؛
لتغذي أرواح أهل الاختصاص الذين سُقيت ذواتهم من معين أسرار قول الحق
تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]

فهم أولياء الحق تعالى وخواصه، الذين زجّوا بأرواحهم في محيط النور الأزلي
تعشّقاً للجمال المطلق، فارتوت قلوبهم من معين السر المحمدي، وأثمرت أغصان
المحبة في قلوبهم قطوفاً دانية من كرم الوصال، تشعّشت به أرواحهم فهاموا في حبه

(١) له ألقاب عدّة: الشَّيْخُ الأكبر، البحر الرَّاخِر، بحر الحقائق، محيي الدِّين، سلطان العارفين، إمام
المحقّقين، شيخ الطَّريقة الأكبرية.

سكاري، وراح الروح تجذبهم إلى رحاب القدس حيث هُتكت لهم الأستار وكُشفت لهم الأسرار.

هنالك قمة الوصول، لأهل الفتح والقبول، من عباد الحق المقربين، وخواصه العارفين.

وفي الذروة العليا من سنام الولاية العظمى والفتوح الرباني يتربع إمام من صدور الأئمة الربانيين والأقطاب المحققين، بل هو آية الله في أوليائه، ومنحته العلوية لخلّص أصفياه، إنه الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر، سلطان العارفين وختم الأولياء المحمديين، سيدي ومولاي الإمام محيي الدين بن عربي، أعلى في الوجود ذكره، ورضي عنه وعنّا به، وأمدّنا منه بالمدد الأعلى في الدارين. آمين.

هو شمس الولاية التي تكتحل بضياؤها بصيرة كل عارف، وتستمد من أقباسها روح كل صوفي، تعشقت روحه سر الصفاء الرباني، ومن عجب أن الشمس بكل جلالتها وظهورها وإشراقها لا تتناول إليها قوى الإدراك لتلمس حقيقتها وجوهرها، ولعل مناط العجب أن سر تقاصر الأبصار عن إدراك جوهرها يكمن في شدة ظهورها، كذلك الأمر فيما يتعلق بشمس الولاية سيدي محيي الدين، فأينما تحسست سر الصفاء الرباني في ولي الله رأيت فيه قبساً من نور هذا الإلهام، ومع ذلك

مما يثير العجب - كل العجب - أن نجد بعض أدعياء الفكر والمعرفة ينكرون ولاية هذا الإمام العارف بالله^(١)!! جاهلين أو متجاهلين ما له من منزلة دونها مرتقى

(١) وصفه أعداؤه وأعداء التَّصوف بالفيلسوف الصُّوفي الملحد الذي خرج بمذهب وحدة الوجود، فأحرقوا كتبه وأتلفوها، ورفضه ابن تيمية وغيره (من الإخوان المسلمين والوهابية وآخرهم الدَّواعش)، وخرجت كتب في تكفيره، ورد السيوطي عليهم في «تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي»، وسارع أنصاره فردُّوا على معارضيهِ، ومنهم: الإمام السيوطي، والإمام ابن حجر الهيتمي، وابن كمال باشا مفتي الدَّولة العثمانية، ورأى الوهابية أنَّ عقيدته باطلة تمثل كفراً لم تعرف البشرية أعظم منه؛ لأنَّهم لم يفهموا أقواله، وابن تيمية نفسه كان منحرفاً وضالاً كبيراً، وكانت فتواه مصدراً لجهل عظيم، كان نملة! وابن عربي لم يضلل أحداً، ولكنه سبق زمانه، وتعاليمه كانت تنضج بالإسلام، وكلَّ من ذمَّه لم ينل نور حكمته!

أعرف اثنين من المعاصرين كانا يكفِّران ابن عربي؛ أحدهما يلقِّبه بالشيخ الأَكفر، والثَّاني يتناول عليه لسوء ظنِّه به، ولأنَّه لم يفهم كلامه، أمَّا الأول؛ فقتل زوجة أخيه وباء بالخسران، والثَّاني: طرده الله من الشَّام وعاش في الغرب والكربة، ومصدق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب».

وثالث كتب كتاباً كفر فيه ابن عربي، وقَدَّم لكتابه شيخ القراء، وحين راجعته قال: لست أوَّل من كفر ابن عربي، فكان عاقبتُهما أنَّ الكاتب بالسَّجن، وشيخ القراء شرَّده الله خارج بلاده، هذا ما شهدناه في حياتنا، وهو نفسه كان يقول: نحن قوم يحرم النَّظر في كتبنا! وذلك لأنَّ الصُّوفية تواطؤوا على ألفاظ اصطَلَحوا عليها، وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة فيها، فمن حمل ألفاظهم على معانيها

الأفهام ومطمح البصائر، بيد أن شواهدا ملء السمع والبصر، ولا تقل دلالة في محيط الإدراك العقلي والوجداني عن دلالة الشمس على وجود النهار، فليس أمامنا من رد لهؤلاء المحجوبين سوى قول الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وإذا ما استرسلنا في مقارنة شمس الولاية بشمس الكون أدركنا أن سر خفاء الحقيقة مشترك بينهما، فما المانع من إدراك حقيقة الشمس الكونية إلا عجز الأبصار عن الرؤية لشدة ضياء الشمس من جهة ولبعد مرتقاها من جهة أخرى، كذلك ليس المانع من تعرف حقيقة شمس الولاية إلا عجز العقول عن إدراك الحقيقة لقوة ضيائها من جهة ولبعدها عن مطمح الإدراكات من جهة أخرى، وثمة أمر مشترك آخر يتمثل في أن مناط الانتفاع بالشمس إنما هو الاهتداء بها لا إليها، وعلى هدى ضوئها يتسنى الوصول إلى الحقيقة، فمن هنا نهتدي إلى الطريق، وعلى الدرب نسير.

المتعارفة بين أهل العلم الظاهر؛ كفرهم وكفر، وربما تطالعنا أسماء لامعة في سماء الإسلام من المعارضين، فهؤلاء لم تصلهم كتب ابن عربي ولا فهموا كلامه ولا مصطلحاته، وليس حسناً أن نحكم على شخص سبق فهمه أعوامك ويضيء الطريق أمامك!!

ولسوف نخوض في هذه المقالة - مع يقيننا بعدم الأهلية لذلك - عباب بحر متلاطم الأمواج، خفي الأبعاد، بعيد الأعماق، وكل ما نعرفه عنه أنه بحر، لكن مياهه ضياء، وأعماقه كنوز، وشواطئه موصلة إلى الحقيقة، يصفه فريق من المحجوبين بأنه بحر الظلمات، ويراه أهل الكشف بحر الأنوار الربانية، فبه تحيا الروح ويشمل العقل براح المحبة، وتستشعر النفس برّد الرضا والطمأنينة، وإذا لم تكن أهلية الخوض متوفرة فلنستمد من بحور النور قطرة فيها سر الضياء، ولیمدنا بها سلطان العارفين شيخ الصوفية الإمام محيي الدين بن عربي رضي الله عنه وأرضاه وقدّس سرّه.

فمن أي الجوانب ترى يكون البدء؟

لعله الجانب التاريخي:

فلنتعرف إلى ملامحه في عجالة عاجلة:

إن شيخنا الأكبر هو سيدي أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي من نسل عبد الله بن حاتم أخي عدي بن حاتم الطائي، ويعرف بابن

العربي في بلاد المغرب وبابن عربي في بلاد المشرق؛ تفرقة بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي المالكي^(١).

وقد أثرت ترجمته هنا بابن العربي تأسيًا به حيث كان يسمي نفسه في كتبه بالتعريف.

ولقد قال التاريخ كلمته عن هذا الإمام ومنذ فجر ميلاده:

فجاء به في يوم من أخلد أيامه؛ وهو يوم بدر حيث سجل أول نصر للإسلام. ولد سيدي محيي الدين في يوم الاثنين السابع عشر من رمضان المعظم سنة ٥٥٨هـ أو ٥٦٠هـ في مدينة (مرسية) ببلاد الأندلس^(٢)، قبل عامين من وفاة سيدنا الجيلاني، وأسرة سيدي محيي الدين من أعرق الأسر ببلاد المغرب، ولها في الفضل والجلود والعلم والتصرف منزلة سامقة شادت بها الألسنة والأقلام.

(١) كلاهما لقبه أبو بكر، لكن الأوّل محمّد بن علي، والثاني محمّد بن عبد الله، يعدّه المالكية المجدد الخامس للأئمة (٤٦٨هـ - ٥٤٣هـ) من فاس المغرب، كان حافظًا مسندًا، مؤرخًا مفسرًا فقيهاً، من أشهر كتبه: «أحكام القرآن».

(٢) في إسبانية اليوم، جنوب شرق إسبانية، تطل على البحر المتوسط، من أهم شخصياتها الإمام أبو العباس المرسي تلميذ الإمام أبي الحسن الشاذلي الذي استوطن الإسكندرية ودفن فيها، وبها مسجده الشهير.

فوالده الشيخ علي بن محمد بن عربي من أئمة رجال الفقه والحديث، وكان على قدم في طريق القوم، وقد ذكر سيدي محيي الدين في «فتوحاته» بعض الكرامات التي وقعت لوالده يوم وفاته فقال: (وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يومًا أخبرني بموته وأنه يموت يوم الأربعاء وكذلك كان، فلما كان يوم موته وكان مريضًا شديد المرض استوى قاعدًا غير مستقر وقال لي: يا ولدي! اليوم يكون الرحيل واللقاء.

فقلت: . كتب الله سلامتك في سفرك هذا وبارك لك في لقاءك.

ففرح بذلك وقال لي: يا ولدي جزاك الله عني خيرًا، فكل ما كنت أسمعك تقوله ولا أعرفه -وربما كنت أنكر بعضه- هو ذا أنا أشهده.

ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء، لها نور يتلألأ، فشعر بها الوالد، ثم إن تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمّت بدنه، فقبلت يده وودعته وخرجت من عنده وقلت له: أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن ياتييني نعيك.

فقال لي: رح ولا تترك أحدًا يدخل علي، وجمع أهله وبناته، فلما جاء الظهر جاءني نعيه، فجئت إليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيها بين الحياة والموت، وعلى تلك الحالة دفنّه وكان له مشهد عظيم).

هذا هو والده ولي من أولياء الله الواصلين.

وأما والدته فهي السيدة (نور) وهل ينبج النور إلا النور؟؟؟^(١)

قد كانت من القانتات العابدات الصالحات، ومع عبير أنفاسها الطاهرة تصاعدت دعوات إلى الله تعالى أن يصطفي ابنها لحضرته وقد كان.

وفي محيط الأسرة الصالحة أيضًا نجد أن جد سيدي محيي الدين كان من قضاة الأندلس العلماء الورعين.

أما عن الشيخ عبد الله بن محمد الجدّ الثالث له فقد كان من أهل الكشف والمعرفة.

وأما عن أخواله فقد سجل أصحاب الطبقات الصوفية لهم مناقب جليلة، فمن أخوال الشيخ الأكبر سيدي أبو مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني^(٢) الصوفي الزاهد المجاهد الذي كان يقضي الليل قائمًا لربه، فإذا ما أدركه الإعياء ضرب رجله قائلاً:

(١) أعرتم لماذا ينبغي للمسلم أن يتزوج بنت أصول وصالح؟ لأنها تؤثر على أولاده، والله تعالى يقول:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

(أنتم أحق بالضرب من دابتي!! أیظن أصحاب محمد أن یفوزوا به دوننا؟؟؟
والله لأزاحمهم علیه حتى یعلموا أنهم خلفوا من بعده رجلاً).

كذلك من أحوال سيدي محيي الدين سيدي (يحيى بن يغان) الذي كان ملكاً على
تلمسان، فجذبتة العناية الإلهية ففر من ملكه ومن نفسه إلى الله، وأثر أن يعتلي القمة،
فتصوف وتزهد حتى إن سيدي محيي الدين كان يقول لبعض من يطلبون منه الدعاء:
(التمسوا الدعاء من يحيى بن يغان فإنه ملك وزهد، ولو ابتليت بما ابتلي به من الملك
ربما لم أزهد)، وقبره مشهور يزار في تلمسان.

هذه لمحات عن البيئة الأسرية لسيدي محيي الدين التي كانت تتسم بالصفاء
والنقاء، وتؤثر حق الروح على فضول المادة، فارتقت في سلم الفلاح إلى مدارج
الوصول.

(١) سيّد التّابعين، وزاهد العصر، ت ٦٨٤هـ، سكن داريا، وأصله من اليمن، أسلم أيام النّبيّ صلى الله
عليه وسلم، ولم يلتقه، دخل المدينة في خلافة الصّديق، وهو الذي ألقاه الأسود العنسي في النّار فلم
تحرقه، فنّاه إلى المدينة، فالتقاه الفاروق واعتنقه وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني من أمة
محمّد من صنع به كما صنع إبراهيم الخليل.

وفي (مرسية) درج الشيخ الأكبر في أجواء النور، فحفظ كتاب الله تعالى واستقى قلبه من هداة العظيم.

ثم انتقل سنة ٥٦٨ هـ إلى (إشبيلية) ^(١) وعمره ثمانية أعوام فالتقى بصفوة من علماء عصره، وارتوى على أيديهم من مناهل العلم أيما ارتواء. فقرأ كتاب (الكافي) في القراءات السبع على الشيخ أبي بكر بن خلف ^(٢) (عميد الفقهاء) وأبي القاسم الشراط ^(٣)، وقرأ كتاب (التيسير) لأبي عمرو الداني ^(٤) على أبي بكر محمد بن أبي جمرة ^(٥)، ودرس علم الحديث والفقه واللغة على أساطين العلم وفحوله في عصره؛ مثل: أبي عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون ^(٦)، والحافظ ابن الجد فقيه الأندلس ^(٧)، وأبي الوليد

(١) جنوب إسبانية، رابع أكبر مدينة في إسبانية، كان يطلق عليها في الفتح الإسلامي حمص؛ لنزول جند الشام فيها لأول مرة، من أشهر حكامها المعتمد بن عباد.

(٢) أبو بكر الطرطوشي، فقيه مالكي، صاحب كتاب «سراج الملوك في سلوك الملوك»، (٤٥١-٥٢٠هـ).

(٣) القرطبي، من محدثي الأندلس.

(٤) عالم القراءات، ومحدث ومفسر، أندلسي (ت ٤٤٤هـ).

(٥) (٥١٨-٥٩٩هـ) الشيخ الإمام، المعمر، مسند المغرب، فقيه، محدث، اهتم بمذهب مالك ونشره.

(٦) (٥٠٢-٥٨٦هـ) محمد بن سعيد، مسند فقيه، تلميذ القاضي عياض، و(زرقون) لقب جدّه.

الحضرمي، وأبي الحسن بن نصر، وأبي محمد عبد الحق الإشيلي، وأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال^(١) وغيرهم.

وقد استوعب الشيخ الأكبر كل ما وقع بيده من مصنفات وما سمعه عن شيوخه من أقوال، فتألفت عبقريته العلمية وعلا نجمه على أقرانه وارتفع إلى مرتبة الشيوخ وصار إمامًا في المعقول والمنقول، وأجازه جهابذة العلم بمروياتهم ومصنفاتهم؛ كابن عساكر وابن الجوزي والحافظ السلمي وعبد الحق الإشيلي وغيرهم، وعرف كل أولئك ومن جاء بعدهم منزلة الشيخ الأكبر التي لا تسامى. (وهذا كله قبل أن يكون صوفيًا... لقد أصبح عالمًا قبل أن يصبح صوفيًا، وهذه نقطة مهمة انتبهوا إليها).

وقد ذكر الشيخ المفسر المحدث إسماعيل العجلوني^(٢) في كتابه: (كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) عن الشيخ حجازي

(١) وحافظها وزعيمها من غير منازع، إليه انتهت رئاسة الفقه.

(٢) محدث قاضي، مؤرخ، أندلسي (ت ٥٧٨هـ).

(٣) من أبرز علماء الأردن الشقيق الذين أنجبهم عجلون، برع في علوم شتى، وتصانيفه تدل على غزارة علمه وقوة بيانه، ولد قرابة عام ١٠٨٧هـ، وقدم دمشق وعمره ١٣ سنة عام ١١٠٠هـ، واشتغل على علمائها، ثم رحل إلى تركيا، ثم عاد إلى دمشق مدرّسًا تحت قبة النسر بدلًا من شيخه الشيخ

الواعظ شارح «الجامع الصغير» للإمام السيوطي: أن الشيخ محيي الدين بن عربي
معدود من الحفاظ.

و(الحافظ) في مصطلح المحدثين يطلق على من يحفظ مئة ألف حديث.

ثم وصل الشيخ الأكبر أيضًا في حياته إلى مرتبة الاجتهاد المطلق^(١) وصرح بذلك
في «فتوحاته»^(٢) في (الباب السابع والستين وثلاث مئة) فقال: (ليس عندنا بحمد الله
تعالى تقليد إلا للشارع).

يونس المصري، وبقي مدرّسًا أربعين سنة تحت قبة النّسر، وانتشر علمه في الدّنيا، لقّب بالشيخ
الإمام الحجّة الرّحالة، من مشايخه الشيخ عبد الغني النّابلسي وغيره كثيرون.

(١) الإمام ابن عربي له في علم التّصوّف من الكتب والرّسائل ما زاد عدده على ٥٠٠ كتاب على حدّ قول
عبد الرّحمن جامي صاحب كتاب «نفحات الأندلس»، من أهمّها: «الفتوحات المكيّة» (٢٠ مجلدًا)،
وكتاب «التّفسير» الذي يقول فيه صاحب كتاب «فوات الوفيات»: «إنّه يبلغ ٩٥ مجلدًا، بلغ فيه إلى
سورة الكهف إلى قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وتوفي قبل أن يتّمّه، وقام
الدكتور عثمان يحيى بذكرها في كتابه «مؤلفات ابن عربي تاريخها وتصنيفها»، وهو بالفرنسية ترجمه
د. أحمد الطيّبي إلى العربية، ونشرته عام ٢٠٠١م الهيئة المصرية العامة للكتاب، وأجمع الكتاب
والباحثون المختصّون أنّ الشيخ الأكبر لم يكن مؤلفًا عاديًّا مثل غيره من المؤلّفين، بل كان يتميز من

كما قال أيضًا (من البحر الحفيف):

لست ممن يقول: قال ابن حزم^(١) لا ولا أحمد ولا النعمان
أي: أنه ليس مقلدًا لأيِّ مذهب.

غيره بالكم والكيف، ووصفه بروكلمان بأنه من أخصب المؤلفين عقلاً وأوسعهم خيالاً، ووردت ترجمته في العديد من كتب التراجم.

وفي «الفتاوى» (٢١٥) لابن حجر الهيتمي الشافعي يقول عنه: إنه من أولياء الله العارفين، ومن العلماء العاملين، وقد اتفقوا أنه كان أعلم أهل زمانه بحيث إنه كان في كل فن متبوعاً لا تابعاً، وأنه في التحقيق والكشف والكلام عن الفرق والجمع بحر لا يجارى، وإمام لا يغالط ولا يهوى، وأنه أروع أهل زمانه، وألزمهم للسنة، وأعظمهم مجاهدة، ومثله الشعراي، وابن عابدين، والفيروزآبادي، والعز بن عبد السلام، قال عنه الشيخ النابلسي:

كتبه النور لمن يبصرها وهي تروي كل صادي القلب ري
من كتاب الله والسنة قد خرجت تحتال في أبهى حلي

(١) كتاب «الفتوحات» اشتمل على حقائق لا يدركها إلا أرباب النهايات، وتضر بأرباب البدايات؛ لذا نهى بعضهم عن مطالعته.

(٢) لأنه اتهم بأنه ظاهري، أي: لست من جماعة ابن حزم الذي أنكر القياس في الدين.

وعلى هذا البيت يعلّق ابن العماد^(١) في «شذرات الذهب»^(٢) قائلاً: (وهذا صريح في الاجتهاد المطلق، كيف لا وقد قال: عرضت أحاديثه^(٣) جميعها عليه فكان يقول عن أحاديث صحت من جهة الصناعة: ما قلتها^(٤))، وعن أحاديث ضعفت من جهتها -جهة الصناعة الحديثة-: قلتها^(٥)؟؟ وإذا لم يكن مجتهداً فليس لله مجتهد. إن لا تراه فهذه آثاره) اهـ.

لكنّ المطلع على بعض رسائله يستدلُّ أنّه كان ظاهريّاً قبل أن يجتهد لنفسه والله أعلم.

هذه لمحة عن الجانب العلمي عند الشيخ الأكبر، ولا بد منها قبل إبراز الجانب الصوفي العملي.

(١) عبد الحي بن أحمد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ).

(٢) من كتب التّاريخ «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» عشرة مجلدات مرتّبة على السّنين من الهجرة النبويّة.

(٣) التي نقلها في كتبه.

(٤) طبقوا أسانيد صحيحة على أحاديث ليست لها؛ ولذا أنكرها.

(٥) يعني: كان يميز بين الأحاديث الصّحيحة وغيرها من حفظه.

كُلُّ الصُّوفِيَّةِ كانوا قبل تصوُّفهم علماء وطلاب عِلْم، وكانَ هذا الطَّرِيق لا يعطى إلاَّ لطالِب العِلْم حتَّى يميِّز الصَّحيح من السَّقيم في مبادئ الإسلام... يميز المبادئ الإسلامية عن الدَّخيلة.

من كتبه غير التي ذُكرت: «فصوص الحِكم» ورَّعه على ٢٧ نبيًّا، ولكلِّ منهم حكمة تحدَّث عنها، «شجرة الكون»، «الإعلام بإشارات أهل الإلهام»، كتاب «اليقين»، «مواقع النُّجوم ومطالع الأهلَّة الأسرار العلوم»، «رسائل ابن عربي»، «ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق»، «محاضرة الأبرار»، «التَّدبيرات الإلهية»، «كشف المعنى في أسماء الله الحسنى»، «المعارف الإلهية»، «الفتوحات المدنيَّة»، «ماهية القلب»، وله ١٢ كتابًا في الحديث الشَّريف، و٣ كتب في التَّفسير.

المصادر:

- «هكذا تكلم ابن عربي» نصر حامد أبو زيد.
- «ابن عربي ومولد لغة جديدة» د. سعاد الحكيم.
- «محيي الدِّين ابن عربي حياته ومذهبه» فاروق عبد المعطي (٤٩ سلسلة أعلام الفلاسفة).

- «جامع كرامات الأولياء» الشَّيخ يوسف النُّبْهاني ١/ ١٩٨.

- «نفح الطيب» للإمام المقري ٢/ ٣٦١.

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي ٢٣/ ٤٨ -

- «البداية والنهاية» لابن كثير ١٥٦/١٣
- «شذرات الذهب» لابن عماد الحنبلي ١٩٠/٣
- «لسان الميزان» لابن حجر ٣١٠/٥
- «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي ٣٣٩/٦
- «الوافي بالوفيات» للصفدي ٩٧٢/٤

تصوّف الإمام ابن عربي (مقالات التّصوّف)

ليعلم الجميع أن الشيخ الأكبر حينما تصوف تصوف على أساس متين من العلم والتبحر في الشريعة إلى درجة الاجتهاد المطلق^(١) كما أسلفنا.

وقد ذكر بعض أصحاب الطبقات أن سيدي محيي الدين تقلد بعض وظائف الدولة قبل أن يتجرد للتصوف، فالإمام الشعراني يقول في «طبقاته»: (وكان -أي: الشيخ الأكبر- أولاً يكتب الإنشاء لبعض ملوك العرب، ثم تزهد وتعبد وساح، ودخل مصر والشام والحجاز والروم (تركية اليوم)، وله في كل بلد دخلها مؤلفات). إذن بقي عاكفاً على العلوم والمعارف أينما حلّ وارتحل حتّى ظفر بأكبر قدر ممكن من الأسرار، وحتّى استقر في دمشق سنة ٦٢٠هـ، وكان أميرها أحد تلامذته.

(١) قامّة روحية عليا، والحقّ أنّه لو ولد في الهند لسمّوه هناك بالمهاتما؛ أي: الرُّوح العظمى؛ لأنّه فعلاً منارة من منارات الإسلام، وأحد فلاسفة المسلمين على مرّ العصور، تشع حقائق وأسرار، ولك أن تقول: بحر كوني يدفع بأمواجه على عتبات الكون الدّر والجوهر.

ولقد كانت العزلة هي نقطة التحول والمنطلق الروحي عند الشيخ الأكبر؛ إذ إنه بينما كان يعمل بالكتابة لبعض ملوك المغرب تجاذبته دواعي الحضرة الإلهية ليترك الكل وينقطع لربه^(١)، وأياً ما كان شكل هذا الانقطاع فإن البحث عن الغاية قد ملك عليه قلبه وعقله، فلم تعد لديه القدرة على المضي في طريقين، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

يا إخوة؛ وحدوا وجهاتكم في السَّير إلى الله وأتقنوا عِلْماً عِلْماً، هذا منهج الإمام الشَّافعي لا يدخل عِلْماً على عِلْم، وإلَّا تَشَتَّتْ قلبه ولم يظفر بمراده، «إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى».

ما حوى العِلْمَ جميعاً أحد لا ولو مارسه ألف سنة
إنما العِلْمَ كبحر زاخر فابتغ من كلِّ عِلْمٍ أحسنه
العِلْمُ أكثر من أن يحاط به...

(١) تقدم الكلام على مكانة الخلوة وفائدتها العظيمة.

ولقد شاءت الأقدار أن يدخل في محيط الربانيين، وأن ينغمس في النور الإلهي، وأن يأخذ علمه عن الله تعالى بلا واسطة^(١)، وفيما يتعلق بفترة التعبد والخلوة والتحنث يقول الإمام الشعراني في «اليواقيت والجواهر»:

(ثم إنه طَرَقَ طارقةً من الله، فخرج في البراري هائماً على وجهه إلى أن نزل بقبر فمكث فيه مدة طويلة، ثم خرج من القبر يتكلم بهذه العلوم التي نقلت عنه، ولم يزل سائحاً في الأرض يقيم في كل بلد بحسب الإذن، ثم يرحل عنها يخلف ما ألفه من الكتب فيها....).

هذا سيدنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يخلو في غار حراء، ثم تأتيه الشريعة والوحي الإلهي، فالخلوة لا تأتي إلا بخير.

الإمام الشافعي يقول: (من أراد أن يفتح الله قلبه ويرزقه العلم؛ فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء)^(٢).

(١) ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] عِلْمٌ وهبي، وستمرُّ هذه المسألة.

(٢) «بستان العارفين» للإمام النووي (ص ٤٧).

وحين خرج سيدي محيي الدين بن العربي من خلوته خرج وقد فتحت له خزائن العلم اللدني وغمره الفيض الإلهي، ولم يكن سلوكه الطريق منذ البدء تلقائياً بلا واسطة، فقد صحب شيوخاً عديدين ترجم لهم في كتاب أسماه (الدرر الفاخرة في ذكر ما انتفعت به في طريق الآخرة) ويصل عدد شيوخ سيدي محيي الدين - كما ذكرهم - إلى خمسة وخمسين شيخاً.

الرَّحْلة الأولى له في الأندلس وما حولها:

من أبرز الشيوخ الذين أخذ عنهم شيخنا سلطان العارفين القطب العارف سيدي محيي الدين من ذكره الشيخ محمد رجب حلمي في كتابه (البرهان الأزهر في مناقب الشيخ الأكبر) معرفاً ببعض شيوخه يقول:

(وأخذ العلوم الباطنية عن حضرة العارف بالله الشيخ أبي مدين المغربي^(١)، وجمال الدين يونس بن يحيى القصار، وأبي عبد الله التميمي، وأبي الحسن بن جامع،

(١) قطب الأقطاب أبو مدين الغوث شبيب بن الحسن، وهو الرَّجل الثَّاني بعد سيِّدنا عبد القادر الجيلاني في تسلسل الشَّاذلية، والثَّالث: عبد السَّلام ابن مشيش، والرَّابع: هو أبو الحسن الشَّاذلي،

بالذات، وأخذها بالواسطة^(١) عن حضرة الغوث سيدنا عبد القادر الجيلاني^(٢)،
وحصل له الفيوضات الغزيرة والفتوحات الكثيرة).

أجمعوا على تعظيمه وإجلاله، عرف بولده مدين، عاش ٨٠ سنة، آخر كلمة قالها وهو في المسجد:
﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤]، الله الحي، ثم فاضت روحه، وله مقام وضريح زرته
مرارًا وتبركت به، مات في تلمسان، من أشهر قصائده:

ما لذّة العيش إلاّ صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرأ
أحب لقا الأحباب في كلّ ساعة لأنّ لقا الأحباب فيه المنافع

وكان المنجد ينشد له:

عيدوا علي الوصال عيدوا فإنّ شوقي لكم يزيد
الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتادًا بلوغ كمال

(١) التقاء أرواح المؤمنين ثابت في عالم البرزخ، ففي الحديث: «أَحْسِنُوا كَفَنَ مَوْتَاكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ
وَيَتَزَاوَرُونَ بِهَا فِي قُبُورِهِمْ» أخرجه الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن، وفي آخر: «إِنَّهُمْ لِيَتَعَارَفُونَ كَمَا
تَتَعَارَفُ الطَّيْرُ فِي رُؤُوسِ الشَّجَرِ» ذكره ابن أبي الدنيا، وفي آخر: «إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ تَلْتَقِي عَلَى مَسِيرَةِ
يَوْمٍ مَا رَأَى أَحَدُهُمْ صَاحِبَهُ قَطُّ» أخرجه أحمد والطبراني، ودخل محمد بن المنكدر على جابر بن عبد

ومن شيوخه أيضًا الإمام العارف أبو العباس المريني، والشيخ أبو محمد بن عبد الله، وعنه يحدثنا سيدي محيي الدين قائلًا: (دخلت على شيخنا أبي محمد بن عبد الله بغرناطة سنة خمس وتسعين وخمس مئة، وهو من أكبر من لقيته في هذا الطريق، ولم أر في طريقته مثله في الاجتهاد، وكان ممن أوتوا فهمًا في القرآن إرثًا محمديًا، فقال لي: الرجال أربعة:

*رِجَالٌ ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وهم رجال الظاهر.

*وَرِجَالٌ ﴿لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] وهم رجال الباطن، جلساء الحق تعالى، ولهم المشورة.

*ورجال الأعراف، وهم رجال الحد، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] وهم أهل الشم والتمييز، والسراح عن الأوصاف، فلا صفة لهم، كان منهم أبو يزيد البسطامي.

الله وهو يموت، فقال له: اقرأ على رسول الله السَّلام، وحديث: «الرُّوح لا تُلْقَى الرُّوح» ضعيف لا اضطراب سنده.

(١) توفي بعد ولادته بعامين.

* ورجال إذا دعاهم الحق يأتون رجالاً؛ لسرعة الإجابة لا يركبون، قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] وهم رجال المطلع..... اهـ.

ومن شيوخه أيضاً الإمام العارف سيدي يوسف الكومي، وليسيدي محيي الدين معه هذا الموقف العرفاني الذي يرويّه قائلاً: (سألني شيخي يوسف الكومي سنة ست وثمانين وخمس مئة عن مسألة من مشكلات التصوف فقال: إذا اجتمع عارفان في حضرة شهودية عند الله تعالى؛ ما حكمها؟ قلت: يا سيدي؛ هذه مسألة تفرض ولا تقع؛ لأن الحضرة لا تسع اثنين ولا تشهدها عين زائدة، فإن افترضناها مثلاً: فاذا اجتمعا فلا يخلو كل واحد منهما أن يجمعهما مقام واحد أو لا يجمعهما، ثم حكم التجلي من حيث الظهور واحد، ومن حيث المتجلي له مختلف، فالذوق متباين لاختلافهما في أعيانها، ولا يجتمع شهود وخطاب وتجل ورؤية غير).

أرأيتم هذا المنطق العرفاني النضاح بالنور الذي فاض به لسان الشيخ الأكبر مع شيخه؟ إنه حديث العارف الذائق، وما أجمله من حديث ذي شجون بين الشيخ وشيخه! فسبحان من أعطى وأنعم!!

ثم لا ننسى ونحن بصدد الحديث عن شيوخ الشيخ الأكبر أنه التقى في مطلع شبابه بأم روحية له في الطريق؛ وهي السيدة فاطمة بنت المشنى القرطبية، فكان يخدمها وكان لها من العمر آنذاك خمس وتسعون سنة، على حين أن الذي يراها يحسبها بنت أربع عشرة سنة، وكانت من القانتات العارفات بالله، يقول سيدي محيي الدين: (وكانت تقول لي: أنا أمك الإلهية^(١))، ونور أمك الترابية، وإذا جاءت والدتي لزيارتي تقول لها:

يا نور؛ هذا ولدي فبريّه ولا تعقّيه!! يعني: كأنّها كانت تعرف المستقبل الباهر الذي ينتظر ولدها، فراسة صادقة أو إلهام غريزي.

ثم يذكر لنا الشيخ الأكبر أن له سندًا في الطريق عن سيدنا الخضر^(٢) عليه السلام عن طريق شيخه علي بن عبد الله بن جامع حين زار الموصل، فيقول في الجزء الأول

(١) أي: في الدين الأم الربّانيّة.

(٢) اسمه بليا، كان من أبناء الملوك، وجمهور العلماء ومنهم الإمام النّوّي وابن الصّلاح أنّه حيٌّ موجود بين أظهرنا، وهو ما اتفق عليه الصّوفيّة وأهل المعرفة، والذين أنكروه هم المحدثون، والصّحيح الصّواب أنّه حي، والقرطبي في «تفسيره» صحّح حياته (ج ١١ ص ٤١)، والمرجح أنّه نبي، ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وفي البخاري أنّ اسمه الخضر.

من «الفتوحات»: (واجتمع به - أي: بالخضر - رجل من شيوخنا؛ وهو علي بن عبد الله بن جامع، من أصحاب علي بن المتوكل وأبي عبد الله قضيب البان، كان يسكن بالمقلى خارج الموصل في بستان له، وكان سيدنا الخضر قد ألبسه الخرقة^(١) بحضور

(١) الخرقة: لباس يلبسه المريد من شيخه الذي دخل في إرادته، وفي لبسها معنى المبايعه، فهي تمثل عتبة دخول المريد في صحبة الشيخ الذي يتولى تربيته وتهذيبه وأخلاقه وتقويم سلوكه، والظاهر أنَّها كانت من صوف، وكان اشتهاها بين القرن الخامس والسابع حيث يندر أن يذكر عالم من دونها، والقرن السابع هو ذروة التصوف في العالم الإسلامي، والخرقة زينة لأولياء الله يعزُّ بها العوام فيحترمهم الخلق، ويعزُّ عليهم إتيان المعاصي، ويعتقدون أنها تذهب الكبر، وتقرَّب إلى الحقِّ، مع الاقتداء بسيدنا عمر؛ لأنَّه كان يلبس مرقعته، وكان إذا لبس غيرها يقول: أنكرت نفسي.

لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ والمريد، وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه، وهي محلُّ بركة، يسري حال الشيخ من باطنه إلى باطن المريد، وفيه إشارة إلى قميص سيدنا يوسف الذي يرتد به بصيرًا، ويذهب عنهم العمى الذي حصل على من أحب الدنيا والتَّصرف فيها، يتم عبر مراسم بين الشيخ ومريده وجماعة من الحضور، فيتطهر المريد والشيخ، ثمَّ توضع الخرقة بين أيديهما، ويقرأ الشيخ الفاتحة، ثم يقوم بإلباسها للمريد، ويبيِّن له سنة وصولها إليه، ثمَّ يأخذ عليه عهد الوفاء لشرائطها، ويعرفه حقوق الخدمة، ولبس الخرقة خاص بالرَّفاعية والسَّهروردية والقادرية، ينتهي نسبها إلى سيدنا علي بن أبي طالب، والأصح أنَّها لا تنسب إليه، بل إلى سيدنا الحسن البصري، وعلى كلِّ هو مباح، وليس سُنَّة وطريقًا إلى الله.

قضيّب البان^(١)، وألبسنيها الشيخ بالموضع الذي ألبسه فيه سيدنا الخضر في بستانه، وبصورة الحال التي جرت له معه في إلباسه إياها). سنة ٦٠١ هـ وكان عمره ٣٩ سنة.

لقد كان هناك اتصال مباشر للشيخ الأكبر بسيدنا الخضر وتلقى عنه^(٢)؛ إذ روى الإمام الشعراني في (الكبريت الأحمر)^(٣) أن سيدي محيي الدين قال في (الباب الخامس والعشرين) من «الفتوحات»: (كنت لا أقول بلباس الخرقه التي يقول بها الصوفية حتى لبستها من يد الخضر عليه السلام تجاه باب الكعبة).

وحتى لا يرتاب أحد في مشروعية لبس الخرقه قال الإمام الشعراني عقب هذا الكلام مباشرة: قلت: ذكر الحافظ ابن حجر أن حديث لبس الخرقه متصل ورواته معروفون كما أوضحت ذلك في «مختصر الفتوحات»، والله أعلم.

(١) الحسين بن عيسى (٤٧١-٥٧٣ هـ) صهر سيّدنا الجيلاني، من الأبدال، من محافظة نينوى، كردي موصلّي زاهد، وفي عام ٢٠١٤ قامت داعش بتفجير الضريح والجامع الخاص به.

(٢) أصبح ابن عربي تلميذاً لشيخ لا مرئي، وهو الشّيخ الباطني، وكلّ المتصوّفة الذين ليس لهم مرشد مرئي -أي: دنيوي مثلهم هم حاضروه- يدعون بالأوسيين.

(٣) هو المختصر لـ«الأنوار القدسية» الذي اختصر فيه «الفتوحات» لابن عربي.

ويخلص لنا من كل ما سلف أن الشيخ الأكبر قد تربى في رياض الصوفية تربية
الأكابر على يد الأكابر، ثم ارتقى إلى مرتبة التفرد المطلق والاتصال المباشر، فجاءته
البشارة المؤذنة بالاتصال الكامل والمباشر، يقول رضي الله عنه: (ولقد أنعم الله علي
ببشارة عظمى بشرني بها وكنت لا أعرفها، فأوقفني عليها الإمام خليفة القطب، فقد
نهاني عند التقائي به عن الانتماء إلى من لقيت من الشيوخ، وقال لي: لا تنتم إلا إلى
الله، فليس لأحد ممن لقيت عليك يدٌ مما أنت فيه، بل الله تولاك برعايته وعنايته،
فاذكر فضل من لاقيت إن شئت ولا تنتسب إلا إلى الله) لقد صار عبداً إلهياً لا نسبة
له إلا إلى مولاه.

وتوالت عليه الإمدادات والفتوحات، وذاق الأحوال والمقامات.. وأصبح لا تمر
عليه ساعة إلا وهو في مزيد من الترقى والعروج، ولقد تحقق بجميع أحوال الصوفية
ومقاماتهم التي أحصاها بنفسه في «الفتوحات» فبلغت ستين ألفاً، استمع إليه وهو
يقول:

(وقد دخلنا في كل ما ذكرناه في هذه الإمدادات الإلهية ذوقاً مع عامة أهل الله،
وزدنا عليهم باسم إلهي هو «الآخر» أخذنا منه الرياضة وروح الله الذي يناله
المقربون من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ

نَعِيمٌ ﴿[الواقعة: ٨٨، ٨٩] ونلت هذا المقام في دخولي هذه الطريقة سنة ثمانين وخمس مئة) أي: وعمره عشرون عاماً!! لأنَّ القول الثاني لولادته هو ٥٦٠هـ وليس ٥٥٨هـ، يا ترى هل دخل الإمام في هذه المقامات كلها خلال عشرين سنة!، يا ترى متى كانت أيام لعبه ولهو؟!، فاعتبروا يا طلاب العلم، ٥٠٠ مؤلف خلال ٨٠ سنة، تعالوا نوزعها على أيام عمره، إذا قسمناها على سنين عمره يكون قد ألّف في كلّ سنة منذ ولادته ستة مؤلفات، وتذكروا أنَّ مؤلفاً منها هو «التفسير» ٩٥ مجلداً، وكتاب «التاريخ» عشرة مجلدات، و«الفتوحات» ١١ مجلداً، مع سفره في العالم الإسلامي مرّتين غير السّياحة في بلاد المغرب.

ثم لقد تحقق سيدي محيي الدين بمقام (الصدّيقية العظمى)^(١) وهو المقام الذي يراه جل الصوفية خاتمة مقامات الولايات وأعلاها، بيد أنّه بعد أن حظي بها وجد أن

(١) المراد من سلوك طريق التّصوّف ترقّي النّفس شيئاً فشيئاً إلى المقام الأكمل حتّى يصل إلى مقام الصّديقيّة الذي هو مقام الولاية الكبرى، والخلافة العظمى، ومنه تنشأ جميع منازل السّالكين، وعوام المسلمين لا يعرفون منه إلّا مقام الصّدق في الأقوال، ولكنّ مفهومه عند الصّوفيّة عامّ يشمل صدق القلب، وصدق الأفعال والأحوال، ونستطيع أن نعرّفه أنّه استواء السرّ والعلانية، والظّاهر والباطن، ومقام الصّديقيّة درجات بلغ أقصاها سيّدنا أبو بكر: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصّدقِ وَصَدَقَ بِهِ﴾

ثمة مقامًا فوقه أعلى منه، هو فوق الصديقية ودون النبوة مباشرة، ويسمى (مقام القربة) وهو مقام سيدنا الخضر على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

وعنه يحدثنا الشيخ الأكبر رحمه الله قائلًا: (هذا المقام دخلته في شهر المحرم سنة سبع وخمس مئة وأنا مسافر بمنزل إنجيل ببلاد المغرب، فتهدت في هذا المنزل فرحًا ولم أجد فيه أحدًا غيري، فاستوحشت من الوحدة وتذكرت دخول أبي يزيد بالذلة والافتقار^(١))، رضي الله عنه وعن سيدي أبي يزيد المقربين في مقام القربة، وقربنا بهما إليهما ومعهما انتهاء لجنابهما الشريف.

تلك هي أبرز مقامات الشيخ الأكبر، وذلك هو مركزه الشامخ في الولاية، لتتطلع إليه من بعيد وهو يحتل قمة التصوف والتحقيق وأنى لنا الرؤية؟!!

هل نسينا أن البصر أعجز من أن يحدق في الشمس الصغرى - شمس الدنيا؟ وأن البصيرة أعجز من أن تحدق في الشمس الكبرى - شمس الولاية؟ وهل لدينا

[الزم: ٣٣] وفي الحديث جعل النبي صلى الله عليه وسلم الصّدق مفتاح الصّديقيّة: «وإنَّ الرّجل ليصدق حتّى يكتب عند الله صديقًا».

(١) لا يصل أحد إلى الله إلاّ بمقام الذلة والافتقار، فانظر ماذا اختار النبي صلى الله عليه وسلم لما خيره الله بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا؟ اختار نبيًا عبدًا.

من القدرة ما نخترق به تلك الحجب وهذا البون الشاسع ما بين السماء والأرض؟
رضي الله عنه.

عذرا يا شمس الولاية فإننا نحن عاشقون لضياك، فلتسمح لنا في أن نتعرف
إليك في أعلى عليائك.

نعود إلى رحلتنا مع الشيخ الأكبر عبر مسافات التاريخ فنذكر أنه أقام في إشبيلية
فيما بين عامي ٥٦٨-٥٨٩هـ، وخلال هذه العشرين عامًا -أو تقول: ٣٠ عامًا منذ
ولادته- صعد الشيخ إلى القمة وتربع عليها، كما أنه خلال هذه الفترة قام بعدة
سياحات داخل بلاد المغرب، زار خلالها عديداً من المدن والبلدان؛ مثل: مورور
والزهراء وقرطبة وتونس وفاس وسنبلة وغرناطة، وكلها سياحات صوفية التقى
فيها بشيوخه وحظي بأحواله ومقاماته.

الرَّحْلَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ سِيَاحَةِ الْإِمَامِ إِلَى مِصْرَ وَالْحِجَازِ وَالْعِرَاقِ:

ثم في سنة ٥٨٩هـ - وفي رواية: (٥٩٧-٦٢٠) = كان عمره ٣٦ سنة - ارتحل إلى بلاد المشرق حاجًّا إلى بيت الله الحرام (١٢٠١م)^(١).

وفي مكة التقى بالشيخ أبي شجاع^(٢) أمام مقام سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وبنى الشيخ الأكبر بابنته^(٣) الصوفية الصالحة.

(١) ارتحل الشيخ الأكبر إلى المشرق يؤكد لنا على عظمة المشرق الرُّحية؛ لأنَّ الغرب قد غرق في أحوال المادة والتَّرف والعنف (صراعات سياسيَّة ضد القوى الأوربيَّة الآتية من الشَّمال مهددة الوجود العربي بالأندلس) ونسي رسالته الحضارية التي أتى بها علماؤه، رحل إلى المشرق ليغذي ينابيع التَّصوُّف التي خرج منها الإمام السَّهروردي في القرن الثاني عشر الميلادي (ت ١١٩١م) والإمام أبو يزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ)، وفريد الدِّين العطار النِّيسابوري (ت ١٢٢٠) الذي حمل جلال الدِّين الرُّومي بين يديه حين كان طفلًا وتنبَّأ له بمستقبل صوفي كبير، والتقى بالإمام الشَّيخ الأكبر في بلاد الأناضول، وهذه حقيقة: حين وطأت قدماه تراب دمشق حوَّله ذهبًا، وحين ترك رفاته فيها ترك بركته على هذه المدينة المقدَّسة.

(٢) شيخ إيراني، وقور جليل، من أهل العقل، والعلم، والخلق، والصَّلاح.

(٣) اسمها نظام، كان فيها من الميزات الرُّوحية الحظ الأوفر، ونقلوا أنَّها أسهمت معه في تصفية حياته الرُّوحية، وتعلَّم منها مذهب العاشقين.

وفي مكة أيضًا ألف سيدي محيي الدين ديوانه الشعري (ترجمان الأشواق)^(١) الذي يعد آية في الشعر الرمزي والذوق الصوفي الرفيع؛ كما ألف أعظم موسوعة صوفية في الإسلام وهي (الفتوحات المكية) وتقع في أربعة مجلدات عظيمة (طُبعت في تسعة مجلدات) تشتمل على خمس مئة وستين بابًا^(٢)، وهي مقسمة ستة أقسام:

أولها: في المعارف. عقد فيه أبوابًا: في معرفة الرُّوح، في معرفة مراتب الحروف، في معرفة الحركات، في معرفة بدء الخلق، في معرفة الأرض، في معرفة الأرواح النارية، في معرفة دورة الملك، في معرفة الأقطاب، عقد له عدّة أبواب...

وثانيها: المعاملات؛ الأخلاق والسلوك.

وثالثها: في الأحوال، (الباب ١٩٠): معرفة المسافر إلى الله والسفر والحال وأسراره.

(١) خصّصه لمَدح نظام التي عرفها في مكة سنة ٥٩٨ عندما قدم إليها لأوّل مرّة من المغرب.

(٢) أصلها رسالة سَمّاها: «الفتح المكيّ» - ما فتح الله عليه من أفكار في مكّة - ثم أكملها إلى أكثر من ٤٠٠٠ صفحة، وقرأه الشَّيخ الهاشمي على طلابه، وشيخنا الشَّاغوري قرأه علينا، ووصل إلى المجلد الثاني ص ٣١٢.

ورابعها: في المنازل^(١).

وخامسها: في المنازل^(٢).

وسادسها: في المقامات^(٣)، وهو من سرِّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ...﴾ [الشورى: ٥١] وهو من الحضرة المحمّدية.

ومن عظمة الكتاب أن فهرسته بلغت ٦١ صفحة.

ومن أراد أن يقف على مكانة الشيخ الأكبر في علوم القوم وأذواقهم ويطلع على قمة الذوق الروحي والعلم اللدني^(٤) ويعرف منزلة هذا الإمام في الاطلاع على

(١) منازل القمر الثمانية والعشرين، وكما تتفاضل المنازل الجسائية كذلك تتفاضل المنازل الروحية، وما تحويه من أمهات العلوم، وهو (الباب ٣٣٠).

(٢) (الباب ٣٨٤): المنازل الخطائية القرآنية، فيما شرعه الله قولاً وفعلاً.

(٣) أقطاب-أوتاد-أبدال-عارفين، موزعة على ٥٦٠ فصلاً، أحدث طبعاتها ٨ مجلدات كبار، وأقدم طبعة في أربعة مجلدات طبعها الأمير عبد القادر الجزائري، وأحسن نسخة نشرت عنه محققة ومعتمدة في الدراسات الجامعية نشر د. عثمان يحيى، وتعدُّ طبعة نادرة، نشرتها دار الكتب العلمية، سنة ٢٠٠٦، في ٤٠٠٠ صفحة، وزنها ٦-٥ كغ.

(٤) يقول فيه الإمام ابن عربي: واعلم أنَّ جميع ما أتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي إنّما هو من حضرة القرآن وخزائنه؛ فإنّي أعطيت مفاتيح الفهم فيه والإمداد منه.

الأسرار الإلهية؛ فليطالع كتاب «الفتوحات المكية» الذي يؤكد لنا أن سيدي محيي الدين هو ترجمان الصوفية الأكبر بحق، وحسبنا شهادة سيدي عبد الوهاب الشعراني لهذا الكتاب^(١) إذ يقول:

(طالعتُ من كتب القوم ما لا أحصيه وما وجدت كتباً أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب «الفتوحات المكية»...).

ثم يقول الإمام الشعراني بعد أن أشار لما تضمنه كتاب «الفتوحات» من معارف: (وقد أشرنا لنحو ثلاثة آلاف علم منها في كتابنا المسمى «تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء» فإن علوم الشيخ كلها مبنية على الكشف والتعريف، ومطهرة من الشك والتحريف)^(٢) اهـ

هذا عن كتاب «الفتوحات» وهو أحد مصنفات الشيخ التي بلغت خمس مئة كتاب كما يقول صاحب «البرهان الأزهر»: (وقد بلغت مصنفات الشيخ زهاء خمس مئة وإنه ليتمثل بها بين العامة).

(١) الإمام الشَّعراني (ت ٩٧٣هـ) اختصر كتاب «الفتوحات»، وسَمَّاه «لواقح الأنوار القدسيَّة»، ثمَّ حَظَّصه ثانيًا وسَمَّاه «الكبريت الأحمر»، ولم يخرج عن ترتيب الشَّيخ على ٥٦٠ بابًا.

(٢) سأذكر لكم بعد قليل كيف دسَّ أعداؤه في كتبه ضلالات كُشفت عن طريق مقابلة المخطوطات.

ولقد نشر الأستاذ كوركيس عواد إحصاء المؤلفات الخمس مئة للشيخ الأكبر في مقالات نشرها بمجلة المجمع العلمي بدمشق، وذكر الإمام الشعراني في «اليواقيت» أن الشيخ مجد الدين الفيروزابادي قال: (وقد رأيت إجازة بخط الشيخ - محيي الدين - كتبها للملك الظاهر بيبرس صاحب حلب، ورأيت في آخرها: وأجزت له أيضًا أن يروي عني جميع مؤلفاتي ومن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفًا وأربع مئة مؤلف؛ منها «تفسيره الكبير» في خمسة وتسعين مجلدًا وصل فيه إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] فاصطفاه لحضرته ..) أي: توفي بعدها الإمام.

الحلول والاتحاد

والآن نتكلم على القضية الأخيرة التي اتهم بها سيّدنا ابن عربي زورًا وبهتانًا لعبارات وجدوها في كتبه، دسّها الزنادقة كما دسّوا على سيّدنا أبي يزيد البسطامي، والإمام الجيلاني، وابن الفارض؛ ليشوهوا حقيقة الولاية عندهم، وانقسم العلماء بناء على تلك العبارات قسمين:

القسم الأوّل: تسرعوا وأطلقوا ألفاظ الكفر على الإمام ابن عربي.

والقسم الثّاني: كانوا منصفين، وقالوا: إنّ من يقول هذه العبارات زنديق أو كافر، ولم يتّهموا الإمام ابن عربي كما فعل القسم الأوّل، بل حكموا على الكلمة أنّها مكفّرة.

والذي عَرَّفنا أنَّ هذه العبارات مسدوسة على الإمام ابن عربي شيئان:

الأوّل: وجود عبارات مناقضة لهذه العبارات المدسوسة في ثنايا كتبه تدلنا دلالة واضحة على أنَّ هناك يدًا عبثت بالكتاب حتى اختلفت عباراته وتناقضت.

الثاني: عدم وجود هذه العبارات في المخطوطة التي كتبها الإمام بخط يده.

فما هذه التَّشويهاً التي اتهم بها الإمام؟، إنَّها القول بالحلول والاتحاد.

وقبل الدِّفاع وإظهار حقيقة الأمر دعونا نعرِّف هذين الكلمتين -أو المصطلحين- ونبين من أين أتيا؟.

الحلول والاتحاد مصطلحان بوزيان هنديان من الوثنيات اليونانية واليهودية.

(الحلول): أن يحلَّ شيء في آخر؛ كحلول ماء الورد في الورد، أو حلول الماء في الكوز.

ويريدون به حلول الله عزَّ وجلَّ في بعض مخلوقاته، ويعبِّرون عن ذلك بقولهم: حلول اللاهوت (الإله الخالق) بالناسوت (المخلوق)؛ كاعتقاد بعض الفرق الضَّالة أنَّ الله عزَّ وجلَّ حلَّ في علي بن أبي طالب، وفي ذريته من الإمام الحسين ومن بعده.

وقد ادعى ذلك الحاكمُ بأمر إبليس الفاطمي، قال: إنّ دوره قد جاء ليحلّ فيه الإله، فادعى الألوهية، وحمل بعض النَّاس على عبادته، وقام ابنه بعد وفاته فكذبه وفضح كفره.

و(الاتحاد): معناه كون الشَّيئين شيئاً واحداً، واختلاطهما حتّى يصيرا شيئاً واحداً. ويريدون به اتحاد الله بمخلوقاته؛ أي: أنّ وجود الكائنات هو عين وجود الله، ومعناه: القول بوحدة الوجود باعتقاد كون الوجود هو عين وجود الله، يقولون: اللاهوت اتحد بالناسوت فصارا شيئاً واحداً.

فصار عندنا مصطلحان: حلول واتحاد، وكلاهما كفر من وثنيات الهند واليونان واليهود.

(وحدة الوجود): أن تجعل الله والخلق شيئاً واحداً، الإنسان والإله في مرتبة واحدة.

فعلى هذه الفرية يتَّهمون ابن عربي أنّه يقول: ليس هناك خالق ولا مخلوق، فكل ما يراه الإنسان هو الخالق في صور متعدّدة: الجبل، والشَّجر، والدَّواب، والرَّجل، والمرأة، كلّهم عنده صور لله، ونقلوا عنه ألفاظاً لا يقوها مسلم.

وعلى هذه الفرية من عبد فرعون ناج، ومن عبد العجل ناج، ومن عبد عيسى ناج، فلا حساب ولا عقاب عليه.

وحدة الوجود تعني: أَنَّ كَلَّ هذا العالم بما فيه هو أجزاء من الله تعالى، حتَّى إنَّ أحدهم يقول: أنا الله وأنتَ الله، وقد حُكِمَ على الحلاج بالإعدام يوم أن قال: ما في الجبَّة إلاَّ الله.

والحلول: أن يحلَّ الله في قلوب عباده وأجسادهم، والعقيدتان كفرتان.

والذي زاد الطين بِلَّةً أن يقوم أحد شيوخ الطرق الشريعية فيفتري على الشيخ الأكبر أنَّه قاله.

هذا الشيخ الشريعي ألَّف كتاباً سماه: «الإلهامات الإلهية على الوظيفة الشريعية»، ونصَّ عبارته: (قال سيدي محيي الدين بن عربي في كتابه «شرح الوصايا اليوسفية»: يجب على المريد أن يعتقد في شيخه أنَّه المتحكم في موته وحياته، وأنَّ الله تجلَّى في صورته)، وهذا ليس من دين الله، وهو مناف للتوحيد، مدسوس على ابن عربي، غرَّ هذا الجاهل الشريعي، ولم يحتكم إلى الشرع في عبارته.

ومن المدسوس على الشيخ الأكبر ما نقل في «الفتوحات»: (إنَّ عذاب الكفار في النَّار ينقلب عذوبة، فيتلذذون به بعد انقضاء مدَّة الآلام)، فهو أمر مبني على

الكشف، وليس إلهام الوحي من أسباب العلم القطعي، فهو ليس بحجة كما ذكر النّسفي، والمنام أقل شأناً، وقد قال الإمام الجنيد: (ربما تخطر لي النكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلاّ بشاهدي عدل من الكتاب والسنة)، والنكتة هي الوارد أو الإلهام.

والسؤال المهم الذي يسأل: هل في كتابات ابن عربي ما يكذب هذه الفرية الكفرية؟

والجواب: الإمام ابن عربي له أكثر من تصريح في «الفتوحات المكيّة» بكفر من يقول بالحلول والاتحاد، وهؤلاء المكفرون ما قرؤوا كتبه ليكتشفوا زيف ما نقل عليه، بل كانوا كحاطب ليل ينقلون كلّ ما يقال لهم، و«كَفَى بِالْمُرءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ».

في (باب الأسرار) من «الفتوحات» قال: (من قال بالحلول؛ فهو معلول، فإن القول بالحلول مرض لا يزول، وما قال بالاتحاد إلاّ أهل الإلحاد؛ كما أنّ القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول).

أنا تكفيني هذه العبارة في التّصريح الواضح على براءة ابن عربي، ولكن الله أراد تبرئته رضي الله عنه.

وقد صرَّح العلماء الذين قرأوا كتب ابن عربي بأنَّ هذه النقولات مدسوسة على الشيخ بعد مقابلتها بالمخطوط؛ منهم الإمام الشعراي، وشهادة الإمام الشعرايِّ مهمّة؛ لأنّه قرأ كتبه واختصر بعضها، وقد قال: (وليُحذر من مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن العربي؛ لما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ لا سيما في «الفصوص» و«الفتوحات»)، بل قال أحد فقهاء الحنفية: (تيقنّا أن اليهود دسّوا عليه)، وكذا قاله الإمام أبو الهدى الصّيادي شيخ السّلفية العثمانيّة.

إنَّ الإمام الشعراي اختصر كتاب «الفتوحات» في كتابه «الأنوار القدسية»، وقد قدّم لنا تقريراً مهمّاً يفيدنا في قضيتنا اليوم، قال فيه: (وقد توقفتُ حال الاختصار في مواضع كثيرة منه، لم يظهر لي موافقُها لما عليه أهل السُّنّة والجماعة، فحذفتها من هذا المختصر، وربّما سهوت، فتتبع ما في الكتاب كما وقع للبيضاوي مع الزّمخشري، ثمّ لم أزل كذلك أظنُّ أنَّ المواضع التي حذفت ثابتة عن الشيخ محيي الدين حتّى قدم علينا الأخ العالم المدني المتوفى سنة ٩٥٥هـ، فذاكرته في ذلك، فأخرج إليّ نسخة من «الفتوحات» التي قابلها على النُّسخة التي عليها خط الشيخ محيي الدين نفسه بقونية، فلم أرَ فيها شيئاً من النُّسخة التي دسّوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السُّنّة والجماعة كما وقع له ذلك في كتاب «الفصوص» وغيره)، هذه الشّهادة من أهمّ شهادات تبرئة الإمام.

واسمعوا ماذا يقول الشيخ الأكبر نفسه في (الباب التاسع والتسعين والمئة) من «الفتوحات» يقول: (القديم لا يكون قط محلاً للحوادث، ولا يكون حالاً في المحدث)، فمن المحال أن يتحد الله في خلقه، أو يحلّ في خلقه؛ لاستحالة اشتراك صفات القديم مع صفات المحدث.

مقام الواحد يتعالى أن يحلّ فيه شيء، أو يحلّ هو في شيء، أو يتحد في شيء، ثم قال: (الرّبُّ لا يجتمع مع عبده في مرتبة واحدة أبداً).

فهذه عدّة شهادات، وكلُّ من يتهم ابن عربي هو متجنّ عليه، يكذب عليه وعلى الأئمة الإسلامية، وإن ابن عربي بريء من هاتين الكفريتين براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

ثمّ اعلموا أنّه لم يقل أحد من الصّوفية إطلاقاً بوحدة الوجود، بل هذا من عند الفلاسفة المستشرقين، وليس من عند المسلمين، والإمام اليافي في «ديوانه» يقول:

جلّ عن حلول وعن اتحاد وعن العقول في فهم المراد

والصّوفيّة كلّهم على هذه العقيدة، فلا تنسبوا لنا ما أنكرناه.

المسلمون عندهم وحدة الشُّهود؛ وهي ألاَّ يشهدوا غير الله خالقًا ورازقًا، فهو الممد لكلِّ الممكنات بالوجود.

والصُّوفي يكون في حال شهود لله، فيقول: لا أرى شيئًا غير الله، فتلك حال من الفناء.

ابن عجيبة يقول: (إنَّ الفناء هو أن تبدو لك العظمة فتنسبك كلَّ شيء، وتغيبك عن كل شيء سوى الواحد الذي ليس كمثله شيء)، وليس معه شيء، أو تقول: هو شهود حق بلا خلق، يعني: ألاَّ تشهد إلاَّ الله خالقًا، ورازقًا، وشافياً، وممداً، تفنى به، وتنجذب إلى حضرته.

الصُّوفي لم يُثبت مع الله شيئاً؛ يعني: الوجود بحق هو الله تعالى وحده، تقول في العقيدة: الله واجب الوجود، وما سواه مفقود، وليس للخلق إلاَّ وجود اعتباري؛ لذلك يمكن القول: لا وجود إلاَّ للحقِّ تعالى وحده، هو القائل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] وهذا يعني: وحدة الشُّهود، وهي عقيدة صحيحة، فعندما تقول: (أشهد أن لا إله إلاَّ الله) فقولك هذا قريب جدًّا من قول الصُّوفي: لا أرى شيئًا غير الله.

ولذلك كان الإسلام هو وعي هذه العلاقة القائمة على أساس أن لا وجود لغير الحقِّ إلَّا بالحقِّ، وهو ما يعبر عنه قول الصُّوفي: (لا أرى شيئاً إلَّا وأرى الله فيه)، ماذا تقول السَّيدة رابعة؟:

وما شربت لذيد الماء من ظمأً إلَّا وجدت خيالاً منك في الكأس
أعرف أن هذه النعمة منك... هذه وحدة الشُّهود.

كُلُّ هذا الكون سيفنى ولا يبقى إلَّا الله تعالى، فالوجود الحقيقي له تعالى، وهذه العقيدة بناها الإمام الغزالي والإمام الجيلاني، وهي درجة الصِّديقية؛ أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله؛ أعني: أنَّه ينساها، فلا يبقى له التفات إليها، فيسمع بالله، وفي الله، ومن الله.

سأعبر لكم عن وحدة الشُّهود تعبيراً تعرفونه جميعاً، انظروا إلى حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف حتَّى العشق، وسقط إحساسهن من شدة شهود جمال سيِّدنا يوسف، حتَّى نسين كلَّ شيء وغبن عن وعيهنَّ حال وحدة الشُّهود، وأشد من حال هؤلاء النسوة من يفنى عن نفسه وعن الخلق، ويبقى بالله وحده.

ولكن أعداء الصوفية رفعوا ألوية التشهير بسيدي محيي الدين؛ للدس عليه من جهة ولعلو أذواقه وإغلاق عباراته وتأبّيها على مدارك غير الخاصة من جهة أخرى، ولما وقع الإنكار على الشيخ قيض الله له من يرد عنه، فقد صنف الإمام جلال الدين السيوطي كتاباً يرد فيه على المنكرين على الشيخ الأكبر، وسماه: (تنبيه الغبي في تبرئة ابن العربي) وشهد له أئمة العام والولاية بفضله وسمو منزلته في معاريج التحقيق، وحسبنا أن نعلم أن الذي سماه بالشيخ الأكبر ولقبه بسلطان العارفين إنما هو القطب أبو كدسين المغربي؛ كما ذكره الإمام الشعراني في «طبقاته»: هو سيدي مصطفى البكري في «السيوف الحداد».

وناهيك بشهادة الإمام فخر الدين الرازي الذي كان يقول: (كان الشيخ محيي الدين ولياً عظيماً).

وبالإمام السهروري الذي كان يقول عن سيدي محيي الدين: (إنه بحر الرقائق) وقد التقى به في العراق عندما رحل إليها سنة ١٢١١م في اجتماع صامت لم يتكلما بكلمة، وحين افترقا قال عنه السهروردي: إنه بحر الحقائق، وقال هو عن السهروردي: مملوء سُنَّة من الرأس إلى قدمه.

ثمَّ زار عددًا من المدن، وأخيرًا ألقى عصاه في دمشق سنة (١٢٢٣) وقضى السَّنوات السَّبع عشرة الأخيرة من عمره في سلام وطمأنينة وإنتاج غزير.

وهذا هو سلطان العلماء سيدي عز الدين بن عبد السلام يشهد للشيخ الأكبر كما روى الإمام الشعراني في «طبقاته» قائلًا: (وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ مصر المحروسة يحط عليه -أي: على سيدي محيي الدين- كثيرًا، فلما صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلي وعرف أحوال القوم؛ صار يترجمه بالولاية والعرفان والقطبيانية).

وفي «اليواقيت والجواهر» يقول الإمام الشعراني: (ومن أثنى عليه -أي: الشيخ الأكبر- من مشايخنا محمد المغربي الشاذلي شيخ الإمام جلال السيوطي، وترجمه بأنه مربى العارفين؛ كما أن الجنيد مربى المريدين، وقال: إن الشيخ محيي الدين روح التنزلات والإمداد، وألف الوجود وعين الشهود وهاء المشهود الناهج منهاج النبي العربي).

وأما عن كرامات الشيخ الأكبر فهذه كرامة نسوقها للمنكرين على سيدي محيي الدين خاصة ولأعداء التصوف عامة، يقول سيدي عبد الوهاب الشعراني في «الطبقات»: (وأخبرني أخي الشيخ الصالح أحمد الحلبي: أنه كان له بيتٌ يشرف على

ضريح الشيخ محيي الدين، فجاء شخص من المنكرين بعد صلاة العشاء بنار يريد أن يحرق تابوت الشيخ، فخسف به دون القبر بتسعة أذرع، فغاب في الأرض وأنا أنظر، ففقد أهله من تلك الليلة، فأخبرتهم بالقصة فجاءوا وحفروا فوجدوا رأسه، فكلما حفروا نزل وغار في الأرض إلى أن عجزوا ورددوا عليه التراب).

وقد ذكر شيخ شيخنا سيدي أحمد ضياء الدين النقشبندي في «جامع الأصول» أن الشيخ محيي الدين صاحب طريقة بالاستدلال لدى أهل الحقائق كبقية الطريق، وقد انتهت إلى سيدي أحمد ضياء الدين بجانب النقشبندية طريقة الشيخ الأكبر عن طريق شيخه سيدي أحمد بن سليمان الطرابلسي، ولقنها هو لمولانا الإمام العارف سيدي الشيخ جوده إبراهيم؛ لتغمر أنوارها الوجود في هذا العصر كما غمرته دائماً من قبل.

وبعد: فما ذكرت عن مولاي الشيخ الأكبر إلا بعض قطرة من سناه، فبحق النور المحمدي أسالك يا سيدي محيي الدين يا سلطان العارفين أن تفيض علينا من أنوارك وأن تلحقنا بركابك، رضي الله عنك في زمرة المحمدين.

بقي الإمام ابن العربي في دمشق من (١٢٢٣-١٢٤٠م) وكان أميرها أحد تلاميذه، والتقى بها بشيوخ كثر منهم الإمام جلال الدين الرومي، وكان مجلسه في

دمشق عامراً بالعلماء والفقه والعلم، وكان واحداً من أعلامها حتى وفاته ٢٨ ربيع
ثان، عام ٦٣٨هـ - ١٢٤٠م، ودفن في سفح جبل قاسيون جبل الأنبياء.

وقام السلطان سليم العثماني بعمل مقام له ومسجد بجوار قبره الشريف، وما
زال قبره معلماً من معالم دمشق القديمة.

المصادر:

كتاب «الولاية المحمدية في مناقب أعلام الصوفية»، للأستاذ الدكتور جودة محمد
أبو اليزيد المهدي، ص ٤٥٩ - ص ٤٧٤.

- «الخيال الخلاق في تصوّف ابن عربي» هنري كوربان.

- «تنبيه الغبي بترئة ابن عربي» جلال الدين السيوطي.

- «الاغتيال بمعالجة ابن الخياط» الفيروزآبادي.

- «الرّد على المعترضين على الشّيخ محيي الدّين» الفيروزآبادي.

- «الرّد المتين على منتقص العارف محيي الدّين» الإمام عبد الغني النّابلسي.

- «الكبريت الأحمر في بيان علوم الشّيخ الأكبر» عبد الوهّاب الشّعراي.

- «القول المبين في الرّد عن الشّيخ محيي الدّين» عبد الوهّاب الشّعراي.

- «الفتح المبين في ردّ المعارض على الشَّيخ محيي الدِّين» عمر العطار.

- «لبس الخرقة» لابن عربي.

- «الرَّقة المدهشة في لبس الخرقة الصُّوفيَّة» لأبي المحاسن القاوقجي الطَّرابلسي

الشَّامي.

- «السفينة العراقية في لباس الخرقة الصُّوفيَّة» لمحمَّد بن عراق الدَّمشقي

(ت ٩٣٣هـ).

- «البرقة المشيقة في ذكر الخرقة الأنيقة» لعلي بن أبي بكر السَّقَّاف (ت ٨٩٥هـ).

- «الفتوحات القدسيَّة في الخرقة العيروسية» لعبد القادر بن الشَّيخ العيروس

(ت ١٠٣٨هـ).

إجازة في الطريقة الأكبرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيّدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: أجزتُ الأخ الشيخ عبد العزيز محمّد سهيل الخطيب الحسني بالطرق الصوفيّة بما أجازني به سيّدي الوالد مولانا الشيخ محمّد مكّي الكتّاني الحسني رحمه الله تعالى، والله خير الشاهدين.

السيد الشيخ محمّد الفاتح الكتّاني الحسني

هذه إجازة عامّة بسائر الطرق بشرط ألاّ يجيز بها إلّا المستحق.

هذه الإجازة العامّة كما أجازني بها مولانا الوالد الشيخ السيد محمّد المكّي الكتّاني؛ كما أجاز به بذلك سيّدنا الجد الإمام السيد محمّد عبد الله بن جعفر.

والله وليّ التوفيق.

والله المستعان على ما يصفون.

محمّد الفاتح الكتّاني

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

حضر الإجازة

سيدي أنس الكتّاني بن سيّدنا الفاتح وولده

الشيخ رضوان درويش وولده

الشيخ يوسف خورشيد وولده

جمع من المنشدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن داله

أجرت عبد العزيز محمد سكين الطيب الحنفي

بما أجازني به سيدي الوالد مولانا الشيخ محمد بك الثاني الحنفي

رحم الله علي ، والله خير الساعدين .

السيد الشيخ محمد الفاتح الثاني الحنفي

١٤٢٦
٩-١٥

لهذه إجازة عامة يسائر الطرق
بشرط أن لا يجز بها إلا الله وخو
لهذه الإجازة العامة كما
أجازني بها مولانا الوالد الشيخ
السيد محمد بك الثاني كما أجاز
بذلك سيدي الجد مولانا السيد محمد
عبد الله بن جعفر والله ولي
التوفيق مولانا السيد عثمان علي
ما يصفون محمد الفاتح الثاني

جغرافيا الإجازة

سيدي أبي الثاني بن سيدنا الفاتح مولده

الشيخ رضوان دريش مولده

الشيخ بكف خورشيد مولده

جميع من أجازني

سيدنا الإمام أحمد الرفاعي

الفقيه الشافعي الأشعري الصوفي

شيخ الطريقة الرفاعية

(٥١٢ - ٥٧٨ هـ)

الملقب بـ "أبي العَلَمين" و"شيخ الطرائق" و"الشيخ الكبير" و"أستاذ الجماعة"،
إليه تنتسب الطريقة الرفاعية من الصوفية، وهو أحد أقطاب الصوفية المشهورين.

ولقّب بشيخ العرجا؛ امرأة كانت حذاء عرجاء كبرت ولا شَعْر لها؛ لعاهة فيها؛
وصارت النساء يستهزئن بها، فقدم الإمام الرفاعي على أهلها ، فبكت أمامه،
وقالت: أنت شيخي وشيخ والدتي وذخري، أشكو إليك ما أنا فيه؛ لعل الله ببركتك
وقرابتك من رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم يعافيني، فأخذته الشَّفقة عليها، وبكى
لحالتها، ثمّ دعاها، فدنت منه، فمسح بيده على خمارها وظهرها، فنبت شعرها، وذهب
احديداها، وتقوّمت رِجالها؛ ولذلك سَمّي شيخ العُرجاء.

نسبه ومولده

هو السيد أبو العباس أحمد بن علي بن يحيى (نقيب البصرة المهاجر من المغرب إلى البصرة) ابن ثابت بن الحازم علي أبي الفوارس ابن أحمد المرتضى بن علي بن الحسن الأصغر المعروف برفاعه ابن مهدي المكي أبي رفاعه ابن أبي القاسم محمد بن الحسن القاسم المكنى بأبي موسى ابن الحسين عبد الرحمن لقبه الرضي المحدث ابن أحمد الصالح الأكبر ابن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي الأصغر بن الحسين بن علي بن أبي طالب^(١).

قدم به والده من المغرب إلى العراق، وسكن قرية أم عبيدة، وتزوج من فاطمة أخت القطب الشيخ منصور البطائحي الزاهد، ورزق منها أولادًا أعظمهم الإمام أحمد الرفاعي.

(١) ذكر نسبه الشريف مجموعة من الأكابر؛ منهم: برهان الدين علي الحلبي القاهري صاحب «السيرة النبوية»، والحافظ الزبيدي، والشيخ عبد العزيز الدريني، والشريف النسابة شرف الدين محمد بن عبد الله الحسيني في «مشكاة الأنوار»، والنسابة ابن الأعرج الحسيني في «بحر الأنساب»، والنسابة ابن ميمون نظام الدين الواسطي في مشجرة، والعلامة محمد الموصلي وغيرهم...

ولد الإمام أحمد الرفاعي في ١٥ رجب سنة ٥١٢ هـ في العراق في قرية حسن بالبطائح (والبطائح عدة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسط والبصرة) وفي السابعة من عمره توفي أبوه في بغداد، فكفله خاله الشيخ الزاهد منصور البطائحي (دفن بلد روز-العراق) وهو الذي رباه تربية دينية، وعنه تلقى علم التَّصَوُّف، وهو أوَّل شيخ للإمام الرَّفَاعِي في سلسلة الشُّيوخ الرَّفَاعِيَّة، وهي سلسلة تتضمن ١٥ إمامًا تنتهي بأمير المؤمنين سيِّدنا علي رضي الله عنهم.

وكان الإمام الرَّفَاعِي معاصر الإمام النَّوَوِي في القرن السَّابِع الهجري ينقل عن:

١- شيخه عمر الفاروقي.

٢- الشَّيْخ بدر الأنصاري.

٣- الشَّيْخ الإمام منصور البطائحي الرَّبَّانِي.

قال: (رأيت النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل ولادة ابن أختي الشَّيْخ أحمد الرَّفَاعِي بأربعين يومًا في الرُّؤْيَا، فقال لي: يا منصور! أبشرك أن الله يعطي أختك بعد أربعين يومًا ولدًا يكون اسمه أحمد الرَّفَاعِي، مثلما أنا رأس الأنبياء كذلك هو رأس الأولياء، وحين يكبر تأخذه إلى الشَّيْخ علي القارئ الواسطي، وأعطه له كي

يربيه؛ لأنَّ ذلك الرَّجل عزيز عند الله ولا تغفل عنه، فقال: الأمر أمركم يا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم).

نشأ الإمام أحمد الرفاعي منذ طفولته نشأة علمية، وأخذ في الانكباب على العلوم الشرعية، فقد درس القرآن العظيم وترتيله على الشيخ عبد السميع الحروبوني في قريته وله من العمر سبع سنين، وانتقل مع خاله ووالدته وإخوته إلى بلدة "نهر دfli" من قرى واسط في العراق، وأدخله خاله على الإمام الفقيه الشيخ أبي الفضل علي الواسطي^(١) وكان مقرئاً ومحدثاً وواعظاً عالي الشأن، فتولى أمر الإمام وقام بتربيته

(١) أبو الفضل هذا أخذ عن الإمام أبي بكر الشُّبلي، فهو تلميذ الشَّيخ أبي بكر الشُّبلي، والشُّبلي تلميذ الإمام الجنيد، والجنيد أخذ عن خاله السَّري السَّقَطي، عن معروف الكرخي، عن داود الطائي، عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن الإمام سيِّدنا علي، هذا نسب الطَّريقة العالي، فصار عند الإمام الرفاعي نسباً للطَّريقة ولبس الخرقة؛ الأول عن خاله الشَّيخ منصور البطائحي، والنَّسب الثاني طريق آل البيت من طريق معروف الكرخي عن علي الرُّضا، عن موسى الكاظم، عن جعفر الصَّادق، عن محمَّد الباقر، عن علي زين العابدين، عن سيِّدنا الحسين، عن سيِّدنا علي.

وتأديبه وتعليمه^(١)، فجدّد السيد أحمد الرفاعي في الدرس والتحصيل للعلوم الشرعية حتى برع في العلوم النقلية والعقلية، وأحرز قصب السبق على أقرانه.

كذلك يجب أن نعلم هنا أن الإمام كان عالماً قبل أن يبلغ رتبة التّصوّف؛ لأنّ أعداء التّصوّف يتهموننا بالجهل في ديننا، وهذا خطأ بيّن.

كان الإمام أحمد الرفاعي يلازم دروس العلم ومجالس العلماء، فقد كان يلازم درس خاله الشيخ أبي بكر سلطان علماء زمانه، كما كان يتردد على حلقة خاله الشيخ منصور البطائحي، وتلقّى بعض العلوم على الشيخ عبد الملك الحربوني، وحفظ عنه كتاب "التنبية" في الفقه الشافعي للإمام أبي إسحاق الشيرازي، وقام بشرحه شرحاً عظيماً، وأمضى أوقاته في تحصيل العلوم الشرعية على أنواعها، وشمّر للطاعة وجدّ في العبادة حتى صار عالماً وفقهياً شافعيّاً وعالماً ربانياً رجع مشايخه إليه وتأدّب مؤدّبوه بين يديه.

(١) مرّ على جماعة من الأولياء في صغره، فنظروا إليه وهو يجمع الخطب، فقال أحدهم: لا إله إلا الله محمّد رسول الله، ظهرت هذه الشّجرة المباركة، فقال الثّاني: عمّا قليل يكثر ثمرها ويشرق قمرها، فقال الثّالث: عمّا قليل يرى النّاس منها العجب ويكثر نحوها الطّلب، فقال الرّابع: عن قليل يعلو شأنها ويظهر برهانها، وصدقت فراسة الأولياء وتحقّقت بشاراتهم.

وحتى قيل: إنه انتهت إليه الرئاسة في علوم الشريعة والحقيقة وفنون القوم،
وانعقد عليه إجماع الطوائف، واعترف رجال وقته بعلو قدمه، ورفعة مرتبته، ووراثته
للنبي صلى الله عليه وسلم.

وكان الشيخ الجليل أبو الفضل علي محدث واسط وشيخها قد أجاز الإمام أحمد
الرفاعي وهو في العشرين من عمره إجازة عامة بكل علوم الشريعة والطريقة وأعظم
شأنه ولقبه بأبي العَلَمين؛ أي: عالم الظاهر والباطن.

وفي الثامن والعشرين من عمر الإمام أحمد الرفاعي الكبير عهد إليه خاله منصور
بمشيخة المشايخ ومشيخة الأروقة المنسوبة إليه، وأمره بالإقامة في أم عبيدة برواق
جده لأمه الشيخ يحيى النجاري والد الشيخ منصور الذي تولى كفالته العلمية
وتعليمه منذ طفولته، وهناك دراسات أكاديمية تؤكد أنه التقى بالشيخ الإمام عبد
القادر الجيلاني وأخذ عنه وكانا على اتصال وتنسيق عال، وخاصة بعد تقبيل يد
المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان الإمام الجيلاني حاضرًا فيها سنة ٥٥٥هـ.

المصادر:

«وفيات الأعيان» ١ / ١٧١

«الوافي بالوفيات» ٧ / ٢١٩

«سير» الذهبي ٧٧/٢١

«الكامل في التاريخ» ٤٩٢/١١

«العبر» ٢٣٣/٤

«شذرات الذهب» ٢٥٩/٤

«مرآة الزمان» ٣٧٠/٨

«طبقات الشافعية» لقاضي شهبة ٥/٢

«طبقات الشافعية» للسبكي ١٤/٤

«النجوم الزاهرة» ٩٢/٦

تصوف الإمام الشيخ أحمد الرفاعي

مولانا السيد أحمد الرفاعي كان شافعي المذهب أشعري العقيدة، وصل إلى درجة الاجتهاد المطلق، وكان فقيهاً محدثاً مُفسِّراً، وكان أعلم أهل زمانه^(١).

قال في كتابه «البرهان المؤيد»: (يا ولدي!... ما أكلته تفنيه... وما لبسته تبليه، وما عملته تلاقيه... والتوجه إلى الله حتم مقضي... وفراق الأحبة وعد مأتي... والدُّنيا أَوْهَا ضَعْف وفَتور... وآخرها موت وقبور... لو بقي ساكنها ما خربت مساكنها...)

وسلِّمْ في جميع أحوالك لله... واجعل سلوكك في طريق الفقراء بالتواضع، واستقم بالخدمة على قَدَم الشريعة...

واحفظ نيتك من دنس الوسواس، وأمسك القلب عن الميل للنَّاس^(٢)، وكُلْ خبزاً يابساً، وماءً مالِحاً من باب الله، ولا تأكل لحماً طريّاً وعسلاً من باب غير الله^(٣)، وتمسِّك بسببٍ لمعيشتك بطريق الشَّرْع من كسب حلال^(٤).

(١) له مؤلَّفات كثيرة أكثرها فُقد في موقعة التتار، وقام تلاميذه بجمع أقواله في كتب أربعة؛ ذكر فيها موضوع الطَّريقة الرَّفاعية، وآداب المريد، وأخلاق الصُّوفية، وخاصة في كتابه «البرهان».

وإياك من كسر خواطر الفقراء^(٤)...) وصِل الرَّحِم، وأكرم الأقارب، واعفُ
عمن ظلمك...، وتواضع لمن تكبر عليك... ولا تتردد لأبواب الوزراء والحكام^(٥)،
وأكثر من زيارة القبور، وليّن كلامك للخلق، وكلمهم على قَدْر عقولهم، وحسّن
خلقك، وامتزج [مع] النَّاس بحسن المزاج^(٦)، وأعرض عن الجاهلين، وقم بقضاء

(١) السَّلامة في العزلة عن النَّاس.

(٢) فالأوّل حلال ١٠٠٪، والثَّاني لا تعرف مصدره أهو حلال أم لا؟

(٣) أوجد لك خرقه يوافق عليها الشَّرع.

(٤) إذا انكسر خاطر الفقير هانت عليه نفسه، وارتكب الآثام، من يهن يسهل الهوان عليه؛ لأنَّ
الإحساس بالكرامة تمنع الإنسان من أشياء كثيرة، سيقول الشَّخص عن نفسه: بما أنَّ أفضل ما
عندي قد رفض فسوف أرتكب الشَّر، ولن أبالي بشيء.

(٥) الإمام السيوطي له كتاب لطيف: «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السَّلاطين» وفي حديث أبي
داود: «من أتى السُّلطان افتتن»، وأخرج الطبراني: «إياكم وأبواب السُّلطان»؛ لأنَّه لن يستطيع أن
ينكر المنكر، والسُّلطان نفسه سيقول: لولا أنَّي على صواب لأنكر عليَّ الفقيه، وكيف لا أكون مصيبًا
وهو يأكل مالي؟! وقال سفيان الثَّوري: لا أخاف من إهانة السُّلطان لي، إنَّما أخاف من إكرامه،
فيميل قلبي إليه.

(٦) النَّبي صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: «وخالق النَّاس بخُلُق حسن».

حوائج اليتامى وأكرمهم، وأكثر التَّرداد لزيارة المتروكين الفقراء^(١)، وبادر لخدمة الأرامل^(٢)، وارحم تُرحم^(٣)، وكُنْ مع الله تَرَّ الله معك، واجعل الإخلاص رفيقك في سائر الأقوال والأفعال؛ لأنَّ مدار القَبُول على الإخلاص، واجتهد بهداية الخلق لطريق الحق، لَأَتَّهَا مهنة الأنبياء: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وستمر مؤلفاته آخر التَّرجمة، ولكن أحببتُ أن أقرأ عليكم من كتابه: «البرهان» هذا النَّص لتسمعوا معي كلام الإمام بالسند المتَّصل إليه؛ لأنني مجاز وخليفة في الطَّريقة الرَّفاعية عن طريق سيدي عبد الحكيم عبد الباسط إلى الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّبْسبي والشَّيخ محمَّد سعيد النعسان مفتي حماة.

(١) ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

(٢) «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلِ الصَّائِمِ النَّهَارِ» أخرجه البخاري.

(٣) «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ».

وكان رضي الله عنه يُضرب به المثل في التواضع والانكسار ولين الجانب ورحمة الناس والشفقة عليهم، وقد وصفه الإمام الرافعي (محرر المذهب الشافعي) فقال: كان متمكنًا في الدين، سهلًا على المسلمين، صعبًا على الضالين، هينًا لينا بشا لين العريكة (أي: سلسلاً)، وكان حسن الخلق كريم الخلق حلو المكاملة لطيف المعاشرة، لا يملّه جليسه ولا ينصرف عن مجالسه إلا لعبادة، حمولاً للأذى^(١)، وفيًا إذا عاهد، صبورًا على المكاره متواضعًا، وستمراً أقوال العلماء فيه والثناء عليه.

التَّصَوُّفُ عنده أساسه احترام الشريعة أولاً وآخرًا، والطُّرُق التي تخالف الشريعة زندقة، وما لم تشرق مناهجها بنور علم النبي صلى الله عليه وسلم وعمله؛ فهي باطلة، فطريق الحق هو طريق النبي صلى الله عليه وسلم.

والصُّوفي المتَّبِع هو الذي يعظم شأن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّه الدَّاعي إلى الله والمخبر عنه، وهو باب الحضرة الرَّحمانية، من اتَّصل به اتَّصل، ومن انفصل عنه انفصل.

(١) بعض الناس في عصره كانوا يجسدونه ويكيدون له، ومنهم من كان يفترى عليه.

التَّصَوُّفُ الحقُّ عنده لا يؤخذ بالرَّأي، فما هلك من هلك إلاَّ بالرَّأي، والتَّصَوُّفُ لا يحكم فيه بالرَّأي إلاَّ في المباحات، والأساس في الطَّريقة الرَّفاعية المحمَّدية إحياء السُّنَّة، والصُّوفي على الدِّين ما دام على السُّنَّة، فمن حاد عنها زلَّ عن الطَّريق، فما رأيكم دام فضلكم؟ هل في شيء من هذا سوء أو خطأ؟!

كان لا يجمع بين لبس قميصين، ولا يأكل إلاَّ بعد يومين أو ثلاثة أكلة.
وإذا غسل ثوبه ينزل في الشَّطِّ كما هو قائم يفركه، ثمَّ يقف في الشَّمس يَحْتَى يجف.
كان كثير الاستغفار، عالي المقدار، رقيق القلب، غزير الإخلاص.

مرَّةً اجتمع الأولياء، فطلب كُلُّ واحد شيئًا، فقال مولانا الرَّفاعي: أي ربِّ علمك محيط بي وبطلبي... فكررُوا عليه القول... فقال: أي مولاي أريد ألاَّ أريد، وأختار ألاَّ يكون لي اختيار... وهذا منتهى التَّوكل على الله...

وكان الإمام السيد الرفاعي حينما يقعد مع الناس يقول لهم:
أي سادة؛ لست بشيخ عليكم، لست مقدِّمًا على هذا الجمع.

كان يذهب إلى المرضى المصابين بالجذام، ويبحث عنهم، فيقعد معهم يُطعمهم ويأكل معهم ويتعهدهم بالدواء والطعام، ثم يأخذ ثيابهم فيغسلها لهم؛ من قوة يقينه..

وكان يقول: الشَّفقة على الإخوان مما يقربُّ إلى الله تعالى، وصلنا إلى ما وصلنا إليه بالشفقة على عباد الله.

وكان يقول: إذا رأيتُ يتيماً يبكي يتقلقل كلُّ عضوٍ منِّي، حتى لُقِّبَ أبا الأيتام والمساكين، وأخبار شفقتة على الخلق أكثر من أن تحصى.

طريقة الإمام الشيخ أحمد الرفاعي

يعدُّ الإمام الرَّفَاعِي المتوفى عام (٥٧٨هـ) من أبرز المتصوّفة وأشهرهم في العصر العباسي الثاني، فقد استمرت طريقته من ذلك الحين إلى الوقت الحاضر، والسَّبب أنَّ المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة؛ ليهديه إلى سواء السَّبيل، فإن سبيل الدِّين غامض، وسبيل الشَّيْطان كثيرة ظاهرة.

الإمام الغزالي يقول: فمن سلك البوادي المهلكة بغير خفير؛ فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشَّجرة التي تنبت بنفسها، فإنَّها تحفّ على القرب، وإن بقيت مدَّة وأورقت لم تثمر، فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به^(١).

سيِّدنا موسى قال لسيِّدنا الخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]؛ ولذلك استمرَّت الطَّريقة الرَّفَاعِيَّة، ومن أسباب استمرارها أيضًا أنَّها تقوم على العمل بمقتضى الكتاب والسُّنة.

تقوم الطريقة الرفاعية على العمل بمقتضى ظاهر الكتاب والسنة^(٢)، ثم أخذ النفس بالمجاهدة والمكابدة، والإكثار من الذكر، وقراءة الورد، وذلك وفق إرشادات

(١) (الإحياء ٣/ ٣٥).

الشيخ وتوجيهاته، مع ضرورة التسليم والانقياد له والانصياع لأوامره، وعلى المريد أن يتمسك بالكتاب والسنة ثم تعاليم الشيخ ويعمل بما قاله من التزام السنّة، وموافقة السلف الصالح على حالهم^(١)، وليأس ثوب التعرية من الدنيا والنفس، وتحمل البلاء، ولبس الوقار واجتناب الجفاء، وقد اشتهر عن بعض أتباع الرفاعي حديثاً القيامُ بأفعال عجيبة؛ كاللعب بالشعابين، وركوب الأسود، والدخول في النيران المشتعلة دون أن تحرقهم أو تؤثر فيهم^(٢)، وغيرها، فهذه لم تكن معروفة عند

(١) قبل الأخذ بتعاليم الشيخ الطريق عنده أن تقول: آمنت بالله، ووقفت عند حدود الله، وعظمت ما عظم الله، وانتهيت عما نهى الله.

الرّفاعية كلّهم يقولون: من لم يعرف أدب الظّاهر؛ لا يؤتمن على أدب الباطن، وكلّ الآداب منحصرة في متابعة النّبي قولاً وفعلًا وحالًا وخُلُقًا، فالطّريقة الرّفاعية هي طريقة الإمام الجنيد نفسها، ويزيد عليها مجلس الدّكر والإرشاد بما نعرفه اليوم بالحضرة، و«ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن»، فالدّكر مسنون وواجب، والإنشاد مستحب، والحركة مباحة لا يقال عنها: حلال ولا: حرام، فهل يفهم هذا أولو الألباب؟!.

(٢) الرّفاعية عندهم كتاب: «الحكم الرفاعية»، وهو نصائح الإمام الرّفاعي وتوجيهاته، يعملون بها.

(٣) وهذا يدل على أحوالهم السّامية؛ كما جرى لسيدنا إبراهيم معجزة أن النار لم تحرقه، وما كان

الشيخ الرفاعي، لكنها استُحدثت بعد وفاته وإن كان الشيخ قد عُرف بحنانه الشديد على الإنسان والحيوان، وكان أشد ما يكون حذباً ورعاية للحيوانات الضالة والمريضة^(١).

معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، وهذا أبو مسلم الخولاني رماه الأسود العنسي المتنبي في النار ثلاث مرات، ولم تؤثر فيه، ثم بسبب مشايخ الرِّفَاعِيَةِ أسلم السُّلْطَانُ أَحْمَدُ بْنُ هَوْلَاكُو مَلِكُ التَّار. (١) من مزايا هذه الطريقة مكافحة عقيدة الحلول والاتحاد، وهذا حاربه الإمام الرِّفَاعِي نفسه، ولم يقتصر على إنكار اعتقادهما، بل ينكر اللَّفْظَ بهما ولو من غير اعتقاد معنى الحلول والوحدة. يقول الإمام أبو القاسم الرافعي: إِنَّ الإِمَامَ الرِّفَاعِيَّ قَالَ فِي الْحَلَّاجِ: مَا أَرَاهُ رَجُلًا عَارِفًا، مَا أَرَاهُ شَرِبَ، مَا أَرَاهُ سَمِعَ إِلَّا رَنَةً أَوْ طَنِينًا، فَأَخَذَهُ الْوَهْمُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، مِنْ أَزْدَادٍ قَرِيبًا وَلَمْ يَزِدْ خَوْفًا؛ فَهُوَ مَمْكُورٌ، يَذْكُرُونَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا الْحَقُّ، أَخْطَأَ بُوْهْمُهُ، لَوْ كَانَ عَلَى الْحَقِّ؛ مَا قَالَ: أَنَا الْحَقُّ. وقال الإمام الرفاعي رضي الله عنه: لَفْظَتَانِ ثَلَمَتَانِ فِي الدِّينِ [أي: ثغرة في الدين، هدم للدين] والقول بالوحدة والشطح المجاوز حدَّ التَّحَدُّثِ بالنعمة، فقوله هذا صريح في أَنَّ القول بالوحدة المطلقة مهلك لصاحبه؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْفِرْقَةَ تَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ هُوَ اللَّهِ. وكتب الإمام الرِّفَاعِي إلى أحد مريديه الشَّيْخِ عَبْدِ السَّمِيعِ الْهَاشِمِيِّ الْوَاسِطِيِّ قَدَّسَ اللَّهُ سِرَّهُ يوصيه به قال فيه: إِيَّاكَ والقول بالوحدة التي خاض بها بعض المتصوِّفة، وإِيَّاكَ والشَّطْحَ.

دأب الإمام الرفاعي - كغيره من العلماء العاملين - في تعليم الناس أمور دينهم،
وجَدَّ في الوعظ والإرشاد، وعقد حلق العلم حتى كان نبراسًا يستضيء به الناس فيما
ينفعهم، وكان لا يفتر عن تعليم الناس هدي الرسول وأسرار القرآن العظيم.

وفي رسالة "سواد العينين في مناقب أبي العلمين"^(١) للإمام أبي القاسم عبد الكريم
الرافعي الشافعي^(٢) قال: أخبرني الفقيه العالم الكبير بغية الصالحين قال: كنت في "أم

قال سيّدنا الإمام أبو الهدى الصيادي أحد علماء الرّفاعية في القرن الرّابع عشر الهجري ما نصّه: من قال:
(أنا الله)، أو: (لا موجود إلا الله)، أو: (ما في الوجود إلا الله)، أو: (هو الكل)؛ فإن كان في عقله
حكم برّدته.

لم يقل أحد من الصوفية بالحلل والائحاد، وكلّكم يحفظ القصيدة للإمام عبد الغني النابلسي:

إيّاك تشهد غيره ودع العنا	لا أنت في هذا الوجود ولا أنا
يا ابن الحوادث لا تظنّ فلا تكن	أنت القديم وإن بدا بك واعتنى
إن الحلل من الجهول توهم	في قول أهل الله يجعل ديدنا
ما إن سمعت ولست أسمع عاقلًا	أبدًا يظن الحق يسكن ممكنًا

(١) وهو مشهور في مناقب الإمام الرّفاعي.

عبدة" زائراً عند السيد أحمد الرفاعي في رواقه وحوله من الزائرين أكثر من مئة ألف إنسان؛ منهم الأمراء والعلماء والشيوخ والعامة، وقد احتفل بإطعامهم وحسن البشر لهم كل على حاله، وكان يصعد الكرسي بعد الظهر، فيعظ الناس، والناس حلقة حلقة حوله، فصعد الكرسي بعد ظهر خميس وفي مجلسه وعَاطُ واسط، وجُم كثير من علماء العراق وأكابر القوم، فبادر القوم بأسئلة من التفسير وآخرون بأسئلة من الحديث، وجماعة من الفقه، وجماعة من الأصول، وجماعة من علوم أخرى^(١)، فأجاب عن مئتي سؤال من علوم شتى ولم يتغير حاله حال الجواب، ولا ظهر عليه أثر الحدة، فأخذتني الحيرة من سائليه، فقمت وقلت: أما كفاكم هذا؟ والله لو سألتموه عن كل علم دُونَ؛ لأجابكم بإذن الله بلا تكلف، فتبسم وقال: دعهم أبا زكريا يسألوني قبل أن يفقدوني، فإن الدنيا زوال، والله محول الأحوال، فبكى الناس وتلاطم المجلس بأهله

(١) ت ٦٢٣ هـ ودفن بقزوين إيران، من أعمدة قرنه السادس الهجري وشيوخه؛ لأنه ولد عام ٥٥٧ هـ، من أهم أعماله أنه وحد بين طريقتي العراقيين والخراسانيين في الاستدلال الفقهي، وحذا حذوه الإمام النووي، وكلاهما مجتهد مذهب.

(٢) تقدّم معنا أن الإمام بلغ درجة الاجتهاد المطلق.

وعلا الضجيج، ومات في المجلس خمس رجال، وأسلم من الصابئين ثمانية آلاف رجل أو أكثر، وتاب أربعون ألف رجل.

سيرة الإمام الشيخ أحمد الرفاعي

وأخلاقه ومؤلفاته وتلامذته

سيرته وأخلاقه^(١):

كان الإمام الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه يأمر في مجلس وعظه بالتزام حدود الشرع، ويحذر الناس من أهل الشطح والغلو ويقول: "هؤلاء قطاع الطريق فاحذروهم" وكان يكره أصحاب القول بالحلول والوحدة المطلقة الذين يقولون: إن الله يحل بالعالم، ويقول: "هؤلاء قوم أخذتهم البدعة من سروجهم، إياكم ومجالستهم".

وكان يأمر باتباع هدى الشريعة والسير على طريقة المصطفى صلى الله عليه وسلم ويقول: "اتبع ولا تبتدع، فإن اتبعت بلغت النجاة وصرت من أهل السلامة، وإن ابتدعت هلكت".

زهده وتواضعه:

كان الإمام الشيخ أحمد الرفاعي الكبير متواضعاً في نفسه خافضاً جناحه لإخوانه

(١) من أهم الكتب التي ذكرت حياة الإمام الرفاعي كتاب «قلادة الجواهر».

غير مترفع ولا متكبر عليهم^(١)، وروى عنه أنه قال: "سلكت كل الطرق الموصلة، فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الافتقار والذل والانكسار^(٢)، فقليل له: يا سيدي فكيف يكون؟ قال: تعظم أمر الله، وتشفق على خلق الله، وتقتدي بسنة سيدك رسول الله".

وكان الإمام الرفاعي يخدم نفسه، ويخفف نعله، ويجمع الخطب بنفسه ويشده بحبل ويحمله إلى بيوت الأرامل والمساكين وأصحاب الحاجات، ويقضي حاجات المحتاجين، ويقدم للعميان نعالهم، ويقودهم إذا لقي منهم أناسًا إلى محل مطلوبهم، وكان يمشي إلى المجذومين والزمنى ويغسل ثيابهم ويحمل لهم الطعام، ويأكل معهم ويجالسهم ويسألهم الدعاء.

وكان يعود المرضى، وإذا سمع بمريض في قرية ولو على بعد يمضي إليه ويعوده. وكان شفيقًا على خلق الله، يرأف باليتيم، ويبكي لحال الفقراء ويفرح لفرحهم، وكان يتواضع كل التواضع للفقراء.

-
- (١) ومن أقواله لمريديه: من تمشيخ عليكم فتتلمذوا له، ومن مدَّ يده إليكم لتقبَّلوها فقبَّلوا رجله، ومن تقدَّم عليكم فقدَّموه، وكونوا آخر شعرة في الذنب، فإنَّ الصَّربة أوَّل ما تقع على الرَّأس.
- (٢) كان يدعو أصحابه، ويقدم لهم التَّمر الفاخر، وينقي لنفسه التَّمر الرديء، ويقول: أنا أحقُّ به منكم، ثمَّ يقول هذه المقولة.

وكان لا ينظر إلى الأمراء، ولا يقوم لهم ويقول: النَّظر في وجوههم يقسِّي القلوب.

وقد قال مشايخ أهل عصره: كل ما حصل للرفاعي من المقامات إنما هو من كثرة شففته على الخلق وذل نفسه.

وكان من رقة قلبه لا يسمح بقتل نملة، يقول أصحابه: إِنَّ هرة نامت على كُم الإمام، ونودي للصلاة، فقَصَّ كَمَّه وما أزعجها، فلَمَّا انتهت الصلاة وقامت الهرة؛ عاد ووصله ثانيًا، وقال: عاد الكُم كما كان.

وكان الإمام الشيخ أحمد الرفاعي يعظّم العلماء والفقهاء ويأمر بتعظيمهم واحترامهم ويقول: هؤلاء أركان الأمة وقادتها.

سخاؤه وسلامة طويته:

كان للإمام ليلة يسمونها ليلة الإحياء، يجتمع في زاويته نحو مئة ألف إنسان، وكان هو من يقوم بكفائتهم بالطعام والشراب.

كان الإمام الشيخ أحمد الرفاعي متجردًا من الدنيا، ولم يدخر أموالها، بل كان لا يجمع بين لبس قميص وقميص لا في صيف ولا في شتاء، مع أن ريع أملاكه كان أكثر من ريع أملاك الأمراء، وكان كل ما يحصل منها ينفقه في سبيل الله على الفقراء

والسالكين والواردين إليه، وكان يقول: الزهد أساس الأحوال المرضية والمقامات السنية.

وكان يقول: طريقي دين بلا بدعة، وعمل بلا كسل، ونية بلا فساد، وصدق بلا كذب، وحال بلا رياء.

كراماته:

أشهر كرامة للإمام الرفاعي قضية تقبيله يد المصطفى صلى الله عليه وسلم وسماع صوته الشريف، فيما نقله الإمام السيوطي في رسالته الشهيرة من عدة طرق، وقال: إنها بلغت عدد التواتر، قال: حدثنا شيخ الإسلام الشيخ كمال الدين إمام الكاهية، عن شيخ مشايخنا الإمام العلامة الهمام الشيخ شمس الدين الجزري، عن شيخه الإمام زين الدين المراغي، عن شيخ الشيوخ، البطل، المحدث، الواعظ، الفقيه، المقرئ، المفسر، الإمام، القدوة، الحجة، الشيخ عز الدين الفاروقي الواسطي، عن أبيه الأستاذ الأصيل، العلامة الجليل، الشيخ أبي إسحاق إبراهيم الفاروقي، عن أبيه إمام الفقهاء والمحدثين، وشيخ أكابر الفقراء والعلماء العاملين، الشيخ عز الدين أبي الفرج الفاروقي الواسطي، قُدمت أسرارهم جميعاً قال:

كنت مع شيخنا ومَفْزَعِنَا وسيدنا أبي العباس القطب الغوث الجامع الشَّيخ السيد أحمد الرِّفَاعِي الحسيني رضي الله عنه عام خمس وخمسين وخمس مئة العام الذي قدر الله له فيه الحَجَّ، فلَمَّا وصل مدينة رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم؛ وقف تجاه حجرة النَّبِيِّ عليه الصَّلَاة والسَّلَام وقال على رؤوس الأشهاد: السَّلَام عليك يا جدي، فقال له عليه الصَّلَاة والسَّلَام: وعليك السَّلَام يا ولدي، سمع ذلك كلُّ من في المسجد النَّبَوِي، فتواجد سيِّدنا أحمد، وأُرعِد، واصفر لونه، وجثا على ركبتيه، ثمَّ قام، وبكى وأنَّ طويلاً، وقال: يا جداه!

في حالة البعد رُوحِي كنت أرسلها تُقبَل الأرض عني وهي نائِتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فمدَّ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يده الشَّريفة العطرة من قبره الأزهر المكرَّم، فقبَّلها في ملأ يقرب من تسعين ألف رَجُل، والنَّاس ينظرون اليد الشَّريفة، وكان في المسجد مع الحَجَّاج الشَّيخ حياة بن قيس الحراني، والشَّيخ عبد القادر الجيلي المقيم ببغداد، والشَّيخ خميس، والشَّيخ مدين مسافر الشَّامي وغيرهم، وتشرفنا معهم برؤية

اليد المحمدية الزكية، وفي يومها لبس الشيخ حياة بن قيس الحراني خرقة السيد أحمد الكبير، واندرج في مسلك أصحابه^(١).

يقول الراوي: أمر الشيخ الرفاعي الناس في الحرم ألا يخرج واحد منهم حتى يطأ بقدمه على عنق الشيخ حتى لا تتكبر نفسه، وبويع إمامًا وشيخًا رضي الله عنه.

ومرّة قام الذّاكرون للذكر، وكان بالمجلس طفل لأحدهم نائم، فطاب السّماع، وأخذ القوم الحال، فداس بعضهم على الطفل حتى مات، فلمّا انتهى اللّيل؛ رفع الخادم الغطاء والفُرش، فوجد الطفل ميتًا، فأخبروا مولانا الرفاعي الذي قام من فوره إلى الطفل، وبسط خرقة، وصلى ركعتين، ثمّ مدّ يده يدعو، فلمّا انتهى نادى على الطفل: يا فلان اقعد بإذن الله، ثمّ أمرّ يده المباركة عليه، فقام كأنّه كان نائمًا...

ستقولون: الإمام أحيّا الموتى!! أقول: نعم بإذن الله، وإن لم تصدّقوا؛ فاقروا: ﴿وَأُخِي الْمُوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي.

(١) وليس معناه أنّه دخل في عداد الصّحابة؛ لأنّ الحجّة استمرار حياته صلى الله عليه وسلّم، وهذه الحياة أخروية، وبهذا قال السخاوي.

سمع أصحابه عن كرامات الإمام، ولم يشك أحد أنَّ الإمام بلغ مبلغاً عظيماً من الولاية، جاءه مرّة ضيف، فقال له: لي عشرون يوماً لم أذق طعم الأكل، فقال: تمنّني عليّ، فقال: أشتهي إحدى هذه الإوزات الطائرة.

يقول الراوي: رفع سيّدنا الإمام أحمد يديه، وقال: يا رب عجل بشهوة الرّجل، قال: فوقعت الإوزة مشوية بين يدي الشّرخ بإذن الله تعالى، ومدّ الرّفاعي يده إلى حجرين كانا إلى جانبه، فأمسك بهما، فإذا هما رغيفان ساخنان بإذن الله تعالى، فأكل الضّيف وشرب، ثمّ أخذ الإمام الرّفاعي عظام الإوزة وجمعها مع ريشها، وقال: أيتها العظام المنفرقة والأوصال المتقطعة؛ اذهبي وطيري بأمر الله تعالى، بسم الله الرّحمن الرّحيم، فعادت الإوزة حيّة وطارَت في الجو تماماً كما كان يفعل سيّدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصّلاة والسّلام.

حكى الإمام الياضي في كتابه «روض الرّياحين» أنّه دعي مع شيخه علي بن القارئ إلى طعام، فلمّا أكلوا بدأ الإنشاد وضرب الدّف، فلمّا طاب القوم وتواجدوا وثب الشّرخ الرّفاعي إلى المنشد وثقب الدّف، فالتفت المشايخ إلى شيخه ابن القارئ، ونافروه فيما صدر عن سيدي أحمد، فقال لهم: اسألوه فإن أتى بجواب وإلاّ غرمت لكم قيمة الدّف، فسألوه: لم كسرت الدّف؟ قالوا: نرجع إلى أمانة المنشد نخبرنا بالذي

خطر بباله، فسألوا المنشد فقال: كنت البارحة عند قوم يشربون الخمر، فسكروا وتمايلوا كتمايل هؤلاء الشيوخ، فخطر لي: هؤلاء كأولئك، فلم يتمّ خاطري حتّى قام هذا الصبي وخسف الدف، فعند ذلك قام المشايخ إلى سيّدي أحمد، وقبلوا يده، واعتذروا إليه.

تلاميذه والمنتسبون إليه بالطريقة:

شيخ الشريعة يمثله أركان الإسلام.

شيخ الحقيقة يمثله أركان الإيمان.

شيخ الطريقة يمثله أركان الإحسان.

الشريعة هي الأساس، والطريقة هي الوسيلة في السلوك إلى الله، والحقيقة هي الثمرة، وهذه الأشياء الثلاثة متكاملة منسجمة، فمن تمسك بالأولى منها سلك إلى الثانية فوصل إلى الثالثة، وليس بينها تعارض ولا تناقض؛ لذلك يقول الصوفيّة في قواعدهم المشهورة: كلُّ حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة، فلإمام الرّفاعي فضل كبير.

فكما حفظ علماء الظّاهر حدود الشريعة؛ كذلك حفظ علماء التّصوّف آدابها وروحها، وكما أبيع لعلماء الظّاهر الاجتهاد في استنباط الأدلّة واستخراج الحدود

والفروع، والحكم بالتَّحليل والتَّحريم على ما لم يرد فيه نصٌّ؛ فكَذلك لعلَّماء الصُّوفِيَّة أن يستنبطوا آدابًا ومناهج لتربية المريدين وتهذيب السَّالِكين.

كثُر تلاميذ الإمام أحمد الرفاعي^(١) في حياته وبعد مماته حتى قال ابن المهذب في كتابه "عجائب واسط": بلغ عدد خلفاء السيد أحمد الرفاعي وخلفائهم مئة وثمانين ألفًا حال حياته^(٢)، ومن عظيم فضل الله على السيد أحمد الرفاعي أنه لم يكن في بلاد المسلمين مدينة أو بلدة أو قطر تخلو زواياه وربوعه من تلامذته ومحبيه العارفين المرصنين.

إذا أحبَّ الله عبدًا وضع له القَبُول في الأرض، كما في حديث: «إذا أحبَّ الله عبدًا نادى جبريل: يا جبريل؛ إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثمَّ ينادي في السماوات: إِنَّ الله يحبُّ فلانًا فأحبُّوه، فيحبه أهل السَّماء، ثمَّ يوضع له القَبُول في الأرض».

(١) الرَّفَاعِي نسبة لأحد أجداده الملقب رفاعة، واسمه الحسن المكي كما تقدم.

(٢) كانت تظهر لهم الكرامات؛ كدخول الأفران الحامية، كان أحدهم يدخل الفرن الحامي ينام في جانب، والخباز يخبز في الجانب الآخر لا يتأذى بالنَّار؛ لأنَّ النَّار لا تخلق الإحراق، إنَّما خالقها هو الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا...﴾ [الأنبياء: ٦٩].

كان أقسم على أصحابه: إن كان فيه عيب أن ينبّهوه عليه، فقال الشَّيخ عمر
الفاروقي: يا سيّدي أنا أعلم فيك عيبًا، قال: وما هو؟، قال: يا سيّدي عيبك أننا من
أصحابك، فبكى الشَّيخ والفقراء، وقال: أي عمر إن سلم المركب حمل من فيه.

ومن الذين ينتمون إليه:

الشيخ الحافظ المحدث عز الدين الفاروقي الواسطي.

الشَّيخ حسن -من قطنا- المعروف بالشَّيخ حسن الرَّاعي.

الإمام الشَّيخ حياة بن قيس الحراني.

الإمام الشيخ أحمد البدوي.

الإمام العارف بالله أبو الحسن الشاذلي.

العارف بالله الشَّيخ إبراهيم بن محمّد الكازروني صاحب «شفاء الأَسقام».

الشيخ السيد عبد الله الحراكي الحسيني ابن عمته.

الشيخ نجم الدين الأصفهاني شيخ الإمام إبراهيم الدسوقي.

الشيخ أحمد علوان المالكي.

الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي.

الشيخ المقداد بن محمد الرفاعي.

الشيخ عقيل المنبجي.

الشيخ علي الخواص.

العارف بالله السيد أحمد الضرغامى.

قال العلماء عنه:

إنَّ فضائل الإمام ومناقبه أكثر من أن تحصر، فهو

شيخ على قدم النبي سلوكه فطريقه عن جدّه مسنون

وإمام صدق لو فهمت طريقه أدركت سرّ الشرع كيف يكون

القاضي أبو شجاع الشافعي^(١)، أحمد بن الحسين الأصفهاني، صاحب المتن

المشهور في الفقه الشافعي^(٢)، نقل عنه الإمام الرافعي ما نصه: حدثني الشيخ الإمام

أبو شجاع الشافعي فيما رواه قائلاً:

(١) ولد بين (٤٣٣-٥٣٣هـ)، كان من أفراد الدهر، درس المذهب الشافعي في مدارس البصرة

٤٠ سنة، وعاش ١٦٠ سنة، لم يختل له عضو من أعضائه، سئل عن ذلك فقال: أعضاء حفظناها في

كان السيد أحمد الرفاعي عَلمًا شامخًا، وجبلاً راسخًا، وعالمًا جليلاً، محدثًا فقيهاً، مفسراً ذا روايات عاليات، وإجازات رفيعات، قارئاً مجوداً، حافظاً مُجيداً، حُجة رحلة، متمكناً في الدين... أعلم أهل عصره بكتاب الله وسنة رسوله، وأعملهم بها، بحرّاً من بحار الشرع، سيفاً من سيوف الله، وارثاً أخلاق جده رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم.

الإمام الذّهبي: الإمام، القدوة، العابد، الزّاهد، شيخ العارفين... توفي سنة ثمان وسبعين وخمس مئة.

الشيخ المؤرخ ابن الأثير الجزري: وكان صالحاً ذا قبول عظيم عند الناس، وعنده من التلامذة ما لا يحصى.

الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، صار قاضياً، واستوطن المدينة آخر حياته، وعمل خادماً للحجرة النبوية، وقبره داخل الحرم اليوم، عند باب جبريل، ورأسه قريب من الحجرة الشريفة، لم يصل إلينا من مؤلفاته غير كتابين «شرح الإقناع» للماوردي، و«غاية الاختصار» (متن الغاية)، توفي سنة ٥٩٣هـ.

(١) وكان من تلاميذه وتخرّج على يديه.

المؤرخ الفقيه صلاح الدين الصفدي : الإمام القدوة العابد الزاهد، شيخ
العارفين.

الشيخ المحدث عبد السميع الهاشمي الواسطي: كان السيد أحمد آية من آيات
الله.

شيخه الشيخ منصور البطائحي: وزنته بجميع أصحابي وبني أيضاً فرجنا جميعاً.
صاحب «القاموس» الفيروزآبادي:

أبا العِلمين أنت الفرد لكن إذا حُسِبَ الرِّجال فأنت حزب

المؤرخ ابن خلكان: كان رجلاً صالحاً، فقيهاً شافعيّ المذهب.

المؤرخ ابن العماد الحنبلي: الشيخ الزاهد القدوة.

ابن قاضي شهبة ذكره في «طبقات الشافعية» وعدّه من فقهاءهم.

الإمام تاج الدين السبكي^(١): الشيخ الزاهد الكبير، أحد أولياء الله العارفين،
والسادات المشمرين، أهل الكرامات الباهرات.

الشيخ عبد الوهاب الشعراني: هو الغوث الأكبر، والقطب الأشهر، أحد أركان
الطريق وأئمة العارفين الذين اجتمعت الأمة على إمامتهم واعتقادهم.

أوراده:

للإمام الرفاعي أوراد وأحزاب تفوق ٦٦٠ حزبًا ووردًا؛ منها: حزب المناجاة،
وحزب الحراسة، وحزب الستر، والحزب الصغير، والحزب الكبير.

ورد الطريقة الرفاعية:

١٠٠ مرّة لا إله إلا الله.

١٠٠ مرّة أستغفر الله العظيم وأتوب إليه.

١٠٠ مرّة اللهم صلّ على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

(١) جعله في عداد الفقهاء والشافعية، وذكر أنّه لما أتى عليه رمضان، وهو رضيع امتنع عن شرب
الحليب نهائيًا حتى انقضى رمضان وأنّه كان لا يجلس مع الصّبيان إلّا قليلًا، ويألف مجالس الشيوخ
ويعمل بنصائحهم.

ثمَّ قراءة الفاتحة الشَّريفة وآية الكرسي ١٢ مرَّة صباحًا ومساءً بعد الغروب.

هذا ورد الطريقة الرفاعية هو الورد نفسه في الطريقة الشاذلية إلا أنهم يقرؤون الفاتحة الشريفة وآية الكرسي كل واحدة منهما اثنتي عشرة مرة.

وفاته:

عندما بلغ الإمام أحمد ٦٦ من عمره مرض بداء البطن (الإسهال الشديد) وبقي مريضًا أكثر من شهر، وكان مع خطورة مرضه يتحمل الآلام الشديدة من دون تأوه أو شكوى، مستمرًا وثابتًا على تأدية الطاعات والعبادات التي اعتادها بقدر استطاعته^(١) إلى أن وافته المنية يوم الخميس ١٢ جمادى الأولى عام ٥٧٨ هـ، ودفن في قبة جدّه لأُمّه الشيخ يحيى البخاري في بلدته أم عبيدة، وكان يومًا مهيبًا.

للسيد الإمام أحمد الرفاعي مؤلفات كثيرة أكثرها فُقد في موقعة التتار، ومما وصل إلينا من كتبه:

(١) وكان آخر كلمة قالها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

«الحكم الرفاعية» - ط بغداد - ١٩٩٠ - طبعة نادرة أخرى في بيروت ١٣٠١ -
طبعة حلب ١٤٠٧ هـ.

«حالة أهل الحقيقة مع الله».

«الوصايا» طبعة دار الشعب ١٩٧٤ م.

«الصراط المستقيم».

«الكليات الأحمدية» (مجموع مواعظ الإمام الرفاعي)

كتاب «الحكم شرح التنبيه» (فقه شافعي).

«البرهان المؤيد».

«معاني بسم الله الرحمن الرحيم».

«تفسير سورة القدر».

«البهجة».

«النظام الخاص لأهل الاختصاص».

«المجالس الأحمدية» جمع فيه الإمام المحدث المنذري كلام الإمام وحكمه.

«الطريق إلى الله».

«التحفة الرفاعية».

كتاب «قلادة الجواهر» وهو من أشمل الكتب وأروعها في ذكر تاريخه ومناقبه وسيرة حياته وأوراده.

«أسرار العبادات».

«الشرف المحتم فيما منَّ به على وليِّ السَّيد أحمد الرَّفاعي من تقبيل يد النَّبي»
للمحافظ جلال الدِّين السُّيوطي.

المراجع

١. موقع يوسف الرفاعي.

٢. د. جمال الدين فالح الكيلاني: «الإمام أحمد الرفاعي المصلح المجدد»،
ص ٤٥.

٣. «ترياق المحيِّين في سيرة سلطان العارفين» لابن عبد.

٤. «النَّجم السَّاعي في مناقب القطب الكبير الرَّفاعي» لأبي بكر بن عبد الله
العيدروس العدني.

٥. «سواد العينين في مناقب أبي العلمين» للإمام عبد الكريم الرَّافعي.

٦. «غوث الزّمان سيّدنا أحمد الرّفاعي» الشّيخ عبد العزيز الدريني.
٧. «قرة العين في مناقب أبي العلمين» للإمام علي بن المبارك باسويه الواسطي.
٨. الإمام أحمد الرفاعي: المصلح المجدد، جمال الدين الكيلاني، زياد الصميدعي، المنظمة المغربية، مراكش، ٢٠١٢، ص ٢١.

مصادر الترجمة

- وفيات الأعيان ١ / ١٧١.
- الوافي بالوفيات ٧ / ٢١٩.
- سير الذهبي ٢١ / ٧٧.
- الكامل في التاريخ ١١ / ٤٢٩.
- العبر ٤ / ٢٣٣.
- شذرات الذهب ٤ / ٩٥٢.
- مرآة الزمان ٨ / ٣٧٠.
- طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢ / ٥.

طبقات الشافعية للسبكي ١٤ / ٤ .

النجوم الزاهرة ٩٢ / ٦ .

«الموسوعة الصُوفيَّة» ١٧٨ .

«جامع كرامات الأولياء» ١ / ٤٩٠

انظر أيضًا:

الطريقة الرفاعية.

منصور البطائحي.

المقداد بن محمد الرفاعي.

إجازة مولانا وشيخنا الشيخ عبد الحكيم عبد الباسط شيخ الطريقة الرفاعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الصادق الأمين،

وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أمّا بعد: فأقول وأنا أفقر الورى، وأضعف من يرى؛ عبد الحكيم بن سليم عبد

الباسط:

حيث إنّ الإجازة بيد المنتمي هي كالحبل الموصول الفرع بالأصل، وكالنسب عند

أشراف القبائل من العرب؛ ليمتاز العريق الأصيل من الضائع الدخيل، وليحصل

للمنتمي بركة النفس المحمّديّ، وضياء القبس الأحمديّ، فتقرّ عينه، ويزول بينه،

ولا اعتقادي بصدق وإخلاص هذا الأخ المحبّ المؤمن المكرم السيّد الشيخ عبد

العزیز سهيل الخطيب؛ لقنّته الذكر وسلّكته الطريق الرفاعيّ حسبما تلقّيته عن سلفي

الصالح، وأقمته بمشيئة الله تعالى:

خليفةً بكلّ ما أجزت به.

وأذنت له بقراءة أورادهم التي منها هذا الورد المبارك الذي يجب المداومة عليه

وهو:

١- مئة مرّة: لا إله إلاّ الله.

٢- ومئة مرّة: أستغفر الله العظيم.

٣- ومئة مرّة: اللهم صلّ على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم. وذلك صباحًا ومساءً.

٤- ثمّ تلاوة ١٢ مرّة الفاتحة الشريفة.

٥- وآية الكرسي كذلك ١٢ مرّة، في الصباح والمساء. ويهدي ثواب التلاوة للرسول الأعظم صلّى الله عليه وسلّم، وللسيدّ أحمد الرفاعي رضي الله عنه.

وقد أعطيته هذه الإجازة المرقومة بهذا الطرس؛ ليعلم علم اليقين أنّه محسوبٌ على ساداتنا في الحياة الدنيا وفي الرمس، وفي اليوم الذي تدنو فيه من كافّة الخلائق الشمس، حشرنا الله جميعًا تحت لواء جدّهم الرسول الكريم، عليه وعلى آله وصحبه أشرف الصّلاة وأتمّ التسليم.

حرّرت في ٢١ صفر الخير ١٤٠٩ هـ

أفقر الورى لمولاه

وأحقر من ترى بباب عظمة علاه

عبد الحكيم سليم عبد الباسط

من خدم خدم سادات واسط رضي الله عنهم

وعلى ظهر الإجازة كتب بخطه الشريف رضي الله عنه وأرضاه:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد: فقد أجزت سيدي ومولاي السيّد الشيخ عبد العزيز ابن السيّد الشيخ سهيل الخطيب الأسرة الشريفة الطاهرة، قد أجزته وإن كنت أصغر خادمٍ لنعاله بما أجازني به شيخي وأستاذي السيّد عبد الرحمن السبسي، وبما أجازني به سيدي وأستاذي المفتي في مدينة حماة المعمر فضيلة الشيخ محمد سعيد النعسان، وأرجو لسيدي المجاز الفتوح والتوفيق.

وقد حررت هذه الإجازة امتثالاً لرغبته، وإلاّ فما مثلي يصلح لإجازة سيادته، والحمد لله وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

حرّرت في ٢١ صفر الخير ١٤٠٩

الخويدم الصغير

عبد الحكيم عبد الباسط

الطريقة القادرية^(١)

الطريقة القادرية: إحدى الطرق الصوفية السنية التي تنتسب إلى سيدنا الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني (٤٧١ هـ - ٥٦١ هـ)، ومنتشر أتباعها في بلاد الشام والعراق ومصر وشرق إفريقية وشرق آسية.

وقد كان لرجاها الأثر الكبير في نشر الإسلام في قارة إفريقية وآسية، وفي الوقوف في وجه المد الأوروبي الزاحف إلى المغرب العربي.

مؤسس الطريقة

الإمام عبد القادر الجيلاني أو الجيلاني أو الكيلاني

(٤٧٠ هـ - ٥٦١ هـ)

هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله، يعرف ويلقب في التراث المغربي بالشيخ "بوعلام الجيلاني"، وبالمشرق "عبد القادر الجيلاني"، ويعرف أيضا بـ "سلطان الأولياء"، وهو إمام صوفي وفقه حنبلي، لقبه أتباعه بـ "باز الله

(١) انظر رسالتنا: «جدي الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه»، وكتابنا: «الشخصيات الإسلامية» ففيه الحديث أيضًا عن سيدنا الجيلاني قدس الله سره، وانظر كتابنا «أعلام التصوف».

الأشهب" و"تاج العارفين" و"محيي الدين" و"قطب بغداد"، وإليه تنتسب الطريقة القادرية الصوفية.

نسبه:

هو: سيدنا أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن يحيى بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن سيدنا الحسن بن سيدنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيِّ بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فُهر بن مالك بن قريش بن كنانة بن خُزَيْمة بن مُدْرِكَة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن معدّ بن عدنان.

مولده ونشأته:

ولد في ١١ ربيع الثاني - وهو الأشهر - سنة (٤٧٠ هـ) الموافق (١٠٧٧ م)، وهناك خلاف في محل ولادته وروايات متعددة؛ أهمها: القول بولادته في جيلان في شمال إيران حالياً على ضفاف بحر قزوين، والقول أنه ولد في جيلان العراق وهي قرية تاريخية قرب المدائن ٤٠ كيلو متراً جنوب بغداد، وهو ما أثبتته الدراسات التاريخية الأكاديمية وتعتمده الأسرة الكيلانية ببغداد.

وقد نشأ الإمام عبد القادر في أسرةٍ وصفتها المصادر بـ(الصالحة)، فقد كان والده أبو صالح موسى معروفاً بالزهد، وكان شعاره مجاهدة النفس وتزكيتها بالأعمال الصالحة؛ ولذا كان لقبه "محب الجهاد".

وتفقه الإمام عبد القادر على عدد من المشايخ، جلس للوعظ سنة ٥٢٠ هـ، وحصل له القبول عند الناس، واعتقدوا ديانتته وصلاحه، وانتفعوا بكلامه ووعظه.

اشتهر عن سيدنا الشيخ عبد القادر ما يدل على فقهه وعلمه، وظهرت على يديه الكثير من الكرامات، وتاب وأسلم على يديه العديد من الناس.

توفي وعمره ٩٠ عاماً، ودفن في رواق مدرسته سنة ٥٦١ هـ.

أهم قواعد الطريقة القادرية وأسسها:

١ - التزام الكتاب والسنة:

يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: الجَدُّ والكَدُّ ولزوم الحَدِّ حتى تنقذ.

ومعنى (جَدَّ) الجدِّيَّة في سلوك الطريق إلى الله، ومعنى (كَدَّ) بذل الجهد والجوارح والنفس والروح في السير إلى الله من دون هواة ولا تراخٍ، ومعنى (لزوم الحد) التزام الشريعة وتحليل الحلال وتحريم الحرام والوقوف عند حدود الله وعدم تجاوزها،

ومعنى (حتى تنقذ) حتى تجف النفس عن المعاصي والذنوب والشهوات والملذات والأخلاق السيئة ولا يبقى فيها إلا الله جل في علاه.

٢- الاجتماع والاستماع والاتباع حتى يحصل الانتفاع:

ومعنى هذا: الاجتماع بالصالحين والعلماء والمرشدين والأخوة في الله، والاستماع لهم بأدب، وإتباع ما يقولون وما يأمرّون من الهدي النبوي، وبذلك يحصل لنا الانتفاع والوصول إلى ما وصلوا إليه.

٣- الاعتقاد بشيخ الطريقة العقيدة الصحيحة:

ومعنى هذا أن يحبوه ويحترموا ويقدروا ولا يهملوه، ولا يعظموه فوق الحد المطلوب ولا يغلو في حبه ولا يعتقدوا فيه العصمة؛ فإنه بشر يخطئ ويصيب لكنه محفوظ بعناية الله، إن أخطأ فسرعان ما يرجع إلى الله ويتوب إليه.

يقول سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه «الغنية»: (يا بني إياك أن تنظر إلى شيخك أنه معصوم، إنما هو بشر يخطئ ويصيب، فإن رأيت منه مخالفة فابحث له عن عذر شرعي، فإن لم تجد له عذراً فاستغفر له الله؛ فإنه بشر يخطئ ويصيب).

٤ - حب الشيخ:

وهو المراد الحقيقي من السير والسلوك على يد الشيخ المرشد فهو دليلنا إلى حب الله ورسوله، لكن حب الله والرسول مقدم عليه.

٥ - محبة آل البيت:

وحبهم مقدم على كل من سواهم من الناس؛ لأنهم بضعة النبي ووصيته لأئمة، مع الحب والتقدير والإكبار والإجلال للصحابة، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين .

٦ - حب كل الأولياء والصالحين:

وحب مشايخ الطرق الأخرى ومرشديهم، لا يفرقون ولا يميزون بين طريقة وأخرى، ولا يتعصبون لطريقتهم، ولا يطعنون بالطرق الأخرى التي تنهج منهج الكتاب والسنة، وذلك كله مع المحبة والتعظيم والتقدير لطريقتهم ولمشايخهم كما ينبغي أن يكون.

٧ - الدعوة إلى الله وكثرة الذكر لله تعالى:

فالذكر هو المعراج في السير إلى الله في الطريقة القادرية، فمن أهم أعمال المريد كثرة الأذكار والمداومة عليها وعلى الاستغفار، والصلاة على الرسول بالليل والنهار، وبذلك يرتقي المريد في مقامات المحبة لله ولرسوله، والذكر هو الوسيلة العظمى لتزكية النفس وتربيتها وتحليتها بالأخلاق المحمدية.

وصية الغوث الأعظم سلطان الأولياء والعارفين الباز الأشهب زبدة العارفين ومرشد الطالبين القطب الرباني والغوث الصمداني سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني قدس سره العالي لكل المريدين والسالكين:

أوصيك بتقوى الله، وحفظ طاعته، ولزوم ظاهر الشرع، وحفظ حدوده.
التصوف ما هو مأخوذ عن القليل والقال، بل هو مأخوذ من ترك الدنيا وأهلها، وقطع المألوفات والمستحبات، ومخالفة النفس والهوى، وترك الاختيارات والإرادات والشهوات، ومقاساة الجوع والسهر، وملازمة الخلوة والعزلة.
وأوصيك إذا رأيت الفقير ألاَّ تبتدئه بالعلم، بل ابتدئه بالحلم والرفق؛ فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه.

وإن التصوف مبني على ثمان خصال:

الخصلة الأولى: السخاء وهي لإبراهيم عليه السلام.

الخصلة الثانية: الرضا وهي لإسحاق عليه السلام.

الخصلة الثالثة: الصبر وهي لأيوب عليه السلام.

الخصلة الرابعة: الإشارة وهي لزكريا عليه السلام.

الخصلة الخامسة: الغربة وهي ليحيى عليه السلام.

الخصلة السادسة: لبس الصوف وهي لآدم وموسى عليهما السلام.

الخصلة السابعة: السياحة وهي لعيسى عليه السلام.

الخصلة الثامنة: الفقر وهي لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ورد الطريقة القادرية

الاستغفار (٧٠ مرة).

الصلاة على النبي (٣١٣ مرة).

لا إله إلا الله (١١١ مرة).

ورد الطريقة القادرية
الاستغفار ٧٠ مرة
الصلاة على النبي ٣١٢ مرة
لا اله الا الله ١١ مرة
الدعاء للمؤمنين



سيدنا علي بن ابي طالب

الإمام الحسن البصري

الإمام حبيب العجمي

الإمام داود الطائفي

الإمام معروف الكرخي

الإمام السري السقطي

الإمام الجليل البغدادي

الشيخ أبي بكر الشبلي

الشيخ أبي الفرج طبرطاي النكي

الشيخ أبي الحسن القرشي

أبو سعيد الخرمي الخرومي

الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني

الإمام أبو بكر عبد الرزاق

الإمام أبو صالح محمد نصر

الإمام أبو نصر علي الدين محمد

الإمام تاج الدين عبد الرزاق

سند الطريقة القادرية

الإمام أبو محمد رشيد

الإمام عبد الرزاق العفراوي

الإمام قطب الرجال أبو رسلان

الإمام محمد السلسال

الإمام صاحب الأحوال خالد

الإمام شمس الدين محمد

الإمام قطب أبو محمد رشيد

الإمام شمس الدين محمد

الإمام القطب عثمان

الإمام شهاب الدين أحمد

الإمام عيسى

الإمام الفقيه وهبة

الإمام محمد

الإمام علي

الإمام محمد الخطيب

الإمام عبد الرحيم الخطيب

الإمام عبد الله الخطيب

الإمام محمد الخطيب

الإمام محمد سهيل الخطيب

الإمام عبد العزيز الخطيب الحسني

إجازة في خلافة الطريقة النقشبندية والقادرية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وأزواجه وعترته الكرام.

أما بعد: فإنني قد أجزت أخي في الله تعالى الشيخ عبد العزيز الخطيب الحسني في الطريقتين النقشبندية والقادرية، وأقمته خليفة عني في بلاد الشام وما حولها من البلدان الإسلامية، ولقنته الذكر الخفي والجلي، وأن يقوم بجمع أهل الطريق النقشبندي، ويذكرون جميعاً الأذكار التالية:

لا إله إلا الله ١٠٠ مرة مع تصوّر المعنى؛ وهو أنه لا معبود بحق إلا الله.

إلا الله ١٠٠ مرة الله الله مرة على قلبه ومرة عن يمينه مكان الروح.

الله ١٠٠ مرة يتصوّر قلبه وهو يذكر الله الله.

تصوّر نور الذكر وهو يعمُّ رأسه وجسمه. ثم تصوّر اسم الله مكتوباً على القلب أثناء الذكر.

قراءة الختم الشريف مع شجرة السادة النقشبندية، ثم يصلُّون على سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالصيغة التالية:

اللهم صلّ على سيّدنا محمّد، وعلى آل سيّدنا محمّد، وعلى أصحاب سيّدنا محمّد،
وعلى أزواجه أمّهات المؤمنين، وأنزلهم في مقعد صدقٍ عندك يا مليكنا المقتدر، وفي
رحمتك يا أرحم الراحمين، وعجّل فرجنا بحقّهم وبحقّ من جعلته رحمةً للعالمين
ورحمةً لنساء العالمين.

هذا وأوصي الأخ المجاز بتقوى الله تعالى وأكل الحلال وأتباع السنة المطهّرة
والدعاء لأشياخه الكرام، وصلى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم،
والحمد لله ربّ العالمين.

شهد بذلك الشيخ أديب الكلّاس وأولاده

وجمعٌ كبيرٌ ممّن حضر في دار الجدّ الكرام

وتلامذة المجاز

الشيخ أحمد الوهّاج الصديقي

التمي القرشي

شيخ الطريقتين

إجازة بخلافة الطريقة القادرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيّدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أمّا بعد: فقد طلب منّي مولانا وسيّدنا الحسيب النسيب العلامة الجليل الشيخ عبد العزيز بن الشيخ سهيل الخطيب أن أجزيه بما أجازني به شيخ الطريقة القادرية الشيخ فريز الكيلاني المتوفى بحماة وإن كنت لست أهلاً لأن أجاز فكيف بأن أجزى؟! ولكن امتثالاً لأمره وتحقيقاً لرغبته أجبته طلبه؛ رجاء أن يخصّني بدعوةٍ صالحةٍ من قلبه الطاهر المبارك، وقد أجزته إجازةً عامّةً بالأوراد والأذكار وخلافة الطريق، وأسأل الله أن تنفعه وينفع على يديه؛ كما نفع على يد جدّه الشيخ عبد القادر الجيلاني قدّس الله سرّه العزيز ونفعنا به وبعلمومه آمين.

٣ محرّم الحرام ١٤١١هـ

خادم الطريقة القادرية

محمود قويدر

وأوصي المجاز نظر الله تعالى بعين العناية إليه بمجاهدة النفس وتفرغ القلب عن
الأغيار وتطهيره عن سقاسف هذه الدار بملازمة الأذكار المأثورة والأدعية المشهورة
والإكثار من الصلاة والسلام على خير الأنام مع المشاهدة المعنوية المنتجة للمجالسة
الحسية ، والمرجو من الشيخ المذكور ضاعف الله لنا وله الأجور أن لا ينساني من دعوة
صالحة جعل الله تجارة الجميع رابحة وأمدنا بالمدد الأسنى وختم له بالحسن .

دمشق في ٢٥ ربيع الأول ١٤١٥ هـ

وكتبه خادم العلم الشريف

أحمد نصيب المحاميد

إجازة بخلافة الطريقة القادرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

أما بعد فقد طلب مني مولانا وسيدنا الحبيب النسب العلامة الجليل الشيخ
عبد العزيز بن الشيخ سهيل الخطيب أن أجيزه بما أجازني به شيخ الطريقة القادرية
الشيخ فريز الكيلاني المتوفى بحمام وإن كنت لست أهلاً لأن أجاز فكيف بإذن أجيز
ولكن امتثالاً لامره وتحقيقاً لرغبته أجبت طلبه رجاء أن يجني بدعوة صالحة من قلبه
الظاهر المبارك وقد أجزته إجازة عامة بالأوراد والأذكار وخلافة الطريق واسأل الله أن
تنفعه وينفع على يديه كما نفع على يد جده مولانا وسيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني
قدس الله سره العزيز ونفعنا به ويعلموه آمين .

٣ محرم الحرام ١٤١١ هـ

خادم الطريقة القادرية

محمود قويدر



المتبعة العامة للطريقة القاهرية
بالجزائر وسمى إفريقيا - الرويساج ورقلة



الجزء الثاني

وہابی اللہ علی سیدنا محمد وعلی آلہ وصحبہ وسلم

واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا

هذه الشجرة أصلها أصيل وقومها نبيل وصلها ضليل وحارسها رب جليل وحاملها رجل تقى
 فضيل عامله الله بالكرام والتمثيل من بن أدرك عليه الوحي والتنزيل قبلتها وأرضيتها ولقدت
 له فيها وأدنا أقر العوى واخوام الطلبة والفقراء الراعي حقويه اللطيف
 حساني الرضى بن محمد بن إبراهيم بن محمد الطيب بن إبراهيم بن أحمد الشريف القافوي
 عامله الله بالهدى

[illegible]

التصميم والطباعة وكالة قطر
ABcom: 029 71 28 28

يوم 15 - رجب 1437 هـ
الموافق لـ 21 - 4 - 2016 م

إجازة السيد الشاه تراب الحق القادري الرضوى

بسم الله الرحمن الرحيم

الله ربُّ محمدَ صلَّى عليه وسلَّم وعلى ذويه وآله أبدَ الدُّهور وكرَّمَا

سند الإجازة

نحمده ونصلِّي على رسوله الكريم، الحمد لله العليِّ الأعلى وكفى، والصلاة
الأبهى، والسلام الأسنى، الأوفى الأوفى، على عباده الذين اصطفى خصوصًا على
حبيبه سيِّدنا محمد المصطفى، نبيِّه المُجْتَبَى، رسوله المرتضى، وعلى آله ومحبيه أولي
الصدق والصفاء، لا سيَّما الأربعة الخلفاء، وعلى جميع التابعين، وجميع أئمة الدين
والأولياء العرفاء، لا سيَّما الإمام الأعظم، والهمام الأفخم، أبي حنيفة كاشف الغمَّة،
إمام أئمة الشريعة الغراء، والغوث الأعظم، الغياث الأكرم، سيِّدنا أبي محمد محيي
الدين والملة البيضاء، سيِّدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني رضوان الله تعالى عليه وعلى
جميع الصلحاء، أهالي الوفاء، ثمَّ علينا إلى يوم الجزاء.

أمَّا بعد: فقد التمس منِّي عزيزي المولوي فضيلة الشيخ العلامة الدكتور عبد
العزیز الحسني الجيلاني الشافعي الدمشقي حفظه الله تعالى، إجازة السلسلة العلية
العالية، القادرية البركاتية، الرضوية المباركة، وإجازة الأوفاق والأعمال والأذكار
والأشغال، فأجزته على بركة الله تعالى ذي الجلال، ثمَّ على بركة رسوله الأعلى

صاحب الجلال جلّ جلاله، وعمّ نواله، عليه الصلاة والتحيّة والثناء، كما أجازني
شيخني وسندي وكنزي وذخري ليومي وغدي المفتي الأعظم مولانا مصطفى رضا
القادري، قدّس سره، وأجازه حضرة نور العارفين، قدوة الواصلين، خاتم الكبراء،
مولانا الشاه أبو الحسين أحمد نوري ميان صاحب وشيخ الإسلام والمسلمين، رأس
المحقّقين، مجدّد الملة والدين، إمام أهل السنّة، قانع الفتنة، سيّدني وسندي الشيخ
مولانا الشاه أعلى حضرت إمام أحمد رضا رضي الله تعالى عنهما، وأمطر شآبيب
الرحمة والرضوان عليهما، وكما أجازني أستاذي حضرة العلامة المولى القاري محمّد
مصلح الدين الصديقي القادري، وفضيلة الشيخ حضرة العلامة المولى فضل الرحمن
القادري المدني ابن ضياء الملة والدين، حضرة العلامة المولى ضياء الدين القادري
المدني قدّس سرهم، وأوصيه بحماية السنن السنيّة، ونكاية الفتن الدنيّة، واكتساب
الحسنات، واجتناب البدعات الغير المرضيّة، بارك الله لنا وله، وحقق أملي وأمله،
وأصلح لي عملي وعمله، آمين آمين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

٢٢/ ربيع الآخر ١٣٣٥ هـ

٢٢/ فبروري ٢٠١٣ م فقير السيد الشاه تراب الحق القادري الرضوى

أستاذة عالية قادريّة بركاتية رضوية مصلح الدين كاردن كراتشي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَعَلَى ذُرِّيَّتِهِ وَاللَّهُ أَرْكَا الدُّهُورِ وَكَوْنًا

اللَّهُ رُبِّي مُحْتَمِلٌ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

سِتْدُ الْإِجَارَةِ

نَحْمَدُهُ وَنُحْمَلِي عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ نَحْمَدُ اللَّهَ الْعَلِيِّ الْأَكْبَرِ وَكُنْفِي وَالصَّلَاةُ الْإِلَهِيَّةُ
وَالسَّلَامُ الْإِلَهِي الْأَوْفَى الْأَوْفَى عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَى خَصُوصًا عَلَى حَبِيبِهِ سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى نَبِيِّهِ الْمُجْتَبَى رَسُولِهِ الْمُرْسَلِ وَكُنْفِي أَلَمَ وَجْهِهِ أُولَى لَصَدَقَ وَالصَّفَا لَأَسْمَا
الْأَرِيحَةِ الْخَالِقَاءُ وَعَلَى جَمِيعِ النَّاجِيْنَ وَجَمِيعِ الْبَرَّةِ الَّذِينَ وَالْأُولَادَةِ الْعَرَفَاءُ لِجَمِيعِ الْأَعْمَاءِ
الْأَعْظَمِ وَالْأَهْلَامِ الْأَفْخَرِ فِي حَقِيقَةِ كَاشِفَةِ الْحُكْمَةِ أَمَامَ بَيْتَةِ الشَّرِيعَةِ الْخَرَاءِ
وَالْعَوْتِ الْأَعْظَمِ الْخَالِقِ الْأَكْبَرِ سَيِّدِنَا أَلَمَ وَجْهِهِ الَّذِينَ وَالْبَلَّةِ الْبَيْضَاءِ سَيِّدِنَا الشَّيْخِ
عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِي وَوَالِدِهِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَكُنْفِي جَمِيعِ الصَّلَاةِ أَهْلِي الْوَقَاءِ لَحْرَ عَلَيْنَا
إِلَى دُورِ الْجَرَاءِ أَمَا يَكُنْ! فَقَدْ الْقِسْمُ فِي عَزْمِي الْمَوْلَى رَضِيَّةُ الشَّيْخِ الْعَلَاءِ
الْكَتُورِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْحَسَنِ الْجِيلَانِي الرَّافِي الرَّسْمِ مُحَمَّدُ اللَّهِ تَعَالَى

إِجَارَةُ السَّلْسَلَةِ الْعَلِيَّةِ الْعَالِيَةِ الْقَادِرَةِ الْبُرْكَانِيَّةِ الرَّهْطِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ وَإِجَارَةُ الْأَوْفَى
وَالْإِلَهِيَّةِ وَالْإِكْبَارِ وَالْإِسْمَاعِيلِ قَاجَرِهِ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْحَالِ ثُمَّ عَلَى بَرَكَةِ رَسُولِهِ
الْأَعْلَى حَبِيبِ الْجَمَالِ جَلَّ جَلَالُهُ وَكَمَلَتْ نَوَالُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَكَتَبْنَا إِيَّاهُ فِي شَيْخِي
وَسَيِّدِي وَكَتَبْتِي وَكَتَبْتِي لِيَوْمِي وَصَدَّقِي الْمُنْفَى الْأَعْظَمِ مَوْلَانَا مُصْطَفَى أَصَا الْقَادِرِ
قُدْسٌ مِنْ مَنَازِلِ الْجَانِ لَا يَحْضَرُ نَوَالِ الْعَارِفِينَ قُدْوَةُ الْوَاضِلِينَ كُنْهَاتِ الْكَتَبِ مَوْلَانَا الشَّاهِدِ
أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدٍ تَوْرِي مَيَانِ حَقِّهَا وَشَيْخِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ زَائِلِ الْحَقِيقِينَ بِحُذْرٍ مَلِكِ الْمَلِكِ
أَمَامَ أَهْلِ الشَّرَفِ قَامُوحِ الْفَتْنَةِ سَيِّدِي وَسَيِّدِي الشَّيْخِ مَوْلَانَا الشَّاهِدِ أَهْلِي حَقِّهَا أَمَامَ أَحْمَدَ وَصَافِي
اللَّهُ تَعَالَى بِحَقِّهَا وَأَمَامَ شَيْخِهَا الشَّرِيفِ وَالْخَيْرِ وَالْأَعْلَى كَمَا إِيَّاهُ فِي أَشْدَادِ حَقِّهَا الْعَلَامَةِ لِلْوَقْ
الْقَادِرِ كَمَلِ مُصْلَحِ الدِّينِ الْقَادِرِ وَفَضِيلَةِ الشَّيْخِ حَقِّهَا الْعَلَامَةِ الْعَوْنِ فَضْلُ الرَّحْمَنِ
الْقَادِرِ الْمَكْنِي مِنْ ضِيَاءِ الْبَلَدِ الَّذِينَ حَقِّهَا الْعَلَامَةِ الْعَوْنِ حَقِّهَا الَّذِينَ الْقَادِرِينَ الْمَكْنِي مِنْ قُدْسِ
سَرِّهِمْ وَأَوْصِيَاءِ نَجَائَةِ الشُّرُكِ السُّلْبَةِ وَبِكَاتِبَةِ الْفَيْتَنِ الدُّنْيَةِ وَكَاتِبَةِ الْفَيْتَنِ الدُّنْيَةِ وَبِكَاتِبَةِ الْفَيْتَنِ الدُّنْيَةِ
الْعَوْنِ الْمَكْنِي كَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَحَقَّقَ الْإِلَافَةَ أَمَلَهُ وَأَصْلَحَ لِي عَلَى عَمَلِهِ أَمِينٌ أَمِينٌ وَحَسْبُكَ
بِأَرْصَادِ الرَّاحُونَ

مَوْلَانَا الشَّاهِدِ

فَقِيرُ الشَّيْخَةِ الشَّاهِدِ الرَّاحِلِ الْقَادِرِ الْإِسْمَاعِيلِي

أَمَامَهُ عَالِيَهُ قَادِرِ بِكَاتِبِهِ رَضِيَّةُ مُحَمَّدٍ مُصْلَحِ الدِّينِ كَاوْنِ كَرَامَتِي

٢٣ ربيع الآخر ١٢٣٥ هـ

٢٢ ربيع الثاني ١٢٣٥ هـ

الطريقة البدوية

الإمام أحمد البدوي رضي الله عنه وأرضاه

(٥٩٦ - ٦٧٥ هـ)

شيخ ومريد وبيعة على التزام الطاعة تبدأ بالتوبة الخالصة النصوح، وذكر ومجاهدة، تلك هي عناصر الطريق الصوفي، فماذا يقول المتقدمون على التصوف في طريقة أوّل شرطها: تطهير القلب عمّا سوى الله تعالى، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية بذكر الله تعالى، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى.

هذه دعوة الإمام الذي يزورنا اليوم.

سيّد أحدث دويّا هائلًا في حياته، وما زال هذا الدوي يملأ سمع الوجود على الرغم من أنّ صاحبه الشريف قد فارق الدنيا منذ أكثر من سبعة قرون، فإنّه ما زال يعيش في وجدان الزمن، ورويت عنه قصصٌ تبلغ حدّ الأساطير.

هو من أولئك النفر الذين تعلّموا العلم وعملوا به، وتأدّبوا بأدب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشروه بين الناس.

هو غرس طيب في منبت طيب، فوالداه قرشيًا النسب، ينتهي نسبه إلى جدّي
سيدنا علي رضي الله عنه، نزح أجدادهما من مكّة بعد أن استولى عليها الحجاج بن
يوسف الثقفي عنوة وضرب الكعبة بالمنجنيق سنة ثلاث وسبعين للهجرة،
واستوطنوا مدينة فاس في المغرب، وعاش أجداده بأمان وبقوا يحنّون إلى مكّة
موطنهم الأول، وطال بهم المكث ما يزيد عن خمس مئة عام (حتى سنة ٦٠٣هـ).

يزورنا اليوم سليل بيت النبوة من نسل سيدنا علي زين العابدين بن سيدنا الحسين
سبط سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إننا مع الإمام الولي شيخ الطريقة البدوية

سيدنا أحمد البدوي

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان:

كانت والدة إمامنا تحدّث أنّها تفأّقد جاءها في المنام يبشرها بولدها الذي منّ الله
تعالى به على الكون سنة (٥٩٦هـ)، وكان أصغر إخوته السبعة، وقد تولّى والده
سيدنا علي تربيتهم وتحفيظهم القرآن الكريم، ولد وعلى مفرقه تاج الولاية، وفي

أنفاسه عبير شجرة النبوة، وشرع في أحضان المغرب يحفظ كتاب الله ويتفقه في الدين
(واتخذ اللثام شعاراً له)).

وما أن بلغ السابعة حتى انتقلت أسرته إلى رحاب بيت الله الحرام بهاتف هتف
بوالده في المنام أن يقدم مع أسرته أرض الحجاز، وانتقلت الأسرة المباركة إلى مكة
بعد ما استغرقت رحلتها أربع سنوات.

أيها الأحبة والصحب:

فتحت مكة ذراعيها لاستقبال أسرة البدوي، وقدم أشراف المدينة يهنئون الأسرة
بعودتها بعد خمسة قرون، وعلى رأس هذا الموكب والي المدينة، وما أن دخلوا البيت
حتى سأل الوالي:

- أين الشريف أحمد المثلث؟

وتعجبت الأسرة، من أين علم الوالي بالصبي، ونادى الشريف علي ولده، فلما رآه
الوالي أقبل عليه، وأخذه بين يديه وقال:

- إن جدي رسول الله وصفه لي في المنام وقال: يخرج من المغرب وهو ابن سبع
سنين، ويدخل مكة وهو ابن إحدى عشرة سنة، وسيكون له شأن وأي شأن.

ثم دفع إليه صرة ممتلئة بالدنانير، فرفض أخذها وشكر الوالي، هكذا كان منذ الصغر معرضاً عن الدنيا، وكان لا يتكلم إلا للضرورة القصوى، ويبقى دائماً متطلعاً إلى السماء، ولا يلهو مع الصبيان، وكأنه يتلقى الهواتف الإيمانية.

معشر السادة:

وفي مكة شاء الله أن تكون نقطة البدء الروحي لسيدنا أحمد، بجوار بيت الله الحرام ومهبط الوحي وحيث ولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبما أن سيدنا أحمد البدوي المثلّم على القدم المحمدي؛ فلا بد أن يكون فتحه محمدياً بمعنى الكلمة. هناك أتمّ سيّدنا البدوي حفظ القرآن، وأتقن علم القراءات، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وتعلّم الفروسية حتى كان هو فارس مكة وشجاعها الذي لا يُبارى، وقد ذكر أمامه يوماً أن جدّه سيّدنا عليّاً كان يضرب في القتال بسيفين معاً، فصار سيدنا أحمد يضرب بسيفين حتى تعجّب الناس من شجاعته.

إخوتي في الله:

هذه هي إرهابات ولايته، تعبّد في الليل، وفروسية في النهار، يتدرّب على ركوب الخيل والرماية وكأنّه يستعد لخوض معركة، حتى أطلقوا عليه: فتى الفتیان،

وقد شهد له شقيقه الأكبر الحسن بعد وفاة والده سنة (٦٢٧هـ) فقال: (لم يكن في مكة والمدينة من الفرسان أشجع ولا أفرس من أخي أحمد، لذا سميته: العطاب).

كان وراء هذه الفروسية عند السيد البدوي درجة من الشفافية من كثرة الذكر، حتى تحوّلت نبضات قلبه إلى تساييح، وأصبحت جوارحه في حالة صلاة دائمة، ورجلٌ هذا حاله يسبق كل أهل عصره، أتدرون لماذا؟ لأنّ سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك، قال (م):

«سبق المفردون»، قالوا: وما المفردون؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

يا شباب:

الذاكر لله تعالى لا تفارقه رحمته وعنايته، الذاكر مع الله، ألم يقل الله جل جلاله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

واسمعوا معي إلى ما يقوله سيد الذاكرين صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل (ق): «يقول الله تعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه؛ ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ؛ ذكرته في ملأ خير منه».

الذاكر - يا شباب - ليس عليه خطيئة، لذا شبّهوه بالملائكة، ذكر ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف حين قال (ق): «من قال: سبحان الله وبحمده في يومه مئة مرّة حطّت خطاياهُ وإن كانت مثل زبد البحر».

الذاكر لله غير غافل، والمقصود في الذكر ذكر القلب، فإن انضاف إليه ذكر اللسان؛ فهو أفضل وأكمل لنيل الثواب، وأمّا ذكر اللسان وحده؛ فقليل الجدوى، لكن الاستدامة على ذلك تكون سبباً لذكر القلب.

أستطيع أن أقول: إن السيد البدوي وصل إلى الله تعالى، وصل إلى الولاية بدوام الذكر، ولذلك قيل: *الذكر منشور الولاية*، فمن وفق للذكر فقد أعطي المنشور.

وكان لمكة أكبر الأثر في ولايته، ففي ربوعها أطلق لروحه العنان، وأقبل على المجاهدات والطاعات بعزيمة الرجال، وأخذت روحه تستمد الفيض الإلهي وتقتبس من نور الأنوار حتى صارت نفسه نوراً، ومن شدة نوره كان يتلثم بلثامين بحيث لا يرى الناس منه إلا عينيه، ومن ثم لقب بالبدوي لتوافق مظهره مع مظهر البدو.

يا شباب سيدنا محمد:

هذا درس لكم، ولكل من يريد الوصول إلى الله تعالى والانقطاع إليه.

ولازم الصيام ظاهرًا وباطنًا، وبلغت مجاهداته إلى حدٍّ أنّه كان يطوي أربعين يومًا لا يتناول طعامًا ولا شرابًا، سرت إليه نفحات «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» حتى فتح الله عليه، وظهر عليه الولّ، وصار لا يكلم الناس إلّا بالإشارة.

في أعلى قمة الولاية لله عز وجل تربع الأقطاب المحمّديون الذين سبّحت أرواحهم في محيط النور المحمّدي، وجالت قلوبهم في حضرة الجمال القدسي، فاستمدت ذواتهم من نور الأنور، وشربت من رحيق الأسرار، وتحققت بكمالات الإرث المحمّدي الذي نالت بفضلته شرف الإمامة وتربّعت على عرش الكرامة، قلوبهم بذكره أحيّاها، ومن الأرجاس والأكدار طهّرها وجلّّاها، أحيّا بهم الدين ونفع المريدين، وجلا بهم عن القلوب الصدأ، وأغاث بهم العباد، وأصلح بهم البلاد، هم الناطقون بالحق عن الحقيقة، والمرشدون إلى سلوك الطريقة، أولئك هم خواص الحق تعالى، الذين استخلصهم لنفسه، وأجلسهم على بساط أنسه، وقربهم إلى حضرة قدسه، وجعلهم شهود حضرته، وجنود مملكته، فافهم هذا أيها المسلم، وأصغ إلى ما قال فيهم المعلم:

فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه وأرواحهم في الحجب نحو العلى تسري
فما عرّسوا إلّا بقرب حبيبهم وما عرّجوا عن مسّ بؤس ولا ضر

همومهم جواله بمعسكر به أهل الله كالأنجم الزهر

فالولي - يا سادة - *تولّى طاعة الله تعالى، فتولّى الله أمره فلم يكله لغيره طرفة

عين*.

الولي عبدٌ ظاهر الصلاح، عارف بالله وصفاته حسب الإمكان، مواظب على الطاعات، مجتنب للمعاصي، غير منهمك بالشهوات ولو كانت مباحة، وهو على قدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، تظهر على يديه الكرامات لتدل على مكانته عند الله؛ كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

وفي الذروة العليا ممّن تربّعوا على عرش الولاية الربّانيّة والوراثّة المحمّدية الإمام العارف بالله قطب الأقطاب في عصره، وسلطان العارفين الأصفياء، باب الحضرة المحمّديّة سيدنا الإمام أحمد البدوي.

فقد انعقد إجماع الأمة على إمامة القطب البدوي للأولياء، وبلوغه الذروة العليا في الولاية والمعرفة، بيد أنّ حقيقة أبي الثامين لم يقف عليها عارف، وحسب الناس أن يستضيئوا بنور الشمس، ولا عليهم أن يحيطوا بجوهرها أو يصلوا إلى كنهها.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

وصل السيد البدوي رضي الله عنه إلى قمة الولاية، وسجد قلبه لله إلى الأبد، وصارت حياته كلها وقفاً على الطاعة والمشاهدة، وقد عرض عليه أخوه الشيخ حسن الزواج فأبى وقال:

- أنا موعود ألا أتزوج إلا من الحور العين.

وصار يلتقي بأرواح الأولياء أمثال: جدي سيدنا عبد القادر الجيلاني، وسيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنهما، ويحدثونه، فيعي كل كلمة، ويتعرف على حقائق الأشياء وأسرار البرزخ، وتكررت هذه الرؤى حتى دعاه سيدنا الجيلاني والرفاعي لزيارة العراق (فرج الله عنها). فقص رؤياه على أخيه حسن، فأشفق عليه من زيارة العراق؛ لأنها برزخ الأولياء وبلاد الصالحين رضي الله عنهم، وتردد سيدنا أحمد البدوي، فإذا بهاتف يهتف به ليلاً:

- قم واطلب مطلع الشمس (العراق)، فإذا وصلت إلى مطلع الشمس فاطلب مغرب الشمس وسر إلى طنطا؛ فإن بها مقامك.

معاشر المسلمين:

أدعوكم الآن جميعاً أن نزور مع سيدنا السيد البدوي وبخدمته أرض العراق، وقد أصبح في سن الثامنة والثلاثين، فاستقبلوا أرواح الأولياء بالترضي عنهم.

وأرى بعين الإيمان واليقين جدي سيدنا الجيلاني وسيدنا الرفاعي معهم وقال له:
يا أحمد قد جئناك بمفاتيح العراق واليمن والهند والسند والروم والمشرق والمغرب
بأيدينا، فإن كنت تريد أي مفتاح شئت؛ أعطيناك لك، (اطلب المكان الذي تحب أن
تشرف عليه من ناحية وظيفة الأولياء، اطلب وتمنّ) فقال لهما:
- أنا منكما، ولكني لا آخذ المفتاح إلا من الفتح (لا آخذ الإمامة الروحية إلا من
الله تعالى).

هذا منتهى الاتصال بالله تعالى، والأولياء يستحيون من الله تعالى أن يبسطوا
أيديهم لأحد سواه.
أحبتي في الله:

لم يترك سيدنا أبو اللثامين مقامًا من مقامات الأولياء في العراق إلا زارها بدءًا من
سيدنا الجيلاني وموسى الكاظم في بغداد، ثم الشيخ أبو الوفاء، ثم توجه لزيارة
الإمام الرفاعي في قرية أم عبيد المقر الرئيس للطريقة الرفاعية.

وفي هذه القرية - أيها الإخوة - يوجد سيدة تسمى فاطمة بنت بري، كانت ذات
جمال أخاذ وأنوثة طاغية، تتصدى بسحرها وجاذبيتها لكل من يدّعي أنه من

الأولياء، ولا يخضع لفتنة النساء، وكم وقع في هواها المدَّعون للولاية، وسقطوا في حبائلها.

توجَّه النداء من سيدنا الرفاعي إلى سيدنا البدوي أن يتوجَّه إلى هذه المرأة لتقويم سلوكها المعوج وتأديبها في الحال، وذكر له خطورة هذه المرأة، وبشَّره بالانتصار عليها وإخراجها من بؤرة العَفْن الذي سقطت فيه.

فودَّع السيد البدوي أخاه وتوجه إلى بنت بري، وصار أهل القرية يقولون:
(ها هي ضحية جديدة من ضحايا فاطمة).

ووقف التاريخ ليسجل للسيد البدوي نصره على الفتنة والسحر والجادبية والأنوثة، (وهكذا كلُّ شاب من شباب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم)، وفي ليلة أمسك فيها الزمن أنفاسه في قرية أم عُبَيْد التقى السيد بفاطمة بنت بري، فإذا بالمرأة تزول رغبتها في الرجال، وتدخل هيئة الإمام البدوي قلبها، فتخرجها من عالم الدنس إلى عالم الطهارة، ثار لمن سلبتهم من الرجال. فسلبها بإذن الله حالها، فتابت على يديه، وكان يومًا مشهودًا بين الأولياء وأهل القرية، ودعته للزواج منها، فردَّ عليها الإمام: لن أتزوج إلا من الحور العين.

أحبابنا في الله:

وسرى نبأ توبة المرأة في القرية وأقبل الناس على السيد البدوي يبايعونه، وأقام بهم مجالس الذكر والحضرة، وأدّبهم بأدب الشريعة، ثم تركهم وسافر إلى شمال العراق وزار قبر سيدنا عدي بن مسافر رضي الله عنه، وختم بها زيارته التي استمرت سنة كاملة.

عاد بعدها برصيد طيب من السمو القلبي والوجداني، وحَدَّث أخاه الحسن بالرؤى التي رآها للأولياء وخاصة مولانا الجيلاني والرفاعي، فقال أخوه الحسن: إِنَّ الدعاة إلى الله هم مفاتيح الخير، والرفاعي والجيلاني يريدان أن تسير على طريقتهما في الدعوة، وقد كان طريقتُهما الكتابُ والسنة، وهذا هو طريق الإسلام الصحيح.

ليسمع المخرّصون الذين يعترضون على التصوف:

طريق أهل الله جميعاً: *الكتاب والسنة*

شعار أهل الله جميعاً:

يا هذه الدنيا أصيخي واشهدي أنا بغير محمد لا نقندي

فإلى أين أمر السيد البدوي أن يتجه؟

وفي أي بقعة أسس دعوته وطريقته؟

ولماذا كان يُعدُّ نفسه بالفروسية وضرب السيف؟

إخوة الإيمان:

تحوّل سيدنا البدوي من العراق إلى مصر بعد أن أمر أن يتوجّه إلى طنطا سنة (٦٣٤هـ) ليقم فيها، ويربّي بها الرجال، ويتّخذها مقرّاً لطريقته.

وأرى بعين الإيمان واليقين الإمام يتّجه نحو مصر ليس معه دينار ولا درهم، ولا يرتدي إلّا الجاكت الأحمر والثامين والعمامة الحمراء، لم يثر فضول أحد؛ كالمتعبدین الذين لا يَسترعون انتباه أحد، وكما تدل رائحة العبق على الزهرة فقد دلّ على السيد البدوي سلوكه العجيب، سبقه صيته إلى مصر، وخرج الملك الظاهر بيبرس ليستقبل القادم العظيم، ويحتفل به هو وعسكره، وأنزله دار ضيافته وباعه على طريقته، ثم توجّه إلى طنطا، واتّخذ من سطح دار الشيخ ركين مقرّاً له، لا يرى أحداً، ولا يراه أحد، وصار يقوم الليل ويشخص ببصره إلى السماء حتى انقلب سواد عينيه بحمرة تتوقّد كالجمرة، صمتٌ دائم، عباداتٌ قلبية، وزهد في الطعام والشراب.

سمع بالسيد البدوي أهل طنطا والبلاد المجاورة لها، فأقبل عليه الناس، واختار منهم أربعين رجلاً من خيرة الزاهدين الصالحين يطلبون صحبته، ويرغبون في

الاستهداء به، هؤلاء الأربعون كانوا نواة الدولة الصوفية التي أسَّسها السيد البدوي ورعاها، وأخذ عليهم العهد:

١ - ألاَّ يخوضوا فيما يخوض فيه الناس من لغو الحديث.

٢ - وأن يكون نطقهم ذكرًا.

٣ - وصمتهم فكرًا.

٤ - ونظرهم عبرة.

٥ - وأمر كُلاًّ منهم أن يتَّخذ صنعة ليأكل من عمل يده؛ لأنَّ العَرَق يُطَهِّر الخطايا كما يطهِّره الوضوء (*ومن أمسى كالأ من عمل يده أمسى مغفوراً له ذنبه*) كما قاله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٦ - ثم عيَّن لهم يوماً لِيُدرَّبهم على حمل السلاح لمواجهة أعداء الأمة من الفرنجة؛ لأنَّ الدفاع عن الأرض واجبٌ مقدَّس (*ومن قُتل دون أهله فهو شهيد*) قولوا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إخوتي في الله:

نهج هؤلاء هذا المنهج، وبدؤوا يزدادون يوماً بعد يوم، وبدأ الإمام يفتقهم في الدين ليكونوا دعاة على علم، تعلّموا فيه ألا يناموا إلا على وضوء، وأن تكون صحائفهم سامية طاهرة، صادقة في مسيرتها إلى الله تعالى، وحمل القوم الراية بصدق وأمانة، تعلّموا الفروسية ودرسوا مذهب الإمام الشافعي، وتعلّموا تجويد القرآن، وشعروا أنّهم قريبون من الله تعالى، لم يزعم أحد منهم أنّه طار في الهواء، أو مشى على الماء، أو أحيا الموتى بإذن الله تعالى، إنّما كانوا على صلة قوية بالله تعالى، وهم يتعلّمون على سطح الدار عند شيخهم حتى عُرفوا بالسطوحية، وجاءت الساعة التي أُعدّها الإمام منذ نشأته، وهياً الأبطال حولها، نادى داعي الجهاد ضد الفرنسيين، وأمر الإمام أبطاله أن يهيئوا بأهل القرى ويحرضوا الناس على الجهاد، والتفت حولهم العسكر المؤمنة، وهبّت عليهم ريح الجنّة طيبة زكية، واندفع أهل الإيمان بقيادة السيد البدوي يستأصلون شأفة الفرنسيين، ويزلزلون الأرض تحت أقدامهم، وكانت العقيدة أقوى سلاح في المعركة، وتهافت الناس على الشهادة، وذكّرت لهم خوارق كالتي نسمعها عن كرامات الأولياء.

هذه هي الصوفية الصادقة، جهاد النفس وجهاد العدو، المتصوّف الحقيقي هو مَنْ يُسهم في نهضة بلده ورقية، زراعة وصناعة وأمرًا بمعروف ونهيًا عن المنكر من غير عنف ولا قهر ولا إكراه.

أَتعرفون ماذا فعل هو وجيشه؟

لقد أنزل بهم أبشع الهزائم، حيث أطلق على الفرنسيين مياه النيل وهم في طريقهم إلى المنصورة، فمات أكثر من ثلاثين ألف جندي فرنسي، وأُسر الملك لويس التاسع، وحبسه عنده، ولم يطلق سراحه إلا بفدية من فرنسة بعد أربع سنوات. وجاءت إليه امرأة تذكر له أن ابنها أسير، وهي ترجوه أن يفك ابنها من الأسر، فإذا بالإمام يمد يده في الهواء ثم يعيدها ثم يقول: ابنك صار في البيت، وتكررت هذه الكرامة منه حتى لقب بجلاب الأسير.

هذا الدور العظيم للإمام دعا الأيوبيين حكام البلاد لأن يتعرّفوا على حال هذا الرجل العظيم الذي وراءه هذا الجيش الضخم من المريدين، فأرسلوا له جواسيس منهم لينخرطوا بينهم بدعوى أنهم يريدون، فلمّا رأوه رجلَ دين وليس رجل سياسة انضوا تحت لوائه وصاروا من أتباعه، فلمّا اطمأن الأيوبيون إلى الرجل؛ أرسلوا إلى قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد ليتعرّف على هذا الرجل، ففكّر ابن دقيق العيد بمَن ينجز هذه المهمة، فأرسل إلى الشيخ عبد العزيز الدريني، وكان من أساطين العلم وسدنة الفقه والتشريع.

كان الإمام الدريني يفكر طوال الطريق من القاهرة إلى طنطا في أعوص المسائل
الفقهية من كتاب جعله في كفه، لي طرحها على الإمام بهدف استكشاف مستواه
العلمي.

فما أن دخل عليه حتى قال له الإمام: - لماذا تحمل في كحك كتاب الشجرة، جئت
تسأل عن العلم، وكتاب الشجرة في كحك.
فتماسك الدريني.

وعلى سطح داره دارت المناظرة، حجة تقارع حجة، ودليل يضارع دليلاً، ورأي
يناهض رأياً، كل هذا والسيد البدوي هو الفارس المجلي، وبعد ساعات رفع الشيخ
الدريني يده معلناً ختام المناظرة، ثم قبل يد السيد البدوي، وعاد إلى القاهرة، ودخل
على قاضي القضاة ابن دقيق العيد، وألقى أمامه قنبلة على مسمعه وقال: لقد
أصبحت من أتباع السيد البدوي، ووجدته بحرًا في العلم لا يدرك له قرار، وقال لي
حين ودعته: أبلغ شيخ الإسلام الذي أرسلك أن المصحف المعلق في صدر حجرته
به خطأ، الأول في سورة الرحمن، والثاني في سورة يس.

أسرع ابن دقيق العيد وبحث في السورتين في مصحفه المخطوط، فوجد الخطأين،
فظل مبهورًا مشدوهاً: لقد صدق السيد البدوي.

ثم قرر ابن دقيق العيد أن يذهب بنفسه إلى الإمام البدوي.

وابن دقيق العيد (محمد بن علي ٦٢٥ - ٧٠٢ هـ) من أساطين العلم، تعلّم بدمشق والإسكندرية والقاهرة، وتفقه على المذهب المالكي وأتقنه، ثم انتقل إلى المذهب الشافعي فأحاط به، وصار يفتي على المذهبين، وتوفي بالقاهرة).

وانطلق الإمام إلى الإمام، انطلق بحر الشريعة إلى بحر الحقيقة، وهو يتمنى أن يفوز عليه فوزاً عظيماً ليخفت صوت الشعبية التي حظى بها السيد البدوي، فالتقى البهران (على السطح)، ونظر إلى أتباعه في صمتهم وسكوتهم وعمائمهم الحمر يشكلون منظرًا غريبًا يملأ النفس رهبة، فقال في نفسه:

- رباه ماذا أرى، إنهم قوم مجانين.

ثم تقدّم وسلّم على السيد البدوي، فقال له السيد:

- مجانين، إلا أن جنونهم عزيز، على أعقابهم يسجد العقل.

ارتبك الإمام ابن دقيق العيد وتماسك، وسأله عن الطريقة الأحمدية وأركانها.

ووقف الزمان، وأنصت الإنس والجان، وسمعوا الإمام السيد البدوي يقول:

(طريقتنا مستمدّة من الكتاب والسنة، مَنْ خالفهما فليس منا، والمريد الصادق هو مَنْ يعيش طاهر القلب نقيّ السريرة، لا تتخالجه خواطر تحجبه عن الله تعالى، ويشترط فيه:

أن يكون صادقاً، صابراً على المكروه، وفياً بالوعد غير حاث بالعهد، مستقيماً على الطريقة، يأكل من عمل يده، يُطعم الجائع ويكسو العاري، ويُغيث الملهوف، يعبد الله في السِّرِّ مثلما يعبد في العلانية، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، يصون جوارحه عن المعصية، يُعرض عن الدنيا وزينتها، مكتفياً بما يُقيم أودّه، ينتظر الموت أن يأتيه في أية لحظة، يندم على الوقت الذي يمرُّ عليه دون أن يذكر الله فيه، يتمثل الصراط وهو مارّاً عليه، وجهنم وهو واردها، يتخيّل موقفه أمام الله وأعضاؤه تشهد عليه، يستحي من الله أن يراه في حالة تُغضبه.

هذه أولى الملامح الخاصة بالمريد وعند الله المريد).

تصوروا الإمام ابن دقيق العيد، الذي درس الشريعة ووصل إلى أعلى مناصب القضاء في الدولة، يكتشف أنه وُلِدَ من جديد في جلسة واحدة، ويُقرّر أن يصبح واحداً من أتباع السيد البدوي، ويعود إلى القاهرة ذاكرةً من الدرجة الأولى.

أيها الأحبة والصحب:

عاش السيد البدوي تسعة وسبعين عاماً، وكما قيَّض الله لسيدنا إبراهيم بن أدهم خادمه إبراهيم بن بشار ليحفظ وصاياه ويُدوّن تعاليمه، فكَذلك قيَّض الله للسيد البدوي تلميذه عبد العال الفيشاوي ليصب في ذاكرة التاريخ الحِكم الغوالي والعظات البليغة التي قالها السيد البدوي.

معاشر المسلمين:

لم يكن الإمام ينزل من السطح إلَّا لصلاة الجمعة والجماعة، وكان أغلب وقته صامتاً يُناجي الله في سرِّه ويمجده، حتى اختاره الله لجواره في (١٢) ربيع الأول سنة (٦٧٥هـ).

ودوَّى نبأ موته كما يحدث زلزال يهزُّ الأرض هزًّا، وصار الناس يتهامسون: إنَّ من رضوان الله على السيد البدوي أن يموت في اليوم نفسه الذي ولد ومات فيه النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وعدُّوا ذلك من محبة الله له.

وحضر مريدوه ليغسِّلوه، فدخلوا على غرفته، وأرادوا حمله إلى المغتسل، فإذا بالكرامة تحدث، إذ بالسيد البدوي يقوم من فراشه حيًّا ويقول: *أنا أغسِّل نفسي*.

فدخل فاغتسل غسل الموت، ثم عاد إلى فراشه ثانية ومات.

وقامت الدنيا ولم تقعد لهذه الكرامة الأخيرة، وصلوا عليه، وبايعوا خليفته عبد العال على الطريقة، وصار المريدون يحضرون كل عام في (١٢) ربيع الأول يزورون شيخهم وقيمون مولدًا، صار احتفالًا سنويًا ما زال يكبر ويكبر ويتضخم حتى يجتمع مئات الآلاف، وبُني بجوار قبره مسجد السيد البدوي، وبجواره زاويته، وفيها عمامته وقميصه وعصاه وسبحته التي جاء بها من العراق، وتتكون من ألف حبة، وتحولت طنطا لوجود ضريح السيد البدوي فيها إحدى العواصم الكبرى في مصر.

إنَّ السيد البدوي سيرةً وتاريخًا ليس بأسطورة شعبية، لكنها ولاية لا أظنُّها تختفي ما دامت ولاية الأولياء، ومادام قول الله تعالى يُتلى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

المصادر:

- جوهرة الدسوقي

- العارف بالله أبو العباس الفتى البدوي أبو الثامين.

- شذرات الذهب لابن العماد ٦٠٢ / ٧

- السيد البدوي عبد المنعم قنديل - نهضة مصر

- السيد أحمد البدوي سعد القاضي دار غريب - القاهرة
- العظة والاعتبار في حياة السيد البدوي - أحمد محمد جي
- أعلام الصوفية د. جوي المهدي
- النجوم الزهرة ٧ / ٢٥٢ لابن تغري بردي
- النصيحة العلوية للإمام نور الدين الحلبي
- دائرة المعارف الإسلامية (السيد أحمد البدوي)
- الأعلام للزركلي ١ / ١٧٥
- الإمام الشعراني الطبقات الكبرى ١ / ١٨٣
- الموسوعة الصوفية ١٥٧ للحنفي

إجازة في الطريقة البدويّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما أنعم، والصلاة والسلام على نبي أرسله إلى خير الأمم، وعلى آله وأصحابه ذوي الكرم، وسلّم تسليماً كثيراً. وبعد... فيإجازة العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن محمّد فؤاد صادق، عن والده الشّيخ محمّد فؤاد صادق خادم الطّريقة الأحمدية البدويّة ومؤسّسها في طرابلس لبنان عام ١٩٣٦م وبسلوكه هذه الطّريقة عام ١٩٢٠م ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] وذلك عن شيخه الشّيخ حسن القدوسي، عن شيخه العلامة التحرير الشّيخ أبي المحاسن القاوقجي رحمهم الله؛ فقد أجزت إجازة عامّة وخاصّة فضيلة الشّيخ عبد العزيز الخطيب وأذنت له بجميع أوراد سيدي أحمد البدوي رحمه الله، وأن يقوم بتسليك هذه الطّريقة لمن يغلب على ظنه أنّه من أهل التّقى والصّلاح من يومنا هذا إلى آخر الدوران، لاويّاً عنقي لدعوة صالحة تلحقني بظهر الغيب، حيث إنّها أفضل من الزيارة واللّقاء، وذلك ليعم النّفع للمسلمين، وأوصيه وإيّاي بتقوى الله وأتّباع أوامره واجتناب نواهيه، وبدوام ذكر الله، فإن الذكر منشور الولاية، ومن سلب الذّكر فقد عزل، وقد ورد في الأثر: الذكر عنوان الولاية، ومنار الوصلة، وتحقيق الإرادة، وعلامة صحبة البداية، ودلالة صفاء النّهاية، فالواصل إلى الله تعالى ما

وصل إلّا من طريق الذّكر، وأوصيه وإيّاي بدوام الصّلاة والسّلام على رسول الله
صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ الصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم توصل العبد إلى مولاه
عزّ وجلّ، وأوصيه وإيّاي بالتمسّك بالكتاب والسّنة وإجماع الأئمّة، فإنّ من خالف
الكتاب والسّنة وإجماع الأئمّة فهو مخذول متلاعب ناكص على عقبيه، ناكس، نسأل
الله العافية في الدّنيا والآخرة.

فالشّريعة ما شرعه الله من الأحكام، والطّريقة التزام هذه الأحكام، والحقيقة
معارف وأسرار يثمرها هذا الالتزام، ومن عمِل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم.
نسأل الله من فضله وكرمه وجوده وإحسانه بأن يختم بالصّالحات أعمالنا، ويديم
على التّقوى أحوالنا، ويولي أمورنا خيارنا، وينصرنا على أعدائه وأعدائنا، ويوفّقنا
وجميع المسلمين لما يحبّه تعالى ويرضاه، يا من يجب المضطر إذا دعا، وصلّى الله على
سيدنا محمّد نور الوجود، والسّبب لكلّ موجود، في البدء والختام، وعلى آله
وأصحابه الكرام، والتّابعين لهم بإحسان، إلى آخر الدوران، وسلام على جميع الأنبياء
 والمرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

وحرر في يوم الجمعة ٢٤ ربيع الثّاني ١٤٣٦ هـ الموافق ١٣ شباط ٢٠١٥ م.

الحاج عبد الرّحمن محمّد فؤاد صادق

خادم الطّريقة الأحمدية البدويّة في طرابلس لبنان

الإمام عبد الوهاب الشعراني

عرّف الشعراني نفسه في كتابه «لطائف المنن»، فقال:

«فإني بحمد الله تعالى عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن زوفا، ابن الشيخ موسى المكنى في بلاد البهنسا بأبي العمران، جدي السادس ابن السلطان أحمد ابن السلطان سعيد ابن السلطان فاشين ابن السلطان محيا ابن السلطان زوفا ابن السلطان ريان ابن السلطان محمد بن موسى ابن السيد محمد ابن الحنفية ابن الإمام علي بن أبي طالب»، أبو المواهب الشعراني، الأنصاري، الإمام، الفقيه، المحدث، الأصولي، الشافعي، الأشعري، الصوفي المربي، الشاذلي، المصري، ويكنى أيضًا بأبي عبد الرحمن وأبي محمد نسبة إلى ولده.

ولادته:

ولد الإمام عبد الوهاب الشعراني في السابع والعشرين من شهر رمضان سنة (٨٩٨هـ)، واختار ذلك وأثبتته تلميذه الإمام المناوي.

وكان مكان ولادته في مصر، كما قال ولده عبد الرحمن: ولد والدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني في دار جده لأمه بقرية من إقليم القليوبية بمصر، تسمى (قلقشندة).

ثم جيء به بعد أربعين يومًا من مولده إلى قرية أبيه (ساقية أبي شعرة) المنوفية على نهر نيل مصر، تجاه بلد يقال لها: البراشيم، بإقليم القليوبية، وإليها انتسب فلقب بالشعراني.

نشأته:

نشأ الإمام الشعراني في قريته يتيم الأم والأب؛ إذ فقدهما في سن مبكرة، فقام أخوه الشيخ عبد القادر الشعراني بكفالته وتولاه بالرعاية، فكان كالأب الحنون المشفق على أبنائه، وترتب على ذلك عظيم الأثر في شخصيته التي تكونت فيما بعد آخذةً مسارًا خاصًا جمع بين العلم الذي برع فيه وواظب على تحصيله وحفظه، وبين العمل الذي ظهر واضحًا عليه؛ وهو توجهه الصوفي السلوكي الذي عرف به واشتهر حتى أصبح في مصاف العلماء الأعلام.

وقد حدّث الشعراني عن نفسه في تلك المرحلة فقال: "ومما منَّ الله تبارك وتعالى به علي وأنا صغيرٌ ببلاد الريف حفظُ القرآن وأنا ابن ثمان سنين، وواظبت على

الصلوات الخمس في أوقاتها من ذلك الوقت.....ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ حفظُ متون الكتب، فحفظت أولاً «أبا شجاع»، ثم «الآجرومية» في بلاد الريف، وحللتها على أخي الشيخ عبد القادر بعد وفاة والدي".

بعد حفظه للقرآن الكريم التقى بالحافظ الإمام جلال الدين السيوطي، ويحدثنا عن هذا اللقاء الذي تُوجَّح بأن ألبسه السيوطي الخرقة الصوفية علامة على نجابته، وقد حظي بذلك ولم يتجاوز من العمر الثالثة عشرة سنة يقول: "لبست الخرقة - وهي عرقية وجبة ورداء- من يد حافظ العصر الشيخ جلال الدين السيوطي حين اجتمعت به مع والدي في روضة المقياس بمصر المحروسة في الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة وتسع مئة".

***شيوخه*:**

يذكر الشعراني في كتابه "الطبقات الكبرى" شيوخ العلم والتصوف الذين أخذ عنهم العلوم والآداب، وكان يجلهم ويحترمهم، وأوصلهم نحو خمسين شيخاً؛ فمن مشايخه في العلم:

- الإمام الكبير الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي.

- الشيخ أمين الدين الإمام والمحدث بجامع الغمري.

- الشيخ الإمام العلامة شمس الدين الدواخلي.
- الشيخ شمس الدين السمانودي.
- الإمام شهاب الدين المسيري.
- الشيخ نور الدين المحلي.
- الشيخ نور الدين الجارحي المدرس بجامع الغمري.
- الشيخ نور الدين السنهوري الضرير الإمام بجامع الأزهر.
- الإمام الحافظ شهاب الدين أبو العباس أحمد القسطلاني.
- الشيخ صلاح الدين القليوبي.
- الشيخ نور الدين بن ناصر.
- الإمام المتقي الهندي.
- الإمام العلامة نور الدين علي الأشموني الشافعي.
- الإمام العلامة المحقق برهان الدين بن أبي شريف المقدسي.
- الإمام شهاب الدين الحنبلي.

- الإمام شهاب الدين الرملي المصري الشافعي.

- الإمام ناصر الدين اللقاني.

***ومن مشايخه في التصوف*:**

- الإمام شيخ الإسلام زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري الشافعي.

- الشيخ نور الدين المرصفي.

- الشيخ نور الدين علي الشوني الشافعي.

- الشيخ محمد الشناوي.

- الشيخ أبو العباس الحريشي.

- الشيخ العارف بالله تعالى علي الخواص البُرُلُسي، وهو عمدته في التصوف.

***تصوفه*:**

كان الإمام الشعراني صوفيًا في توجهه الذي اتخذ في حياته، يقول عن نفسه متحدثًا بنعم الله عليه في كتابه «لطائف المنن والأخلاق»: "... ثم إلهامي لمجاهدة نفسي بغير شيخٍ لَمَّا تبحرت في العلم، ثم بشيخٍ ليساعدني على إزالة الموانع التي توقفتني عن العمل بما علمته".

إلا أنه لم يكتف بذلك، بل ظل يبحث عن شيوخ التصوف إلى أن التقى بعدد كبير منهم، فأصبح يبين أصول التصوف التي أخذها عنهم في مقدمة كتابه «الطبقات الكبرى»، قال في ذلك: "في بيان أن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة، وأنها مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء، وبيان أنها لا تكون مذمومة إلا إن خالفت صريح القرآن أو السنة أو الإجماع لا غير، وأما إذا لم تخالف؛ فغاية الكلام أنه فهم أوتيهِ رجل مسلم، فمن شاء فليعمل به، ومن شاء تركه، ونظير الفهم في ذلك الأفعال، وما بقي باب للإنكار إلا سوء الظن بهم وحملهم على الرياء، وذلك لا يجوز شرعاً.

بعدها ذكر مفهوم علم التصوف وخلاصته، بقوله:

"ثم اعلم -يا أخي رحمك الله- أن علم التصوف عبارة عن علم انقذح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل بهما انقذح له من ذلك علوم، وآداب، وأسرار، وحقائق، تعجز الألسن عنها؛ نظير ما انقذح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامهم، فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس؛ كما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النحو، فمن جعل علم التصوف علماً مستقلاً صدق، ومن

جعلله من عين أحكام الشريعة صدق؛ كما أن من جعل علم المعاني والبيان علمًا مستقلاً؛ فقد صدق، ومن جعله من جملة علم النحو؛ فقد صدق".

ثم قام بتأصيل هذا العلم، وبيان أنه من معين الشريعة التي يتوصل بها إلى الأحكام الشرعية، بقوله: "لكنه لا يشرف على ذوق علم التصوف المتفرع من عين الشريعة إلّا من تبخر في علم الشريعة حتى بلغ إلى الغاية، ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم، وتبحر فيها؛ أعطاه الله هناك قوة الاستنباط؛ نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء، فيستنبط في الطريق واجبات، ومندوبات، وآداباً، ومحرمات، ومكروهات، وخلاف الأولى؛ نظير ما فعله المجتهدون، وليس إيجاب مجتهد باجتهاده شيئاً لم تصرح الشريعة بوجوبه أولى من إيجاب ولي الله تعالى حكماً في الطريق لم تصرح الشريعة بوجوبه؛ كما صرح بذلك الياضي وغيره".

***تلاميذه*:**

أما عن تلاميذه فنقتصر على بعضهم؛ وهم:

- الإمام الكبير عبد الرؤوف المناوي الشافعي.

- الشيخ العلامة عبد الرحمن بن الشيخ عبد الوهاب الشعراني.

- الإمام العلامة شهاب الدين أحمد الكلبي المالكي.

- الإمام محمد حجازي بن عبد الله القلقشندي الواعظ.

آراءه العقدية:

يرى أن عقيدة الأشاعرة والماتريدية هي عقيدة السواد الأعظم من هذه الأمة وهي العقيدة التي تبناها ودافع عنها في كتبه العقدية إذ يقول: "ثم لا يخفى عليك يا أخي أن مدار جميع عقائد أهل السنة والجماعة يدور على كلام قطبين؛ أحدهما: الشيخ الإمام أبو منصور الماتريدي، والثاني: الشيخ الإمام أبو الحسن الأشعري، فكل من تبعهما أو أحدهما اهتدى، وسلم من الزيغ والفساد في عقيدته، وقد ظهر أتباع الماتريدي فيما وراء نهر سيحون، وظهر أتباع الشيخ أبي الحسن في أكثر البلاد كخراسان والعراق والشام ومصر والمغرب، وغير ذلك من البلاد الإسلامية؛ فلذلك صار غالب الناس يقولون إذا مدحوا عالماً: فلان عقيدته أشعرية صحيحة، وليس مرادهم نفي صحة عقيدة غير الأشعري من الماتريدية وغيرهم من أئمة الكلام السابقين على الإمام الأشعري".

وفي بيان ملخص اعتقاد الإمام الشعرائي - كما هو مثبت في كتبه المعتمدة - يقول: "اعلم رحمك الله يا أخي أنه ينبغي لكل مؤمن أن يصرح بعقيدته وينادي بها على

رؤوس الأَشهاد، فإن كانت صحيحة شهدوا له بها عند الله تعالى، وإن كانت غير ذلك بينوا له فسادها ليتوب منها، ... فيا إخواني، ويا أحبائي؛ رضي الله عنا وعنكم: أشهدكم أني أشهد الله تعالى وأشهد ملائكته وأنبياءه أني أقول قولاً جازماً بقلبي: إن الله تعالى واحد لا ثاني له، منزّه عن الصاحبة والولد، مالك لا شريك له، ملك لا وزير له، صانع لا مدبر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده، بل كل موجود سواه مفتقر إليه في وجوده".

ويختتم كلامه بقوله:

"فهذه شهادتي على نفسي أمانة عند كل من وصلت إليه يؤديها إذا سئلتها حيثما كان، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة إلى قيام الساعة، وهي بحمد الله عقيدتنا، عليها حيينا، وعليها نموت، نفعلنا الله تعالى بهذا الإيَّان، وثبتنا عليه عند الانتقال إلى الدار الحيوان، وأحلنا دار الكرامة والرضوان، وحال بيننا وبين دارِ سراييل أهلها من قطران، وجعلنا من العصابة التي تأخذ كتبها بالأيَّان، ومن انقلب عن الحوض وهو ريان، ورجح له الميزان، وثبت منه على الصراط القدمان، إنه المنعم الحنان، آمين اللهم آمين".

أقواله في الآيات المتشابهة:

ويتلخص قوله في أنه يجب الإيمان بهذه الآيات على مراد الله تعالى، مع وجوب تنزيهه تعالى عن ظاهر تلك الألفاظ التي توهم التشبيه بالمخلوق، وهذا هو الأسلم، وذهب أن التأويل عمومًا لا يوافق الأدب مع الله تعالى، ولكن إذا دعت له ضرورة أو مصلحة؛ فإن للعلماء أن يؤوّلوا من غير جزم بأن هذا هو مراد الله تعالى.

ثم بين أصل المسألة وعرض أقوال العلماء فيها، فقال: "إن أهل الله تعالى قاطبة أجمعوا على أنه يجب الإيمان بآيات الصفات وأخبارها على حد ما يعلمه الله تعالى، وعلى حد ما تقبله ذاته المقدسة، وما يليق بجلاله، ولا يجوز لنا رد شيء من ذلك، ولا تكييفه، ولا نسبة ذلك إلى الحق جل وعلا على حد ما ننسبه إلينا؛ وذلك لأننا جاهلون بذاته تعالى في هذه الدار، وفي الآخرة لا ندري كيف يكون الحال؟؟ وكل من رد شيئاً أثبتته الحق تعالى لنفسه على السنة رسله؛ فقد كفر بما جاء من عند الله، وكل من آمن ببعض ذلك وكفر ببعض؛ فقد كفر بذلك، وكل من آمن بذلك، ولكن شبه في نسبة ذلك إليه مثل نسبته إلينا، أو توهم ذلك، أو خطر على باله، أو تصوره، أو جعل ذلك ممكنًا...؛ فقد جهل وما كفر".

وتطرق إلى آيات الصفات، وذكر أن الأصل هو التفويض مع التنزيه، وهو ما ذهب إليه العلامة إبراهيم اللقاني المالكي في «جوهرة التوحيد» حيث قال:

وَكُلُّ نَصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِيهًا أَوَّلُهُ أَوْ فَوَّضَ وَرُمْ تَنْزِيهًا

وأما التأويل فهو جائز بحسب ما يراه العلماء، ويجب عليهم إذا اضطروا إليه، وقال فيه: "...اللهم إلا أن يؤول أحدهم شيئاً منها بمصرف شرعي لمن رأى عنده ضعف إيمان، فمثل ذلك لا حرج عليه في التأويل، بل قد يجب".

***أقواله في مسألة الحلول والاتحاد*:**

لما كانت هذه العقيدة فاسدةً وأساسها باطل، تصدى لها الشعراني بقوة فقال: "لا حلول ولا اتحاد؛ إذ القول بذلك يؤدي أنه تعالى في أجواف السباع والحشرات والوحوش!! وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا".

وقال أيضًا نقلًا عن الإمام محيي الدين بن عربي في (باب الأسرار):

"من قال بالحلول فهو معلول، وهو صاحب مرض لا يزول، ومن فصل بينك وبينه، فقد أثبت عينك وعينه... ولم يقل بالاتحاد إلا أهل الإلحاد..."

***مؤلفاته*:**

ذكر أنه خَلَفَ فيها كتبًا كثيرة في موضوعات شتى، منها:

- «الفتح المبين في جملة من أسرار الدين».

- شرح على «منازل السائرین».
- شرح على «حكم ابن عطاء الله».
- «ترتيب الحكم» للشيخ علي التقي سماه «فتح الحكم بشرح ترتيب الحكم»، لكنه لم يكمل.
- شرح على «رسالة ابن سينا في التصوف» سماه «إرسال أهل التعريف».
- شرح قصيدته العينية.
- شرح على «المواقف التقوية»، لم يكمل.
- شرح على «رسالة الشيخ ابن علوان في التصوف».
- كتاب «منحة الطالبين لمعرفة أسرار الطوائع».
- كتاب في التشريح والروح وما به صلاح الإنسان وفساده.
- كتاب في دلائل خلق الإنسان.
- شرح على «ألفية ابن الوردي» في المنامات.
- شرح على «منظومة ابن العماد» في آداب الأكل سماه «فتح الرؤوف الجواد» وهو أول كتاب شرحه في الآداب.

- كتاب في آداب الملوك سماه «الجواهر المضية في بيان الآداب السلطانية».
- كتاب في الطب سماه «بغية المحتاج إلى معرفة أصول الطب والعلاج».
- كتاب «سماء الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود».
- كتاب في تاريخ الخلفاء.
- تذكرة فيها رسائل عظيمة النفع.
- كتاب «الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية».
- كتاب «الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق».
- كتاب «البحر المورود في المواثيق والعهود».
- كتاب «البدر المنير في غريب أحاديث البشير النذير».
- كتاب «الطبقات الصغرى».
- كتاب «الطبقات الكبرى» المسماة بـ«لواقح الأنوار في طبقات الأخيار».
- كتاب «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية».
- كتاب «الطبقات الوسطى».

- كتاب «الدرر المنتثرة في بيان زبد العلوم المشهورة» وهو موسوعة في علوم القرآن، والفقه وأصوله، والدين، والنحو، والبلاغة، والتصوف.
- كتاب «كشف الغمة عن جميع الأمة» في الفقه على المذاهب الأربعة.
- كتاب «لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق» وهي (المنن الكبرى) في التصوف والأخلاق الإسلامية.
- كتاب «لوائح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية».
- كتاب «المختار من الأنوار في صحبة الأخيار».
- كتاب «مختصر الألفية لابن مالك» في النحو.
- كتاب «مختصر التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» (تذكرة القرطبي).
- كتاب «مختصر تذكرة الإمام السويدي» في الطب.
- كتاب «تذكرة شهاب الدين أحمد سلاقة القليوبي الشافعي».
- كتاب مختصر كتاب «صفوة الصفوة» (لأبي الفرج ابن الجوزي).
- كتاب «مشارك الأنوار في بيان العهود المحمدية».
- كتاب «المقدمة النحوية في علم العربية».

- كتاب «الميزان الكبرى» في الفقه الإسلامي، ومذاهب أصول الفقه، وهو مدخل لجميع أقوال الأئمة المجتهدين ومقلديهم.

- كتاب «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر».

- كتاب «الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر»، يدافع فيه عن الشيخ محيي الدين بن عربي.

- كتاب «درر الغواص على فتاوى سيدي علي الخواص».

***ثناء العلماء عليه*:**

أثنى عليه كثير من العلماء من أصحاب الطبقات والتراجم، بكلام يدل على مكانته العلمية والخلقية؛ منهم:

- قال عنه *الإمام عبد الرؤوف المناوي*:

"شيخنا، الإمام العامل، والهام الكامل، العابد الزاهد، الفقيه المحدث، الصوفي المربي المسلك، من ذرية الإمام محمد ابن الحنفية، ولد ببلده، ونشأ بها، ومات أبوه وهو طفل، ومع ذلك ظهرت فيه علامة النجابة، ومخايل الرئاسة والولاية".

- وقال عنه الإمام المحدث المؤرخ *نجم الدين الغزي*:

"الشيخ العالم العارف الشعرائي؛ نسبة إلى قرية أبي شعرة، المصري الشافعي الصوفي... كان رحمه الله من آيات الله تعالى في العلم، والتصوف، والتأليف".

-وقال عنه *الشيخ عبد الحي الكتاني* رحمه الله:

"هو الإمام، الفقيه، المحدث، الصوفي، العارف، المسلك، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعرائي".

-وقال عنه *الدكتور عبد الحليم محمود* شيخ الأزهر الراحل رحمه الله:

"إنه كان عالماً مستنيراً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، فهالته أن تتضارب آراء الفقهاء فيما بينهم، فحاول أن يضع بتأليفه المتعددة وآرائه الثابتة منهجاً صحيحاً يوفق فيه بين هذه الآراء المتضاربة والمذاهب المختلفة؛ حتى يبدد ما علق بالأذهان من شبهات واختلافات، وكان سباقاً في هذا الميدان، وتأليفه الكثيرة هي التي تشهد بذلك".

***وفاته*:**

أصيب الشعرائي بالفالج، وبقي مريضاً به ثلاثة وثلاثين يوماً إلى أن توفي في القاهرة بمصر، يوم الاثنين بعد العصر، ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وتسع مئة ٩٧٣ هـ، وحمل إلى الجامع الأزهر في مشهد من العلماء والفقهاء والأمراء

والفقراء، حيث صلوا عليه ودفن بجوار زاويته، في المدفن الذي أنشأه وأعدّه له أحد تلاميذه؛ وهو الأمير حسن...

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه «الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية»: (ومما وقع لي وأنا طائف بالبيت في سنة سبع وأربعين وتسع مئة أنني نظرت في قلبي فلم أعرف دعاءً واحدًا مما ورد أن أقوله في الطواف، فسمعت قائلاً يقول لي من داخل الحجر: قل:

اللهم أفرغ عليّ من الأخلاق المحمدية ما أتحمّل به الأذى من جميع العباد، اللهم أفرغ علي من الأخلاق المحمدية ما أتلقى به جميع الأقدار الجارية علي بالرضا والتسليم، اللهم أفرغ علي من الأخلاق المحمدية ما أكون به هاديًا مهديًا، اللهم أفرغ علي من الأخلاق المحمدية ما تصير به حركاتي وسكناتي كلها مرضية عندك، اللهم أفرغ علي من الأخلاق المحمدية ما أتجملّ به بين يديك في الدنيا والآخرة.

فكانت بعد ذلك هي أكثر دعائي).

الإمام الشيخ عبد الغني النابلسي

(1050هـ-1143هـ) (1641-1731م)

هو الشيخ عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي الدمشقي الحنفي.

نسبه:

ينسب الشيخ إلى الخليفة الراشدي سيدنا عمر بن الخطاب، ولقد حرر هذا النسب عام 1246هـ في كتاب جليل محفوظ عند أسرة النابلسي حفظهم الله.

وأصل أسرته من حماة، وجده الثاني عشر برهان الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ولد بحماة سنة 596هـ، ثم انتقل إلى دمشق ليتلقى العلوم، وفي عام 675هـ قصد بيت المقدس لزيارته، فمات بعد وصوله بأيام، فبقيت أسرته في بيت المقدس، ودرس أولاده فيها، وتعلموا في مساجدها، وعلى مشايخها أخذوا العلوم، ثم تولّوا بعد ذلك خطابة المسجد الأقصى وغيره.

وأول من انتقل إلى دمشق منهم جد النابلسي الرابع: إبراهيم بن إسماعيل بن برهان الدين إبراهيم.

فأسرته عُرفت بالعلم والقضاء والخطابة، بدءًا من موفق الدين ابن جماعة إلى سيدنا عبد الغني النابلسي، وهذا من أسباب نبوغه المبكر.

*مولده ونشأته:

ولد يوم الأحد في دمشق ٤ ذي الحجة عام (١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م) حين كان والده في القاهرة للتجارة.

ولد ونشأ وتصفوف في دمشق، قضى سبع سنوات من عمره في دراسة كتابات "التجارب الروحية" لِفَقْهَاء الصوفية.

وتطلعنا الكتب أن الشيخ عبد الغني كان يتفوق على إخوته بالنبوغ والذكاء المبكر، مما مهد لاهتمام والده به، فقد كان والده أول من قرأ على يديه القرآن الكريم في سن الخامسة، وورث عن أبيه الحافظة العجيبة وروحه العلمية.

وفي سن العاشرة حفظ مقدمات العلوم: «الألفية»، «الجزرية»، «الرحبية».

وحضر دروس والده في التفسير والفقه في كتاب «الأحكام شرح الدرر» في الأموي وأجازه، وتابع دروس الشيخ نجم الدين الغزي (1061هـ - ١٦٥١م) في الحديث تحت القبة في الجامع الأموي، وحصل على أول إجازة في الحديث، وفي

الثانية عشرة من عمره توفي والده، فكتب أول أشعاره في رثاء والده معلمه الأول، ثم تابع تحصيله العلمي تحت إشراف والدته، وحصل معظم علومه مع حداثة سنه. وفي العشرين من عمره تولى التدريس في الجامع الأموي في دمشق بالقرب من منزله الواقع في العنبرين.

فشيخنا الجليل ورث حب العلم وتقديسه، وورث ذكاءً ونبوغاً مبكراً، وسط "أسرة تربوية" تحمل في ثناياها أشكال الورع في السر والعلن، مما مهد لظهور شخصية العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي، الذي لقب في ذلك الزمان بـ"الأستاذ الأعظم".

هذا الكلام يوصلنا إلى أهمية المحضن الأول للأولاد، فلا بد أن تكون المحاضن تربوية السمة والصفة، فعندما يعيش الأولاد باهتمام تربوي ورع يُقصد به المباشرة أمام الحبيب المصطفى؛ فمن المؤكد أنه ستعطي البذور ثماراً صالحة ونافعة للفرد أولاً وللمجتمع ثانياً.

*شيوخه:

درس على عدد من شيوخ عصره ونال منهم الإجازات، ومنهم:

§ في علوم اللغة العربية: الشيخ محمود الكردي المتوفى (١٠٤٩هـ).

§ في علوم الفقه وأصوله:

الشيخ أحمد القلعي الحنفي (١٠٦٧).

الشيخ محمد كمال الدين الحسيني الشهير بابن حمزة نقيب الأشراف، قرأ عليه جملة من الفنون.

الشيخ علي الشبراملسي الشافعي، أجازته إجازات كثيرة.

§ وفي علوم الحديث: الشيخ عبد الباقي الحنبلي المتوفى (١٠٧١هـ).

§ وفي علم الفرائض والحساب: الشيخ كمال الدين محمد بن يحيى الشافعي الشهير بالفرضي (١٠٨٨هـ)

***عصره:**

كان العصر الذي ولد فيه الشيخ عبد الغني عصرَ فوضى اجتماعية وانحطاط أخلاقي، فقد كانت الدولة العثمانية تحتضن العالم العربي تقريباً في القرن العاشر الهجري، وكانت الأمم الإسلامية مستغرقة في اتباع الشهوات والأهواء، حتى ماتت الفضيلة بين الناس، وساد الجهل، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى، هذا قبل بداية العهد الثاني الجديد للدولة العثمانية، فكان عصرُ شيخنا عصر

المستبدين، فانصرف العلماء في مصر والشام والعراق والحجاز واليمن وإيران والهند إلى التدريس والإفادة، والباحثون والمفكرون إلى التأليف والتحقيق، والمشايخ والصوفية الربانيون اتجهوا إلى إصلاح النفوس وتزكية القلوب.

هذا وقد غلب على أهل العلم في هذا العصر ذوق الشعر والأدب؛ ليكون وسيلة راقية للوصول إلى قلوب الحائرين والتائهين، والشيخ عبد الغني كان شاعرًا، أديبًا، عالمًا ربانيًا، فقيهاً، مفسراً.

*وظائفه:

رغم تنوع علوم الشيخ عبد الغني وغزارتها لم يشغل إلا منصبين:

§ الأول: وظيفة القضاء في محكمة الميدان عام ١٠٧٥هـ، ولم يلبث أن تركها.

§ والثاني: انتخبه أهل دمشق في عام ١١٣٥هـ مفتيًا لدمشق، فجاء المرسوم السلطاني من إستنبول بذلك، ولكنه لم يلبث أن ترك الوظيفة؛ ليتفرغ للخلوة التي ستمهد له الطريق للوصول.

*خلوته:

اعتزل في بيته سبع سنوات لا يخرج إلا لضرورة، إلا أنه لم ينقطع عن التأليف واستقبال طلابه للتدريس وذكر الله في السر والعلن، ولا ننسى أنه منذ الصغر دأب على قراءة سير الصالحين والمتصوفين؛ مما جعله مهياً لهذا الدور الصوفي، والخلوة سنة نبوية شريفة، كم تحتاج في الزمان إلى من يُعيد إحياءها!!

وقد ذكر في «الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية» صوفيته وتدرجه فيها.

خرج الشيخ عبد الغني النابلسي بعد سبع سنين إلى الناس الذين ازدادوا في احترامهم له بعد أن رموه بالحجارة.

خرج وعليه هيبة العارفين بالله ووقارهم، ومنذ ذلك اليوم ذاع صيته في العالم الإسلامي، وبدأ الفتوح الرباني للتأليف، وقد برع أكثر ما برع في الدفاع عن الصوفيين، وجمع شعره الصوفي في ديوان "الإلهيات"، وأخذ يتردد على ضرائح الأولياء، وقبور الصالحين، يزورهم ويقرأ في سيرتهم، ويدافع عنهم عند المنكرين، ويمدحهم نثراً وشعراً.

وتلقى الطريقة النقشبندية عن الشيخ أحمد البلخي الذي زار دمشق سنة ١٠٨٧هـ، وتلقى الطريقة القادرية عن الشيخ عبد الرزاق الكيلاني عام ١٠٧٥هـ.

وكان كثير المطالعة لكتب الشيخ محيي الدين بن العربي، وكتب السادة الصوفية كابن سبعين والعفيف التلمساني.

لقد تبهر الشيخ عبد الغني النابلسي في علوم الصوفية حتى عُدَّ من أشهر الأولياء العارفين، وقد ظهرت له كرامات، ومن أشهرها تبهره في جميع العلوم، وقد ترجم له المرادي في "سلك الدرر" فقال عنه: "أستاذ الأساتذة، وجهيد الجهابذة، الولي العارف، ينبوع العوارف والمعارف، الإمام الوحيد، الهمام الفريد، العالم العلامة، الحجة الفهامة، البحر الكبير، الجد الشهير، شيخ الإسلام، صدر الأئمة الأعلام، صاحب المصنفات التي اشتهرت شرقاً وغرباً، وتداولها الناس عجباً وغرباً، العارف بربه، الفائز بقربه وحبه، ذو الكرامات الظاهرة، والمكاشفات الباهرة:

هيهات لا يأتي الزمان بمثله! إِنَّ الزمان بمثله لبخيل

*دروسه:

تفرغ بعد ذلك للعلم باحثاً ومصنفاً وشاعراً وأديباً ومعلماً، وكانت دروسه كالتالي:

دروس عامة، ودروس خاصة.

فدروسه العامة بعد الفجر وضحوة النهار وبعد العصر، في ثلاثة مواضع: الجامع الأموي، والمدرسة السلمية، ومنزله، وأما الدروس الخاصة؛ فهي في منزله.

ومواد دروسه: تشمل العلوم كلها من مبادئها إلى التخصص، بدءًا بعلم الحديث ثم التفسير، فالفقه، فالتصوف.

والشيخ عبد الغني النابلسي هو أول من دأب على تفقيه أهل الصالحية بعلوم المذهب الحنفي والشافعي، بعد أن كان المذهب الحنبلي هو السائد لديهم بالصالحية منذ إنشاء جامع الحنابلة والمدرسة العمرية الحنبلية بصالحية الشام، وذلك بعد أن انتقل من بيته بجوار الأموي إلى بيته في الصالحية، وفي الصالحية لم يتوقف عن إلقاء الدروس في تسهيل تفسير القرآن للبيضاوي، وفي تدريس «الفتوحات المكية» لابن العربي.

وظل الشيخ يستقبل في إيوان داره عددًا كبيرًا من طلبة العلم للمذهب الحنفي، وظلت دروسه كذلك في عهد ابنه الشيخ إسماعيل وحفيده مصطفى رحمهم الله.

دانت له كل الناس، وبايعه آخر عمره كل من وجد في عصره بالملا العام بين الأنام.

وفي «سلك الدرر»: استجيز من سائر الأقطار^(١).

*مؤلفاته وكتبه:

كانت مؤلفاته كثيرة، وقد بلغت زهاء ثلاث مئة مؤلف؛ ما بين كتب ورسائل ودواوين ذكرها خلال رحلته الكبرى، وتميزت بدفاعه عن الصوفية، ومنها:

الوجود الحق.

جواهر النصوص في شرح كلمات الفصوص.

غاية المطلوب، في محبة المحبوب.

هدية الفقير، وتحية الوزير.

السانحات النابلسية، والسارحات الأنسية.

بداية المرید، ونهاية السعيد.

بذل الإحسان، في تحقيق معنى الإنسان.

إيضاح المقصود من وحدة الوجود، وهي رسالة صغيرة.

(١) «سلك الدرر» (٣/ ٣٠).

الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية.

تعطير الأنام في تعبير المنام.

التعبير في تفسير الأحلام.

ديوان الدواوين، وهو مجموعة شعره.

فضائل الشهور والأيام.

أسرار الشريعة.

منظومة أسماء الله الحسنی.

الفتح الرباني والفيض الرحماني.

خمرة الحان ورنه الألحان شرح رسالة الشيخ أرسلان.

الوجود الحق والخطاب الصدق.

ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الحديث.

إيضاح الدلالات في سماع الآلات.

رائحة الجنة شرح إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة.

رشحات الأفلام شرح كفاية الغلام.

وأعدّ مناهج تدريس للتصوف حوالي ٢٠٠ كتابًا؛ منها:

الرد المتين على منتقص العارف محيي الدين.

ردّ المفترى على الطعن بالششتري.

التنبيه من النوم في حكم مواجيد القوم.

*رحلاته:

بعد خلوته التي تحدثنا عنها قام بعدة رحلات: إلى لبنان، ثم إلى بيت المقدس، ثم إلى الشام ومصر والحجاز.

والرحلة الكبرى هي إلى مصر والحجاز والشام في سنة ١١٠٥ هـ، خرج من داره بجانب الجامع الأموي، وتجول في دمشق مودعًا وزائرًا قبور الصالحين والأولياء والصحابة.

وبعد أن طاف في الشام اتجه إلى بيت المقدس، ثم إلى مصر، ثم إلى الحجاز قاصدًا الحج إلى بيت الله الحرام، وفي عودته إلى الشام مات أخوه فدفنه، واتجه نحو الشمال

ليصل إلى تبوك ومعان، ثم وصل دمشق في ٣٨٨ يومًا من بدء رحلته، بدأت (١١٠٥ / ١ / ١)، وانتهت (١١٠٦ / ٢ / ٥).

ومرافقوه في رحلته: ابنه إسماعيل، وخادمه، وأخوه الذي توفي في طريق العودة. وكان الإمام النابلسي من المغرمين بالرحلات، فقد كان هدفه زيارة الأولياء الصالحين أحياءً وأمواتًا، والتباحث مع علماء هذه الأمصار، والهدف الأخير هو الاستمتاع بالتنزه حتى أقعده مرض في داره.

قال الغزي: "وفي حال مرض الأستاذ لم يغب إدراكه، ولا تغير شيء من حواسه إلى أن خرجت روحه الشريفة، وكان كثيرًا ما يقول في مرضه: تعالوا انظروا إلى "نقش بندي" ويشير إلى بدنه، واجتمعت في داره غالب الحفظة للقرآن الكريم في دمشق، ولما وضع على المغتسل اجتمع علماء دمشق وطلبتها لغسله، ووقف الشيخ حسن البصير المنشد، وأنشد قصيدة الأستاذ المشهورة وأولها:

خلوة القبر أشرف الخلوات بلقاء الحبيب في الجلوات

وَصُلِّيَ عليه في إيوان القاعة مرارًا عديدة.

*وفاته:

توفي بعد مرضٍ ألمَّ به في ٢٤ شعبان (١١٤٣هـ - ١٧٣١م)، ودُفن في القبة التي كان قد بناها في بيته، ثم أُقيم على قبره جامع في بدايات القرن الثالث عشر للهجرة. وخلاصة القول فيه ما قاله صاحب «سلك الدرر»: (لم يأت عالم مثله في عصره أو بعده).

ونختم ترجمة الإمام الجليل بهذه الأبيات من كنوز شعره "خلوة القبر أشرف الخلوات":

خلوة القبر أشرف الخلوات	بلقاء الحبيب في الخلوات
خلوة القبر للتجرد عما	يشغل الروح عن إثم الصفات
خلوة القبر لذة ونعيم	لسعيدٍ قد ذاق سر الممات
خلوة القبر راحة وسرور	ودخول في أشرف الجنات
حضرة تجمع المقيم فيها	أيَّ جمعٍ أكمل الحالات
هي سعد لكل عبد سعيد	يترقى بها علا الدرجات
وهي سجن لكل عبد شقي	يتدلى بها إلى الدركات

الطريقة التيجانية

شيخ الطريقة الإمام أحمد التيجاني.

وغايتها وهدفها الوحيد هو التوحيد ومعرفة الله تعالى.

واعترض على سالكيها أنهم يعدون (صلاة الفاتح) إذا قرئت بإخلاص أفضل من ستة آلاف ختمة بغير إخلاص.

من أقوال الإمام التيجاني: المراقبة هي علم القلب باطلاع الرب عليه في كل لحظة، وبدوامها تقع المشاهدة.

قيل له: أيكذب عليك؟ قال: نعم. إذا سمعتم عني شيئاً فزنوه بميزان الشرع، فإن وافق فاعملوا به، وإن خالف فاتركوه.

قال: إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم رؤيا مباشرة.

أركان الطريقة التيجانية:

إن الطريقة التيجانية هي طريقة العلماء، فهي طريقة علم وعمل ومعرفة وإخلاص، وأهلها هم من أجلة العلماء.

تقوم الطريقة التيجانية على ثلاثة أركان، وهي:

١- الاستغفار.

٢- الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

٣- الهيلة (لا إله إلا الله).

والأذكار اللازمة في هذه الطريقة الجليلة هي: وردا الصباح والمساء، والوظيفة، وذكر الجمعة. وكلها تقوم على هذه الأركان الثلاثة كلها أو بعضها.

وهذه الأذكار اللازمة هي أسس الطريقة وأساسها، وليس وراءها ذكر لازم، ومدار الطريقة في المداومة على أذكارها اللازمة بشروطها وآدابها. ومن أكد هذه الشروط وأعظمها: المحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها، بإتمام أركانها وأدائها على حدودها المحدودة لها شرعاً، في جماعة غير مبتدعة، وامتنال الأوامر واجتناب النواهي، بقدر الوسع والإمكان. كل ذلك مع بذل الجهد في إخلاص النية، وتطهير الطوية، والصدق في معاملة الحق والخلق، والتخلي عن كل مذموم، والتحلي بكل محمود، وعدم الأمن من مكر الله.

والطريقة التيجانية هي أسهل الطرق على الإطلاق، وهي طريقة شكر، جارية على طريقة السلف الصالح من الصدر الأول القائمة على الشكر والفرح بالمنعم سبحانه وتعالى، وعلى الرياضة القلبية. فطريقة الشكر التي كان عليها قلوب

الأصفياء من الصحابة وغيرهم هي عبادة الله تعالى بإخلاص العبودية والبراءة من جميع الحظوظ، مع الاعتراف بالعجز والتقصير في توفية الربوبية حقها، وسكون ذلك في القلب على الدوام.

فسير طريقة الشكر هو سير القلوب، بالنظر في أحوال القلب وما يصلحه وما يفسده، على سنن الاعتدال والتقيد بالشرعية المطهرة والسنة الشريفة وآدابها، من غير إفراط ولا تفريط.

روى البخاري عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبَهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

فضائل أركانها الثلاثة:

١ - فضل الاستغفار:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت علياً يقول: إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني به، وإذا حدثني رجل من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإنه حدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيطهر ثم يصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له» ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. أخرجه أحمد والأربعة وصححه ابن حبان.

٢ - فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالصيغة التالية:

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله وصحبه حق قدره ومقداره العظيم.

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وعن أبي طلحة الأنصاري

رضي الله عنه قال: أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا طيب النفس، يُرى في وجهه البشر، قالوا: يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يُرى في وجهك البشر، قال: «أجل، أتاني آتٍ من ربي عز وجل فقال: من صلى عليك من أمتك صلاةً كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ورد عليه مثلها» رواه أحمد في «مسنده» والترمذي، والملّك هو جبريل كما في رواية النسائي والطبراني.

٣- فضل الهيئلة (لا إله إلا الله):

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله؛ من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله: «لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه أو نفسه» رواه البخاري.

إمام الطريقة التيجانية

أبو العباس أحمد التيجاني: هو أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد سالم التيجاني، جزائري متصوف.

وهو مؤسس الطريقة التيجانية الصوفية والزاوية التيجانية، وما زال مقامه وزاويته يزاران بعين ماضي إلى يومنا هذا. قضى حياته في كل من: الجزائر، وموريتانية، والسودان، والحجاز، وتونس، ومصر والمغرب، إلى أن توفي في المغرب سنة (١٨١٥م) بعد أن هاجر إليها بسبب استيائه من الحكم التركي في الجزائر.

ولادته ونشأته وتحصيله:

ولد أحمد بن محمد التيجاني عام ١١٥٠ هجرية الموافق ١٧٣٧ ميلادية بقرية عين ماضي الجزائرية بولاية الأغواط الجزائرية، مقر أسلافه.

حفظ القرآن حفظاً جيداً وهو ابن سبع سنوات من رواية الإمام ورش تلميذ الإمام نافع ابن أبي نعيم، على يد المقرئ محمد بن حمو التيجاني الماضوي الذي تتلمذ في حفظ القرآن وقراءته على شيخه عيسى بوعكاز الماضوي التيجاني. وكان رجلاً صالحاً مشهوراً بالولاية. وبعد حفظ القرآن اشتغل أحمد التيجاني بطلب العلوم الأصولية والفرعية والأدبية. واستمر في طلب العلم ببلاده حتى بلغ مرتبة أهله

للتدريس والإفتاء قبل أن يرحل رحلته الأولى إلى فاس. فأفتى ودرّس وعمره لم يتجاوز ١٦ ربيعاً.

ما لبث وهو في عين ماضي أن مال إلى الزهد والانعزال والتأمل والتعبد وقيام الليل، حتى إذا بلغ زوجه والده. وصار يدعو إلى الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فقد والديه إثر توفيهما بسبب تفشي وباء الطاعون عام ١١٦٦ في المنطقة، فخلفه سكان بلدة عين ماضي لوالده في رئاسة الزاوية رغم صغر سنه، فقد كان يبلغ آنذاك ستة عشر سنة. ومارس تدريس القرآن والسنة وعلوم إسلامية أخرى لمدة خمس سنوات.

رحلاته:

لم يكتف أحمد التيجاني بالرصيد الفقهي والصوفي الذي حصل عليه في مسقط رأسه في المغرب الأوسط، فشد الرحال إلى مدينة فاس سنة ١١٧١ هجرية الموافق ١٧٥٨ ميلادية. وفاس هي المدينة الإدريسية ذات الأهمية العلمية والرمز التاريخي. فغادر أحمد التيجاني عين ماضي في أول رحلة له إلى مدينة فاس وعمره ٢١ سنة. وخلال هذه المدة التي قضاها بها كان يحضر مجالس العلم ويحاور ويساجل كبار

علمائها، إلا أن اهتمامه الأكبر كان منصباً على الجانب الروحي أكثر من أي شيء آخر، ويظهر ذلك من نوعية الأشخاص الذين التقى بهم وشد الرحال إليهم داخل المدينة وخارجها:

التقى في مدينة وزان بالطيب بن محمد بن يملحي العلمي الوزاني القائم آنذاك بأمور الطريقة في الزاوية الوزانية خلفاً لأخيه الشيخ التهامي الوزاني. وقد كان الطيب ذائع الصيت، وأذن لأحمد في تلقين ورده، لكنه امتنع لاشتغاله بنفسه. وفي جبل الزيبب ببني وأنجل تعرف إلى محمد بن الحسن الوانجلي.

والتقى في مدينة فاس بعبد الله بن محمد العربي بن أحمد بن عبد الله مَعْن الأندلسي، أحد أعلام الأسرة العبدلاوية المعنية بمدينة فاس، وتكلم معه في عدة أمور، ودعا له ثلاثاً بأن يأخذ الله بيده.

ثم انتقل أحمد التيجاني إلى بلد الأبيض في ناحية الصحراء حيث زاوية الشيخ الشهير عبد القادر بن محمد الأبيض، فاخترها منزلاً، وانقطع فيها للعبادة والتدريس لمدة خمس سنوات من أوائل سنة ١١٨١ هجرية. وكانت تأتيه الوفود للزيارة والأخذ عنه، فكان يمتنع عن ذلك كل الامتناع، ويقول: كلنا واحد في

الانتفاع، فلا فضل لأحد على الآخر في دعوة المشيخة إلا سوء الابتداع. وقد زار خلال هذه المدة بلدة زمزم مسقط رأسه ودار آبائه وأجداده.

رحلته إلى الحج وزيارة النبي الكريم:

ومن زاوية الشيخ بالصحراء ارتحل أحمد التيجاني إلى تلمسان، مدينة الجدار، ثم غادرها عام ١١٨٦ هجرية الموافق ١٧٧٢ ميلادية، قاصداً زيارة بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

فلما وصل إلى بلاد إزوإوى؛ سمع بالشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري، فزاره وأخذ عنه الطريقة الخلوتية.

ولما وصل إلى تونس في السنة نفسها؛ لقي بعض الأولياء بها؛ منهم عبد الصمد الرحوي. ومكث أحمد التيجاني سنة بين مدينة تونس العاصمة ومدينة سوسة، فأفتى بها وأجاب عن كثير من الأسئلة، ودرس عدة علوم وكتب، وفي مقدمتها كتاب «الحكم». فذاع صيته وبلغ خبره إلى أمير البلاد، فطلب منه الإقامة بالديار التونسية للتدريس والإفادة من علومه، وأعطاه داراً وخصص له أجرة مهمة للعمل.

غير أن أحمد التيجاني لما جاءه كتاب الأمير أمسكه وسكت، وتبياً من الغد للسفر بحرًا إلى مصر.

وعندما وصل إلى مصر القاهرة بحرًا التقى بشيخها في ذلك الوقت: محمد الكردي المصري دارًا العراقي أصلاً ومنشأً.

ومن مصر توجه إلى بيت الله الحرام، وكان وصوله إلى مكة في شهر شوال عام ١٧٧٣م الموافق ١١٨٧ هجرية، فسمع بها بالشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله الهندي، الذي لم يكن له إذن بملاقة أحد، ورغم ذلك أخذ عنه أحمد التيجاني الإذن عن طريق رسول خاص.

وبعد أن أكمل شعائر الحج وزيارة قبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ توجه للقاء محمد بن عبد الكريم السمان.

العودة من المشرق إلى المغرب والرحلة الثانية إلى فاس:

ثم عاد إلى القاهرة مع ركب الحجيج، وعند وصوله ذهب لزيارة الشيخ الكردي والسلام عليه تأدبًا، فرحب به وطلب منه أن يعود لزيارته كل يوم، فامتثل لرغبته، وتطور هذا اللقاء اليومي بينهما إلى جلسات علمية ومناظرات، وذاع صيته بمصر، ووفد عليه كثير من العلماء.

ثم عاد إلى تونس، ولم يمكث بها طويلاً، فارتحل إلى تلمسان عام ١١٨٨ هجرية الموافق ١٧٧٤ ميلادية، ف قضى فيها حوالي ثلاث سنوات، وفي سنة ١١٩١ هجرية

الموافق ١٧٧٧ ميلادية عاد أحمد التيجاني ثانية من تلمسان إلى فاس، قاصداً زيارة إدريس الأزهر، والتقى في هذه الرحلة بكاتبه محمد بن المشري الحسني السباعي السائي التكري الدار. ومنذ التقائه به صار يؤم به وبأهله في الصلاة، ويقوم مقامه في كتابة الأجوبة حتى سنة ١٢٠٨ هجرية، الموافق ١٧٩٤ ميلادية، وهي السنة التي بدأ فيها أحمد التيجاني القيام بالإمامة بنفسه.

وفي مدينة وجدة وهو قافل إلى فاس التقى بعلي حرازم الفاسي لأول مرة، فتوجه معها إلى مدينة فاس.

وبعد زيارة ضريح إدريس أخبر تلميذه علي حرازم بأنه عازم على العودة إلى تلمسان، فودع تلميذه في السنة نفسها التي وصل فيها إلى فاس، وطلب منه ملازمة العهد والمحبة وصدق التوجه الله.

ومكث أحمد التيجاني في تلمسان مدة، ثم غادرها إلى قصر الشلالة وأبي سمغون، حيث ضريح الولي الذي سمي القصر باسمه، وحل أحمد التيجاني بقصر أبي سمغون سنة ١١٩٦ هجرية الموافق ١٧٨١ ميلادية، وبها أنشأ الطريقة التيجانية، وصارت فاس المركز الأول لهذه الطريقة، ومنها خرجت الدعوة لتنتشر في إفريقية عامة.

ثم انتقل من أبي سمغون في بلاد الصحراء، في السابع عشر من ربيع الأول سنة ١٢١٣ هجرية، ودخل فاس في السادس من ربيع الثاني في العام نفسه.

وبعد أن ركز أحمد التيجاني أسس الزاوية استمر في نشر الطريقة والإذن في الأوراد، فانطلقت الطريقة التيجانية لتعم المغرب الأقصى والصحراء والسودان الغربي، وقد برز أحمد التيجاني شيخاً جعل حياته للتربية الروحية والأخذ بيد السالكين، خصوصاً بعد هجرته إلى فاس للإقامة بها بصفة نهائية إلى أن لقي ربه في صباح يوم الخميس السابع عشر من شوال سنة ١٢٣٠ هجرية الموافق ١٨١٥ ميلادية، وله يومئذ ثمانون سنة رحمه الله ورضي عنه.

وقد أكرمني الله تعالى فالتقيت بشيخها في تماسين الجزائر: الشيخ الدكتور محمد عيد التماسيني، وبايعني على الخلافة في الشام، وقلدني الخرقه المباركة.

وها هي الإجازة المباركة:

إجازة بالطريقة التَّجَانِّيَّة

أُجِزَتْ بِهَا مِنْ شَيْخِهَا فِي مَنْطِقَةِ عَيْنِ مَاضِي فِي وَادِي سَوْفٍ مِنَ الْجَزَائِرِ الْمَحْرُوسَةِ فِي زَاوِيَتِهِ الْعَامِرَةِ.

- ١- الشَّيْخُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ الْعِيدُ التَّمَّاسِينِي.
- ٢- عَنْ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْبَشِيرِ التَّجَانِّي ١٤٢٠ هـ.
- ٣- عَنْ الشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنِ حَمَّةَ ت ١٣٩٨ هـ.
- ٤- عَنْ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْعِيدِ الثَّانِي ت ١٣٤٦ هـ.
- ٥- عَنْ الشَّيْخِ الْبَشِيرِ ت ١٣٣٦ هـ.
- ٦- عَنْ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ حَمَّةَ ت ١٣٣١ هـ.
- ٧- عَنْ الشَّيْخِ مَعْمَرِ ت ١٣١٠ هـ.
- ٨- عَنْ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الصَّغِيرِ ت ١٣٠٩ هـ.
- ٩- عَنْ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْعِيدِ ت ١٢٩٢ هـ.
- ١٠- عَنْ الشَّيْخِ عَلِيِّ التَّمَّاسِينِي (١١٨٠-١٢٦٠ هـ).
- ١١- عَنْ سَيِّدِي الْإِمَامِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ التَّيْجَانِي (١١٥٠-١٢٣٠ هـ) شَيْخُ الطَّرِيقَةِ وَمُؤَسِّسُهَا مِنْ أَئِمَّةِ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ.

الطريقة البريلوية

سيدها الإمام أحمد رضا خان

البريلوية: هي فرقة صوفية ماتريدية في العقيدة، وتنسب إلى مذهب الإمام أبي حنيفة في المسائل الفقهية الفرعية. ئ و

نشأت في شبه القارة الهندية في مدينة بريلي بالهند أيام الاستعمار البريطاني، وتنسب هذه الفرقة إلى الإمام أحمد رضا خان (١٢٧٢-١٣٤٠هـ).

ولد في بريلي بولاية إترابرايش، وتعلم على أبيه الشيخ تقي علي خان وغيره؛ كالشيخ الميرزا غلام قادر بيك.

زار مكة المكرمة وقرأ على بعض المشايخ فيها عام (١٢٩٥هـ).

وكان نحيلاً حاد المزاج، مصاباً بالأمراض المزمنة، دائم الشكوى من الصداع وآلام الظهر، شديد الغضب، حاد اللسان، مع فطنة وذكاء، ومن أبرز كتبه:

أنباء المصطفى

خالص الاعتقاد

دوام العيش والأمن لنا عتي المصطفى

مرجع الغيب

الملفوظات

وله ديوان شعر: «حدائق بخش».

ومن أعلام تلك المدينة:

*ديدار علي: بريلوي، ولد سنة ١٢٧٠هـ في نواب بور بولاية ألور، وتوفي في أكتوبر ١٩٣٥م، ومن مؤلفاته: «تفسير ميزان الأديان» و«علامات الوهابية».

*نعيم الدين المراد آبادي: (١٣٠٠-١٣٦٧هـ) الموافق (١٨٨٣-١٩٤٨م).

وهو صاحب المدرسة التي سماها الجامعة النعيمية، ويلقب بصدر الأفاضل، ومن كتبه: «الكلمة العليا في عقيدة علم الغيب».

*أحمد علي الأعظمي: ولد في كهوسي، وتخرج في المدرسة الحنفية بجونبور سنة ١٣٢٠هـ، وكانت وفاته سنة (١٣٦٧هـ) الموافق (١٩٤٨م)، وله كتاب «بهار شريعت».

*حشمت علي خان: ولد في لكهنؤ، وفرغ من دراسته سنة ١٣٤٠ هـ، وكان يسمي نفسه كلب أحمد رضا خان معترًا بهذه التسمية، وله كتاب «تجانب أهل السنة»، ويلقب بـ(غيط المنافقين)، وكان موته سنة ١٣٨٠ هـ.

*أحمد يارخان: (١٩٠٦-١٩٧١ م).

كان شديد التعصب للفرقة، ومن مؤلفاته: «جاء الحق وزهق الباطل»، «سلطنت مصطفى».

طقوس وعقائد دينية خاصة:

• في معظم مساجد البريلويين يقرؤون السلام مثل سائر أهل السنة في مساجدهم، ولا يقتصر السلام عندهم على الصيغة المعهودة فقط، وإنما يسلمون على رسول الله بأي صيغة سلام؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] بعد صلاة الجمعة وفي المناسبات الدينية.

• يحتفلون بميلاد النبي صلى الله عليه وسلم عيدًا (يعني: كيوم فرح، وليس مثل العيدين الفطر والأضحى).

• يؤدون حق محبة الأولياء الكرام ويعرفون لهم حقهم.

• يجيزون نداء النبي بحرف النداء (يا).

الأفكار والمعتقدات:

• يعتقد أبناء هذه الطائفة بأن الرسول لديه قدرة يتحكم بها في الكون، يقول أجد علي: "إن النبي نائب مطلق لله سبحانه وتعالى، وإن العالم كله تحت تصرفاته، فيفعل ما يشاء، يعطي ما يشاء لمن يشاء، ويأخذ ما يشاء، وليس هناك أحد مصرّفًا لحكمه في العالمين، فهو سيد الآدميين، ومن لم يجعله مالكا له حُرِم من حلاوة السنّة".

• ويعتقدون أن الأولياء من بعده صلى الله عليه وسلم لديهم قدرة على التصرف في الكون، يقول أحمد رضا خان: "يا غوث" -أي: يا عبد القادر الجيلاني- إنَّ قدرة "كن" حاصلة لمحمد من ربه، ومن محمد حاصلة لك، وكل ما يظهر منك يدل على قدرتك على التصرف، وأنتك أنت الفاعل الحقيقي وراء الحجاب".

• بالغوا في إضفاء الصفات على النبي صلى الله عليه وسلم، يقول أحمد رضا خان في كتابه «خالص الاعتقاد»: "إن الله تبارك وتعالى أعطى صاحب القرآن ومولانا محمد جميع ما في اللوح المحفوظ"^(١).

(١) «خالص الاعتقاد» (ص ٣٣).

• لديهم عقيدة اسمها (عقيدة الشهود) فالنبي صلى الله عليه وسلم في نظرهم حاضر وناظر لأفعال الخلق في كل زمان ومكان، يقول أحمد يارخان في كتابه «جاء الحق»: "المعنى الشرعي للحاضر والناظر هو أن صاحب القوة القدسية يستطيع أن يرى العالم مثل كفه من مكان وجوده، ويسمع الأصوات من قريب ومن بعيد، ويطوف حول العالم في لمحة واحدة، ويعين المضطرين، ويجب الداعين"^(١).

• يجعلون النبي نورًا من نور الله، يقول أحمد يارخان في كتابه «مواعظ نعيمية»: "إن الرسول نور من نور الله، وكل الخلائق من نوره"^(٢)، ويقول أحمد رضا خان في أشعاره: "ما قيمة هذا الطين والماء إذا لم يكن النور الإلهي حل في صورة البشر؟!".

• يحثون أتباعهم على الاستغاثة بالأنبياء والأولياء، ومن يستنكر عليهم ذلك يرمونه بالإلحاد، يقول أمجد علي في كتابه «بهار شريعت»: "إن المنكرين للاستمداد بالأنبياء والأولياء وبقبورهم ملحدون"^(٣).

(١) «جاء الحق» (١/ ١٦٠).

(٢) «مواعظ نعيمية» (ص ١٤).

(٣) «بهار شريعت» (١/ ١٢٢).

• يشيدون القبور ويعمرونها ويحصبونها وينثرون فيها الشموع والقناديل، وينذرون لها النذور، ويتبركون بها، ويقىمون الاحتفالات لأجلها، ويضعون عليها الزهور والورود والأردية والستائر؛ تبركاً بها.

• يقدسون شخصية الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني، ويعظمون باقي الأولياء من أئمة المتصوفة، وينسبون إليهم أفعالاً خارقة للعادات؛ وهي الكرامات.

• يقولون بالإسقاط؛ وهي صدقة تدفع عن الميت بمقدار ما ترك من الصلاة والصيام وغيرهما، ومقدار الصدقة عن كل صلاة أو صيام تركه الميت هو مقدار صدقة الفطر المعروفة، وقد يعمدون إلى حيلة عند الحنفية في ذلك، فيوزعون مقداراً يغطي سنة واحدة ثم يستردون ذلك هبةً ثم يعيدون توزيعه، ويكررون ذلك بعدد السنين التي تركت فيها تلك الفريضة.

• أعظم أعيادهم هو ذكرى المولد النبوي الشريف، فهم ينفقون فيه الأموال الطائلة، وهو يوم مقدس مشهور لديهم، ينشدون فيه الأناشيد التي تمجد الرسول الكريم، ويقرؤون فيه كتاب «سرور القلوب في ذكر المولد المحبوب» الذي ألفه أحمد رضا خان.

• الأعراس: وهي تعني زيارة القبور والاجتماع عليها؛ مثل: عرس الشيخ الشاه وارث في بلدة ديوه، وعرس الخواجة معين الدين جشتي، يجتمع له الملايين ويختلط فيه الرجال بالنساء.

• من يترك الصوم والصلاة يجد له خلاصًا، أما الطامة الكبرى والمصيبة العظمى في نظرهم؛ فإنما تقع على من يتخلف عن الاحتفال بالمولد أو الفاتحة أو العرس!!

• يكفرون المسلمين من غير البريلويين لأدنى سبب، ولم يتركوا تجمعًا إسلاميًا ولا شخصية إسلامية من وصف الكفر، وقد شمل تكفيرهم الديوبنديين وزعماء التعليم والإصلاح، وشمل أيضًا الشيخ إسماعيل الدهلوي وهو من علماء الهند ومن حاربوا البدع والخرافات، ومحمد إقبال وعددًا من الوزراء.

وهم يكفرون ابن تيمية وينعتونه بأنه مختل وفاسد العقل، ويدرجون معه تلميذه ابن القيم، ويكرهون محمد بن عبد الوهاب ويرمونه بأشنع الألفاظ وأسوئها.

• يمتازون بتقبيل الإبهامين عند الأذان ومسح العينين بهما، ويعد ذلك من الأمور الأساسية عندهم، وأن من يفعله لا يرمد أبدًا، انظر مؤلفهم: «منير العينين في تقبيل الإبهامين».

الجذور الفكرية والعقدية

تصنف هذه الفرقة من حيث الأصل ضمن جماعة أهل السنة الملتزمين المذهب الحنفي والعقيدة الماتريدية، وثبت أن مؤسس الفرقة الإمام أحمد رضا خان حنفي المذهب سني العقيدة، بخلاف من ادّعى غير ذلك.

وبسبب عيشه ضمن القارة الهندية ذات الديانات المتعددة حارب الأفكار الهندوسية والبوذية.

واتهم بالتشيع لأنهم أضفى على النبي وعلى الأولياء صفات تماثل تلك الصفات التي يضيفها الشيعة على أئمتهم المعصومين في نظرهم.

انتقادات

ظهرت بعض الانتقادات لهذه الطائفة من معارضيهم وأكثرها باطلة؛ منهم: إحسان إلهي ظهير: كتب كتاباً مفصلاً عن فرقة البريلوية اسمه "البريلوية: عقائد وتاريخ" لا أساس له من الصحة.

انظر هوامش شخصيات:

أحمد رضا خان المجدد

إنصاف الإمام

حامد رضا خان

ومن أحفاده مفتي الهند وقاضي قضااتها:

العلامة محمد أختر رضا خان، ولد سنة ١٣١١ هـ، تخرج في جامعة الأزهر سنة

١٩٦٦، يتحدث العربية بطلاقة، وهو حنفي ماتريدي قادري بريلوي، يقوم بترجمة

مؤلفات جده إلى العربية.

له ديوان شعر وقصائد وكتب في نقد الوهابية وتبيان حقيقة الطريقة البريلوية.

وله تأليف عدة في العقيدة والفقه.

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

الله ربُّ مُحَمَّد صَلَّى عليه وسلَّم وعلى ذويه وآله أبدَ الدُّهور وكرَّمَا

سند الإجازة

نحمده ونصلي على رسوله الكريم، الحمد لله العليّ الأعلى وكفى، والصلاة
الأبهى، والسلام الأسنى، الأوفى الأوفى، على عباده الذين اصطفى، خصوصاً على
حبيبه سيّدنا مُحَمَّد المصطفى، نبيه المجتبى، رسوله المرتضى، وعلى آله ومحبيه أولي
الصدق والصفاء، لا سيّما الأربعة الخلفاء، وعلى جميع التابعين وجميع أئمة الدين،
والأولياء العرفاء، لا سيّما الإمام الأعظم، والهمام الأفخم، أبي حنيفة كاشف الغمّة،
إمام أئمة الشريعة الغرّاء، والغوث الأعظم، الغياث الأكرم، سيّدنا أبي مُحَمَّد محيي
الدين والملة البيضاء، سيّدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني رضوان الله تعالى عليه، وعلى
جميع الصلحاء، أهالي الوفاء، ثمّ علينا إلى يوم الجزاء.

أما بعد: فقد التمس منّي عزيزي المولوي الدكتور عبد العزيز الخطيب الحسني
إجازة السلسلة العلية العالية، القادرية البركاتية، الرضوية المباركة، وإجازة الأوفاق،
والأعمال والأذكار والأشغال، فأجزته على بركة الله تعالى ذي الجلال، ثمّ على بركة
رسوله الأعلى، صاحب الجمال جلّ جلاله، وعم نواله، عليه الصلاة والتحية والثناء،

كما أجازني شيخني وسندي وكنزي وذخري ليومي وغدي جدّي المفتي الأعظم،
مولانا مصطفى رضا القادري، قُدّس سرّه وأجازه حضرة نور العارفين، قدوة
الواصلين، خاتم الكبراء، مولانا الشاه أبو الحسين أحمد نوري ميان صاحب وشيخ
الإسلام والمسلمين، رأس المحققين، مجدّد الملة والدين، إمام أهل السنة، قانع الفتنة،
سيّد وسندي الشيخ مولانا الشاه أعلى حضرت إمام أحمد رضا رضي الله تعالى
عنهما، وأمطر شآبيب الرحمة والرضوان عليهما، وأوصيه بحماية السنن السنيّة، ونكاية
الفتن الدنيّة، واكتساب الحسنات، واجتناب البدعات الغير المرضيّة، بارك الله لنا
وله، وحقّق أملي وأمله، وأصلح لي عملي وعمله، آمين آمين، برحمتك يا أرحم
الراحمين، قال بفمه، وأمر برقمه العلامة محمّد اختر رضا خان القادري الأزهري.

الرابع والعشرون من شهر شعبان ١٤٢٩هـ

أستاذة عالية قادريّة بركاتيّة رضوية سَوَدَا كَران بَريلي شريف

اللَّهُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِ وَسَلَامًا

وَعَلَى ذَوِيهِ وَالْأَبْكَاءُ الدُّهُورُ وَكَرَّمَا

سَنَدُ الْإِجَارَةِ

نَحْمَدُهُ وَنُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ الْحُرِّ نَبِيِّ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى وَكَفَى وَالصَّلَاةُ الْأَهْلَى
وَالسَّلَامُ الْأَسْمَى الْأَوْفَى الْأَوْفَى عَلَى عِبَادَةِ الَّذِينَ أَصْطَفَى خُصُوصًا عَلَى حَبِيبِهِ سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ الْمُحْطَفِ نَبِيِّهِ الْمَجْتَبَى رَسُولِهِ الْمَرْضَى وَعَلَى آلِهِ وَحَبِيْبِهِ أُولَى الصَّدَقِ وَالصَّفَا الْأَسْمَى
الْأَرْبَعَةِ الْخُلَفَاءِ وَعَلَى جَمِيعِ التَّابِعِينَ وَجَمِيعِ أُمَّةِ الَّذِينَ وَالْأُولِيَاءِ الْعَرَفَاءِ لَا سِيَّمَا الْأَهْلَامَ
الْأَعْظَمَ وَالْأَهْلَامَ الْأَفِيحَ وَأَبَى حَتِيفَةَ كَاشِفَةَ الْخَبَةِ أَمَامَ أُمَّةِ الشَّرِيعَةِ الْغُرَاءِ
وَالْعَوْتَ الْأَعْظَمَ الْعِيَاثَ الْأَكْرَمَ سَيِّدَنَا إِبْنِ مُحَمَّدٍ الذِّبْنَ وَالْمِلَّةَ الْبَيْضَاءِ سَيِّدَنَا الْبَيْتَ
عَبْدَ الْعَادِلِ الْخِلَافِي رَضَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ الصُّلَحَاءِ أَهْلِ الْوَقَاءِ نَحْمَدُهُمْ
إِلَى يَوْمِ الْخَزَاءِ أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ قَبِلْتُ مِنَ الْمُؤَلَّى الْمُؤَلَّى الْمُؤَلَّى الْمُؤَلَّى الْمُؤَلَّى الْمُؤَلَّى الْمُؤَلَّى الْمُؤَلَّى
إِجَارَةَ السَّلْسَلَةِ الْعَالِيَةِ الْقَادِرَةِ الْبَرَكَاتِيَةِ الرِّضْوِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ وَإِجَارَةَ الْأَوْفَاءِ
وَالْأَعْمَالِ وَالْإِكْرَارِ وَالْإِسْعَالَ فَاجْزَيْهِ عَلَى بَرَكَاتِهِ اللَّهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ الْحَلَالِ ثُمَّ عَلَى بَرَكَاتِهِ رَسُولِهِ
الْأَعْلَى حَبِيبِ الْعَالَمِ كُلِّ جَلَالَةٍ وَعَمَّ نَوَالَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالْعَرَّةُ وَالنَّاءُ كَمَا أَجَازَنِي شَيْخِي
وَسَيِّدِي وَكَرَمِي وَدَخَرِي لِيَوْمِي وَعَدِي جَدِّي الْمُعْتَمِدُ الْأَعْظَمُ مَوْلَانَا الْمُصْطَفَى رَضِيَ الْقَادِرُ
قُدْسٌ سَيِّدٌ وَإِجَارَةُ خِصْرَةِ نَوَالِ الْعَارِفِينَ قُدْوَةُ الْوَاضِلِينَ نَحْمَدُ الْكِبَرَاءَ مَوْلَانَا الشَّاهَ
أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدَ نَوْدِي مَيَّانَ حَقِّهَا وَشَيْخَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ رَأْسَ الْحَقِيقِينَ مُحَمَّدَ الْمَلِكِ الْمَلِكِ
أَمَامَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأَمَامَ الْفَتَنَةِ سَيِّدِي وَسَيِّدِي الشَّيْخَ مَوْلَانَا الشَّاهَ أَجَلِي خِصْرَةَ أَمَامَ أَحْمَدَ رَضِيَ
اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا وَأَمَامَ شَيْخَيْهِمَا الرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَى عَالِيَهُمَا وَأَوْصِيَهُمَا نِيَّامَةَ السُّكَنِ السُّلُوبَةِ وَنِيَّامَةَ
الْيَقِينِ الدِّينِيَّةِ وَكَتَابَاتِ الْحُسْنَى وَالْجَدِّابِ الْبَدْعَةِ الْغَيْرِ الْمَرْضِيَّةِ إِنَّ اللَّهَ لَنَا وَلَهُ وَحَقُّ الْوَلِيِّ
أَمَلُهُ وَأَصْلَحُ لِي عَلَى عَمَلِهِ أَمِينٌ أَمِينٌ بِرَحْمَتِكَ يَا رَحِمَ الرَّاحِمِينَ قَالَ بِقَمَّةٍ وَأَمْرٍ وَقَمَّةٍ

السلامة محمد اختر صاحب خانة الأورب المأذون
الرابع والعشرون من شهر سبتمبر سنة ١٢٩٥

آشانه عالياه قادريه بركاته رضويه، سوادان برتولي شريف

رسالة في مشروعية الذكر بالرقص
وإجماع الطرق الصوفية على ذلك

تأليف

الإمام الحافظ عبد الحي بن عبد الكبير الكتّاني

المتوفى ١٣٨٢ هـ

تقديم ومراجعة

الشريف محمد حمزة بن علي الكتّاني

تحقيق

عدنان بن عبد الله زهار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رِسَالَةٌ

فِي مَشْرُوعِيَّةِ الذِّكْرِ بِالرَّقْصِ

وَأَجْمَاعِ الطُّرُقِ الصُّوفِيَّةِ عَلَى ذَلِكَ

بسم الله الرحمن الرحيم

تذييل تأليف الرقص، وهو لأعجوبة الدهر، وغرة العصر، علم الأعلام،
الفارس المقدام، المشارك في العلوم السنية، والمعارف الوهية، الحافظ الحجة،
الواضح المحجة، الشريف الأجل، والشيخ الأكمل، سيدي عبد الحي الكتاني، نجل
المؤلف رضي الله عنهما. فقال:

الحمد لله؛ إن الاجتماع للذكر بصوت واحد على صيغ مختلفة، على طريق مزج
الإنشاد بالجلالة، ثم الذكر من قيام، مع الاهتزاز والتمايل، بل والرقص المعلوم على
الطريق المألوفة بين أتقياء الصوفية وأهل السنة والدين منهم؛ قد أجمع على إباحته
واستحسانه، بل واستحبابه: أئمة الطرائق، أهل الشرائع والحقائق، على اختلاف
المشارب والأذواق.

بحيث لا توجد طريقة من الطرق الموجودة في المغرب؛ مما فرغ عن طريقة الشيخ
أبي الحسن الشاذلي، التي هي في الطرق كشرعية سيدنا إبراهيم في الملل، لم تبين أمرها
عليه، ولم تتخذ شعارها وعلامتها، بل وغير الطرق المتفرعة عن الشاذلي في المغرب؛
كالخلوتية وفروعها، إلا ما يفهمه بعض الناس من حذف ذلك في الطريقة الناصرية

والمختارية القادرية. مع أن أئمة الناصرية والمختارية على إباحة ذلك واستحسانه أيضاً.

(استحسان أئمة الطريقة الناصرية للحضرة):

فأما الناصرية^(١)؛ فناهيك بما جاء عن شيخ إمامها أبي عبد الله ابن ناصر، وهو:
الإمام، شيخ الإسلام سراج المريدين؛ أبو عبد الله محمد بن سعيد المرغيتي
السوسي: ففي "الدرر المرصعة في صلحاء درعة"، للعلامة المؤرخ أبي عبد الله محمد
المكي بن موسى بن محمد بن محمد بن ناصر الدرعي، في ترجمة الإمام المذكور ما

(١) الطريقة الناصرية، ويتزعمها مؤسسها الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن الحسين بن ناصر المتوفى
سنة 1085 هـ، -انظر ترجمته في "موسوعة أعلام المغرب" 4/ 1583-1588 الفقيه المصلح الذي
يؤثر عنه أنه يلتزم السنة، وهي الطريقة الأولى التي قيل: إنها تأسست على مبادئ السنوسية
المشهورة. وله بعض المؤلفات: منها "الفتاوى الناصرية". وفي عهده وعهد خلفائه (أبنائه) ازدهر
الوعظ وانتشرت المدارس في القبائل بكثرة، وكان رؤساء القبائل يطلبون منه الفقهاء والأئمة
لمدارسهم، ويخرج الطلبة جماعات من المدرسة الناصرية، في كل موسم (صيف) لغرضين: جمع
الأعشار والمحاصيل لتمويل المدرسة، وفي نفس الوقت القيام بالتوعية والوعظ بين الناس. وتقع
هذه المدرسة بإقليم زاكورة المتاخم لإقليم ورزازات في الجنوب الشرقي من المغرب، وقد انتفعت
هذه النواحي كلها بالمتخرجين في هذه المدرسة.

نصه: "وعن الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن ناصر؛ أن صاحب الترجمة كانت تعجبه الحضرة ويدخلها ولا ينفك عنها، حتى إنه كان ذات يوم في أشد المرض، فلما سمع الحضرة؛ خرج إليها ودخلها، ولما خرج منها؛ رجع لمرضه".

بعد أن ذكر صاحب "الدرر المرصعة" أثره أن الشيخ أبا عبد الله ابن ناصر ذم الحضرة لمن سأله عنها قال ما نصه: "ثم إن الفقراء اشتغلوا بها في بعض الأيام، فجاء السائل إلى الشيخ، وقال له: ما هذا يا سيدي؟. فقال له [82]: هذه الحضرة التي يعملوها^(١) عندنا، لم يحضرها شيء من المناكر. وإذا رأيت رجلاً صالحاً، واقفاً على حدود الله، وعلى طريق مستقيم أمرهم بها أو سكت عنهم؛ فسلم له، واعتقد بأن مراده فيها: أن تلهيهم عن ذكر الناس بالغيبة أو النسيمة، وجميع أفعالهم المذمومة". اهـ كلام "الدرر" باقتصار على محل الحاجة.

(١) هكذا في النسخة المعتمدة.

على أن مراده بالحضرة: ما لا يخلو عن^(١) لعب، لا الذكر المجرد؛ كحلق أرباب الزوايا اليوم، وإلا؛ ما جعلها كذلك فقط؛ لأن الذكر في نفسه عبادة مقصودة، بل أعظم العبادات. وقد أشعر بمقصوده كلام صاحب "المزايا".

وقد وقع في كلام مفخرة الطريقة الناصرية، فرد أعلام المغرب؛ أبي علي اليوسي ما نص سياقه من "المحاضرات"^(٢) بعد إنشاده:

فنحن إذا طبنا وطابت نفوسنا وخامرنا خمر الغرام؛ تهتكنا
فلا تلم السكران في حال سُكره فقد رُفِعَ التكليفُ في سُكرنا عنا

"غير أن هذه الغلبة لا يتحققها الجهال ولا ينظرونها. نعم؛ استدعاء حال يُرجى عنه رقة القلب وانسراح الصدر، وذهابُ جسارة النفس ورعونتها مع صحة القصد؛ لا ينبغي أن ينكر، بل يلتحق بما أذن فيه شرعاً". اهـ كلامه.

فهل بعد هذا بقي أن يُفتأت على الطريقة الناصرية اشتراطُ الغلبة في الوجد، أو نفي استدعاء التواجد والحال، أو إنكار عقد حلقة الذكر على الطريق المعروفة؟!.

(١) كذا في النسخة المعتمدة.

(٢) ص 112.

(استحسان شيوخ الطريقة المختارية القادرية للحضرة):

وأما الطريقة المختارية القادرية؛ فقال إمامها، عالم الصحراء ونادرتها: الشيخ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي الوافي^(١) في كتابه: "الأجوبة المهمة لمن له بأمر دينه مهمة"، وفي كتابه: "نزهة الأسماع بأنواع السماع"، بعد ذكره أن كثيرًا من المتعمقين والمتقشفين قد كرهوه وأنكروه، ما نصه: "وهذا كله غلط منهم؛ لأن ما ذهبوا إليه يُفضي إلى تخطئة كثير من أولياء الله، وتفسيق كثير من العلماء العاملين؛ إذ لا خلاف أنهم سمعوا الغناء وتواجدوا، حتى أفضى بهم ذلك إلى الصراخ والغشي والصعق..."

(١) الشيخ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي ثم الوافي الفهري -من ذرية الفاتح العربي عقبة بن نافع-، ولد بالمبروك شمال مالي سنة 1141 هـ له رحلة طويلة في طلب العلم صار بعدها عالمًا كبيرًا في علوم الظاهر والباطن، بنى زاوية "قصر الحلة"، بلغت مؤلفاته أكثر من ثلاث مئة كتاب ورسالة، توفي رحمه الله سنة 1226 هـ، ترجمته في كتاب "الطرائف والتلائد" لولده سيدي محمد بن المختار رحمه الله.

ثم قال بعد كلام: "واعلم أنه قد حضر السماع، وسمع وما قنع حتى كُشف القناع، وتواجد وتحرك كثيرٌ من الأكابر ومشايخ التابعين". اهـ كلامه الذي أطل فيه وأطاب، وملأ الوطاب.

فعلى هذا؛ قد تم انعقاد الإجماع، ولا يخفى أنه قلّ عالم في المغرب إلا وهو متقلد [83] عهد طريق من هذه الطرق، ولا طريقة إلا واشتملت على عدة من علماء الدين وأئمة المهتدين، وكلهم كانوا يحضرون حلق الذكر للرقص والاهتزاز عند مشايخهم، فصار إجماعٌ تلو إجماع.

(أئمة المغرب كانوا يستحسنون الحضرة ويعملونها):

وقد احتج أبو العباس ابن عجيبة على جواز الرقص بكونه: كان يُفعل بالزاوية الصقلية بفاس. وإنه كذلك؛ إذ كان محل اجتماع فقراء الطريقة الخلوتية الصقلية على عهد مؤسسها الأكبر الشيخ أبي العباس مولانا أحمد بن محمد الصقلي القطب الشهير، معهدًا من معاهد الخير، يأوي إليه النوابع والفحول.

ولما ترجمه صاحب "سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية"، قال ما نصه: "وكان لمولانا أحمد أتباعٌ كثيرة من الأشراف والعلماء وعامة الناس، يقلون معه، ويبيتون ويحضرون مجالسه للذكر ولغيره..."

ثم سمي جماعة هو وغيره؛ فمنهم: شيخ الجماعة أبو عبد الله محمد التاودي ابن سودة، والفقيه الصالح الحاج بوشعيب المطيري، وعالم فاس أبو عبد الله محمد بن الحسن بناني المحشي، وعالم فاس -أيضاً- أبو حفص الفاسي، والعلامة المفتي أبو محمد عبد الكريم بن علي اليازغي الفاسي، والعلامة الصالح أبو عبد الله الجنوي، والولي الصالح أبو العباس أحمد بن يونس صاحب القبة خارج باب الفتوح، والأستاذ العارف أبو محمد عبد الوهاب التازي صاحب القبة -أيضاً- هناك، وشيخ الفرد أبي العباس أحمد بن إدريس العرائشي دفين اليمن، صاحب الطريق الإدريسية... وغيرهم من فحول ذلك العصر.

وناهيك بالأعلام الذين كانوا متمسكين بالطريقة الدرقاوية بالشرق والمغرب؛ كشيخ المشايخ محدث فاس أبي محمد عبد القادر الكوهن صاحب "الفهرسة"، وتلميذه عالمي عصرهما الأخوين أبي حفص عمر وأبي عيسى المهدي ابن الطالب ابن سودة، وشيخهما -أيضاً- الإمام مفتي المذهبين أبي عبد الله محمد الحراق دفين تطوان، وغيرهم من الأئمة الذين لا يحصيهم ديوان.

ومن اللطائف: ما كان مجيزنا محدث فقهاء المغرب أبو محمد الفضيل بن الفاطمي الإدريسي الزرهوني شارح البخاري يقول: "إن ذكروا الفقيه جَنُون من منكري

الرقص؛ حاججناهم بأن شيخ الجماعة أبا العباس أحمد بناني الفاسي رأيتُه بعيني يرتب صفوف الراقصين بالزاوية التجانية بفاس".

(أئمة المشرق كانوا يستحسنون الحضرة ويعملونها):

وأما علماء المشرق؛ فأهل مصر كلهم أو جلهم خَلَوْتِيَّة [84] أو شاذلية، يجتمعون على الذكر، ويهتزون اهتزازًا بالغًا ويرقصون، حضرت معهم وشاهدت ذلك منهم ومن غيرهم من علماء تلك الجهات بمصر وغيرها. حتى في جبل عرفة، وعشية موقفها الذي يُتقرب فيه إلى الله بأشرف الطاعات.

(جواب شيخ الإسلام أحمد زيني دحلان في النازلة):

وقد ظفرت بسؤال قدم لعالم الحجاز وشيخ الإسلام بمكة شرفها الله؛ أبي العباس أحمد بن زيني دحلان^(١) الشافعي المذهب، الباعلوي الطريقة، يتضمن

(١) هو أحمد بن زين بن أحمد دحلان المكي، الشافعي. فقيه، مؤرخ، شارك في أنواع من العلوم، مفتي السادة الشافعية بمكة المعظمة، وشيخ الإسلام. ولد بمكة سنة 1231 هـ وتوفي بالمدينة في المحرم سنة 1304 هـ. وله مؤلفات كثيرة مطبوعة متداولة منها: "الأزهار الزينية في شرح متن الألفية"، و"تاريخ الدول الإسلامية بالجدول المرضية"، و"فتح الجواد المنان على العقيدة المسماة بفيض الرحمن"، و"الدرر السنية في الرد على الوهابية"، و"نهل العطشان على فتح الرحمن"، في تجويد

استكشافه عن قول الأئمة الأربعة وفقهاء مذاهبهم في شيخ من شيوخ الطريقة النقشبندية ألف رسالة ونشرها اشتملت على مصائب من جملتها: إطالة لسانه في أهل الطرق، وكفر كل من حصل له جذب وتواجد، وتمايل وصيحة. ونقل عن الطرطوشي أن: أول من أحدث الرقص أصحاب السامري... إلخ ما فاه به. فهل يسوغ نشر الرسالة المذكورة؟.

فكان من جوابه:

"أما مسألة التواجد، المسمى بالرقص، الذي يفعله كثير من الصوفية حالة الذكر؛ فهي مسألة اختلف فيها العلماء؛ فمنهم من حرم ذلك أشد التحريم، ومنهم من حكم بكفر فاعله..".

"لكن جماهير العلماء المحققين جوزوا ذلك، بشرط ألا يكون بالتكبر والتشني الذي يفعله أهل الفسق. وسأذكر لك شيئاً من نصوص العلماء القائلة بالجواز؛"

القرآن، و"خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام"، و"الفتوحات الإسلامية"، و"فتنة الوهابية" إلى غير ذلك.

فمنهم: العلامة الرملي الحنفي خير الدين كما في "فتاويه". واستدل بحديث جعفر وقصة الحبشة، ثم قال العلامة الرملي: ولا يجوز الاعتراض على السادات الصوفية ولا الإنكار عليهم، وقد ورد: "من كفر مسلماً فقد كفر". ومن حرم الحلال وقع فيه واستوجب العقوبة والنكال. ونُقل عن العز بن عبد السلام الجواز، وقال: سماع ما يحرك الأحوال السنية، المذكرة للآخرة؛ مندوب إليه، وحقيقة ما عليه الصوفية لا ينكرها إلا كل نفس جاهلة غبية".

"سئل العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي عن هذه المسألة -أيضاً- فأجاب بالجواز، وألّف في ذلك رسالة نفيسة".

"ونُقل الجواز عن كثير من علماء المذاهب؛ منهم: الحافظ ابن حجر العسقلاني، وذكر أن رقص الحبشة بالوثبة والوجد. وللعلامة نوح رسالة في جواز ذلك، وكذا العلامة ابن كمال باشا رسالة في جواز ذلك، قال فيها: لا ينكر الوجد إلا من سُلِب حلاوة الإيمان. ونظم ابن كمال باشا في ذلك بيتين [85]، وهما قوله:

ما في التواجد إن حَقَقَتْ من حرج	ولا التمايل، إن أخلَصَتْ، من باسٍ
فَقُمْتُ تسعى على رِجْلٍ، وحُقْ لمن	دعاه مولاه أن يسعى على الراس!

"وقال أيضًا: إن السادات تأمر بالتواجد تكلفًا بضرب من الاختيار، اقتفاء لتواجد جعفر بن أبي طالب بحضور النبي صلى الله عليه وسلم. ولحديث: «إن لم تبكوا فتباكوا»^(١)".

"وسئل العلامة الشيخ عبد الحي الشرنبلالي الحنفي عن ذلك فأجاب بالجواز، وقال: إن لذلك أصلًا ثابتًا في السنة من فعل سيدنا علي وجعفر وزيد بن حارثة".

"وذكر المناوي في "طبقات الأولياء" في ترجمة الإمام أحمد ابن حنبل أنه قيل له: إن قومًا إذا سمعوا الذكر يقومون فيرقصون، فقال: دعهم يفرحون بربهم؟ اهـ

فيؤخذ منه أن الإمام أحمد قائل بجواز ذلك. وغيره خلائق كثيرة من أرباب المذاهب، سئلوا فأجابوا بالجواز".

"وسئل الشيخ أبو العز الوفائي الشافعي فأجاب بالجواز، قال: إن ذلك فعله أعلام مشايخ الإسلام؛ كالعلامة المقدسي، والعلامة الشرنبلالي، وحضر مجالسهم جهابذ حفاظ".

(١) تقدم.

"وسئل الشيخ سليمان الشبرخيتي المالكي عن ذلك؛ فأجاب بالجواز... إلى أن قال: فعلى من كفرهم بلا تأويل أن يرجع إلى إسلامه، وعلى ولي الأمر أن يدفع عن هؤلاء السادة ويكف عنهم السنة الجهلة المتكلمين فيهم بغير ما يجوز في حقهم..."

ثم قال: "ويجب تحسين الظن بفاعله في مجلس الذكر، ولا يجوز أن يقال: إنهم شبهوا أنفسهم بعبدة العجل، بل يجب أن تحسن الظن بهم".

"فإذا تأملت ذلك كله؛ علمت أن إطلاق التكفير أو التحريم المخالف لنصوص جماهير العلماء لا يجوز. وإن من كفر مسلمًا بلا عذر ولا تأويل يكون كافرًا، ويجب عليه تجديد إسلامه!. وإن كان له تأويل أو عذر؛ يستتاب ويعزر التعزير اللائق به، ويزجر على ذلك وعلى تأليفه الرسالة وطبعها. فعلى ولاة الأمر أن يمنعوا ظهورها بأيدي الناس بأي طريق أمكنهم". اهـ جواب الشيخ دحلان باختصار كثير.

ثم وافقه على صحة جوابه المذكور: جميعٌ من يشار إليه برئاسة العلم بمكة؛ منهم: مفتي الحنابلة الشيخ خلف ابن إبراهيم، وشيخ الخطباء بمكة السيد حسن جمال الليل الباعلوي [86]، ومفتي المالكية الشيخ محمد بن حسين، وشيخ الإسلام بمكة أيضًا مجيزنا الشيخ محمد سعيد بابصيل، ومفتي الحنفية بمكة الشيخ عباس بن جعفر ابن صديق، والمدرس بالمسجد الحرام علي بن صديق كمال، وبقية المدرسين بالمسجد

الحرام؛ وهم: الشيخ صالح بن صديق كمال، والشيخ عبد القادر بن عبد الله شمس الدين، والشيخ أحمد أمين بيت المال، والشيخ محمد بن عبد النبي فردوس، والشيخ محمد بن محمد صالح خليفة، والشيخ حسن عرب، والسيد سلطان الداغستاني الشافعي، والشيخ خليل بن آدم النجشي، والسيد أحمد بن يحيى فيره، والسيد محمد حقي الحنفي... وغيرهم من أعلام مكة.

فحين قرَّ رأيُ العلماء الذين ذُكروا وغيرهم، على محو أثر الرسالة المسؤول عنها من الوجود، حيث إنها أوجبت إلقاء الفتن بين المسلمين؛ صدر الأمر من طرف حكومة مكة بجمع النسخ من أيدي الناس وتمزيقها، وسجن مؤلفها؛ وهو: الشيخ سليمان الخالدي شيخ الطريقة النقشبندية، حتى أصدر التوبة والإفلاع، والفتوى مع ما ذكر في اثنتي عشرة صحيفة طبعت بمكة عام 1301 هـ. فهذا إجماع تلو إجماع بعد إجماع!.

فاستفيد مما انعقد عليه إجماع علماء مكة فيما نُقل: أن الإنكار على الراقصين بغير تبين لا يجوز، وأن المشتغل بهم وبمساوئهم يُزجر ويؤدب، وأن جماعة من أئمة العالم ألفوا في نحو ذلك والاحتجاج له ولو بغير غلبة.

ولذلك؛ مع ما قرره شيخنا بركة الوقت، الممدوح بكل لسان، بقية البقية في هذا العصر ممن تُرجى بركته وتغبَط مجالسته، العالم بالسنة والదال عليها، القائم ببث الشرائع والدعاية إليها، سليل الأكابر، والدنا وولي نعمتنا: الشيخ أبو المكارم عبد الكبير الكتاني الحسني الإدريسي أبا، الحسيني الصقلي أمّا، في كتابه الذي ظهر الآن في عالم المطبوعات، حجة للذاكرين والذاكرات، ونصرة لطرق أهل الله على اختلاف المشارب والأذواق في كل الآفاق، فناهيك به من كتاب اتضح به الحق، ولم يبق عليه غبار، وارتفع علمه حتى في ظلام الليل ولضلال الأغمار.

(رؤيا نبوية للإمام أبي المكارم الكتاني في الموضوع):

ومما يناسب هنا أن يُذكر ويُشهر: ما حدثنا به الأستاذ الوالد -رضي الله عنه- المرة بعد المرة، عند تعرضه [87] لقول الإمام الجنيد -رضي الله عنه- لما سُئل عن السماع، فقال: "كل ما جمع القلب على الله فهو مباح جائز". أنه -أي: الشيخ الوالد- رأى النبي صَلَّى الله عليه وسلّم نومًا، قال الوالد: "فألهمني الله وشرح صدري لسؤاله صَلَّى الله عليه وسلّم عن هذه المسألة، فقلت: يا رسول الله؛ ما تقول في السماع

والرقص؟. فأجابني صلى الله عليه وسلم بقوله مراراً: الطُّرُق كلها مبنية على شيء واحد؛ وهو طمأنينة القلب بالله تعالى!. هذا لفظه صلى الله عليه وسلم ففهمت من الرؤيا: أن السماع والرقص إنما هما وسيلة للطمأنينة. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. اهـ

(حال الرقص في هذا الزمان):

إلا أن مما يجب ألا يخفى، وينبغي أن يُعترف به: أنه ليس كل رقص في هذا العصر مما تشمله هذه الدلائل المشهودة، بل رقصٌ صحبهُ شرطه من زمان ومكان وإخوان.. أما ما يتعاطاه كثير من الناس؛ فحالة يؤسف عليها، ويستحى منها، فهي مما ليس الكلام فيه ولا نراه خيراً.

وبالجملة: فمن حرم الرقص والسماع على الناس كافة؛ فقد أخطأ، ومن أباحه أو استحبه في كل الأحوال؛ فما ترك من الجهل شيئاً، ومن جعل الناس سواء، فليس لحمقه دواء.

(لا ينتقض الوضوء بالغيبة في الذكر، وجواب الإمام أبي الفيض في ذلك):

بقي أن يورد هنا ما تعجرف به بعض من باع دينه وأمته بدنياه فخسر الثلاثة،
قائلًا: "إن كانوا يرقصون بغيبة؛ فالغيبة تنقض الوضوء، فما لنا نراهم يصلون إثر
رقصهم، ولا يجددون وضوءاً؟. وإن كان من غير غيبة؛ فهو حرام!".

وما درى الجاهل القاصر أن اشتراط الغلبة مرجوحة، وأن الرقص جائز بدونها،
كما بسط الكلام عليه أئمة الطرائق، وفصل ذلك الشيخ الوالد في تأليفه الجامع.

ولو غابوا كلهم أو بعضهم؛ لم ينتقض وضوء واحد منهم؛ لقول الزرقاني في
شرح "المختصر"^(١): وظاهر خليل: النقض بزواله في حب الله، وهو قول التادلي.
وهو مرجوح!. والذي لابن عمر: لا وضوء عليه". اهـ وسلمه التاودي في "طالع
الأمانى" بسكوته.

ولما كتب عليه الرهوني ما نصه^(٢): "قال الخطاب: ما قاله التادلي هو
الصواب". اهـ. رده شيخ الشيوخ أبو عبد الله جنون في اختصاره بما نصه: "قلت: بل
ما لابن عمر هو الذي ارتضاه الشيخ زروق واستظهره الخطاب واقتصر عليه ابن

(١) 75 / 1.

(٢) 75 / 1.

تركي. [88] في شرحه على العشماوية. وقال الصفتي: إنه المعتمد؛ لأن من غاب عقله في حب الله؛ يقظ القلب والفؤاد، فإنه في حالة هي غاية الطهارة، بخلاف النائم؛ فإن قلبه ليس مستيقظاً. قال بعضهم: وهؤلاء قسط وحظ من قوله صَلَّى الله عليه وسلّم: "تنام عيناى ولا ينام قلبي"^(١). اهـ

وقد كان رُفِع في هذه المسألة سؤال لشقيقنا وشيخنا نادرة الدهر، أنموذج الكمال والتخصيص والاجتباء، ختم المعارف والأحوال، وجيه الدين؛ الشيخ أبي الفيض^(٢) رضي الله عنه، فأجاب بعدم النقض، مؤيداً ما للزرقاني. وقد ذكر واستظهر على ذلك بنصوص المتأخرين من أئمة المذهب؛ كالزرقاني في شرح "العزية" وجعله المذهب، والرقعي في شرح مقدمة ابن رشد، ونقله عن ابن القاسم والأمير في شرح "مجموعه"، والتتائي في شرح "الرسالة"، وأبي الحسن عليها أيضاً، والصعيدي في حواشي "الكفاية"، والسوداني على خليل، وابن عبد الصادق على "المرشد"... وغيره.

(١) رواه البخاري في "صحيحه" 3/ 1308 ح 3376 عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) يعني أخاه الإمام أبا الفيض سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني قدس سره. ولم نقف على تلك الرسالة، ولا على رسالته: "شرح نتائج حلقة الذكر"، وإلا لكان الأولى إضافتهما ملحقين هنا.

وجوابه المذكور في نحو ثلاث كراريس، بالوقوف عليه يتضح الأمر وينجلي لمريد التطويل. والسلام. قاله وكتبه محمد عبد الحي ساححه مولاه... آمين. في يوم الاثنين مهل جمادى الثانية عام 1332 هـ^(١).

(١) في نهاية هذه الطبعة قوله: "قد طبع هذا المؤلف الفريد المسمى بنجوم المهتدين، على نفقة خادم عتبة مؤلفه: عبد السلام بن عبد النبي الدُّويِّب، سقاه الله من كل نشر طيب، وذلك متم جمادى الثانية عام 1332 هـ".

فهرس المصادر

آداب النفوس

آداب سلوك المريد

أيها الولد

إحياء علوم الدين

إيضاح المقصود من وحدة الوجود

الأربعين في أصول الدين للغزالي

الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد

البرهان المؤيد

التصوف الثورة الروحية في الإسلام

التعرف على مذهب أهل التصوف

التنوير في إسقاط التدبير

الحكم العطائية

شرح وتحليل الرسالة القشيرية

الرسالة اللدنية

الشيخ عبدالقادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة
هكذا تكلم الشيخ عبدالقادر الجيلاني
الغنية لطالبي طريق الحق
الفتح الرباني والفيض الرحماني
الفتوحات المكية
القصص المجرد في معرفة الاسم المفرد
الكواكب الدرية في بيان الأصول النورانية
المستخلص في تزكية الأنفس
المكتوبات الربانية
المنارة
النور المنقذ من الضلال
النظام الخاص لأهل الاختصاص
بدء من أناب إلى الله
بداية الهداية
بستان العارفين
بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب الباز الأشهب

تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس
تاريخ الاحتفال بمولد النبي ومظاهره في العالم.
تحقيق الحق في كلمة الحق
تربيتنا الروحية
ترجمان الأشواق
توجيه النبيه لمرضاة باريه
ثورة الروح
جغرافية الباز الأشهب
جلاء خاطر من كلام الشيخ عبد القادر
الجوهرة
حالة أهل الحقيقة مع الله
حقائق عن التصوف
نفحات منبرية في الشخصيات الإسلامية لكاتب هذه الكلمات.
أعلام التصوف للفقير

فهرس الكتاب

٧	مقدمة
٩	تعريف التصوف
١٨	الطرق الصوفية
٢٢	ألقاب السادة الأكابر أقطاب التصوف
٢٥	العقيدة التي يتبنّاها الصوفية
٢٧	الشريعة والطريقة والحقيقة
٣١	موقف أهل السنة والجماعة من التصوف وأقوال أكابر علمائهم
٧٥	تاريخية التصوف
٨١	الصوفية يدافعون عن منارات الإسلام
٨٣	الصوفية يدافعون عن منارات الإسلام
٨٦	الصوفية يدافعون عن منارات الإسلام
٩٣	مراتب الولاية في الفكر الصوفي

١٠٧	مكانة الشيخ في الطرق الصوفية
١٢٤	الطريقة الشاذلية
١٢٤	سيدي أبو الحسن علي الشاذلي
١٣٤	الطريقة الشاذلية الدرقاوية الهاشمية في الشام
١٣٦	الطريقة اليسريّة
١٣٧	ورد الطريقة الشاذلية الورد العام
١٣٩	الشيخ الإمام محمد بلقايد التلمساني
١٤٥	الشيخ الإمام محمد عبد اللطيف بلقايد
١٥١	إجازة من مولانا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري
١٥٥	إجازة سيدنا الشيخ شكري اللّحفي
١٥٧	إسناد الطريقة الشاذلية الدرقاوية العليّة
١٦٠	إسناد الطريقة الشاذليّة الدرقاويّة العليّة من الطريق الهبريّة
١٦٥	الطريقة الدندراوية

١٧٠	منهاج الطريقة الدندراوية
١٧٦	التنظيم الدندراوي
١٧٨	المؤتمر العام
١٨١	الطريقة الدسوقية
١٨١	سيدي إبراهيم الدسوقي
١٩٤	إجازة في الطريقة الدسوقية
١٩٧	سلسلة رجال الطريقة
١٩٧	الإمام الحسن البصري
٢٠٤	الإمام داود الطائي رضي الله عنه
٢١٣	الإمام معروف بن فيروز الكرخي
٢٢٢	الإمام السري السقطي
٢٤٨	الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد
٢٧٠	الإمام شمس الدين التبريزي

٢٧٧	الإمام جلال الدين الرومي
٢٨٥	الطريقة المولوية
٢٩٠	سند الطريقة المولوية
٢٩٢	محمد بهاء الدين النقشبندي الأوسي
٢٩٩	الشيخ خالد النقشبندي
٣١٨	الطريقة النقشبندية
٣٢٧	أسلوب الطريقة
٣٣١	طريقة الذكر عند النقشبندية
٣٣٧	مراتب النفس عند النقشبندية
٣٤٦	(رابطه الشيخ) عند النقشبندية
٣٥٣	شيخ الطريقة النقشبندية الشيخ عيسى الكردي
٣٦٣	الشيخ محمد أمين الكردي الزمكاني
٣٦٧	الشيخ محمد عثمان سراج الدين الثاني النقشبندي

٣٦٨	الشيخ محمد أبو الخير الميداني
٣٧٦	الشيخ منير الكسم
٣٨٢	الشيخ محمد لطفي الفيومي
٣٨٥	أسانيد الطريقة النقشبندية
٣٨٦	إجازة في خلافة الطريقة النقشبندية والقادرية من الشيخ الصديقي
٣٨٨	الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي
٣٨٨	المرحلة العلمية
٤٠٣	تصوّف الإمام ابن عربي (مقالات التّصوّف)
٤٠٦	الرّحلة الأولى له في الأندلس وما حولها
٤١٦	الرّحلة الثانية من سياحة الإمام إلى مصر والحجاز والعراق
٤٣٤	إجازة في الطريقة الأكبرية
٤٣٧	الإمام أحمد الرفاعي
٤٤٣	تصوف الإمام الشيخ أحمد الرفاعي

٤٤٨	طريقة الإمام الشيخ أحمد الرفاعي
٤٥٣	سيرة الإمام الشيخ أحمد الرفاعي وأخلاقه ومؤلفاته وتلامذته
٤٧٢	إجازة في الطريقة الرفاعيّة من الشيخ عبد الحكيم عبد الباسط
٤٧٥	الطريقة القادرية
٤٧٥	مؤسس الطريقة عبد القادر الجيلاني
٤٧٧	أهم قواعد الطريقة القادرية وأسسها
٤٨٢	سند الطريقة القادرية من طريق السيد الوالد الشيخ سهيل
٤٨٣	إجازة في خلافة الطريقة النقشبندية والقادرية من الشيخ الصديقي
٤٨٥	إجازة بخلافة الطريقة القادرية من الشيخ محمود قويدر
٤٨٧	إجازة في الطريقة القادرية من الشيخ الحساني
٤٨٨	إجازة في الطريقة القادرية من الشيخ تراب الحق القادري الرضوي
٤٩١	السيد أحمد البدوي
٥١٢	إجازة في الطريقة البدوية من الحاج عبد الرحمن محمد فؤاد صادق

٥١٥	الإمام عبد الوهاب الشعрани
٥٣٢	الإمام الشيخ عبد الغني النابلسي
٥٤٥	الطريقة التيجانية
٥٥٠	إمام الطريقة التيجانية
٥٥٧	إجازة بالطريقة التَّجَانِيَّة
٥٥٩	الطريقة البريلوية
٥٦٨	إجازة في الطريقة البريلوية من العلامة محمَّد أختر رضا خان
٥٧١	رسالة في مشرُوعيَّة الذِّكر بالرَّقْص وإِجماع الطُّرُق الصُّوفيَّة عَلَى ذلك
٥٩١	فهرس المصادر
٥٩٤	فهرس الكتاب